

مدخل إلى

فلسفة الحضارة الإنسانية
أو
مقال في الإنسان

تأليف : أرنست كاسير
ترجمة : الدكتور إسماعيل عباس
مراجعة : الدكتور محمد يوسف نجم



دار الاندلس - بيروت

فلسفة الحضارة الإنسانية

نشر بالاشتراك مع
مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر
بيروت - نيويورك
١٩٦١

مدخل إلى

فلسفة الحضارة الإنسانية

أو
مقال في الإنسان

تأليف : أرنست كاسير
ترجمة : الدكتور هسان عباس
مراجعة : الدكتور محمد يوسف نجم

دار الفكر - بيروت

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت
مؤسسة فولكلين الماسحة للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من اصحاب هذا الحق

This is an authorized translation of
AN ESSAY ON MAN by Ernest Cassirer.
Copyright, 1944, by Yale University Press. Published
by Yale University Press, New Haven.

المساهمون في هذا الكتاب

المؤلف : أرنست كاسيرر :

فيلسوف درّس في جامعتي برلين وهمبرج ثم كان استاذاً للفلسفة في جامعة جوتنبرج بالسويد . وفي سنة ١٩٤٠ دعي ليحاضر بجامعة ييل ، حيث توفي سنة ١٩٤٥ ؛ كان ذا ذاكرة عجيبة واطلاع واسع في العلوم الرياضية والطبيعية والفن والتاريخ والمشكلات الفلسفية . وقد كتب كتباً عديدة منها بالانجليزية هذا الكتاب وكتاب « اسطورة الدولة » وترجم من كتبه الكثيرة الى الانجليزية كتابان آخران هما « فلسفة الاشكال الرمزية » - في ٣ مجلدات ، وكتاب « مشكلة المعرفة » .

المترجم : الدكتور احسان عباس :

الاستاذ المشارك للادب العربي في جامعة الخرطوم سابقاً وفي الجامعة الاميركية ببيروت حالياً .

المراجع : الدكتور محمد يوسف نجم :

الاستاذ المشارك للادب العربي في الجامعة الاميركية ببيروت .

مقدمة المترجم

(١)

فكرة هذا الكتاب

- ١ -

في كل وجهة اتفقت الفلسفات والأديان والعلوم على ان معرفة الانسان ذاته غاية سامية ، ثم اختلفت بعد ذلك في الطريق التي تسلكها الى تلك المعرفة ، وأصبح السؤال الذي تعددت عنه الأجوبة هو : كيف يعرف الانسان ذاته :

١ - فقالت الفلسفة المتأفريقية ، لا طريق الى ذلك إلا بالاستبطان ، أي النظر الداخلي ، واذا كان ثمة سبيل من النظر الى الوجود الخارجي فانها لا محالة سترد الانسان في النهاية الى داخل ذاته . وكانت معالم هذا الاتجاه تتمثل في سقراط ثم في الفلسفة الرواقية ، وكان العقل في هذا الاتجاه هو العامل المعتمد لحل المشكلة .

٢ - وتضائل مقام العقل في الدين المسيحي كما يتضح لدى اوغسطين وبسكال ، وأصبح السبيل الى فهم الطبيعة الانسانية هو الدين . وفي هذا

اقرار بقيمة الاستبطان ، لكن عن غير طريق العقل . وكان الانسان عند هاتين الفتين من المفكرين - المتأفزيقيين واللاهوتين - هو ذروة النظام الكوني .

٣ - وما كادت نظرية كوبرنيكس تظهر حتى أخذ الشك في مقام الانسان يسيطر على النفوس وأصبح العلم سبباً في إفقاده ثقته بنفسه ، ولكن سرعان ما استعاد الانسان تلك الثقة ، واستطاع العلماء أنفسهم ان يتغلبوا على الازمة الفكرية التي أحدثتها نظرية كوبرنيكس ، ورأوا ان الطريق الوحيد لحل مشكلة الانسان هو الرياضيات - بهذا نادى كل من جاليليو وديكارت وليبنز وسينوزا ، وأكدوا ان الانسان يستطيع في الرياضيات وبالعقل الرياضي ان يفهم النظام الكوني والاختلاقي فهماً صحيحاً .

٤ - وبعد قليل تزحزحت الرياضيات من مكانتها لتفسح المجال لعلم جديد جدير بحل المشكلة الانسانية . وكانت نظرية داروين هي المفتاح الجديد ، فقد ردت هذه النظرية الى العلل العارضة - او قل الى المصادفة - قيمتها ، وسخرت من العلل الارسطوطاليسية ، وحطمت الحدود المزعومة بين الأشكال المختلفة من الحياة العضوية . ونشأت عن ذلك مسألة جديدة ليس من السهل الاجابة عنها : هل الحياة الانسانية الحضارية خاضعة كالحياة العضوية لمجموعة من العلل العارضة ؟ ولدى تين والفلاسفة الطبيعيين كان الجواب على هذا السؤال بالايجاب .

٥ - ولكن المشكلة التي بدا حلها وشيكاً استعصت على الحل من جديد ، ودخلت فيها عوامل الأهواء الفردية ودبت القوضى في النظريات الكثيرة التي نشأت حولها ، وأصبح كل عالم في ميدانه يعتقد ان علمه هو الفرع الوحيد الذي يستطيع معالجة المشكلة ، فالسيكولوجي لا يؤمن إلا بالسيكولوجيا ، والاجتماعي لا يؤمن إلا بعلم الاجتماع وهكذا . نعم ان عصرنا قد اغتنى بتنوع مصادر المعرفة ولكنه أصبح يادي الفقر الى وحدة

تربط هذه المصادر ، وانقلب الامر الى تيه لا حدود له ، يضل فيه السالكون . واذن أضحي لزاماً على المفكر الحديث ذبي السمة الفلسفية ان يفكر في طريقة جديدة لحل المشكلة القديمة .

- ٢ -

لنعد بالبحث - إذن - الى التعريفات التي وضعها المفكرون للانسان فقد نجد في هذه البداية القبس الذي نبحث عنه :

١ - قالت الفلسفة المتأفريقية في حدّ الانسان : « الانسان حيوان ناطق » - اي عاقل - ولكن هذا التعريف - على قوته - لا يحيط بحقيقة الماهية الانسانية ، لأننا لا نستطيع أن نعد الاسطورة أو اللغة - مثلاً - بناءً عقلياً ، حتى الدين في حدود العقل الخالص لا يعدو أن يكون محض تجرييد . ثم إن هذا التعريف صدر عن أناس كانوا ينظرون إلى زاوية محددة من الانسان ولم يكونوا تجريبيين ، فتعريفهم هذا لا يمكننا من فهم الصور الحضارية المختلفة . وتعريفهم هذا يفترض « الذكاء » ميزة للانسان ولكن : ما الذكاء ؟

٢ - وقال ارسطوطاليس : « الانسان حيوان اجتماعي » ؛ وهذا التعريف ايضاً قاصر لأن « الفصل » فيه غير فارق ، فهناك حيوانات مثل النحل والنمل ذات تنظيم اجتماعي دقيق قد يفوق تجمع الانسان ، إلا أن كلّ ما عمله على نسق واحد ، وليس فيه ما في اعمال الانسان من تميز فردي .

٣ - وقال افلاطون : لا نستطيع ان نفهم ماهية الانسان الا حين نفهم الدولة ، أي حين ندرس الانسان في حياته الاجتماعية والسياسية لا

في حياته الفردية ، ولكن الحياة السياسية ليست هي الصورة الوحيدة من صور الوجود الجماعي لدى الانسان ، بل ان الدولة نتاج متأخر نسبياً ، وقد قام الانسان بمحاولات أخرى قبل ان ينشئ نظاماً سياسياً لكي ينظم افكاره ومشاعره ، وتظهر هذه المحاولات في اللغة والفلسفة والدين والفن والاسطورة ، فاذا شئنا ان نعرف ماهية الانسان فعلينا ان نوسع القاعدة ولا نقصرها على الناحية السياسية .

٤ - وجاء كومت بالفلسفة الوضعية فقال ان المنهج الذي ندرس به الانسان يجب ان يكون ذاتياً لا فردياً ، أي يجب أن نقر الانسانية بالانسان ، فاذا شاء الانسان أن يعرف ماهيته وذاته فليعرف « التاريخ » .

٥ - وميز كانت بين العقل الانساني وغيره بأن للعقل الانساني قدرة على التمييز بين « الواقعي » و « الممكن » ، وهذا شيء غير متوفر في العقل الالهي ولا في عقول الكائنات الواقعة دون الانسان . وهذا التمييز يكشف عن معرفتنا للأشياء لا عن طبائعها : « فنحن لا نستطيع أن نفكر دون صور ولا نحدس دون فكرة » - وفي هذه العبارة كاد كانت يعبر عما زريده من فهم جديد للمشكلة الانسانية ، ولا نحتاج هنا الا الى نقلة بسيطة لتصبح فكرة كانت هي مدار مفهوماتنا الجديدة عن ماهية الانسان .

- ٣ -

تعريفنا الجديد يتم اذا نحن غيرنا قولة كانت ان العقل الانساني في حاجة الى صور وقلنا : ان العقل الانساني في حاجة الى رموز . ولنقل في تعريف الانسان انه حيوان ذو رموز ، وبذلك نتجنب كل النقص في التعريفات والمحاولات السابقة ، وأول ما يفترضه هذا التفسير علينا هو أن نبين كيف

يستقل الانسان بالرموز دون الحيوان ، فاذا أثبتنا ذلك أصبح « الفصل »
في هذا التعريف الجديد مميزاً فارقاً :

١ - تحدثنا البيولوجيا أن في كل حيوان جهازين : جهاز مستقبل وجهاز مؤثر ، بالاول يتقبل المؤثرات الخارجية وبالتالي يستجيب لها ، غير ان الانسان يمتلك مع هذين الجهازين جهازاً ثالثاً « رمزياً » لا وجود له لدى الحيوانات الاخرى . فاذا قلنا إن استجابة الحيوان « رد فعل » واستجابة الانسان « رجع » وجدنا ان هناك عملية فكرية بطيئة تصحب الرجوع ولا توجد في رد الفعل ، وهذا معناه ان الرجوع يتأخر زمنياً عن رد الفعل الذي يكون محض استجابة مباشرة . ويتضح هذا الجهاز الرمزي فيما استحدثه الانسان من لغة وأسطورة ودين وفن ، وبهذه الاشكال - أو الصور - الرمزية خرج الانسان من العالم المادي ، ولم يعد يواجه الحقائق مباشرة بل من وراء رموز . هل لدى الحيوان سلوك رمزي ؟ هذا يقودنا الى ان نبحث في التفرقة بين (أ) لغة الحيوان والانسان (ب) ذكاء الحيوان والانسان (ج) المسافة والزمن لدى كل من الحيوان والانسان - فنجد في اللغة أن لدى الحيوان لغة عاطفية وليست لديه لغة موضوعية ، وان لدى الحيوان ذكاء وخيالا عملياً بينما لدى الانسان ذكاء وخيال رمزي ، وان الحيوان لا يستطيع ان يتجاوز المسافة والزمن العضويين ، اما الانسان فيتجاوز هذا الوضع الى تصور مسافة مجردة وزمن مجرد - أي مسافة وزمن رمزيين . في كل خطوة اذن يتضح لنا ان الرمز هو « الفصل » بين الانسان والحيوان .

٢ - والرمز يختلف عن الاشارة ، ومن صفاته انطباقه العام وشموله وتنوعه ، فقد يعبر الانسان برموز مختلفة عن شيء واحد - كالحال في تعدد اللغات - بالرمز يحرز الانسان الكلمة السحرية التي تفتح أمامه أبواب التقدم . فتوة القرض تتضمن حقيقة رمزية ، وكانت هي السبيل الى تقدم العلوم ، فكثيراً ما فرض الانسان حالات غير واقعية فاهتدى الى نظريات

جديدة ، ذلك هو الحال في الطبيعيات والرياضيات ؛ وفي التراجم الذاتية وفي الاخلاق ايضاً ، فاجهورية افلاطون أو ما شابهها من أشكال البيوتوبيا إلا فروض تحمل قوة الرموز .

٣ - لماذا اخترنا هذه الطريق في النظر الى الانسان والحضارة الانسانية ؟ إن قصور التعريفات والتصورات السابقة قد جعلنا نرى ان تعريف الانسان يجب ان لا يتناول جوهره المتافيزيقي أو قابليات فيه تؤكد الملاحظات التجريبية - المميز الاكبر للانسان هو عمله او وظيفته ، فالحد الصحيح له هو الذي يستمد من هذا المفهوم . وتتضمن الوظيفة فعاليات متنوعة منها اللغة والاسطورة والدين والفن والعلم ، فاذن : كل فلسفة للانسان لا بد من ان تبحث في تركيب هذه القروع المتنوعة . وبما ان هذه الفعاليات جميعاً تصدر عن الانسان فلا بد من ان تكون ذات رابطة توحد بينها . فان شئنا ان نفهم الحضارة الانسانية فيجب ان نبث كل صورة من هذه الصور الرمزية على حدة ، ولكننا لا نكون قد أنشأنا فلسفة ان لم نتهدي الى الرابطة العامة التي تجمع بينها جميعاً . فالتحليل الوصفي يجب ان يكون مقدمة لظهار الوحدة لا غاية في نفسه ، وان يكن هذا التحليل ضرورياً لا غنى عنه .

٤ - وقد ينساءل متسائل فيقول : أين الوحدة في هذه الفعاليات المتباينة ؟ ان كان هذا السائل يبحث عن وحدة في النتائج فانه لن يجدها ولكن عليه ان يفتش عن « وحدة العمل » أي عن سعي هذه الاشكال الرمزية كلها الى غاية مشتركة ؛ على الفكر الفلسفي ان يستكشف وحدة العمل في ذلك التنوع المتكرر في الصور الاسطورية والأديان واللغات والفنون والعلوم - ومنهج هذا الكتاب أن يتناول هذه الصور واحدة واحدة دون ان يغفل هذه الغاية الفلسفية .

حدود هذا الاتجاه الفلسفي ومصادره

- ١ -

لم تتبع فلسفة من سعة الاطلاع - لا من التأمل المحض او من التجربة - مثلاً نبعث هذه الفلسفة التي بسطها كاسيرر في هذا الكتاب وفي غيره من مؤلفاته وبخاصة كتابه الكبير « فلسفة الاشكال الرمزية » وكتابه الآخر « مشكلة المعرفة » . وتقوم هذه الفلسفة على ثلاثة اركان :

- ١ - اختيار مصطلح « رمز » لتفسير الفعاليات الانسانية جميعاً .
- ٢ - تقديم « الوظيفة » على أي حقيقة أخرى من حقائق المادة او الموضوع .
- ٣ - ايجاد « الوحدة » بين الرموز التي تبدو في ظاهرها متباعدة متباينة أي انشاء فلسفة للمعرفة شاملة كلية .

من أين اهتدى كاسيرر الى قيمة الرمز ؟ لقد بدأ هذا الفيلسوف أبحاثه أولاً في ميدان العلم فكتب سنة ١٩١٠ كتاباً بعنوان Substanzbegriff und Funktionsbegriff ، ومعلوم ما للرمز من قيمة كبرى في العلوم وبخاصة الرياضيات ، وكان هو في أثناء بحثه على وعي بهذه القيمة نفسها حتى انه من بعد قال في مقدمة كتاب الاشكال الرمزية : « كان الرياضيون والطبيعيون أول من وعى بوضوح هذا الطابع الرمزي لمفهوماتهم الأساسية .. فصرح هنريش هرتز بأن الوظيفة الهامة للعلوم الطبيعية هي ان تمكثنا من ان نتكهن

بالتجربة المقبلة. فنحن نصنع « رموزاً داخلية » للأشياء والموضوعات الخارجية .
ووجد كاسيرر ان علماء آخرين كشفوا عن هذه الوظيفة الرمزية للغة .
وعندئذ خطر له ان مصطلح « رمز » قد ينطبق على كل الفعاليات الانسانية
وانه لا يقتصر على ميدان العلم بل الحق ان توسع من علم المعرفة فنجعله
ينبسط من العلوم على مناطق اخرى ؛ اي ان نظرية الافكار والاحكام
العلمية التي تحدد الشيء الطبيعي بخصائصه المكونة له يجب ان توسع بحيث
تشمل الاشكال الحضارية الاخرى ، لأن تلك الاشكال ايضاً رموز ،
واذن فكل الموجدات الحضارية هذه على مستوى واحد : الاسطورة في
ذلك كالعلم ، والعلم كالدين ، والدين كالفن ، من حيث انها جميعاً ترتبط
برابطة الوظيفة وتسعى الى غاية واحدة - وهذا الاتجاه الفلسفي يصح ان
يسمى « فلسفة الاشكال الرمزية » .

واذا انقدحت الفكرة على هذا النحو فمن الممكن ان تُتطلب اصولها
في كل ناحية ، فيعتبر الفلك البابلي محاولة اولى لادراك الكون عن طريق
الرموز ، وتعتبر المثل الافلاطونية رموزاً لحل مشكلة « الأيس » - أو
الكيثونة - وهكذا ، وفي سياق هذا كله يتجلى كيف تتسم ميادين المعرفة
الانسانية بالتجريد المتطور حتى تبلغ حد المجرد المحض في الرموز الرياضية
أو في ميكانيكا الكم ونظريات الذرة ، وتسقط العلاقات بالمحسوسات جملة .

وهذا الاتجاه الفلسفي ليس بدءاً في طلب الوحدة ، فقد كانت الفلسفة
دائماً مثابة الوحدة في كل عصر إذا تكثرت الصور وتعددت الاشكال ؛
كذلك كان الحال في المتافيزيقا القديمة ، ولما جاءت الفلسفة الحديثة التي
بدأها ديكارت ظلت تسعى الى وحدة وإن تناولت الأمر من زاوية
جديدة إذ اتجهت الى القول بان الفلسفة تستطيع ان تحيط بالكمليات اذا
هي استعملتها من مبدأ منطقي ، أي ان الصورة الخالصة من المنطق اصبحت
النموذج الأعلى لكل صورة من صور الروح الانسانية - لقد بدأ ديكارت
المثالية الكلاسيكية وختمها هجل الذي قال : اننا يجب ان نفكر في الروح

الانسانية من حيث هي كل محسوس - وكل^١ مظاهر الروح المتنوعة تتجمع في ذروة منطقية عليا ، فاذا تعددت اشكالها فانها مع ذلك خاضعة لقانون « موحد » هو قانون المنهج الديالكتي^(١) . وهكذا زى أن ردّ الاشكال والصور المتنوعة الى وحدة هو ما تتضمنه الفكرة الفلسفية دائماً لأن انكار هذه الوحدة او رفضها معناه ان ايجاد نظام دقيق لهما يصيح امرأ مستحيلاً .

وهاهنا مسألة محيرة : فاننا اذا آمنّا بالوحدة المنطقية لكل هذه الاشكال فقد طمسنا ما في كل شكل من تفرد ، واذا غصنا في البحث عمن كل شكل متفرد ففسدنا الطريق التي تؤدي بنا الى الرابطة الكلية . ولا منجى من هذه الحيرة إلا بان نستكشف حاملاً يتكرر في كل شكل من اشكال الحضارة ، وهذا العامل هو المبدأ الذي يربط بين وظيفة الدين واللغة والفن ، وهو « الرمز » . فاذا تحدثنا عن كل شكل من تلك الاشكال لم نغفل العلائق والمقاييسات بينها ذاكرين دائماً ان العلائق المشتركة تحمل في ذاتها اختلافاً « نوعياً » ، فقد تشترك كل الفعاليات التي سميناها أشكالاً رمزية في صلتها بالزمن والمسافة والعلية ، ولكن هذه الخصائص فيها تختلف في طوابعها بين شكل وآخر :

- ١ - فالزمن في الميكانيكا ليس له الا علاقة اسمية بالزمن الذي يسيطر على الموسيقى والقياسات الابقاعية . والوحدة المسافية التي نبنيها في الآثار الفنية كالرسم والنحت والفن المعماري تختلف تماماً عن الوحدة المسافية التي تمثلها النظريات والمبادئ الهندسية ، فواحدة ترسم عن طريق الخيال الفني وواحدة ترسم عن طريق الفكرة الهندسية المنطقية . كذلك نجسد الفكر الاسطوري يتمثل المسافة على نحو ليس فيه قسط كبير من التجريد .
- ٢ - والعلية تختلف اختلافاً بعيداً في العلم عنها في الفكر الاسطوري ،

فهناك عليّة في الاسطورة تفسر بها الظواهر الخاصة ولكن الدافع في هذا التفسير مختلف عن الدافع الذي يحدو بنا لدراسة العليّة عن طريق الافكار النظرية العليّة ، فالعليّة مشتركة بين العلم والاسطورة ولكن طابعها مختلف في كل منهما^(٢) .

- ٢ -

لقد صرح كاسيرر ان القوضى التي بلغتها فروع المعرفة حين استقل كل منها في حل مشكلة الانسان هي ناقوس الخطر الذي دق معلناً ان الحاجة ماسة الى نظرة « موحدة » تنقذ البحث الفلسفي من العوامل الشخصية في النظر الى المشكلة ، وكان ماكس شيلر من اول المنبهين الى هذا الخطر حين قال : « ما كان الانسان في فترة من فترات المعرفة الانسانية كما هو اليوم في عصرنا مثار مشكلة لذاته ؛ لقد اصبح لدينا اثروبولوجيا عليّة واخرى فلسفية وثالثة لاهوتية ، وما من واحد من هذه الفروع يعرف ما لدى الفرع الآخر ، لذلك لم نعد نمتلك فكرة واضحة عن الانسان ، فان ازدياد تكثر العلوم التي تنهمك في دراسة الانسان قد زاد فكرتنا عن الانسان فوضى وغموضاً بدلا من ان يوضحها »^(٣) .

في كل مجال تستطيع ان تقول ان كاسيرر كان يجد الحوافز والمنبهات التي تدفعه الى موقف فلسفي جديد ، ولم يكن شيلر أكثر اثرآ في البواعث من أثر يوكسكل العالم البيولوجي في الاخذ بيده للتطبيق : فقد كان يوكسكل « يرى الحياة حقيقة قائمة بذاتها معتمدة على نفسها ولا يمكن وصفها او توضيحها عن طريق علم الطبيعة او الكيمياء » ولذلك اقام

٢ - بايجاز عن فلسفة الاشكال الرمزية ١ : ٩٤ وما بعدها

٣ - مقال في الانسان ، الفصل الاول .

يوكسكل مذهباً بيولوجياً جديداً قائماً على ان لكل كائن عضوي عالمه الخاص به وحقيقته الخاصة به ففي عالم الذباب لا نجد الا اشياء ذبابة وفي عالم قنافذ البحر لا نجد الا اشياء قنفذية بحرية ، ومطلب البيولوجيا كله يتحقق في علم التشريح المقارن ، فاذا عرفنا الكيان التشريحي لأي حيوان فقد عرفنا كل المعلومات الضرورية عنه . وقال يوكسكل : لكل حيوان جهازان - جهاز استقبال وجهاز تأثير (٤) ومن هذا الشكل البيولوجي بدأ كاسيرر النظر الى عالم الحضارة واهتدى الى تمييز الانسان بالجهاز الرمزي .

ويستفيض القول لو ذهبنا نستعرض المنابع والمؤثرات التي اوحت لكاسيرر بفلسفته ، إذ يشبه ان تكون فلسفته « توحيداً » وجمعاً للآفاق التي احبها ، والمفكرين الذين اعجب بهم ودرسهم ، وفيهم الشاعر مثل جوته والمؤرخ الانساني مثل هيردر والفيلسوف الموجه مثل كانت وفيهم التجريبي والمثالي . وهذا الكتاب شاهد مبسّط على المجالات الكثيرة التي استمد منها شواهده والمواقف الفكرية التي اعتبرها مؤيدة لفكرته والناس الذين اعجب بفلسفاتهم واتجاهاتهم : كان يرى ان جوته بحث عن الطابع المميز للطريقة المثالية في التفكير بين هذا التراوح المستمر في عالمي الثبات والتغير ، والشكل المميز للفكر انه يرى الخالد في الفاني ، ومن خلاله تتحد الفلسفة والفهم الانساني (٥) . وكان هيردر أحد الذين أثروا فيه تأثيراً بعيداً لأن هيردر حطم سحر التفكير التحليلي وأعلى من قيمة التأمل . وكان فون هوبولت معلماً في توجيه فكره ، وكان بركهارت ومومسن ورائكه يشبعون لديه رغبته في التاريخ مثلما يغذي جوته نفسه بالشعر . ومع هذا كله كان الفكر الكانتي حجر الزاوية لديه ، منه يبدأ انطلاقه

٤ - مقال في الانسان ، الفصل الثاني

٥ - مشكلة المعرفة : ١٣٨ .

في البحث ، ولعلني لا اظلم فلسفة كاسيرر ان قلت انها تطوير جزئي لبعض افكار كانت . واهم فكرة كائنية وجهت تفكيره هذه الوجهة هي فكرة « الصورة » ، اذ هي اساس المعرفة لدى كانت - المعرفة تم لدى الانسان عندما ينتقل من مرحلة التعليم الى مرحلة الحكم ، وهذا الحكم هو الذي يعين طبيعة ما نسميه واقعاً ، فالفلسفة هي دراسة « صور الحكم » التي تعرف بها الحقيقة الواقعة الموضوعية ، وفي كل صورة من صور المعرفة توجد عوامل سابقة للتجربة *a priori* ، وهذه العوامل « صور » من العقل - للمعرفة صورة كلية أساسية وعلى الفلسفة ان تكشف هذه الصورة ونقيم أركانها^(٦) .

من هذه النقطة نستطيع ان نرى كيف تأثر كاسيرر باستاذة ، فأخذ فكرة « الصورة » هذه وغيّر في وظيفتها ، اذ لم تعد وظيفتها تنظيمية كما كان يراها كانت بل اصبحت مبدءاً جوهرياً « مكوناً » . وبدلاً من ان يتحدث كاسيرر عن صور المعرفة حول البحث الى صور الحضارة ، لاعتقاده ان كل تجربة شكل من اشكال المعرفة ، وصور الحضارة مواد في التجربة إذن فهي انواع من المعرفة . لقد درس كاسيرر فلسفة كانت دراسة مستقصية وحلل فلسفته في احد مؤلفاته ، وكان يستطيع ان يستشهد بأقواله وآرائه نصاً دون العودة الى كتاب ، ومثل هذه الملازمة حقيقة ان تجعله شديد التأثير به .

ومن الواضح ان أعسر ما يواجهه فلسفة كاسيرر هو التوجه نحو الوضع الموضوعي . هذا الوضع واضح تمام الموضوع في العلم ولكن : كيف يكون الفكر الأسطوري والفن والتاريخ - كيف يكون كل واحد من هذه الاشكال ذا موضوعية ؟ لكننا قد قلنا من قبل ان خصائص الاشكال قد تختلف « نوعاً » ، وهكذا الحال في الموضوعية ، فالاشكال الرمزية

جميعاً تتحد في هذه الخاصية إلا ان الموضوعية تختلف في واحد عنها في الآخر . فموضوعية اللغة هي ما يميز الانسان عن الحيوان . وللفن موضوعية أشار اليها كاسيرر بقوله : « والفن كسائر الاشكال الرمزية ليس نسخاً حرفياً لحقيقة جاهزة معطاة وانما هو احدى الطرق المؤدية الى نظرة موضوعية للاشياء وللحياة الانسانية وليس هو حكاية للحقيقة الواقعة بل كشف لها » (٧) . والفرق بين العلم والفن ان الاول تبسيط للحقيقة والثاني تكثيف لها . ليست الموضوعية الغاء للذات الفردية ، ففي التاريخ لا يبلغ المؤرخ الوضع الموضوعي إلا من خلال التصور الذاتي للماضي . وخير شاهد على ما حققته الموضوعية في ميدان التاريخ مؤلفات رانكه .

والخلاصة : ان كل شكل من الاشكال الرمزية في فلسفة كاسيرر « عالم فكري » مستقل A universe of discourse وفيها جميعاً رابطة واحدة من حيث الوظيفة ، وفي كل منها جانب موضوعي او « موضوعية مثالية » — كما يسميها هيجل — هذه فلسفة سماها كاسيرر نفسه « مثالية كلاسيكية » — او قل فلسفة مثالية معدلة — ترفض الوضعية وتتحاشى المادية ، وتعلي جانب الفردية في الفعاليات الانسانية ، وتسوي بين الفعاليات في القيم ، وتقدر الحرية الكانتية في المسؤولية الانسانية ، وتخفف من حدة الثنائية .

احسان عباس

جامعة الخرطوم

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٠

تصدير للمؤلف

تلقيت اول حافز على تأليف هذا الكتاب من لدن اصدقائي الانجليز والاميركيين الذين سألوني ملحين ، معاودين القول ، ان انشر ترجمة انجليزية لكتابي « فلسفة الاشكال الرمزية »^(١) ، وكنت شديد الرغبة في ان استجيب لسؤلهم لولا أن وجدت - بعد أن أخذت اهتبي لذلك - ان اخراج الكتاب كاملاً أمر غير عملي ، وانه في الظروف الراهنة امر لا يجد مسوغاً قوياً لدى القارئ أو المؤلف . فأما القارئ فقد يرهقه كثيراً ان يقرأ ثلاثة مجلدات تعالج موضوعاً عسيراً مجرداً ، واما المؤلف فانه يكاد يتعذر عليه ان ينشر مؤلفاً وضع منهاجه وكتبه قبل خمسة وعشرين عاماً ، بل هو لا يرى حكمة في القيام بذلك ، لأنه في خلال تلك الاعوام مضى قدماً في دراسة الموضوع ، وتعلم كثيراً من الحقائق الجديدة وتمرس بمشكلات حادثة . حتى المشكلات القديمة قد أخذ ينظر اليها من زاوية مخالفة ويصبرها تحت ضوء جديد .

لهذه الاسباب جميعاً رأيت ان أنشئ لا ان أترجم ، فأكتب كتاباً جديداً كل الجدة ، على ان يكون هذا الكتاب أصغر بكثير من كتابي القديم لأنني أومن بقولة لسنج : « الكتاب الكبير شر كبير » - تلك

١ - كتاب في ثلاثة مجلدات نشر بيرلين على يد برونو كاسيرر : ١٩٢٣ - ١٩٢٩ [قلت : وقد ترجمه رالف مانهايم الى الانجليزية في ثلاثة مجلدات ، نيوهافن ، مطبعة ييل ١٩٥٣ وما بعدها]

حكمة نسيتهما أو تناسبتها يوم كتبت « فلسفة الاشكال الرمزية » لانهما في
المستغرق يومئذ في حومة الموضوع ، فاما اليوم فانا احس بانني اميل الى
الامتثال لحكمة لسنج . ولذلك حاولت في هذا الكتاب أن اركز القول
على بضع مسائل تبدت لي ذات اهمية فلسفية خاصة ، وان اعبر عن
افكاري على نحو موجز مركز - قدر الامكان - بدلاً من أن أضع
الحقائق باسهاب ، أو أقدم النظريات بشرح مستفيض .

ولا بد من ان يعالج هذا الكتاب موضوعات قد تبدو لدى النظرة
الاولى متباعدة متباعدة ، فهو عرضة لأن يرى فيه الناظر العجلان « خليطاً »
من أشنات شديدة التباين والتباعد لأنه يتناول مسائل سيكولوجية واخرى
تتعلق بعلم الكائنات « انتولوجية » ومسائل في فلسفة المعرفة ، ويحتوي
فصولاً في الاسطورة والدين وفي اللغة والفن وفي العلم والتاريخ . لكنني
ارجو ان يستكشف القارئ بعد ان يقرأ صفحات هذا الكتاب بأن
تهمة الخلط المتباين لا سند لها ، فقد كان من أهدافي الكبرى ان افنع
القارئ بأن كل الموضوعات التي عالجتها في هذا الكتاب هي من بعد
موضوع واحد ، لأنها جميعاً طرق تؤدي الى غاية مشتركة . وأنا ارى أن
واجب فلسفة الحضارة هو ان تكشف عن تلك الغاية وأن تحددها .

ويجب ان أنه الى انني اكتب بلغة غير لغتي الاصلية وهذه حقيقة
أثرت في اسلوب هذا الكتاب ، وما كنت بقادر على ان اذلل هذه العقبة
لولا العون الذي تلقينته من صديقي جيمس بتجروف أحد اساتذة كلية
المعلمين بولاية نيوجرسي ، فقد راجع المسودة كلها ، وقدم اليّ - متلطفاً -
ملاحظته في الشؤون اللغوية والاسلوبية . غير اني أيضاً مدين له كثيراً ببعض
التوجيهات القيمة حول مادة هذا الكتاب .

ولم أهدف بهذا المؤلف الى أن أضع كتاباً « مبسطاً » في موضوع يأبى
التبسيط الشديد من وجوه كثيرة . إلا أن هذا الكتاب لم يكتب للدارسين

والفلاسفة فحسب ، ذلك لأن المشكلات الاساسية في الحضارة الانسانية ذات اهمية للناس جميعاً ولا بد من أن نجعلها ميسورة للجواهر ، ولذلك حاولت أن أتجنب دقات المصطلح الفلسفي ، وأن أعبر عن افكاري بكل ما أستطيعه من وضوح وبساطة ، وعلى أن انبه النقاد الى أن ما اكتبه انما هو شرح وتوضيح لنظريتي اكثر مما هو تطبيق وابرار لها . فمن شاء ان يدرس المشكلات المعروضة في شكلها التحليلي الدقيق فليرجع الى كتابي « فلسفة الاشكال الرمزية » .

ولقد أحجمت - مخلصاً - عن أن أفرض على عقول قرائي نظرية جاهزة ، موضوعة في اسلوب تقرير حاسم ، فقد ظلت أجهد لأضعهم في موقف يستطيعون منه ان يحكموا لأنفسهم . حقاً انه ليس في الامكان ان اضع تحت انظارهم كل الشواهد التجريبية التي تنبني عليها فكري ، غير اني حاولت أن ازودهم بمقتبسات وفيرة مسهبة من المؤلفات المعتمدة في الموضوعات المختلفة . وانا واثق من أن القارئ لن يجد ثباتاً كاملاً وافياً من المصادر ، فلو انني كتبت عنايات الكتب لما اتسع لها الحجم الذي أريد لهذا الكتاب ، ولذلك اكتفيت بأن اقتبس من المؤلفين الذين احس بأنهم مدين لهم اكثر من سواهم ، وبأن اختار الامثلة التي تتميز بقيمة فذة وبأهمية فلسفية فائقة .

وأهديت الكتاب الى تشارلس و . هندل رغبة مني في أن أعبر عن شعور من العرفان بالجميل لرجل ساعدني ، بحماسة لا تعرف الفتور ، في اعداد هذا الكتاب . فقد كان اول من تحدثت اليه بمنهجه العام ، ولولا اهتمامه البالغ بمادة الكتاب ونظراته المتحمسة - وهو الصديق - الى مؤلفه لما وجدت لدي الشجاعة لنشره . فقد قرأ المسودة مرات عدة ، وكنت دائماً أنقبل مقترحاته وانتقاداته ، وكلها كانت قيمة مسعفة .

فهذا الاهداء معنيان : ذاتي « ورمزي » لأني باهداء هذا الكتاب الى

رئيس شعبة الفلسفة ومدير قسم الدراسات العليا بجامعة ييل إنما أحاول ان اعبر عن شكري القلبي للشعبة نفسها . منذ ثلاث سنوات قدمت الى جامعة ييل ولشدّ ما ادهشني وسرّني ان أرى التعاون الوثيق فيها شاملا يمتد على مدى واسع . وكان من دواعي الغبطة أن أجدني أعمل مع زملائي الشبان في حلقات دراسية تناول مختلف الموضوعات ، وكانت تلك تجربة جديدة حقاً في خلال حياتي الجامعية الطويلة ، تجربة لذّة ممتعة حافزة ، وسأظل أذكر تلك الحلقات المشتركة ذكر العارف الشاكر - فواحدة كانت في تاريخ الفلسفة وثانية في فلسفة العلوم وثالثة في نظرية المعرفة ، وقد قام بها جميعاً تشارلس هندل وهاجو هلبورن وف.س.س. نورثروب وهنري مارجنو وفردريك فتش وتشارلس ستيفنسون .

ويعد هذا الكتاب - الى حد كبير - نتاجاً لعملي في قسم الدراسات العليا في جامعة ييل ، وإني انتهز هذه الفرصة لأعلن عن شكري للسيد إدجار س. فرنس عميد تلك المدرسة من أجل الكرم الذي شملني به في السنوات الثلاث ، كما يستحق طلبتي كلمة شكر نابغة من القلب ، فقد تداولنا الرأي معاً في كل المشكلات التي تضمنها هذا الكتاب - على وجه التقريب - واني لموقن أنهم سيجدون أثارةً من ذلك العمل المشترك في هذه الصفحات التالية .

والشكر لمؤسسة فلويد للأبحاث فان المنحة التي قدمتها هي التي ساعدتني على اعداد هذا الكتاب

ارنست كاسيرر

جامعة ييل

القِسْمُ الأوَّلُ مَاهِيَّةُ الْإِنْسَانِ

- ١ - الازمة في معرفة الانسان نفسه
- ٢ - الرمز : سبيل التعرف إلى طبيعة الانسان
- ٣ - من ردّ القفل لدى الحيوان إلى الأَرْجَاعِ الانسانية
- ٤ - العالم الانساني - عالم المسافة والزمن
- ٥ - حقائق ومثل

الأزمة في معرفة الإنسان نفسه

- ١ -

معرفة النفس - او الذات - أسمى غاية في البحث الفلسفي ، تلك حقيقة تلقى اعترافاً عاماً فيما يبدو ، وقد ظلت ثابتة لا تتغير خلال كل المارك التي نشأت بين مختلف المذاهب الفلسفية ، وقد برهنت تلك الحقيقة على انها النقطة الارخيدية في الفكر كله ، أعني النقطة الثابتة المستقرة . بل ان أكثر المفكرين المشككين لم ينكر إمكان « معرفة النفس » وضرورتها ، وكلهم تشككوا في المبادئ العامة المتعلقة بطبائع الاشياء . غير انهم كانوا يرمون من وراء ذلك الشك الى إيجاد طريقة جديدة للبحث ، ركنة يمكن الاعتماد عليها . وكثيراً ما كانت الشكبة في تاريخ الفلسفة صورة أخرى من النزعة الانسانية الثابتة . واذا أنكر الفيلسوف الشككي ان العلم الخارجي حقيقة موضوعية يقينية وحطم هذه الفكرة فانه يأمل ان يرد افكار الانسان الى ذاته ، لأنه يؤمن ان معرفة الذات اول مقدمة ضرورية لتحقيق الذات ، وانه لا بد لنا من ان نحطم القيد الذي يربطنا بالعالم الخارجي لكي نستمتع بحريتنا الحقة ، لقد كتب مونتيني يقول : « أكبر شيء في هذا العالم هو ان تعرف كيف تكون » .

مبدأ
« اعرف
نفسك »

غير ان هذه الطريقة في النظر الى المشكلة اعني طريقة الاستبطان ، أو النظر الداخلي في الذات ، لا تسلم من ريب الشكيين ، فقد بدأت الفلسفة الحديثة حين قرّر ديكارت ان البرهان الشاهد على وجودنا متين منيع يثبت لكل هجوم . الا ان تقدم المعرفة النفسية يكاد لا يؤيد هذا المبدأ الديكارتي ، واصبحت النزعة العامة في الفكر في ايامنا هذه موجهة مرة اخرى نحو القطب المضاد ؛ وقليل هم السيكولوجيون المحدثون الذين يقرون أو يستحسنون طريقة الاستبطان والنظر الداخلي . فهم على وجه عام يحدثوننا ان مثل هذه الطريقة مخوف بالخطر ، وهم مقتنعون ان السبيل الوحيد المؤدي الى سيكولوجيا علمية إنما هو الانجاه السلوكي الموضوعي ؛ غير انهم لو استغلوا انجهاً سلوكياً ثابتاً جوهرياً لوجدوه يعجز عن ان يبلغ بهم غايته ؛ نعم انه قد ينهنا الى اخطاء منهجية ممكنة ولكنه لا يستطيع ان يحل كل مشكلات السيكولوجيا الانسانية ، فاما طريقة الاستبطان فانتا نستطيع ان ننتقدها وان نتشكك فيها ولكننا لا نستطيع ان نبطلها او نقصبها عنا . فبغير الاستبطان ، أي بغير الوعي المباشر على مشاعرنا وعواطفنا وادراكاتنا وأفكارنا ، لا نستطيع حتى أن نحدد ميدان السيكولوجيا الانسانية . ولكن علينا ان نقر باننا اذا سلكتنا هذه الطريق وحدها نعذر علينا ان نحرز نظرة شاملة كلية في الطبيعة الانسانية ؛ ذلك لان طريقة الاستبطان الذاتي لا تكشف لنا الا عن قطاع صغير من الحياة الانسانية ، قطاع تستطيع ان تبلغه تجربتنا الفردية ، ولكنها لا تستطيع ان تكشف لنا عن ميدان الظواهر الانسانية جميعاً . ولو اننا نجحنا في جمع كل المعلومات والحقائق اللازمة ووقفنا في ربطها معاً لما تكون لدينا عن طريق الاستبطان الا صورة هزيلة مشعبة — كأنها جذع بلا اطراف — للطبيعة الانسانية .

يذهب ارسطوطاليس إلى القول بأن المعرفة الانسانية تتولد من ميل أصيل في الطبيعة الانسانية ، ميل يعلن عن نفسه في افعال الانسان وردود فعله الاولى ، فتظل حياة الحواس من مبدأها الى منتهاها موجهة بهذا الميل مشبعة به . وهذا نص قوله :

« كل الناس ، بالطبيعة ، يرغبون في ان يعرفوا ، ودليل هذا تلك المتعة التي نوليها حواسنا ؛ فنحن نحب تلك الحواس في ذاتها بالاضافة الى فوائدها ، واكثر ما نحب منها حاسة الابصار ، لا نظراً لما تؤديه من عمل فحسب ، بل حتى ونحن لا نزمع ان نكرم باي عمل فضل الابصار على كل شيء آخر . وعلّة هذا ان هذه الحاسة من بين الحواس جميعاً نجعلنا نعرف ، وتوضح لنا الفروق بين الاشياء » (١) .

وهذه العبارة تميز نظرة ارسطوطاليس الى المعرفة وتفرقها عن نظرة افلاطون ، فمثل هذا التكريظ الفلسفي لحياة الحس لدى الانسان لا يمكن أن نعر عليه في مؤلفات افلاطون ، لأن هذا الفيلسوف لم يكن يقدر أن يقارن بين الرغبة في المعرفة والمتعة التي نجدها في حواسنا ؛ فبين حياة الحواس لدى افلاطون وحياة الفكر سور عريض لا يتأتى خرقه او اجتيازه ، والمعرفة والحقيقة في رأيه هما ابنتا عالم مثالي مجرد أزلي . بل ان ارسطوطاليس نفسه ليؤمن ان المعرفة العلمية لا يمكن الحصول عليها من طريق الادراك وحده ؛ وحين ينكر هذه القسمة الافلاطونية لعالمين مثالي وتجريبي ، فانه يتحدث الينا حديث عالم البيولوجيا ، وهو يحاول ان

١ — ارسطوطاليس ، ما وراء الطبيعة ، الكتاب الاول ، الفقرة الاولى ٢٩٨٠ / ٢١ من الترجمة الانجليزية لروس بعنوان : مؤلفات ارسطوطاليس (اكسفورد ، مطبعة كلارندن ١٩٢٤) المجلد الثامن .

يفسر العالم المثالي ، اعني عالم المعرفة ، من خلال الحياة نفسها . فيرى
ارسطوطاليس اننا نجد بين العالمين تكاملاً لا ينفصم ، لأن الاشكال العليا
في الطبيعة وفي المعرفة الانسانية تتطور عن الاشكال الدنيا ، وثمة رباط
مشترك يصل بين الادراك الحسي والذاكرة والتجربة والقوة المتخيلة
والفكر ، وما هذه جميعاً الا مراحل مختلفة وصور متعددة من التعبير عن
فعالية اساسية واحدة تبلغ حدّها كمالها في الانسان ، ولكنها ايضاً فعالية
تشارك فيها الحيوانات وكل اشكال الحياة العضوية من وجه ما .

واذا كان لنا ان نقبل هذه النظرية البيولوجية ، توقعنا ان تكون
المراحل الاولى في المعرفة الانسانية متعلقة بالعالم الخارجي مقتصرة عليه ،
ذلك لأن حوائج الانسان العاجلة ورغباته العملية تعتمد على بيئته المادية ،
فهو لا يستطيع ان يحيا دون ان يظل يكيف نفسه لظروف العالم المحيط به ،
وعندئذ يمكن ان توصف الخطوات الاولى التي يخطوها الانسان نحو حياته
الفكرية والحضارية بأنها اعمال تشمل نوعاً من التكيف الذهني نحو مقتضيات
البيئة المباشرة . لكن بما ان الحضارة الانسانية تتقدم فائتاً سرعان ما
تصادف لدى الانسان نزعة مضادة ، نزعة للنظر الداخلي صاحبت هذه
النظرة الموجهة الى الخارج وكمثلتها منذ ان لاحت تباشير الوعي الانساني .
واذا ذهبنا موعلين نتبع تطور الحضارة الانسانية من تلك المبادئ وجدنا
ان هذه النظرة الداخلية تزداد قوة على الزمن . فقد بدأ حب الاستطلاع
لدى الانسان - وهو حب طبيعي - يغير اتجاهه في ببطء متدرج ، ولما
لنستطيع ان ندرس هذا النمو في كل صور الحياة الحضارية لدى الانسان
- او في جلّها - ، والاساطير من اقدم تلك الصور ، وعلى هذا فاننا
نجد في التفسيرات الاسطورية الاولى للكون نظرات انثروبولوجية بدائية
تمشى جنباً الى جنب مع نظرات كونية بدائية . ويتساءل الانسان عن

اصل الكون ويكون تساؤله هذا متلاحماً تلاحماً وثيقاً مع تساؤله عن اصل الانسان ، ويحيى الدين فلا يحطم هذه التفسيرات الاسطورية الاولى بل على العكس من ذلك احتفظ الدين بتلك النظرات الانثروبولوجية والكونية ذات السمات الاسطورية حين منحها شكلاً جديداً وعمقاً جديداً . ومن ثم فان معرفة الذات ليست تعد رغبة نظرية ، وليست هي فحسب موضوعاً لحب الاستطلاع والتأمل ، بل هي الواجب الجوهرى للانسان ، وكان كبار المفكرين الدينيين اول من قرر هذا المبدأ الخلقى في الازمان ، وظلت هذه الحكمة « اعرف نفسك » تعتبر في جميع الصور العليا من الحياة الدينية امراً مطلقاً وقانوناً دينياً وغاية اخلاقية عليا . وكأنما نحس في صيغة هذا الامر (اعرف) انعكاساً مفاجئاً في الغريزة الطبيعية الاولى للتعرف ، وكأنما نلاحظ هنالك تقويماً جديداً لكل القيم . وفي تاريخ كل الأديان الكبرى في العالم ، كاليهودية والبوذية والكونفوشية والمسيحية ، نستطيع أن نلاحظ خطوات هذا التطور في الواحد منها تلو الآخر .

وهذه النظرة يمكن ان نجدها كذلك في التطور العام الذي جرى فيه الفكر الفلسفي . فقد كانت الفلسفة الاغريقية في مراحلها الاولى تهتم اهتماماً كلياً بالعالم المادي ، فكانت النظرة الى الكون الخارجي تتقدم سائر فروع البحث الفلسفي ، ومما يميز عمق الفكر الاغريقي وشموله أن كل مفكر يكاد يمثل « انموذجاً » فكرياً عاماً جديداً في الوقت نفسه . فقد اوجدت مدرسة ميليتس [طاليس] فلسفة طبيعية ، واستكشف الفيتاغوريون فلسفة رياضية بينما كان مفكرو المدرسة الايلياوية . أول من اهتم الى المثل الأعلى في الفلسفة المنطقية . ويقف هرقليطس على الحد الفاصل بين الفكر الكوني والانثروبولوجي ، فهو من ناحية يتحدث حديث الفيلسوف

• - نسبة الى ايليا Elea المدينة التي أسس فيها بارمنديس وزينون مدرسة الفلسفة الايلياوية . (المترجم)

« اعرف نفسك »
في الفلسفة

ما قبل سقراط

الطبيعي وينتمي الى فريق الفيزيولوجيين القدماء ، وهو من ناحية اخرى مقتنع بانه يستحيل عليه ان يتغلغل في سر الطبيعة دون ان يدرس سر الانسان ، وكان يرى اننا اذا كنا نريد ان نقبض على ناصية الحقيقة ونفهم معناها فعلياً ان نحقق مطلب الانعكاس الذاتي ؛ ولذلك تمكن هرقليطس من ان يترجم فلسفته في هذه الكلمات : « بحثت عن نفسي »^(٢). ومع ان هذه التزعة الجديدة في التفكير كامنة في الفلسفة الاغريقية الاولى ، بمعنى من المعاني ، فانها لم تبلغ نضجها الكامل الا في أيام سقراط . ففي مشكلة الانسان نجد الخطأ الذي يفصل تفكير سقراط عن تفكير من سبقوه . ولم يهاجم سقراط ابداً ولم ينتقد نظريات الفلاسفة الذين جاءوا قبله ولم يقصد الى ان يوجد مبدأ فلسفياً جديداً ؛ ولكن المشكلات القديمة أصبحت على يديه تقع تحت ضوء جديد لأنها انتقلت الى مركز فكري جديد ، وأفلت شمس المشكلات الطبيعية في الفلسفة الاغريقية ومشكلات ما وراء الطبيعة فجأة ، واحتلت الافق مسألة جديدة قدرها من عهدئذ - فيما يبدو - ان تشغل الاهتمام النظري كله لدى الانسان . فلم نعد نجد لدى سقراط نظرية مستقلة عن الطبيعة او نظرية منطقية مستقلة ، بل لم نعد نرى نظرية اخلاقية منظمة محدودة تحديداً منطقياً ، ولم يبق من كل الاسئلة الا سؤال واحد هو : ما الانسان ؟ حقاً ان سقراط ما يزال دائماً يستند حقيقة عامة مطلقة موضوعية ويدافع عنها ويتخذ منها مثله الاعلى ، ولكن العالم الذي يعرفه والذي تشير اليه كل تساؤلاته انما هو عالم الانسان . واذن فان فلسفته - ان كانت لديه فلسفة - انثروبولوجية على نحو حاسم . وفي احدى محاورات افلاطون يظهر لنا سقراط منهمكاً

٢ - القطعة رقم : ١٠١ من كتاب « قطع للفلاسفة الذين كانوا قبل سقراط » . نشرها و. كراتز (الطبعة الخامسة ، برلين) ١ : ١٧٣ .

في التحدث الى تلميذه فيدورس ، فتراهما يتمشيان معاً ثم يصلان بعد وقت قصير الى مكان خارج ابواب اثينا ، حيث يبدي سقراط اعجابه بجمال ذلك المكان ، ويبتهج بذلك المنظر الطبيعي ويفرق في مدحه والثناء عليه ، إلا ان فيدورس يقاطعه ، مندهشاً كيف يتصرف سقراط تصرف الغريب الذي يرافقه دليل يلفته ويعرفه ، ويسأله فيدورس : « هل قدر لك أن تجتاز الحدود ؟ فيجيبه سقراط مضمناً اجابته معنى رمزياً ويقول : « حقاً أيها الصديق العزيز ، واني لارجو ان تعذرني حين تعرف السبب وهو انني رجل محب للمعرفة ، واسألتني هم اولئك الناس الذين يسكنون في المدينة لا الاشجار ولا الريف » (٣) .

غير اننا حين ندرس محاورات سقراط لا نجد حلاً مباشراً للمشكلة الجديدة ، بل يقدم لنا سقراط تحليلاً مطولاً دقيقاً للفضائل والخصائص الانسانية واحدة واحدة ، وهو يسعى ليؤكد طبيعة تلك الخصائص ويحددها ، مثل : الخير والعدل والاعتدال والشجاعة وما أشبه . ولكنه لا يقدم أبداً على تعريف الانسان ، فكيف نعلل لهذا النقص الظاهري ؟ هل كان سقراط يذهب عامداً في طريق ملتوية - طريق تمكنه من أن يخدش وجه المشكلة بدلاً من أن يتغلغل في أعماقها وينفذ إلى لبّها ؟ في هذا الموطن علينا أن نتحسب وجود سخرية سقراطية أكثر منها في أي موطن آخر ، فان الجواب السالب الذي يقدمه سقراط هو - على وجه الدقة - الجواب الذي يلقي على المشكلة ضوءاً جديداً لم يكن متوقعاً وهو الذي يمكننا من النفاذ الايجابي في فكرة سقراط عن الانسان . إننا لا نستطيع ان نستكشف طبيعة الانسان بالطريقة التي نفهم بها طبيعة الاشياء المادية ، فقد توصف الاشياء المادية من خلال خصائصها الموضوعية ، اما الانسان فلا يمكن

وصفه أو حدّه إلا من خلال وعيه ، وهذه الحقيقة تضع أمامنا مشكلة جديدة لا يمكن حلها بوسائلنا المألوفة في البحث . ها هنا تُثبِتُ الملاحظة التجريبية والتحليل المنطقي - بالمعنى الذي كان لها قبل عهد سقراط - قصورهما ونقصهما ذلك لأننا لا نحرز بصرأ في شخصية الانسان إلا عن طريق الاتصال المباشر بالأحياء . أي يجب علينا أن نواجه الانسان ، أن نقف منه وجهاً لوجه ، لكي نستطيع فهمه ؛ إذن فان الظاهرة التي تميز فلسفة سقراط هي فعالية جديدة ومهمة فكرية ، وليست هي محتوى موضوعياً جديداً . لقد كانت الفلسفة من قبل تُحَسَّبُ حديثاً امرئ واحد لنفسه « مونولوجاً » ، فتحولت على يد سقراط الى حوار بين اثنين « ديالوج » . وما نتوصل الى معرفة الطبيعة الانسانية إلا عن طريق الفكر الديالكتي الحواري . ومن قبل ربما كان الناس يحسبون الحقيقة شيئاً جاهزاً معداً يستطيع أن يحوزه المفكر بمفرده ، إذا وفر لذلك جهداً ، ويستطيع من ثم ان ينقله ويوصله للآخرين . إلا أن سقراط أبى الانقياد الى هذه النظرة حتى ليقول افلاطون في الجمهورية : من المستحيل أن تفرس الحقيقة في نفس الانسان مثلاً أنه من المستحيل أن تمنح الاكبر قدرة على الإبصار . فالحقيقة بطبيعتها وليدة التفكير الديالكتي . ولذلك لا يستطيع الحصول إلا من خلال التعاون المستمر بين الافراد وذلك بتبادل السؤال والجواب ، فهي ليست كالثشيء التجريبي وإنما هي نتاج عمل اجتماعي . وهنا نجد الجواب الجديد غير المباشر لهذا السؤال :

« ما الانسان ؟ » ، الانسان هو المخلوق الدائم البحث عن نفسه - مخلوق عليه أن يضحص ويتأمل أحوال وجوده في كل لحظة من لحظات هذا الوجود . وفي هذا التأمل ، في هذه النزعة النقدية نحو الحياة الانسانية ، توجد القيمة الحققة للحياة الانسانية . يقول سقراط في

الجواب
السقراطي
من مادية
الانسان

« الدفاع » : « إن حياة لا توضع موضع التأمل لا تستحق أن تستمر »^(٤) .
وقد نوجز فكرة سقراط بقولنا إنه يجد الإنسان بأنه الكائن الذي يعطي
جواباً عقلياً إذا سئل سؤالاً عقلياً ، وكلنا معرفته وخلقته مشمولة بمحيط
هذه الدائرة . وبهذه القدرة — قدرة الاستجابة لنفسه ولغيره — يصبح
الإنسان كائناً « مثولاً » أي يصبح فرداً أخلاقياً .

— ٢ —

ظل هذا الجواب الأول على المشكلة ، بمعنى من المعاني ، هو جواب
الفلسفة القديمة . ولم يكن في مقدور احد ان ينسى المشكلة السقراطية والمنهج
السقراطي أو يطمسهما . فقد تركت نظريته أثرها في كل التطور الذي
شهدته المدنية الانسانية — من بعد — من خلال افلاطون ونفكيره^(٥) .
وأقصر الطرق وأكدها لتقنع أنفسنا بوجود وحدة عميقة واستمرار كامل
للفكر الفلسفي القديم هي ان نقارن هذه المراحل الاولى من الفلسفة الاغريقية

٤ — افلاطون : « الدفاع » ٣٧ (ترجمة جويت)

٥ — لن أحاول في الصفحات التالية رسم موجز للتطور التاريخي الذي درجت فيه الفلسفة
الاثروبولوجية الا اني سأختار بضع مراحل نموذجية لكي أوضح الخط العام الذي سار فيه الفكر .
اما تاريخ فلسفة الانسان فأمر لا يزال رغبة لم تتحقق ، اذ لا يزال الامر في بدايته على غير الحال
في تاريخ المتافيزيقا والفلسفة الطبيعية والفكر الاخلاقي والعلمي . فهذه كلها درست باسهاب وتفصيل .
وقد تجلّت أهمية هذه المشكلة في القرن الماضي على نحو أوضح وأبين ، فركزت وليم دلثي كل جهوده
لحلها الا ان ما كتبه دلثي على غناء واكتنازه بقي ناقصاً ، ثم قدم برنارد جرويثويسن تقليد دلثي
وصفاً بديماً للتطور العام في الفلسفة الاثروبولوجية . ولكن هذا الوصف ، لسوء الحظ ، لم يشمل
الخطوة الاخيرة الحاسمة — فترة العصر الحاضر . انظر كتاب برنارد : « موجز في الفلسفة »
(طبع ميونخ وبرلين ١٩٣١) المجلد الثالث : ١ — ٢٠٧ وانظر ايضاً مقالاً له بعنوان « نحو
فلسفة اثروبولوجية » نشره في كتاب بعنوان « الفلسفة والتاريخ — مقالات قدمت الى ارنست
كاسيرر » (اكسفورد ، مطبعة كلارندن ١٩٣٦) ص ٧٧ — ٨٩ .

بنتاج قيم متأخر ظهر في مرحلة الحضارة الاغريقورومانية أعني كتاب « الى نفسه » To Himself او « تأملات » ماركس أوريليوس الامبراطور الروماني . وقد تظهر هذه المقارنة تصفية بادية ذي بدء لأن ماركس اوريليوس لم يكن مفكراً أصيلاً ولا اتبع نهجاً منطقياً دقيقاً ، بل انه هو نفسه ليشكر الآلهة لأنه حين توجه بقلبه الى الفلسفة لم يتحول الى مؤلف في الفلسفة او الى ممارس يحل القضايا المنطقية ^(٦) . ولكن كلاً من سقراط وأوريليوس يشتركان في اقتناعهما بأننا لا بد من ان نزيل من كيان الانسان كل الآثار الخارجية والعارضة لكي نستطيع ان نعرف طبيعته الحقبة او جوهره . يقول اوريليوس :

« لا نسمّ الاشياء إنسانية الا إن كانت تصيب الانسان من حيث هو انسان . ذلك لأنك لا تستطيع ان تتطلب تلك الاشياء من الانسان ، كما ان الطبيعة الانسانية لا تستطيع ان تتحمل عبثها ، وبالتالي فان الغاية التي يحيا الانسان من اجلها ليست حائلة في تلك الاشياء ، ولا الشيء الذي يصيغ غايته بالكمال - أعني الخير - حالاً فيها . بل لو أن شيئاً منها وقع للانسان فانه لا يقع له من أجل أن يحتقرها أو من أجل أن يقاومها ، بل بمقدار ما يستطيع الانسان ان يحرر نفسه من هذه الاشياء وغيرها برباطة جأش فانه يزاد خيراً » ^(٧) .

كل ما يصيب الانسان من الخارج عدمٌ وفراغ ، فجوهره لا يعتمد على الامور الخارجية ، وانما يعتمد كلياً على القيمة التي يمنحها نفسه . أما

٦ - ماركس اوريليوس : « الى نفسه » الكتاب الاول ، الفقرة الثامنة . وفي اكثر ما يلى من إشارات اعتمدت الترجمة الانجليزية التي وضعها س . ر . هينس بعنوان « خواطر بين وبين نفسه » لمارقس اوريليوس انطونينس (كيمبردج - ماشوست - مطبعة جامعة هارفارد ١٩١٦) مكتبة لويب الكلاسيكية .

٧ - ماركس اوريليوس : المصدر السابق ، الكتاب الخامس ، الفقرة : ١٥

الثراء والمنزلة والسيادة بل الصحة والمواهب العقلية فكلها لا ترجح شيئاً .
وأما الجوهر الذي يعتمد عليه كل شيء فهو ميل النفس أو نزعتها
الداخلية ، وتلك قوة راسخة لا تتزعزع ؛ « ان ما لا يحول الانسان الى
حال أسوأ من ذي قبل لا يستطيع أن يحيل حياته الى ما هو أسوأ منها ،
ولا أن يصيبها بالأذى من خارج أو من داخل » (٨) .

إذن فان الحاجة للبحث عن الذات في الفلسفة الرواقية ، كما هي لدى
سقراط ، تعتبر حقاً الانسان وواجهه الاساسي (٩) ، الا ان هذا الواجب قد
اصبح مفهوماً بمعنى أوسع ، فقد اصبح لا يستند فحسب الى مستند خلقي ،
وانما يتخذ له أيضاً مستنداً عاماً ومتافيزيقاً : « لا تكف عن ان تسأل
نفسك هذا السؤال وان تمتحنها على النحو التالي : ما العلاقة بيني وبين هذا
الجزء مني الذي يسمونه العقل المسيطر » (١٠) . إن من يعيش على انسجام مع
ذاته يعيش بانسجام مع العالم لأن النظام الكوني والنظام الفردي ليسا الا
تعبيرين مختلفين ومظهرين لمبدأ مشترك كامن تحتها . ويستطيع الانسان ان
يثبت قوته النقدية الكمينية وقوته في الحكم والتفرّس اذا اعتقد ان النفس
في هذه العلاقة — لا الكون — هي التي تقوم بالقيادة والتوجيه . وحين تحوز
النفس صورتها الداخلية تبقى لها هذه الصورة ابدأ ثابتة رصينة لا تتغير
ولا تتزعزع « كالدائرة اذا تكونت بقيت صحيحة محتفظة باستدارتها » (١١) .
تلك هي آخر كلمة قالتها الفلسفة اليونانية في هذه المشكلة ، وهي كلمة نحو
الروح التي شملتها في نشأتها وتفسرها ، وقد كانت هذه الروح هي روح

٨ — ماركس اوريليوس ، المصدر نفسه : الكتاب الرابع ، الفقرة : ٨

٩ — المصدر نفسه : الكتاب الثالث ، الفقرة : ٦

١٠ — المصدر نفسه : الكتاب الخامس ، الفقرة : ١١

١١ — المصدر نفسه : الكتاب الثامن ، الفقرة : ٤١

الحكم والفراسة النقدية التي تميز الوجود من العدم ، والحقيقة من الوهم ، والخير من الشر . وعلى هذا يمكن ان نفرق بين شيئين : الحياة ، وقيمتها الحقة . أما الحياة فانها متغيرة متقلبة ، وأما قيمتها الحقة فعلينا ان نبحث عنها في نظام أزلي لا يعتوره أي تغير . وليس في مقدورنا ان نقع على هذا النظام الا بقوة الحكم فينا لا من خلال عالم حواسنا . فالحكم هو القوة المركزية في الانسان وهو مصدر الحق والخلق لأنه هو وحده الشيء الذي يعتمد فيه الانسان على نفسه ، وهو قوة حرة تملك زمام ذاتها وتغنى بذاتها (١٢) . يقول ماركس أوريلوس : « لا تبدّد نفسك ، لا تكن جامع الرغبة بل املك زمام نفسك وانظر الى الحياة نظرة انسان ، نظرة كائن انساني ، مواطن ، نظرة مخلوق فان أما الاشياء فانها لا تمسّ النفس ، لأن تلك الاشياء خارجية ولا تنتقل من أماكنها ، غير ان اضطرابنا يجمي من ذلك الحكم الذي نسويه داخل نفوسنا ؛ كل هذه الاشياء التي تراها تتغير سريعاً ولا يبقى منها أثر ، واذكر دائماً كم شهدت أنت من صور ذلك التغير . الكون - تغير ، والحياة - ثبات » (١٣) .

وأعظم ميزة في فكرة الرواقين عن الانسان هي أن هذا المبدأ الذي نادوا به يمنح الانسان شعوراً عميقاً بالانسجام مع الطبيعة ، وشعوراً مثله باستقلاله عنها ، وقد كان هذان معاً ، أعني الانسجام والاستقلال ، واضحي التمايز في ذهن الفيلسوف الرواقي فلا يتعارضان بل هما يتوافقان فيتناسبان . فالانسان يجد نفسه على تعادل كامل مع الكون ، وهو يعلم

١٢ - ماركس أوريلوس ، المصدر نفسه : الكتاب الخامس ، الفقرة : ١٤

١٣ - الكتاب الرابع ، الفقرة : ٣ . وقد وجدت في الترجمات الانجليزية كلمة « رأي » مكان كلمة « ثبات » ولكني أرى أن كلمة « ثبات » أو « حكم » أنسب للتعبير عن فكرة ماركس أوريلوس . ذلك لان كلمة رأي تحوي عنصراً من التغير وهو شيء لم يمتد أوريلوس .

أن عليه الاحتفاظ بهذا التعادل سالماً لا يعتوره اضطراب ناجم عن أية قوة خارجية ، وهذه هي ثنائية « الثبات » الرواقي . وقد أثبتت هذه النظرية أنها كانت من أقوى القوى المشكلة للحضارة القديمة . غير أنها وجدت نفسها فجأة في مواجهة قوة جديدة لم تكن معروفة حتى عهدئذ . ونجم صراع بينهما أدّى الى زعزعة المثال الذي وضعته العصور الكلاسيكية للانسان ، زعزعة أصابته في أساسه . أما تلك القوة الجديدة فهي المسيحية . وربما لم تكن النظريتان : المسيحية والرواقية متعاديتين بالضرورة بل نجدهما في تاريخ الافكار تعملان معاً ، وكثيراً ما نلقاهما على تقارب شديد لدى أحد المفكرين ، ومع ذلك فتمة نقطة واحدة تبقى مثار عدااء - لا موضع فيه للصلح - بين المثالين المسيحي والرواقي ، فلقد أكدت الرواقية الاستقلال المطلق للانسان واعتبرته فضيلته الكبرى ، فجاءت النظرية المسيحية ورأت أن هذا الاستقلال هو خطيئة الانسان ورذيلته الكبرى ، وإذا استمر مرير الانسان في هذه الخطيئة لم يجد طريقاً للخلاص . وقد دام الصراع بين هاتين النظريتين المتعارضتين قروناً عديدة ، وظلت قوة هذا الصراع ملموسة الأثر في بداية العصور الحديثة أي في عصر النهضة وفي القرن السابع عشر^(١٤) .

ها هنا نستطيع أن نضع أيدينا على واحد من أكبر المظاهر المميزة في تاريخ الفلسفة الانثروبولوجية . فهذه الفلسفة ليست تطوراً بطيئاً مستمراً لافكار عامة ، كما هي الحال في الفروع الاخرى من البحث الفلسفي ، بل إننا لنجد في تاريخ المنطق وما وراء الطبيعة والفلسفة الطبيعية التعارضات الحادة . ويمكننا ان نصف تاريخ هذه الفروع - مستعملين مصطلح

(١٤) اذا شئت ان تجد تفصيل ذلك فقرأ كتاب « ديكارت » تأليف كاسير (استوكهلم ١٩٣٩) ص : ٢١٥ وما بعدها .

هيجل - بأنه عملية ديبالكتيكية - مزدوجة - تثير كل فرضية فيه تقيضة لها . ولكن هذه العملية الديالكتيكية ، مع ذلك ، ينتظمها ثبات وتناسب داخلي ، أعني نظاماً منطقياً واضحاً يربط بين مراحلها المختلفة ، تلك هي الحال في سائر فروع المعرفة الفلسفية ما عدا الفلسفة الانثروبولوجية ، فانها تبرز لنا طابعاً مختلفاً عن تلك الفروع ، واذا شئنا أن نستكنه معناها الحقيقي وفحواها ، فعلينا ان نختار الوصف الدرامي لا الوصف البطولي لان الذي يواجهنا منها هو التصادم بين قوى روحية متصارعة لا تطور هادىء في المبادئ والنظريات . فتاريخ الفلسفة الانثروبولوجية حافل باعق النوازع والعواطف الانسانية وهو لا يهتم بمشكلة نظرية مفردة ، مهما يكن مجالها عاماً واسعاً ، وإنما يهتم بالمصير الانساني كله ، المصير الذي يصرخ طالباً حكماً فاصلاً .

وهذا الطابع للمشكلة قد وجد اوضح تعبير في « اعترافات » اوغسطين لأن هذا الرجل يقف على الحد بين عصرين ، فقد عاش في القرن الرابع من الحقبة المسيحية ، أي نشأ في بيئة من تراث الفلسفة الاغريقية ، وتركت الافلاطونية الحديثة ، علي وجه الخصوص ، طابعها على كل فلسفته . غير انه من ناحية اخرى طليعة الفكر الذي نسميه فكر القرون الوسطى ، فهو موجد فلسفة تلك القرون ومؤسس علم اللاهوت المسيحي . ونستطيع ان نتتبع في اعترافاته كل خطوة خطاها في انتقاله من الفلسفة الاغريقية الى الوحي المسيحي . ويرى اوغسطين ان كل الفلسفة التي سبقت ظهور المسيح كانت عرضة لخطأ واحد اساسي ، وانها جميعاً كانت تعاني مرضاً مشتركاً ، ذلك انها جميعاً جعلت العقل أسمى قوة في الانسان ، ولكن الانسان كان يجهل ان العقل من أشد الاشياء التي يثور حولها التساؤل والغموض في العالم ، الى ان جاء الوحي الإلهي فكشف له عن هذه

لمشكلة في
مترافات
وغسطين

الحقيقة . فالعقل لا يستطيع ان يهدينا الى طريق الوضوح ، الى الحقيقة والحكمة ، لأنه هو في ذاته غامض المعنى ، وأصله مغلفٌ بالغموض ، ولا يزيل حجاب هذا الغموض إلا الوحي المسيحي . ويرى اوغسطين ان العقل ليس واحداً بسيطاً بل هو مزدوج الطبيعة متقسماً . فقد خلق الله الانسان على صورته ، وكان في وضعه الاول أي حين أكلت صنعه يد الله ، عدلاً لا نموذجاً الأعلى ؛ ولكن هبوط آدم أفقده ذلك كله ، ومنذ ذلك الحين استغرقت القوة الاصلية للعقل في الغموض ، وهي كذلك ابداً ، واذا ترك العقل وحده لذاته معتمداً على قواه عجز عن ان يهدي الى الطريق عوداً ، لأن العقل لا يستطيع ان بعيد بناء ذاته ، ولا يستطيع معتمداً على جهوده ان يعود الى جوهره الاول الصافي . واذاصح له ان يتم له إصلاح حاله فلا يكون ذلك إلا بعون من قوة العناية الإلهية . هكذا هو العلم الانثروبولوجي الجديد ، كما فهمه اوغسطين ، وكما ظل في كل النظم الكبرى في فكر القرون الوسطى . حتى ان توما الاكوييني نفسه وهو تلميذ ارسطوطاليس الذي عاد يستمد الفلسفة الاغريقية من مصادرها لم يجرؤ على ان يحيد عن هذه العقيدة الأساسية . حقاً انه يولي العقل الانساني قوة أعلى بكثير مما أولاه اوغسطين ، ولكنه مقتنع بأن العقل لا يستطيع ان يستغل تلك القوى استغلالاً صحيحاً إلا اذا هدته وأثارت له طريقه عناية الله . وعند هذا الحد نكون قد وصلنا الى قلب كامل لكل القيم التي أعنتقتها الفلسفة الاغريقية . فما كان في تلك الفلسفة أعلى حق للانسان اصبح في المسيحية موضع نكسه وضلاله ، وما كان محط خيالاته أصبح مباءة ضيعته . وغدت الفكرة الرواقية التي ترى ان يطبع الانسان مبدأه الداخلي أي الضمير ، القابع في داخله - غدت هذه الفكرة تعد وثنية خطيرة .

ليس من الميسور عملياً أن أستمّر، في هذا المقام، في وصف طبيعة هذه النظرة الانثروبولوجية الجديدة، وأن احلّل دوافعها الاساسية، وأن أنتج مراحل تطورها، غير اني في سبيل أن اوضح فحواها سأتابع طريقة اخرى مختصرة، فالتفت الى مفكر ظهر في بداية العصور الحديثة ومنح هذا الاتجاه الانثروبولوجي قوة ورّواءً جديدين، ذلك هو بسكال الذي وجد فيه هذا الاتجاه آخر تعبير، وربما كان ذلك نفسه أقوى تعبير وأبعده أثراً، لأن بسكال كان مهياً لهذه المهمة على نحو لم يقدر لغيره من الكتاب؛ فقد اوتي موهبة لا تضاهى في توضيح أشد المسائل غموضاً، وفي تركيز أشد النظم الفكرية تشنّاً وتراكباً، وجمع شتاتها وضبطها، حتى يبدو انه لم يكن يستعصي شيئاً على مضاء فكره وانسياب اسلوبه؛ وفيه انحدت كل خصائص الادب الحديث مع خصائص الفلسفة الحديثة، الا انه يتخذ منها جميعاً سلاحاً يحارب به الروح الحديثة، روح ديكارت وفلسفته. وقد يبدو لأول وهلة ان بسكال يتقبل كل المقدمات الديكارتية ومقدمات العلم الحديث، إذ يرى انه ليس في الطبيعة ما يستطيع ان يقاوم جهد العقل العلمي، لأنه ليس ثمة ما يستطيع الوقوف في وجه الهندسة. وانها لحادثة مستغربة في تاريخ الافكار أن يكون البطل الذي يستند الفلسفة الانثروبولوجية المنتمية الى القرون الوسطى - بعد مضي تلك القرون - رجلاً من اعظم المهندسين واكثرهم عمقاً. وقد كتب بسكال وهو في السادسة عشرة من عمره مقالا في القطاعات المخروطية فتح به في الفكر الهندسي ميداناً شديداً الخصبية والثراء. غير انه لم يكن عالماً هندسياً عظيماً فحسب بل كان أيضاً فيلسوفاً، ولكونه كذلك لم ينغمس فحسب في المشكلات الهندسية وانما رغب في ان يفهم الفائدة الحقة للهندسة ويلدرك مداها وحدودها، ومن ثم قاده ذلك الى ان يقيم تمييزاً اساسياً بين «الروح الهندسية» و«الروح

الحادة او المرفهة . اما الروح الهندسية فانها تتمهر في تلك الموضوعات التي تقبل التحليل الكامل أي التي يمكن قسمتها الى عناصرها الاولى (١٥). فهي تبدأ بدهيات معينة ، ومن تلك البدهيات تستمد مستنبطات تبرهن على صدقها بقواعد منطقية شاملة . وتتماز هذه الروح بوضوح مبادئها وبالضرورة في نتائجها ، ولكن هذه المعالجة غير ميسورة دائماً في كل الامور ، فهناك أشياء تتحدى كل محاولة للتحليل المنطقي لما فيها من ارهاف ورواغ وتنوع غير محدود . واذا كان ثمة شيء لا بد من أن نعالجه بالطريقة الثانية فذلك الشيء هو عقل الانسان . فان مما يميز الانسان غنى طبيعته ورهافتها وتنوعها وتغيرها ؛ وإذن فان الرياضيات لا يمكن ان تصبح اداة لايجاد المبدأ الحق للانسان ، اي اداة لاثروبولوجيا فلسفية . ومن المضحك ان نتحدث عن الانسان كما لو كان فرضاً هندسياً . ويعتقد بسكال ان ايجاد فلسفة اخلاقية من خلال نظام هندسي أمر سخيف او حلم فلسفي . غير ان المنطق التقليدي والمتافيزيقي ليسا أحسن حالا من الهندسة اذا شئنا ان نحلّ لغز الانسان ونفهمه ، لأن قانونها الاول الاعلى هو قانون التضاد ، ولا يستطيع الفكر المنطق ، أي الفكر المتافيزيقي والمنطقي ، أن يدرك الا تلك الاشياء الباردة من التضاد ، أي التي تتمتع بحقيقة وطبيعة ثابتتين . الا ان هذا التجانس هو الشيء الذي لا نجده ابدأ في الانسان ، وليس من حق الفيلسوف ان يوجد انساناً من صنع يده بل عليه ان يصف انساناً حقيقياً وكل ما يسمى تعريفات للانسان ليس الا تأملات فارغة ما دامت لا تنبني على تجربتنا للانسان ولا تتأيد بهذه التجربة . ولا سبيل لمعرفة الانسان

١٥ — اذا شئت التمييز بين الروح الهندسية والروح المرفهة فقارن مقال بسكال « في الروح الهندسية » بمؤلفه « افكار » نشر تشارل لواندر (باريس ١٨٥٨) الفصل التاسع ص : ٢٣١ اما العبارات التي اشير اليها فانما اقتبسها من الترجمة الانجليزية التي قام بها أ. و. وايت (نيويورك ١٨٦١) .

الا بفهم حياته وسلوكه ، ولكن ما نجده ثمة يستعصي على كل محاولة نرمي
لحصره في قاعدة واحدة بسيطة ، لأن التضاد هو العنصر الحق في
الوجود الانساني . ليس للانسان « طبيعة » — أي ليس له وجود بسيط
متجانس ، فهو خليط غريب من الوجود والعدم وموضعه يقع بين هذين
القطبين المتقابلين .

وإذن فليس إلا سبيل واحد الى سرّ الطبيعة الانسانية ، وذلك هو
الدين ، لان الدين يدلنا على ان هناك انسانين : واحد قبل الهبوط وآخر
بعده ، وكان يُرجى للانسان أن يبلغ الهدف الاسمي إلا انه خسر مقامه ،
وضيّع بالهبوط قوته ، وانحرف فيه عقله وإرادته . فاذا فهنا الحكمة
الكلاسيكية « اعرف نفسك » بمعناها الفلسفي ، حسبما عني بها سقراط
وافقتينس ومارقس أوريليوس ، كان ذلك الفهم مضللاً خاطئاً فضلاً على
انه عادم الاثر . لا ، إن الانسان لا يستطيع ان يثق في نفسه وان يصني
لها ؛ عليه ان يخرس نفسه لسمع صوتاً أعلى وأصدق . « ماذا يكون
مصيرك ، من بعد ، أيها الانسان ، أنت يا من يفتش عن حاله الصحيحة
بعون من عقله الطبيعي ؟ اعلم ، إذن ، أيها المرء المستكبر أي نقيض انت
لنفسك . نظامن وضعياً أيها العقل الحصور . اصمتي ايتها الطبيعة الخرقاء .
تعلم ان الانسان يفوق الانسان ، على نحو غير محدود ، واسمع من سيدك
حالاً حالك الصحيحة التي تجهلها . اصغ الى الله »^(١٦) .

ليس المقصود مما قدمه بسكال هنا ان يكون حلاً نظرياً لمشكلة الانسان ،
فالدين لا يستطيع ان يقدم مثل هذا الحل ، وكثيراً ما انهم الدين
خصوصاً بأنه مظلم يعيا على الفهم ، ولكن مثل هذه التهمة تصبح
أعلى نوع من التقريظ اذا نحن تدبرنا غاية الدين الحق ؛ الدين لا يستطيع
(١٦) افكار : الفصل العاشر ، القسم الأول .

ان يكون واضحاً عقلاً فانه يقص علينا قصة غامضة قائمة ، قصة الخطيئة وهبوط الانسان ، ويكشف عن حقيقة ليس لها تفسير عقلي . فنحن لا نستطيع ان نحلل الخطيئة الانسان ، وهي لم تنتج ولم تحدث ضرورة لعل طبيعية ، ولا نستطيع ان نكشف عن العلة في الخلاص الانساني ، لأن هذا الخلاص يعتمد على عمل مبهم تقوم به العناية الالهية ، وانما "نُمتَحَهُ" مجازاً "وَنُحَرِّمُهُ" كذلك ، ولا نستحقه من أجل عمل انساني أو ميزة انسانية . واذن فان الدين لا يزعم ابداً انه يوضح خافية الانسان وهو انما يؤكد هذه الخافية ويعمقها ، ويتحدث عن إله يسميه « رب الغيب » . واذن فان الانسان الذي خلق على صورته لن يكون إلا خفياً مبهماً ، أي يبقى ذلك الانسان « امرأ الغيب » . وليس الدين « نظرية » عن العلاقة المتبادلة بين الله والانسان ، والجواب الوحيد الذي نتلقاه من الدين هو ان مشيئة الله قضت ان لا يبدو لعباده . « وبما ان الله قد احتجب عن الابصار فكل دين يقول : ان الله غير محتجب ، يعد ديناً خاطئاً ، وكل دين لا يقدم سبباً لذلك فانه دين صلد لا يفيد اتباعه علماً . والمسيحية تفعل ذلك كله حين تقول : « في الحق انت الإله المحتجب » (١٧) ، *Vere tu es Deus absconditus* لأن الطبيعة هي كذلك بحيث تدلنا على ان هناك إلهاً مخفياً في داخل الانسان وفي خارجه (١٨) . لذلك كان الدين - اذا صحّ القول - منطق السَّخَف ، لانه بهذا وحده يستطيع ان يبين على السخف ، أي على التضاد الداخلي ، أي على الوجود الانساني الموهوم . « والحق انه لا مبدأ كهذا المبدأ يؤثر فينا بجفاء ، غير اننا دون هذا السرّ ، وهو أشد الاسرار استعصاء على الادراك ، لا ندرك نحن ذاتنا .

١٧ - أفكار : الفصل : ١٢ القسم : ٥

١٨ - المصدر نفسه : الفصل : ١٣ القسم : ٣

ان عقدة وضعنا هذا لتلتف وتتعقد وتدور في هذه الهوة . ولو قارنا بين الانسان وهذا السر لوجدنا ان الانسان يزداد بعداً عن الادراك اذا تخلى عنه هذا السر ، باكثر مما يتأبى هذا السر نفسه على ادراك الانسان (١٩) .

— ٣ —

إن ما نفهمه من مثل موقف بسكال هو ان المشكلة القديمة كانت في بداية العصور الحديثة لا تزال هنالك بكل قوتها ، وحتى بعد ظهور كتاب ديكارت « مقال في المنهج » كان العقل الحديث ما يزال يصارع الصعوبات نفسها ، وقد وقع ذلك العقل نهياً بين حلين لا يرجى فيهما التقارب . لكن في الوقت نفسه بدأ تطور عقلي بطيء تحول به السؤال عن ماهية الانسان تحولاً آخر ، وبه ارتفع الى مستوى أعلى . وكان الشيء الهام في ذلك المقام ليس هو استكشاف حقائق جديدة ، فذلك إنما يكون ثانوياً في أهميته بالنسبة لاستكشاف وسيلة فكرية جديدة . ولأول مرة دخلت الروح العلمية بمعناها الحديث في نطاق الوسائل الفكرية ، وأصبح البحث ينتجه إلى إيجاد نظرية « عامة » عن الانسان مبنية على الملاحظة التجريبية وعلى المبادئ المنطقية العامة . وكان أول فرض لهذه الروح العلمية الجديدة أنها رفعت كل الحواجز المصطنعة التي كانت حتى عهدئذ تفصل العالم الانساني عن سائر الطبيعة . لا بدءاً لكي نفهم نظام الاشياء الانسانية من ان نبدأ بدراسة النظام الكوني ، وهذا النظام الكوني يتجلى لنا تحت أضواء جديدة كل الجدة ، وسيكون هذا العلم

لروح العلمية
أثرها في
إيجاد نظرية
لإنسان

الكوني الجديد الذي يتحدث عن نظام مركزه الشمس ، كما اهتمى اليه كوبرنيكس ، هو القاعدة العلمية الرصينة - الوحيدة - لهذا الاتجاه الانثروبولوجي الجديد .

وما كان علم ما وراء الطبيعة ولا دين القرون الوسطى ولاهوتها ، مهياين لهذه المهمة . فالمتافيزيقا والدين على اختلاف وسائلها وغاياتها يرتكزان إلى مبدأ مشترك ، كلاهما يعتبر الكون نظاماً ذا درجات ، يقف الانسان في ذروته . ولقد قالت الفلسفة الرواقية وقال اللاهوت المسيحي ان الانسان غابة الكون ، وكلتا العقيدتين تؤمن بأن ثمة عناية عامة تحكم العالم وتتحكم في مصير الانسان ، وهذا المبدأ من الفروض والمقدمات الاساسية في كل من الفكرين : الرواقي والمسيحي^(٢٠) . وفجأة نجد العلم الكوني الجديد يثير التساؤل حول هذا كله ، واذا القول بأن الانسان مركز الكون ينهار ، واذا بالانسان يوضع في موضع غير محدود يمثل فيه كيانه نقطة مفردة قابلة للتلاشي ، ويحيط به كون صامت ، عالم لا يستجيب لمشاعره الدينية ولا يلبي أعمق مآربه الخلقية .

ومن السهل ان نفهم كيف كان رد الفعل الاول لهذا المفهوم الجديد عن الكون رداً سالبياً ، رداً من الشك والخوف ، وانه كان من الضروري ان يكون كذلك وألا يكون إلا كذلك . حتى كبار المفكرين لم يستطيعوا ان يكونوا بنجوة من هذا الشعور ، فلقد قال بسكال : « ان الصمت الابدي لهذه المسافات غير المحدودة ليذهني »^(٢١) واصبح نظام كوبرنيكس من أقوى الادوات في الشك في الفلسفة والادارية اللتين

٢٠ - في فكرة العناية لدى الرواقية انظر مثلاً ماركس أوريليوس ، المصدر نفسه :

الكتاب الثاني ، الفقرة : ٣

٢١ - بسكال ، المصدر نفسه ، الفصل : ٢٥ القسم ١٨

تطورتا في القرن السادس عشر ، ولقد انتقد مونتين العقل البشري فاستعمل في نقده له كل الجدل التقليدي المشهور الذي كان لدى الشكيين اليونان ، الا انه أضاف اليه سلاحاً جديداً كان في يديه عظيم القوة بالغ الأهمية ، ذلك هو نظرتنا المنصفة الى العالم المادي حولنا ، تلك النظرة التي تفوق كل شيء سواها في تحطيم كبرياء العقل الانساني ، وفي ردنا الى الضعة والاذلال . فهو يقول في عبارة مشهورة وردت في « دفاع عن رمون سييون » :

« دع الانسان يُفهمني بقوة عقله على أي الاسس أقام تلك المميزات الكبرى التي يظن انه يتميز بها عن سائر المخلوقات . من الذي جعله يعتقد ان هذه الحركة المدهشة في الفلك السماوي وذلك الضوء الازلي المنبعث من كواكب تسير عالية فوق رأسه ، وان تحركات ذلك المحيط اللاحدود ، وهي حركات مدهشة مخيفة - من الذي جعله يعتقد ان هذه جميعاً انما اقيمت واستمرت على مدى الزمن من اجل خدمته ومنفعته ؟

« هل في الامكان ان نتصور شيئاً ادعى للسخرية من أن يزعم هذا المخلوق البائس النفس انه سيد هذا العالم وامبراطوره الفرد ، وهو لا يملك زمام نفسه بل هو عرضة للاذى يأتيه من كل الاشياء ، وكيف يحكم الكون كله وليس لديه القدرة على ان يعرف أصغر جزء منه ؟ » (٢٢).

والانسان ينزع دائماً الى ان يعتبر الدائرة الصغيرة التي يعيش فيها مركزاً للعالم وان يجعل حياته الخاصة مقياساً للكون ، ولكن عليه ان يتخلى

٢٢ - مقالات مونتين ، الجزء الثاني الفصل : ١٢ ، الترجمة الانجليزية من صنع وليم هازلت في « مؤلفات ميشيل دي مونتين » (الطبعة الثانية ، لندن ١٨٤٥) ص : ٢٠٥ .

عن هذه الدعوى الجوفاء وعن هذه النظرة الضيقة الصغيرة في التفكير والحكم :

« عندما يكوي الصقيع كروم قريننا يستنتج القسيس على التو أن غضب الله قد انطلق ضد الجنس البشري .. ومن ذا الذي يرى هذه الفتن والحروب الالهية بيننا ولا يجار صارخاً بان آلة العالم كله قد أخذت تتعطل وان يوم القيامة قد اصبح وشيكاً ! ولكن الانسان الذي يمثل في خياله الصورة العظمى لأننا الطبيعة ، وقد تصورت بكامل عظمتها ولألائها - الانسان الذي يقرأ في وجهها تنوعاً عاماً مستمراً - الانسان الذي يرى نفسه في ذلك الشكل - لا نفسه فحسب بل مملكة بأسرها - يرى انها لا تزيد في حجمها عن خدش بقلم بالنسبة الى الكل " كله ، - ذلك الانسان وحده هو الذي يستطيع ان يقوم الاشياء حسب قيمها الحقة وأبهرتها » (٢٣) .

إن كلمات مونتين لتقدم لنا مفتاحاً لكل تطور تال في النظرية الحديثة عن الانسان ، فقد كان على الفلسفة الحديثة والعلم الحديث ان يتقبلا التحدي الذي اشتملت عليه هذه الكلمات ، وكان عليهما ان يثبتا ان النظرة الكونية الجديدة تؤثل لقوة العقل الانساني وتؤيدها ، وانها لذلك بعيدة كل البعد عن ان تضعفها او تعوقها ، كذلك كانت مهمة الجهود التي بذلتها النظم المتنافسية في تضافرها معاً في القرنين السادس عشر والسابع عشر ؛ وقد سلكت هذه النظم طرقاً مختلفة ولكنها جميعاً توجهت نحو غاية واحدة ، أي انها جميعاً حاولت ان تقلب لعنة النظام الكوبرنيكي

٢٣ - مقالات مونتين ، الكتاب الأول ، الفصل : ٢٥ من الترجمة الانجليزية ص : ٦٥ وما

بعدها .

الى بركة ، وكان جوردانو برونو اول مفكر أدلج في هذه السبيل التي
اصبحت سبيل كل ضروب المتافيزيقا الحديثة .

اما الذي يميز فلسفة جوردانو برونو فهو ان مصطلح « لانهائي »
تغير معناه عنده ، فقد كانت « اللانهائية » في الفكر اليوناني الكلاسيكي
مبدأً سالباً ، إذ تعني ان اللانهائي هو ما لا حدود له ، أي هو ما لم
يكن له حدٌ او صورة ومن ثم فالعقل الانساني يعجز عن الوصول اليه ،
لأن العقل الانساني يعيش في دنيا الصور ولا يستطيع ان يفقه إلا
الاجسام . وبهذا المعنى استعمل افلاطون لفظي نهاي Pèras ولا نهاي
A Peiron في كتابه فيلبس Philebus ليدلا على مبدأين اساسيين متعارضين
بالضرورة . أما في نظرية برونو فان اللانهائية لم تعد تعني محض سلب
او تحديد ، بل اصبحت على العكس من ذلك تعني وفرة الحقيقة الى
حدٍّ لا يمكن قياسه أو استنفاده ، وتعني القوة التي لا تكبح لدى العقل
الانسائي . وبهذا المعنى يفهم برونو نظرية كوبرنيكس ويفسرهما ، فهي في
رأيه الخطوة الاولى الحاسمة للتحرر الذاتي لدى الانسان ، لأن الانسان لم
يعد يعيش في الكون عيش السجين الذي سدّت دونه ابواب العالم المادي
المحدود ، بل أصبح قادراً على ان يخترق الهواء ، وان ينفذ من خلال
الحدود المتوهمّة في الافلاك السماوية ، تلك الحدود التي نصبتها دونه
المتافيزيقا والفلسفات الكونية الزائفة (٢٤) . اما العالم اللاحدود فانه لا يضع
امام العقل الانساني حدوداً بل هو على العكس حافز للعقل الانساني ،
وبهذا يصبح الذكاء الانساني على وعي بأنه غير محدود لانه يقيس قواه
عن طريق الكون اللانهائي .

٢٤ - انظر تفصيلات اخرى في كتاب كاسير « الفرد والكون في فلسفة مصر
النهضة » (ليزج ١٩١٧) ص : ١٩٧ وما بعدها .

كل هذا قد حبر عنه برونو في كتابه بلغة شعرية لا علمية ؛ وكانت النظرية الرياضية عن الطبيعة ، وهي العالم الجديد للعلم الحديث ، ما تزال مجهولة لديه ، ومن ثم لم يستطع ان يتابع طريقه الى نهايتها المنطقية ، ولذلك فان التغلب على الازمة الفكرية التي احدها استكشاف نظام كوبرنيكس قد استنزف جهود كل المتأفقيين والعلماء ، مجتمعة متضافرة ، في القرن السابع عشر ؛ وكان لكل مفكر عظيم مثل جاليليو وديكارت وليبنز وسبينوزا نصيبه الخاص في حل هذه المشكلة . أما جاليليو فيؤكد ان الانسان يصل في ميدان الرياضيات ذروة كل المعرفة الممكنة - وهي معرفة ليست ادنى من المعرفة التي لدى العقل الالهي . والحق ان العقل الالهي ليعرف ويختزن عدداً غير محدود من الحقائق الرياضية اكثر مما لدينا ولكن بالنظر لليقين الموضوعي نجد ان الحقائق القليلة التي يعرفها العقل الانساني معروفة لدى الانسان على نحو كامل مثلما هي معروفة لدى الله نفسه (٢٥) .

جاليليو
والرياضيات
حل مشكلة
الانسان

وأما ديكارت فيبدأ بشكك العام الذي يغلق على الانسان حدود وعيه ثم كأنما لا يخرج له من هذه الحلقة السحرية - أي لا بلوغ الى الحقيقة . ولكن هنا نجيء فكرة اللانهاية لتكون الوسيلة الوحيدة إلى طرح الشك العام ، فبوساطة من هذه الفكرة وحدها نستطيع أن نجلو حقيقة الله ، فنجلو بشكل غير مباشر حقيقة العالم المادي . ويجمع ليبنز بين هذا البرهان المتأفريقي وبرهان علمي جديد فيستكشف وسيلة جديدة من التضمير الرياضي - أعني حساب التفاضل والتكامل - وعلى حسب قواعد هذا

ليبنز

٢٥ - جاليليو : « حوار في النظامين العظيمين في الكون » ، الجزء الاول (الطبعة الالهية)
الفصل السابع : ١٢٩ .

الحساب يصبح الكون المادي قابلاً للفهم ، أما قوانين الطبيعة فليست
الا حالات خاصة من قوانين العقل العامة .

وكان سبينوزا هو الذي تجرأ على ان يخطو الخطوة الاخيرة الحاسمة في هذه
النظرية الرياضية عن الكون والعقل الانساني ، وقد أنشأ سبينوزا فلسفة
اخلاقية جديدة ، أنشأ نظرية من الرغبات والعواطف ، نظرية رياضية
للعالم الاخلاقي . فهو مقتنع باننا لا نصل غايتنا إلا بهذه النظرية وحدها ،
وغايتنا هي ايجاد فلسفة للانسان ، فلسفة انثروبولوجية بارثة من الاخطاء
والانحرافات التي قد يحتويها نظام يرتكز على محض الانثروبولوجيا دون
عون من الرياضيات . وهذا هو الموضوع العام الذي يتخلل بكل أشكاله
كل النظم المتأفريقية في القرن السابع عشر ، أعني البحث عن حل عقلي
لمشكلة الانسان . وقد رأى هؤلاء الباحثون أن العقل الرياضي هو حلقة
الوصل بين الانسان والكون ، لانه يسمح لنا أن ننقل من احدهما الى
الآخر دون عائق ، فالعقل الرياضي هو المفتاح الصحيح لكي نفهم النظام
الكوني والاخلاقي فهماً صحيحاً .

سبينوزا

- ٤ -

وفي سنة ١٧٥٤ نشر ديدرو سلسلة من المأثورات والحكم سماها
« خواطر في تفسير الطبيعة » ، وفي هذه المقالة أعلن ان تفوق الرياضيات
في ميدان العلم لم يعد أمراً يمضي بالتسليم دون ادنى اعتراض ، واكد
ديدرو ان الرياضيات قد بلغت درجة عالية من الكمال حتى ان تجاوزها
ذلك الحد اصبح أمراً غير ممكن ، ومن ثم فان الرياضيات ستبقى راکدة

ديدرو
وتناقض
الايان
بالرياضيات

متوقفة حيث بلغت :

« لقد بلغنا لحظة ثورة كبرى في العلوم ، فنحن في وقت تظهر النفوس فيه حرصها على علم الاخلاق والآداب والتاريخ وتاريخ الطبيعيات والفيزياء التجريبية ، غير اني أكاد أجرو على القول بانه قبل ان يمر مائة عام لن يكون في مقدورنا أن نعد ثلاثة من علماء الهندسة في أوروبا ، ولن هذا العلم سيقف حيث تركه برويني وايلير وليموبارتي ولامبرت وتلامذتهم ، هؤلاء قد استطاعوا ان يضعوا أعمدة هرقل ، الا انه لا شيء بعد ذلك » (٢٦) .

يعتبر ديدرو واحداً من الممثلين العظام لفلسفة القرن الثامن عشر التجريبية Enlightenment . وهو يقف في مركز كل الحركات العقلية في عصره لأنه أشرف على إعداد الموسوعة (Encyclopédie) ، وكان ذا بصر شامل في التطور العام للفكر الفلسفي على نحو لم يحوزه احد غيره ، ولا كان لأحد سواه ما له من شعور حاد متنبه على كل التزعات والميول في القرن الثامن عشر . ولكن مما يفرد ديدرو ، فوق كل شيء آخر ، انه - وهو يمثل مُثُلَ الفلسفة التجريبية - بدأ يشك في الصحة المطلقة لتلك المثل ، فكان يتوقع نشوء شكل جديد من أشكال العلم ، نشوء علم ذي صبغة محسوسة أكثر من ذي قبل ، مؤسس على ملاحظة الحقائق أكثر من ان يكون مؤسساً على افتراض المبادئ العامة . وكان ديدرو يرى اننا غالبنا كثيراً في تقدير مناهجنا المنطقية والعقلية ، فنحن نعرف

٢٦ - ديدرو : « خواطر في تفسير الطبيعة » القسم الرابع وانظر ايضاً القسمين ١٧ ، ٢١ .

• مدرسة فلسفية في القرن الثامن عشر تمتاز بالتساؤل حول السلطة والبحث في نظريات السياسة وتؤكد المنهج التجريبي في العلم ، وللمؤلف عنها كتاب مفرد وهي قسم مفكرين من شتى البلاد يعد فيهم ديدرو ومونتسكيو وفولتير وهيوم وجيكون وسويفت وغيرهم . (المترجم)

كيف نقارن الحقائق وننظمها ونصنفها ، ولكننا لم نهيء تلك المناهج التي تمكننا من ان نستكشف حقائق جديدة ، ولا يزال يستولي علينا الوهم بأن الانسان الذي لا يعرف كيف يحسب ثروته ليس أحسن وضعاً من الانسان الذي لا يملك ثروة ابداً . ولكن "تغلبنا على هذا الهوى سيتم في وقت قريب ، وعندئذ نكون قد بلغنا نقطة جديدة سامقة في تاريخ العلم الطبيعي .

هل تحققت نبوءة ديدرو ؟ هل أيد نظراته تطوّر الافكار العلمية في القرن التاسع عشر ؟ لا ريب في ان خطأه واضح في احدى النقاط ، فقد دلت الشواهد على خطأ قوله بأن الفكر الرياضي سيقف صلباً متحجراً وان رياضيي القرن الثامن عشر قد أقاموا « أعمدة هرقل » . ويجب ان نضيف الى الصفوة من مفكري القرن الثامن عشر : جاكوب وريمان وفاير شتراس وبوانكاريه ، فحينما ولينا وجوهنا في القرن التاسع عشر وجدنا انتصاراً إثر انتصار للافكار والمبادئ الرياضية الجديدة . ومع هذا كله فان نبوءة ديدرو كانت تحوي شذرة من الصدق ، لأن البدعة التي احدثها القرن التاسع عشر في البناء الفكري انما كانت في المكان الذي يشغله الفكر الرياضي في سلم العلوم . كان ذلك المكان من قبل هو الذروة واذا الفكر البيولوجي ينتزع الذروة من الفكر الرياضي . وكنت ما تزال تجد في النصف الاول من القرن التاسع عشر بعض المتأفزيقيين امثال هربرت او بعض السيكلوجيين امثال ج . ث . فخر الذين كان الامل بخابليهم بايجاد سيكلوجيا رياضية ، ولكن هذه المرامي تلاشت بعد ان نشر كتاب داروين « في أصل الانواع » ومن ثم بدا كأننا نحدد الطابع الحق للفلسفة الانثروبولوجية جملة وتفصيلاً ، وان فلسفة الانسان وقفت بعد محاولات عديدة غير مجدية على أرض صلبة ، ولم نعد نحتاج ان نستغرق في تأملات

لداروينية
الاتجاه
بيولوجي
لل مشكلة
لإنسان

هوائية ، لاننا لم نعد نبحث عن تعريف عام لطبيعة الانسان أو جوهره ،
إذ أصبحت مهمتنا أن نجمع الشواهد التجريبية التي وضعتها نظرية التطور
العامة تحت أيدينا بمقادير ثرة وفيرة .

هكذا كان الرأي الذي يشترك في الايمان به علماء القرن التاسع عشر
ومفكروه . وقد تكون حقائق التطور التجريبية هامة لتاريخ الافكار العام
ولتطور الفكر الفلسفي ، إلا أن شيئاً آخر غدا أهم منها وذلك هو التفسير
النظري لتلك الحقائق . ولم تكن تلك الشواهد التجريبية تتحكم في هذا
التفسير على وجه غامض ، وإنما كانت تتحكم فيه مبادئ أساسية ذات طابع
متافيزيقي محدد . وكانت هذه النزعة المتافيزيقية في التفكير التطوري قوة
كامنة دافعة ، وإن قلّ الاعتراف بها كذلك . ولم تكن نظرية التطور
بالمعنى الفلسفي العام ابتكاراً جديداً بأي حال ، وإنما كانت قد وجدت
تعبيراً قديماً عنها في سيكولوجيا أرسطوطاليس ، وفي نظريته العامة الى
الحياة العضوية . ومقطع الفرق بين مفهوم أرسطوطاليس للتطور والمفهوم
الحديث هو أن أرسطوطاليس أوجد تفسيراً صورياً بينما حاول المحدثون
أن يوجدوا تفسيراً مادياً . فقد كان أرسطوطاليس يؤمن بأننا من أجل
ان نفهم الخطة العامة للطبيعة وأصول الحياة فيجب ان نفسر الصور
الدنيا منها على ضوء الصور العليا . وإذا عرفنا أرسطوطاليس النفس في
« ما وراء الطبيعة » بقوله : « إنها التحقيق الاول للجسم الطبيعي الذي
يملك الحياة بالقوة » فانه بهذا يرى الحياة العضوية من خلال الحياة
الانسانية ويفسرها كذلك . فالطابع الغائي في حياة الانسان منعكس على
كل دنيا الظواهر الطبيعية . أما النظرية الحديثة فتجعل هذا النظام مقلوباً ،
فما كان يسميه أرسطوطاليس عللاً أولى أصبح يسمى « ببارستان الجهال » .
وكان من اهداف داروين الكبرى ان يحمر الفكر الحديث من خدع العلل

قدم نظرية
التطور

الاولى ، وان يحولنا الى فهم مبنى الطبيعة العضوية عن طريق العلل المادية وحدها ، وإلا اخفقنا في فهمها اطلاقاً . إلا ان ارسطوطاليس يسمي ^{أقول} ^{نفس العلل} ^{لأرسطوطاليس} ^{وقية} ^{المصادفة} العلل المادية عللاً « عارضة » وقد أكد بالحاح ان فهم ظاهرة الحياة بوساطة العلل العارضة امرٌ مستحيل ، فجاءت النظرية الحديثة وتقبلت هذا التحدي ، فقال المفكرون المحدثون انهم نجحوا حتماً — بعد عديد من المحاولات المخفقة في الازمات السابقة — في التعليل للحياة العضوية باعتبارها وليدة المصادفة . فالتغيرات العارضة التي تحدث في كل جسم عضوي ، كافية لتفسر التحول التدريجي الذي يقودنا من أبسط صور الحياة في ذي الخلية الواحدة الى اعلى الصور واشدها تعقيداً . ولدى داروين نفسه نجد تعبيراً عن هذه النظرة بعدد من اشد التعبيرات تأثيراً ولفتاً للنظر — مع ان داروين في العادة قليل الميل الى التحدث عن افكاره الفلسفية — وهو يقول في نهاية كتابه « تغير الحيوانات والنباتات لدى تألفها » :

« أكثر الأنواع تميزاً وكذلك الوحدات الواقعة تحت فصيلة واحدة مثل الثدييات والطيور والزواحف والأسماك ، ولا أقول الاجناس الالهية المتنوعة فحسب ، كل تلك انحدرت من جد أعلى واحدٍ مشترك ، ويجب ان نسلم بأن المقدار الكبير من الاختلاف بين هذه الصور انما نشأ في البدء من قابليتها البسيطة للتنوع ، فاذا نظرنا الى الموضوع تحت هذه النظرة فان ذلك يكفي ليعقد لسان المرء بالدعشة ، ولكن دهشتنا يجب ان تنقص حين نتصور ان الاحياء ، وهي لا تحصى عدداً ، خلال زمن لا يحصى عدداً ، قد اتخذت لها تنظيمها الكامل ، وهو مرن الى حد ما ، وان كل تعديل طفيف في مبناها مفيد لها تحت ظروف من الحياة شديدة التعقيد ، ظل لها وظلت محتفظة به ، وان كل تعديل كان

ضاراً قد أُعدمَ بشدة وعنف . واستمر حشد التنوعات المفيدة مدى طويلاً فأدى هذا بالضرورة الى ايجاد كيانات متميزة قابلة - على نحو جميل - لمختلف الاغراض والغايات ، متائلة - على نحو ممتاز - كما نرى في النباتات والحيوانات من حولنا . من ثمَّ قلت : ان الاختيار هو القوة العظمى سواءً استعمله الانسان لتكوين سلالات أهلية او استعملته الطبيعة لتوليد الانواع ... ولو ان بناء أراد ان يبني صرحاً سامقاً رحباً مريحاً دون ان يستعمل حجارة « مدقوقة » وانما بأن يختار من القطع التي يجدها في قاع احدى الوهاد حجارة اسفينية للأقواس وحجارة مستطيلة للعتبات وأخرى مسطحة للسقف لأعجبنا بمهارته واعتبرناه قوة عظمى . فلهذه القطع من الحجارة - وهي في نظر البناء لا غنى عنها - علاقة بالصرح الذي بناه هي عين العلاقة القائمة بين التنوعات المتغيرة في الكائنات العضوية والكيانات المتنوعة المعجبة التي انتحلها في النهاية نسل تلك الكائنات بعد ان واجهوا التعديل على مدى الزمن » (٢٧) .

بقيت خطوة اخرى ، أو لعلها أهم خطوة كان لا بد لها من ان تتم قبل ان تتمكن الفلسفة الانثروبولوجية الحقة من التطور . فقد حطمت نظرية التطور الحدود المزعومة بين الصور المختلفة من الحياة العضوية حين صرحت بأن ليس ثمة انواع متباينة ، وانما هناك تيار واحد مستمر غير منقطع من الحياة . لكن هل في مقدورنا ان نطبق هذا المبدأ نفسه على الحياة الانسانية والحضارة الانسانية ؟ أياكون العالم الحضاري كالعالم العضوي

هل العالم
الحضاري
كالعالم
العضوي؟

٢٧ - داروين : « تغير الحيوانات والنباتات لدى تألفها » (نيويورك ، د . أبلتون وشركاء ١٨٩٧) الجزء الثاني ، الفصل : ٣٨ ، ص : ٤٢٥ وما بعدها .

مصنوعاً من تغيرات عارضة ؟ أليس لهذا العالم كيان غائي محدد لا يمكن نكرانه ؟ بهذا كله برزت مشكلة جديدة أمام الفلاسفة الذين اتخذوا نظرية التطور العامة نقطة بدء في تفكيرهم ، اذ كان عليهم ان يثبتوا ان العالم الحضاري ، عالم المدنية الانسانية يمكن رده الى بضعة حلل عامة تشترك في احداث الظواهر الطبيعية والظواهر التي تسمى روحية على حد سواء . وذلك هو النوع الجديد من فلسفة الحضارة الذي جاء به هيوليت تين في كتابيه « فلسفة الفن » و « تاريخ الأدب الانجليزي » ، قال تين :

« في هذا المقام ، كما هي الحال في كل مقام آخر ، ليست لدينا الا مشكلة آلية تعتمد النتيجة الكلية فيها على عظم العلل المولدة واتجاهها نعم تختلف العلوم الاخلاقية عن الطبيعة في وسائل الدلالات ، ولكن المادة فيها واحدة لانها يتركبان من قوى وحجوم واتجاهات ومن ثمّ يمكننا ان نقول : إن النتيجة في كل طائفة منهما تتولد من منهج واحد » (٢٨) .

ويحيط بالحياة الطبيعية والحياة الحضارية حلقة حديدية واحدة هي حلقة الحتمية والضرورة ، ولا يستطيع الانسان ان يحطم هذه الحلقة السحرية وينفذ منها في مشاعره وميوله وافكاره وفيما ينتج من آثار فنية . وقد نعدّ الانسان حيواناً من نوع راقٍ ينتج فلسفات وقصائد بالطريقة عينها التي تنتج بها دودة القز شرانقها او تبني بها النحلة خلاياها . ويقرر تين في مقدمة كتابه « اصول فرنسا المعاصرة » انه يريد ان يدرس تحول فرنسا من حيث هو نتيجة للثورة الفرنسية كما لو كان يدرس « تطور حشرة » . وها هنا يثور سؤال آخر : أيمكننا ان نقنع بعدد الدوافع المختلفة التي

٢٨ - تين : « تاريخ الادب الانجليزي » ، الترجمة الانجليزية من صنع ه . فان لون (نيويورك ، هولت وشركاء ١٨٧٢) ١ : ١٢ وما بعدها .

نجدها في الطبيعة الانسانية على نحو تجريبي خالص ؟ اذ ان البصر العلمي يرى ان لا بد من تصنيف هذه الدوافع وتنظيمها . ومن الواضح انها ليست جميعاً في مستوى واحد ، وعلينا ان نفترض انها ذات كيان محدد . ومن اولى المهمات وأهمها في اتجاهنا السيكولوجي وفي نظريتنا الحضارية ان نستكشف هذا الكيان ، علينا ان نجد في هذا الدولاب المعقد الدوار للحياة الانسانية قوة " خبيثة " دافعة " نحرك آلية تفكيرنا وارادتنا جميعاً . وقد كانت غاية هذه النظريات كلها هي البرهنة على وحدة الطبيعة الانسانية وتجانسها ، ولكن لو فحصنا هذه التفسيرات التي قدر لتلك النظريات ان تقدمها لوجدنا ان وحدة الطبيعة الانسانية امر محوط بالشك الكثير . كل فيلسوف يعتقد انه وجد النبع أو الفكرة الرئيسية *L'idée maitresse* كما سماها تين ، ولكن التفسيرات تختلف اختلافاً واسعاً ويعارض احدها الآخر حول طبيعة هذه الفكرة الرئيسية . وكل مفكر على حدة يقدم لنا صورته التي رسمها للطبيعة الانسانية ، وكل هؤلاء الفلاسفة تجريبيون حتميون يروننا الحقائق ولا شيء سواها ، غير ان تفسيرهم للشواهد التجريبية يضطلع منذ الخطوة الاولى بفرض تعسفي ، وتزايد التعسفية المتحكمة وتنضج تدريجياً كلما تقدمت النظرية في خطاها وتتخذ لها مظهراً اكثر انقائاً واشد تضليلاً . فيعتقد نيتشه مبدأ ارادة القوة ، ويفرد فرويد غريزة الجنس بالتمييز ، ويعلي ماركس من شأن الغريزة الاقتصادية ، وتصبح كل نظرية مثل سرير بروكرست . ، تخطئ عليها الحقائق التجريبية لكي تصبح مفصلة على قدر النموذج مقدّر موضوع .

ومن جراء هذا التطور فقدت نظرية الانسان الحديثة مركزها الفكري

• [في الاساطير ان بروكرست كان يتصدى للمسافرين فيأمر الواحد منهم ويضمه على سرير ، فان كان الرجل أقصر من السرير مط اطرافه ليصبح بطوله ، وإن كان اطول قص ما زاد منه] . (المترجم)

المذاهب
الفردية لحل
المشكلة

واحرزنا بدلا من ذلك فرضي فكرية . نعم كان في الازمان السابقة نقص عظيم في الآراء والنظريات المتصلة بهذه المشكلة ، ولكن بقي لها ، على الاقل وجهة عامة - بقي لها مأتى ومورد تُرَدُّ اليه كل الخلافات الفردية . لقد انتحلت المتافيزيقا فاللاهوت فالرياضيات فالبيولوجيا ، على التوالي ، قيادة الفكر الانساني وهدبه في مشكلة الانسان ، وحددت وجهة البحث ، ولكن الازمة الحقيقية في هذه المشكلة كشفت عن وجهها حينما انعدمت القوة المركزية التي كانت قادرة على توجيه كل القوى الفردية . نعم ان الاهمية الكبرى لتلك المشكلة ظلت ملغوسة في مختلف فروع البحث والمعرفة ، ولكن المثابة التي يحور اليها المرء قد عفت . واصبح كل فريق من العلماء من لاهوتيين وطبيين وسياسيين واجتماعيين وبيولوجيين وسيكولوجيين واثولوجيين واقتصاديين ينفذون الى معالجة المشكلة كل من زاويته الخاصة فاصبح جمع هذه المظاهر والاساليب وتوحيدها معاً امرأ محالاً ، بل لم تعد هناك قاعدة علمية مقبولة قبولا عاماً في الميدان الواحد من الميادين العلمية ، ففدا العامل الشخصي هو المسيطر ، وأصبحت ميول الكاتب هي التي تلعب الدور الحاسم في المسألة : « كل امرئ يفضحه هواه » Trahit sua quemque voluptas وبالتالي انقاد كل مؤلف الى رأيه الذاتي وطريقته في تقويم الحياة الانسانية .

ولا ريب في ان هذا التخاصم بين الافكار لا يمثل فحسب مشكلة نظرية خطيرة ، بل هو أيضاً خطر كبير يهدد حياتنا الاخلاقية والحضارية على مدى اتساعها . وقد كان ماكس شيلر في الفكر الفلسفي الحديث من اول من تنبهوا لهذا الخطر واعلموه بعلاماته . فقد قال شيلر :

« ما كان الانسان في فترة من فترات المعرفة الانسانية كما هو اليوم في عصرنا هذا مثاراً مشكلة لذاته ، لقد أصبحت لدينا

انثروبولوجيا علمية واخرى فلسفية وثالثة لاهوتية ، وما من واحد من هذه القروع يعرف ما لدى الفرع الآخر . لذلك لم نعد نمتلك فكرة واضحة ثابتة عن الانسان ، فان ازدياد تكثر العلوم التي تنهمك في دراسة الانسان قد زاد فكرتنا عن الانسان فوضى وغموضاً بدلاً من ان يوضحها (٢٩) .

كذلك هو الموقف الغريب الذي وجدت الفلسفة الحديثة نفسها فيه ، ولم يكن لدى عصر من العصور موقف خير من موقف هذا العصر اذا نحن اعتبرنا مصادر المعرفة التي أحرزناها عن الطبيعة الانسانية ، فقد جمعت السيكلوجيا والاثنولوجيا والانثروبولوجيا والتاريخ حصيلة كبيرة من الحقائق ذاهبة في ازدياد على الدوام ، وتحسنت وسائلنا الفنية في الملاحظة والتجربة بقدر كبير ، وأصبحت تحليلاتنا أمضى وأكثر نفاذاً ، ومع ذلك كله يبدو اننا لم نجد منهجاً للسيطرة على هذه المادة وتنظيمها . واذا قارنا الماضي بما جمعناه وحصلناه بدا لنا الماضي مدقماً فقيراً ، ولكن الغنى الذي أحرزناه في تكديس الحقائق لا يعني بالضرورة انه غنى في الافكار ، واذا لم ننجح في الاهتمام الى بصيص يخرجنا من شعاب هذا التيه لم يكن لدينا بصر حقيقي نافذ لتعرف الصبغة العامة في الحضارة الانسانية ، وسنبقى تائهين بين اكوام متفرقة مشعة من المعلومات التي تفتقر ، فيما يبدو ، الى وحدة فكرية .

غنى في طرق
المعرفة وفقر
في المنهج
الموحد

٢٩ - ماكس شيلر : موقف الانسان في الكون ، دارمشتات ، ريشل ١٩٢٨ ، ص : ١٣

وما بعدها .

الرمز - سبيل التعرف الى طبيعة الإنسان

كتب العالم البيولوجي يوهان فون بوكسكل كتاباً راجع فيه النظر في مبادئ البيولوجيا مراجعة نقدية . وعرف بوكسكل البيولوجيا بأنها علم طبيعي لا بد له من ان يتطور بواسطة المناهج التجريبية المعروفة - أي مناهج الملاحظة والتجريب . اما الفكر البيولوجي ، من الناحية الاخرى فانه لا ينتمي الى نفس النوع الذي ينتمي اليه الفكر الفيزيائي او الكيماوي . ويقف بوكسكل وقفة مطلقة في جانب المذهب الحيوي فهو يسند مبدأ استقلال الحياة أي يرى ان الحياة حقيقة قائمة بذاتها معتمدة على نفسها ولا يمكن وصفها او توضيحها عن طريق علم الطبيعة او الكيمياء . ومن هذه الزاوية يقيم بوكسكل مذهباً عاماً جديداً في البحث البيولوجي ، وهو في فلسفته مثالي او ظواهري Phenomenalist . ولكن ظاهريته لا تنبني على الاعتبارات المتافيزيقية او المنطقية وانما هي مؤسسة على المبادئ التجريبية وهو يشير الى انه قد يكون نوعاً من التثبت الساذج أن يقول أحد إن هناك حقيقة مطلقة للاشياء تنطبق على الكائنات الحية . ليست الحقيقة شيئاً

بوكسكل
وأراؤه
البيولوجية

• الظواهري الذي يعتقد اننا لا نعرف الا الظواهر وان ليس ثمة من وجود سوى الوجود الظواهري . (المترجم)

واحداً متجانساً وانما هي متنوعة تنوعاً كثيراً ولها اتجاهات وغايج على قدر ما هنالك من كائنات عضوية مختلفة ، وكل كائن عضوي فهو كائن أحادي الجوهر له عالمه الخاص به لأن له تجربته الخاصة به . أما المظاهر التي زارها في حياة بعض الانواع البيولوجية فانها لا يمكن نقلها الى أي أنواع أخرى . لذلك فلا وجه للمقارنة او المقايسة بين التجارب - ومن ثم الحقائق - المتعلقة بكيانين عضويين مختلفين . ويقول يوكسكل : في عالم الذبابة لا نجد إلا « أشياء ذبابية » وفي عالم قنفذ البحر لا نجد إلا « أشياء قنفذية بحرية » .

ومن هذا المفروض العام يطوّر يوكسكل خطة بارعة أصيلة للعالم البيولوجي ، ورغبة منه في ان يتحاشى كل التفسيرات النفسية ، اتبع منهجاً موضوعياً او سلوكياً ، فقال : ان المرشد الوحيد للحياة الحيوانية قد قدم لنا في حقائق علم التشريع المقارن فاذا عرفنا الكيان التشريحي لنوع حيواني فقد حزننا كل المعلومات الضرورية لكي نبني - من جديد - طريقته الخاصة في التجربة . لا بد من دراسة دقيقة لبناء جسم الحيوان وعدد اعضاء الحس المختلفة وخصائصها وتوزعها واحوال الجهاز العصبي ، ومثل هذه الدراسة يعطينا صورة كاملة لعالم التكوين العضوي من داخل وخارج . وبدأ يوكسكل أبحاثه بدراسة أدنى ضروب الكائنات العضوية ثم وسع تلك الابحاث تدريجياً حتى شملت كل اشكال الحياة العضوية . وهو بمعنى من المعاني يأبى ان يسمى هذا شكلاً أعلى وذاك شكلاً أدنى من اشكال الحياة ، لأنه يرى الحياة كاملة في كل مرحلة وهي في الدائرة الصغرى مثلها في الدائرة الكبرى ، وكل كيان عضوي ، حتى أدنى صورها منه ، ليس فحسب - بمعنى غامض - مكيفاً للملاءمة بيئته ولكنه ايضاً ملائم لها تماماً ولا يناسبه إلا مقامه منها . وكل كيان عضوي

علم التشريع
المقارن الدلي
الوحيد الى الحي
الحيوانية

حسب تركيبه التشريحي يمتلك جهازين : جهاز استقبال Merknets وجهاز تأثير Wirknets ولا بقاء للكيان نفسه اذا لم يتعاون الجهازان ويتوازنا . وهذا الجهازان : جهاز الاستقبال الذي به يتقبل النوع البيولوجي المؤثرات الخارجية ، وجهاز التأثير الذي به يستجيب لها ، هما في كل الاحوال متلاحمان تلاحماً وثيقاً ، هما حلقتان في سلسلة واحدة يسميها بوكسكل : « الدائرة الوظيفية » Funktionskreis في الحيوان (١) .

لا أستطيع في هذا المقام ان اناقش المبادئ البيولوجية التي جاء بها بوكسكل وانما أشرت فحسب الى افكاره ومصطلحه من أجل ان أضع سؤالاً عاماً . هل من الممكن ان نستغل هذه الخطة التي اقترحها بوكسكل لنصف « العالم الانساني » ونبين مشخصاته ؟ من الواضح ان هذا العالم لا يشذ على تلك القواعد البيولوجية التي تحكم حياة كل الكائنات العضوية الاخرى ، الا اننا في العالم الانساني نجد ممزاً جديداً يبدو انه علامة تفرق الحياة الانسانية عما عداها . فالدائرة الوظيفية لدى الانسان لم تكبر كما فحسب وانما تعرضت ايضاً لتغيير نوعي ، فقد استكشف الانسان منهجاً جديداً يمكنه من ان يكيّف نفسه حسب مقتضيات بيئته . وبين الجهاز المستقبل والجهاز المؤثر - وهما اللذان يوجدان في كل الانواع الحيوانية - نجد لدى الانسان حلقة ثالثة هي التي يمكن ان نسميها « الجهاز الرمزي » وهذه الاداة الجديدة التي يملكها الانسان وحده تحول الحياة الانسانية كلها ، فاذا قارنت الانسان بالحيوانات الاخرى وجدته لا يعيش فحسب في حقيقة اوسع وانما يعيش ايضاً ، ان صح القول ، في بعد « جديد » من أبعاد الحقيقة . وهناك اختلاف لا يخطئه المتأمل بين ردود الفعل العضوية

تطبيق فكرة
بوكسكل
على العالم
الانساني

الجهاز
الرمزي فرق
ما بين
الانسان
والحيوان

١ - انظر كتاب يوهان بوكسكل : « نظريات بيولوجية » (الطبعة الثانية برلين ١٩٣٨)
وكتاب « في الحيوانات وفيها حولها » (١٩٠٩ والطبعة الثانية ، برلين ١٩٢١) .

الفرق بين
الرجع ورد
الفعل

والأرجاع الانسانية ، ففي ردّ الفعل يجيء الجواب على المحرك الخارجي مباشراً سريعاً ، اما في حال الرجوع فان الجواب يتأخر لأن عملية فكرية بطيئة معقدة تؤخره وتعوقه . وقد يبدو الكسب من هذا التأخر للنظرة الاولى موضع شك وتساؤل . حتى ان كثيراً من الفلاسفة قد حذروا الانسان من هذا التقدم المزعوم فقال روسو : « الانسان الذي يتأمل حيواناً قد فسد » . اي ان الطبيعة الانسانية اذا تجاوزت حدود الحياة العضوية كان ذلك انحطاطاً لها لا تقدماً .

حاجة
الانسان الى
الرمز

على انه لا علاج يقي الانسان هذا العكس في النظام الطبيعي ، لأن الانسان لا يستطيع ان يهرب مما حققته يده ولا يمكنه إلا ان ينتحل ظروف حياته . وما دام الانسان قد خرج من العالم المادي فانه يعيش في عالم رمزي ، وما اللغة والاسطورة والفن والدين إلا اجزاء من هذا العالم ، فهذه هي الخيوط المتنوعة التي تحاك منها الشبكة الرمزية أعني النسيج المعقد للتجارب الانسانية . وكل التقدم الانساني في الفكر والتجربة يهدف من هذه الشبكة ويقويها . لم يعد الانسان قادراً على ان يواجه الحقيقة مباشرة ، أي لم يعد يستطيع ان يحدق فيها وجهاً لوجه ، وتتملص الحقيقة المادية — فيما يبدو — كلما تقدمت فعالية الانسان الرمزية . وبدلاً من ان يعالج الانسان الاشياء نفسها نراه ، بمعنى من المعاني ، يتحدث دائماً الى نفسه ، فقد تلفّعَ بالاشكال اللغوية والصور الفنية والرموز الاسطورية او الشعائر الدينية حتى أصبح لا يرى شيئاً ولا يعرف شيئاً إلا بوساطة من هذه الوسائل المصطنعة . ولا فرق بين موقفه في الفلك النظري وموقفه في الفلك العملي ؛ ففي الثاني منها لا يعيش الانسان في عالم من الحقائق الصلدة أو حسب حاجاته ورغباته المباشرة ، وانما يعيش في وسط عواطف متخيلة وفي الآمال والخاوف وفي انتحال الاوهام ورفضها

وفي تصوراته واحلامه . لقد قال افقثتس « ليست الاشياء هي التي تزجج الانسان وتخيفه وانما الذي يفعل ذلك آراؤه عن تلك الاشياء وأوهامه لزاءها » .

حد جديد
للانسان

من هذه الزاوية التي بلغناها نستطيع ان نصصح حد الكلاسيكيين للانسان وان نوسع منه ، لقد قال القدماء في حد الانسان : انه حيوان ناطق (عاقل) ، وعلى الرغم من ثورة اللاعقليين المحدثين على هذا الحد فانه لم يفقد قوته . ذلك لأن القوة الناطقة مظهر كامن في كل انواع النشاط الانساني ؛ حتى الأساطير نفسها ليست مجرد مجموعة جافية من الخرافات والحدع الجسيمة ، وليست هي فوضوية إذ انها تملك شكلاً منظماً ذا افكار ^(٢) . غير انه من المستحيل من الناحية الاخرى ان نعد بناء الاسطورة بناء عقلياً . كذلك اللغة فانها كثيراً ما عرفت بالعقل او بمصدر العقل نفسه . ولكن من السهل ان نجد هذا الحد يعجز عن ان يشمل الميدان كله . وانما هو جزء يطلق على الكل Pars pro toto . لأننا نجد الى جانب اللغة الفكرية لغة عاطفية ، والى جانب اللغة المنطقية او العلمية لغة خيال شعري . وفي المقام الاول لا تعبر اللغة عن الافكار وانما تعبر عن المشاعر والمواطف . حتى الدين « في حدود العقل الخالص » — كما تصوره كانت واستنتجه — لا يبدو ان يكون محض تجريد . فهو لا يحمل الا الصورة المثالية ، إلا الظل من الحياة الدينية الاصلية الملموسة . ثم ان الفلاسفة الكبار الذين حدوا الانسان بانه « حيوان ناطق » لم يكونوا تجريبيين ولا قصدوا ان يقدموا حقيقة تجريبية عن الطبيعة الانسانية ، وانما كانوا يعبرون بهذا التعريف عن لزام اخلاقي اساسي . غير ان العقل — او النطق — اصطلاح ناقص لا يمكننا من فهم اشكال الحياة الحضارية

٢ - انظر كاسير : « صورة الخاطر في الفكر الاسطوري » (لينجز ١٩٢١) .

الانسانية في ثرائها وتنوعها . وكل هذه الاشكال رمزية ، اذن فلنحدد
الانسان بانه حيوان ذو رموز بدلا من ان نخدمه بالعقل او النطق .
فاذا فعلنا ذلك ميزنا اختلافه الخاص عما سواه ، واستطعنا ان نفهم
الطريق الجديدة المهيأة للانسان ، أعني الطريق الى المدنية .

مِنْ رَدِّ الْفِعْلِ لِدَعَى الْيَحْوَانِ إِلَى الْأَرْجَاعِ الْإِنْسَانِيَّةِ

عندما عرفنا الانسان بانه حيوان ذو رموز بلغنا اول نقطة ننطلق منها الى استطلاعات جديدة . غير انه اصبح لزاماً علينا ان نطور من هذا التعريف بعض الشيء لكي نمنحه اعظم قدر ممكن من الدقة . لا نكران في ان الفكر الرمزي والسلوك الرمزي من اعظم الملامح المميزة للحياة الانسانية وان كل التقدم الذي احرزته الحضارة الانسانية مبني عليهما . ولكن هل من حقنا ان نعتبرهما هيتين "مِنْحَهُمَا" الانسان "وَحَرِمَتْهُمَا" كل الكائنات العضوية الاخرى ؟ اليست الرمزية مبدأ ، تمكّنتنا العودة في استقصائه الى مصدر اعمق ، مبدأ يمكن تطبيقه على مجالات اوسع ؟ فاذا اجبنا على هذا السؤال سلباً فيجب ان نعتز ، فيما يبدو ، بجهلنا لكثير من الاسئلة الهامة التي شغلت مركز الانتباه - على مدى الزمن - في فلسفة الحضارة الانسانية ؛ وعندئذ يصبح السؤال عن أصل اللغة والفن والدين سؤالاً لا جواب عليه ، ونظل نعتبر الحضارة الانسانية حقيقة "مُعْطَاة" ، وهذه الحقيقة نفسها تظل معزولة عما سواها ، ومن ثم تبقى غير مفهومة .

سهاب في
لُوح الحد
الجديد

من المفهوم ان العلماء رفضوا دائماً تقبل مثل هذا الحل فقد بذلوا جهوداً جبارة ليربطوا حقيقة الرمز بحقائق أخرى أولية معروفة ، وكانت المشكلة تعتبر ذات أهمية بالغة ولكنها لسوء الحظ قلما عولجت بعقل متفتح تماماً ، بل لقد اهتم منذ البداية ، وخلطت بمسائل أخرى تنتمي الى ميادين أخرى من البحث مختلفة . ولقد تحولت مناقشة هذه المشكلة الى جدل متافيزيقي بدلاً من ان يُقدم لنا باحثوها وصفاً وتحليلاً منصفاً للظواهر نفسها ، بل اصبحت هذه المشكلة عطف النزاع بين هذه المذاهب المتافيزيقية المختلفة : بين المثالية والمادية ، والروحية والطبيعية ، وغدت مسألة الرمزية هذه لدى هذه المذاهب مشكلة مستعصية يركز عليها الشكل المقبل للعلم والمتافيزيقا .

السلوك
الرمزي
لدى الحيوان

غير ان هذا الوجه من المشكلة لا يهتما في هذا المقام لأننا قد وضعنا لانفسنا مهمة أكثر تواضعاً وأكثر محسوسية . وسنحاول ان نصف النزعة الرمزية لدى الانسان على نحو أدق واضبط ، لنستطيع تمييزها — بالمعارضة — من الاشكال الاخرى من السلوك الرمزي الذي نجده في المملكة الحيوانية . فما لا ريب فيه ان الحيوانات لا تجيب دائماً على المؤثرات بطريقة مباشرة وانما هي قادرة على ان تحدث رد فعل غير مباشر . وتقدم لنا التجارب المشهورة التي قام بها بافلوف مجموعة خصبة من الشواهد التجريبية حول ما يسمى : البواعث النموذجية . وقد دلتنا دراسة تجريبية ممتعة جداً قام بها ولف في حال القروود الشبيهة بالانسان على تأثير ما يسمى « المكافآت الرمزية » ، فقد تعلمت الحيوانات ان تستجيب الى رموز وضعت بدلاً من الطعام بنفس الطريقة التي كانت تستجيب فيها للطعام نفسه^(١) . ويقول

١ - ج . ب . ولف : « أثر المكافآت الرمزية على الشمبانزي » في كراسات في السيكلولوجيا المقارنة ١٢ رقم : ٥ .

ولف : إن نتائج التجارب التدريبية المتنوعة والمديدة قد دلت على أن العمليات الرمزية تحدث في سلوك القروود الشبيهة بالإنسان . ويستمد روبرت م . يركس من هذه التجارب ، وهو يصفها في آخر كتبه ، نتائج عامة هامة ، فيقول :

« أما أن العمليات الرمزية نادرة الحدوث نسبياً ومن الصعب ملاحظتها فذلك امر واضح ؛ وربما صح للرء أن يستمر في التساؤل عن وجودها ، ولكني أشك في أن تعتبر حالياً سوابق مرهضة بالعمليات الرمزية لدى الإنسان . وهكذا ترك هذا الموضوع في مرحلة من التطور جدّ مثيرة حين تكون الكشف الهامة على وشك أن تحدث » (٢) .

وربما كان من استباق القول أن نتنبأ بشيء عن التطور المقبل في هذه المشكلة ، فلا بد من أن يترك الميدان مفتوحاً لبحوث أخرى في المستقبل . غير أن تفسير الحقائق التجريبية ، من الناحية الأخرى ، يعتمد دائماً على افكار معينة أساسية لا بد من توضيحها قبل أن تستطيع المادة التجريبية اعطاء أي الثمرات . ولا ريب في أن السيكولوجيا والبيولوجيا النفسية الحديثة لا يغفلان ابداً هذه الحقيقة . ومن الأمور التي أراها ذات دلالة هامة في أيامنا هذه أن الذين يحتلون دور القيادة في حلّ هذه المشكلة هم الملاحظون والباحثون التجريبيون لا الفلاسفة ، واولئك يحدوثونا أن المشكلة من بعد ذلك ، ليست فحسب تجريبية ولكنها أيضاً مشكلة منطقية الى درجة كبيرة . وحديثاً نشر جورج ريفيز سلسلة من المقالات بدأها بقوله :

« أن المسألة التي يسمونها « لغة الحيوانات » ويثور حولها جدل حارّ لا يمكن حلها على أساس من حقائق السيكولوجيا الحيوانية

٢ - روبرت م . يركس ، الشبانزي . (نيوهاغن ، مطبعة جامعة ييل ١٩٤٣) ص ١٨٩

وحدها ، وكل " من " تفحص مختلف النظريات والآراء السيكولوجية بعقل ناقد غير متحيز استنتج في النهاية ان المشكلة لا يمكن توضيحها بالرجوع الى اشكال من صور النقل لدى الحيوان او الى بعض ما استطاع الحيوان تحقيقه عن طريق التدريب والرياضة والتمرين . فكل هذه الامور التي حققها الحيوان تقبل كثيراً من التفسيرات المتعارضة ، ولذلك كان من الضروري ، قبل كل شيء آخر ، ان نجد نقطة ابتداء منطقية صحيحة يمكنها ان تقودنا الى تفسير رصين طبيعي للحقائق التجريبية ، وهذه النقطة هي " حد الكلام " (١٣) .

وربما كان من الخير لنا ألا نعطي تعريفاً (حداً) جاهزاً للكلام بل ان نسير في سبل تجريبية ، فنقول : ليس الكلام ظاهرة بسيطة موحدة وإنما يتألف من عناصر متعددة ليست جميعاً على مستوى واحد من الناحيتين : البيولوجية والتنظيمية . وعلينا ان نحاول تعيين ما للعناصر المؤلفة للكلام من نظام وعلاقات متداخلة ، أي علينا ان نميز الطبقات الجبولوجية للكلام — ان صح التعبير — فأول طبقة وأهمها هي لغة العواطف ولا يزال قسط كبير مما ينطق به بنو الانسان منتبهاً الى هذه الطبقة . لكن هناك شكل من الكلام يرينسا نموذجاً مختلفاً عن الاول ، لا تكون فيه اللفظة صيحة دهشة او تعجب ، لا تكون تعبيراً عفويّاً عن الشعور وإنما تكون جزءاً من جملة ذات مبنى نحوي (١٤) . والحق ان العنصر الاول

٣ - ج . ريفيز ، « صور التفاهم الانساني وما يسمى لغة الحيوانات » ،

Proceedings of the Netherlands Akademie van Wetenschappen, XL III (1940) Nos. 9,10; XLIV (1941) No.1.

٤ - للتمييز بين صور من المنطوقات العاطفية وبين « النموذج العادي من نقل الافكار الى الكلام » انظر الملاحظات التمهيدية لادورد ساير في « اللغة » (نيويورك ، هاركرت ، بريس : ١٩٢١) .

(العاطفي) لا يغيب بناتاً حتى في اللغة التي تطورت كثيراً وكانت لغة نظرية ؛ وتكاد لا تجد جملة - ما عدا الجمل الشكلية الخالصة في الرياضيات - إلا وقد علق بها اثر من شعور او عاطفة^(٥) . وقد نجد ضرائب ومشبهات وفيرة للغة العاطفية في العالم الحيواني . فثلاً يقرر فلفجانج كويلر فيما يتعلق بفصيلة الشمبازي أن هذه الحيوانات تصل الى درجة معتبرة من التعبير عن طريق الايماء والاشارة ، وبهذه الطريقة تعبر عن الغضب والرعب واليأس والحزن والرجاء والرغبة واللهو والمتعة . إلا انها تفقد عنصراً واحداً تختص به اللغة الانسانية ولا تستغني عنه وذلك انها لا تملك اشارات ذات محل او معنى موضوعي . يقول كويلر : قد نسلّم بان البرهان قائم على ان نغمات أصوات هذه الحيوانات كلها « ذاتي » وانها لا تعبر الا عن العواطف وانها لا تعيّن الموضوعات الخارجية ولا تصفها ، ولكن لديها كثير من العناصر الصوتية التي تشارك فيها اللغات الانسانية حتى اننا لا نستطيع ان نعزو افتقارها للكلام المستبين الى قصور في اللسان والشفة . كذلك فان حركات وجوها وايدنها لا تعين او تصف موضوعات خارجية (Bühler)^(٦) كما هي الحال في تعبيرها باصواتها .

اللغة
رسمية

عند هذا الحد نمسّ النقطة الحاسمة في مشكلتنا هذه كلها لان الاختلاف بين اللغة الموضوعية propositional language واللغة العاطفية هو الخط الحقيقي الذي يفصل بين عالمي الانسان والحيوان . وقد تحيد كل النظريات والملاحظات عن لغة الحيوان وتجاوز هدفها إذا عجزت عن أن تدرك

٥ - انظر « اللغة والحياة » لشارل بيلي من اجل تفصيلات اكثر (باريس ١٩٣٦) .

٦ - فلفجانج كويلر : « في سيكولوجية الشمبازي » ١ (١٩٢١) ، ٢٧ ، وانظر الطبعة الانجليزية بعنوان : عقلية القرود (نيويورك ، هاركرت ، بريس ١٩٢٥) الملحق ، ص ٣١٧ .

هذا الفرق الاساسي^(٧) . وفي كل ما كتب عن هذا الموضوع لا يوجد - فيما يبدو - أي برهان قاطع على أن حيواناً ما قد خطا الخطوة الحاسمة بين اللغة الذاتية والموضوعية ، بين اللغة التأثرية والمنطقية . بل يؤكد كويلر جازماً ان الكلام ليس في طاقة القرود الشبيهة بالانسان ويعتقد أن هذا الافتقار الى هذه الأداة القيمة وضعف القدرة على خلق الصور هما العلتان اللتان تحولان بين الحيوان وبين بلوغ اولى مشارف التطور الحضاري^(٨) . وقد توصل ريفيز أيضاً الى هذه النتيجة نفسها فهو يؤكد أن الكلام فكرة انثروبولوجية ، وعلى هذا فيجب استبعادها من دراسة سيكولوجيا الحيوان استبعاداً كلياً . واذا ابتدأنا بتعريف الكلام تعريفاً واضحاً دقيقاً فان الاشكال الاخرى من المنظومات وهي التي نجدها ايضاً لدى الحيوان تسقط على نحو آلي^(٩) . اما يركس الذي درس المشكلة برغبة خاصة واهتمام ذاتي فانه يتكلم بنغمة اكثر ايجابية فهو مقتنع بان ثمة علاقة وثيقة بين الانسان والقرود العليا حتى فيما يتعلق باللغة والرمزية . ثم يمضي قائلاً : « وهذا قد يوحي باننا ربما وقعنا على مرحلة مبكرة من التاريخ الجنسي في تطور العملية الرمزية . وهناك شواهد وفيرة على ان النماذج المختلفة الاخرى من العمليات الاشارية - عدا الرمزية - كثيرة

٧ - هذا المصطلح propositional وضعه جاكسون الانجليزي طبيب الامراض العصبية لكي يعلل به بعض المظاهر المرضية المثيرة . فقد وجد ان كثيراً من المرضى الذين يشكون احتباس النطق (افازيا) لم يفقدوا بأي حال قدرتهم على استعمال الكلام الا انهم لا يستطيعون استعمال كلماتهم بمعنى موضوعي . وقد كانت هذه التفرقة التي اوجدها جاكسون ذات فائدة جل ، اذ لعبت دوراً هاماً في تطوير الباثولوجيا النفسية في اللغة . واذا شاء القارئ تفصيلات اخرى فليراجع كتاب كاسيرر « فلسفة الاشكال الرمزية » ج : ٣ فصل : ٦ ص : ٢٢٧ - ٢٢٢ .

٨ - كويلر : عقلية القرود ص : ٢٢٧ .

٩ - ريفيز : المصدر المشار اليه سابقاً رقم ٤٣ : الجزء : ٢ (١٩٤٠) ص : ٣٣ .

الحدوث لدى الشمبازي وانها تقوم لديه بوظيفتها «^(١٠)». ولكن هذا كله يبقى متقدماً على مرحلة اللغة. بل ان يركس نفسه يقرر ان كل التعبيرات التي تؤدي وظائفها لدى الشمبازي لا تبدو ان تكون فطرية بسيطة محدودة الفائدة اذا قارناها بالعمليات الاشارية لدى الانسان «^(١١)». ويجب الا نخلط مسألة التكون والنشوء هنا بالمسألة التحليلية والمتصلة بعلم ظواهر الطبيعة.

ان التحليل المنطقي للكلام الانساني يقودنا دائماً الى عنصر ذي قيمة رئيسية ليس له ما يضاهيه في عالم الحيوان. ولا تقف نظرية التطور العامة بحال من الاحوال في طريق الاعتراف بهذه الحقيقة. حتى في ميدان الظواهر الطبيعية العضوية عرفنا ان نظرية التطور لا تنفي نوعاً من الخلق الاصيل؛ ولا بد من الاقرار بحقيقة التغير المفاجيء والتطور الطافر. ولم تعد البيولوجيا الحديثة تتحدث عن التطور كما كان يتحدث عنه المذهب الدارويني في اوائل عهده، ولا هي تفسر علل التطور بالطريقة نفسها. وقد نقرر ان القروود احرزت تقدماً بارزاً في تطور بعض العمليات الرمزية الا اننا ايضاً يجب ان نؤكد انها لم تبلغ في ذلك عتبة العالم الانساني وانما دخلت في سيرها مسرباً مغلقاً لا منفذ له - إن صح التعبير -.

ومن أجل ان نضع مقررأ واضحاً عن المشكلة. علينا ان نميز بعناية بين الاشارات والرموز. فن الحقائق المؤكدة اننا نجد في السلوك الحيواني أجهزة معقدة من الاشارات والعلامات، وقد نقول ان بعض الحيوانات

فرق بين
لاشارات
الرموز

١٠ - يركس وينسن « السلوك الاشاري السابق لفئة لدى الشمبازي » بمجلة العلوم، العدد

٨٨٩ : ٥٨٧.

١١ - يركس، الشمبازي : ١٨٩.

وبخاصة الألفة الأهلية منها ذات قابلية فائقة للإشارات^(١٢) ، فالكلب يستجيب لأدنى التغيرات في سلوك صاحبه بل يميز تعبيرات الوجه الانساني او درجات النغم في الصوت الانساني^(١٣) ولكن ما أبعد البون بين هذه الظواهر وبين فهم الكلام الانساني والرمز . اما التجارب المشهورة التي أجراها بافلوف فلا تثبت إلا ان الحيوانات تستطيع في يسر ان تُدرَّبَ على ان تستجيب لآثار المؤثر المباشر فحسب بل لكل انواع المؤثرات غير المباشرة او النموذجية . فيصبح الجرس - مثلاً - إشارة الغداء ، ويدرب الحيوان على ان لا يمس طعامه ما دامت هذه الإشارة غير موجودة . ولكننا نعلم من هذا ان القائم بالتجربة ، في هذه الحال ، قد نجح في تغيير الموقف الطعامي .

١٢ - لقد اثبتت هذه القابلية - مثلاً - في حال كليفر هانز التي خلقت منذ بضعة عقود نوعاً من التعمس في صفوف البيولوجيين النفسيين . اما كليفر هانز هذا فكان حصاناً على ذكاه فذ مدعش حتى كان يستطيع ان يحسن مسائل حسابية معقدة وان يستخرج الجذر التكعيبي وهكذا وذلك يضربه بخافره على الارض مرات بعدد جواب المسألة ، وقد استمعت لجنة من السيكلوجيين والعلماء الآخرين ليجتثوا تلك القضية فاتضح لهم ان الحيوان يستجيب لحركات اضطرابية تصدر عن صاحبه فان غاب صاحبه أو لم يفهم السؤال عجز الحصان عن الجواب .

١٣ - سأذكر مثلاً آخر كاشفاً موضعاً في سبيل أن أجلو هذه النقطة . اخبرني مرة الدكتور بفنجست البيولوجي النفسي - وهو الذي طور بعض المناهج الجديدة الهامة لدراسة السلوك الحيواني - اخبرني أنه تسلم رسالة من مقدم حول مشكلة غريبة . كان لدى ذلك المقدم كلب يصحبه في فتراته وكان هذا الحيوان كلما رأى صاحبه يستمد للخروج أبدى علامات من فرح غامر وانفعال . وفي أحد الايام قرر المقدم ان يقوم بتجربة صغيرة فتظاهر بتظاهراً بأنه يريد الخروج وليس قيمته وحل عصاه وقام بالاستعدادات المعتادة - دون ان يكون لديه نية الخروج للزحمة . وما كان أشد دهشته حين وجد أن الكلب لم ينخدع بهذا التظاهر بل ظل هادئاً قابلاً في الزاوية . وبعد فترة وجيزة من الملاحظة استطاع الدكتور بفنجست ان يحل اللغز . فقد كانت هناك طاولة في غرفة المقدم وفيها درج يحتوي وثائق قيمة هامة وكان المقدم قد تعود ان يصفق ذلك الدرج قبل ان يغادر البيت ليتحقق من أنه قد أصبح بحكم الغلق ، غير انه لم يقم بهذا العمل في ذلك اليوم الذي لم ينو فيه الخروج . وهذا العمل نفسه قد أصبح علامة لدى الكلب أي أصبح عنصراً ضرورياً في أمر التزهة فلما فقدت تلك الإشارة لم تحدث لدى الكلب استجابة .

للحيوان ، فمفقد الموقف حين أوجد فيه - عامداً - عنصراً جديداً . وكل الظواهر التي توصف عادة بأنها أرجاع منضبطة تضاد الطابع الأساسي في الفكر الرمزي الانساني فضلاً عن انها بعيدة عنه كل البعد . فالرموز - بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة - لا تتحول الى مجرد اشارات ، اذ ان الاشارات والرموز ينتميان الى عالمين مختلفين من عوالم الخطاب . اما الاشارة فانها جزء من عالم الوجود المادي . واما الرمز فانه جزء من عالم المعنى الانساني . والاشارات « عاملة » والرموز « دالة »^(١٤) واذا فهمت الاشارات واستعملت على ذلك النحو كان لها نوع من الكيان المادي الملموس ، اما الرموز فليس لها إلا قيمة وظيفية .

فاذا تذكرنا هذه التفرقة بينهما استطعنا أن نجد سيلاً الى أكثر المشكلات اثاراً للجدل ، مشكلة ذكاء الحيوانات ، تلك المشكلة التي كانت دائماً من اعظم الالغاز في الفلسفة الانثروبولوجية . وقد بذلت جهود جبارة من الفكر والملاحظة للحصول على جواب لهذه المسألة . ولكن غموض هذه الكلمة « ذكاء » وانها مها وقف عثرة في سبيل أي حل واضح . كيف نرجو أن نجيب على سؤال لا نفهم فحواه ؟ لقد استعمل المتألفون والعلماء والطبيعيون واللاهوتيون كلمة « ذكاء » في معان متنوعة متناقضة ، حتى إن بعض السيكلوجيين والبيولوجيين النفسانيين رفضوا بكل بساطة ان يتحدثوا عن ذكاء الحيوانات ، وكل الذي شاهدوه في السلوك الحيواني لا يعدو ان يكون نوعاً من الآلية . وهذا الرأي يسنده ديكرارت ثم اعيد النص عليه في السيكلوجيا الحديثة . يقول ل . ل . ثورندايك « الحيوان لا يفكر في أن واحداً يشبه الآخر ولا يخطط

١٤ - للتمييز بين العاملة والدالة راجع تشارلس موريس : « أساس نظرية الاشارات » في موسوعة العلوم الموحدة (١٩٣٨) .

— كما يقال عادة — واحداً بالآخر . إنه لا يفكر فيه ابداً ، وإنما هو « يفكره » . أما القول بأن الحيوانات تستجيب لتأثير حسي خاص محدّد مدرك ، وأنّ استجابتها المشابهة لتأثير حسي آخر مختلف عن الأول يدلّ على التداعي من طريق التشابه ، فكل ذلك وهم وخرافة « (١٥) » . ثمّ ثبّت ملاحظ من بعد أكثر دقة من هذه فأدّت الى نتائج مختلفة ، واصبح منّ الجليّ ان بعض الحيوانات العليا يستطيع أن يحل مشكلات صعبة ، وان هذه الحلول لم تتم بطريقة آلية محض من التجربة والخطأ . والفرق البارز — كما بينه كويلر — قائم بين حلّ بمحض المصادفة وحل اصيل ، حتى إنه ليستطاع تمييز احدهما من الآخر في سهولة ويسر . ويبدو انه لا مدفع للقول بأن بعض ردود الفعل لدى الحيوانات العليا ليست وليدة الصدفة وإنما هي موجهة بقوة البصيرة « (١٦) » ، فاذا فهمنا ان الذكاء إما ان يعني التعادل مع البيئة القرية المباشرة ، وإما ان يعني التحوير في البيئة للتكيف معها ، وجب علينا ان نزوّ الى الحيوانات ذكاءً راقياً متطوراً نسبياً . ويجب أن نسلم بأن ليس كل الاعمال الحيوانية موجهة بحضور المؤثر المباشر ، وان الحيوان قادر على كل صنوف اللف والدوران في ردود فعله ، وقد يتعلم أن يستعمل الأدوات ، ليس هذا فحسب بل قد يخترع أدوات تخدمه في أغراضه ؛ ومن ثم لا يتردد بعض البيولوجيين النفسيين من التحدث عن خيال خلاق انشائي في الحيوان « (١٧) » . لكن لا هذا الذكاء ولا هذا الخيال من النوع الانساني على التعيين . وإذن فقد

١٥ — ادورد . ل . ثورندايك : ذكاء الحيوان (نيويورك ، مكملان ١٩١١) ص : ١١٩ وما بعدها .

١٦ — انظر كويلر ، المصدر نفسه ، الفصل السابع : « المصادفة » و « الهاكاة » .

١٧ — انظر ر . م . أ . و . يركس : القروء العليا (نيوهاغن مطبعة جامعة ييل ١٩٢٩) ص ٣٦٨ ، ٥٢٠ وما بعدها .

نقول في ايجاز : إن الحيوان يملك ذكاء وخيالاً عمليين بينما يملك الانسان وحده شكلاً جديداً منها طورته لنفسه اعني : الخيال والذكاء الرمزيين .

أضف الى هذا ان النقلة من شكل الى آخر في التطور العقلي لدى عقل الفرد الانساني - أي النقلة من موقف عملي الى موقف رمزي - امر مشهود واضح . إلا ان هذه الخطوة هي النتيجة النهائية لعملية بطيئة مستمرة ، وليس من السهل ان نميز المراحل في هذه العملية المعقدة واحدة واحدة بوساطة ما في المشاهدة السيكولوجية من مناهج مألوفة . انما هنالك طريقة واحدة تمكننا من استجلاء الطابع العام والاهمية الفائقة في هذه النقلة ؛ ذلك أن الطبيعة نفسها قد قامت بتجربة جديدة بان تلقي ضوءاً - غير متوقع - على هذه النقطة موضع التساؤل . وانا اشير بذلك الى حالتين مشهورتين هما حالتا لورا بردجان وهيلين كللر اللتين ولدتا عماوين صماوين خرساوين ثم تعلتا الكلام بطريقة خاصة ، ومع انهما حالتان معروفتان وكثيراً ما عولجتا في الكتابات السيكولوجية^(١٨) فأني أود ان اذكر القارئ بهما مرة اخرى لأنهما ربما كانتا تحتويان خير توضيح للمشكلة العامة التي نوليها اهتمامنا في هذا المقام . لقد سجلت السيدة سليفان معلمة هيلين كللر التاريخ المضبوط الذي بدأت فيه الطفلة تفهم معنى اللغة الانسانية ووظيفتها ، وما انا اقتبس ما قالته :

« سأخطئ لك سطرأ هذا الصباح لأن شيئاً هاماً جداً قد حدث . لقد خطت هيلين خطواتها الثانية العظمى في التعلم ، فقد

لانتقال من
من الى رمز

مال هيلين
كللر

١٨ - انظر عن لورا بردجان ما كتبه مود هاو وفلورنس هاو هول في « لورا بردجان » (بوسطن ١٩٠٣) وما كتبه ماري سويقت لاسون في « حياة لورا ديوي بردجان وتعليمها » (بوسطن ١٨٨١) وما كتبه فلهم جبروسالم في « تعليم الصم والبكم والعميان » (برلين ١٩٠٥) .

تعلمت ان لكل شيء اسما وان الـ الابجدية اليدوية هي مفتاح لكل شيء تريد ان تعرفه ...

وفي هذا الصباح بينما كانت تستحم ارادت ان تعرف الاسم الذي يطلقونه على « الماء » . وحين تريد ان تعرف اسم شيء تشير اليه وترت على يدي . فتهجيتُ لها كلمة W-a-t-e-r ولم افكر في الامر حتى مضى وقت الفطور ... ومن بعدها ذهبنا الى « كشك » المضخة وجعلت هيلين تمسك كوزها تحت الحنفية بينما اخذت « عمل المضخة » فلما تدفق الماء البارد يملأ الكوز تهجيت كلمة W-a-t-e-r في يد هيلين التي لا تمسك شيئاً ؛ ولما جاءت الكلمة بعد إحساسها بالماء البارد الذي أصاب يدها ، أخافتها – فيما يبدو – فأسقطت الكوز ووقفت كالمصلوبة ، لقد ظهر في وجهها ضوء جديد ، وتهجت كلمة water مرات عدة ، ثم هبطت الى الارض وسألت عن اسمها وأشارت الى المضخة والكشك الخشبي ، وفجأة استدارت نحوي وسألني عزرا اسمي ، فتهجيت لها « معلمة » « Teacher » وعلى طول طريق العودة الى البيت كانت بالغة الانفعال وتعلمت اسم كل مادة لمستها ، حتى إنها في خلال بضع ساعات اضافت الى قاموسها ثلاثين لفظة جديدة . وفي الصباح التالي نهضت من نومها كأنها جنيةٌ متلاثلة . فانتقلت من شيء لشيء ، وهي تسألني عن اسم كل شيء ، وتقبلني بهجة وسروراً ... لقد أدركت ان كل شيء فلا بد له من اسم ، وحينما توجهنا سألت بلهفة عن اسماء الاشياء التي لم تتعلمها في البيت . انها مشتاقة لتري اصدقاءها كيف تتهجى ، تواقه لتعلم الحروف لكل من يلقاها ، وهي تطرح ما تعلمته من اشارات وایماءات كلما وجدت كلمات تحل محلها ، كما ان حصولها على لفظة جديدة يزودها بأشد سرور حيوي . وانا للنحظ ان قدرة وجهها على التعبير تزايد يوماً إثر يوم (١٩) .

١٩ - انظر هيلين كللر : قصة حياتي (نيويورك . دبلداي .. بيج وشركاه ١٩٠٢ ، ١٩٠٣) .
أخبار اضافية عن حياة هيلين كللر وتعليمها ص ٣١٥ وما بعدها .

لقلنا يمكن وصف هذه الخطوة الحاسمة التي نقلت هيلين من الاشارات والايحاءات الى استعمال الكلمات - أي الرموز - بمثل هذه الطريقة البارعة المؤثرة . ما هو الكشف الحقيقي الذي اعتدت اليه الطفلة في تلك اللحظة ؟ لقد تعلمت هيلين كللر من قبل ان تربط حادثة ما أو شيئاً ما بإشارة معينة في الابداع اليدوية ، وهكذا نشأ ترابط ثابت بين هذه الاشياء والاحداث وبين الانطباعات اللسية ، ولكن معرفتها لسلسلة من هذا الترابط وان كررت عليها ووسعت - لا تعني انها فهمت ما الكلام الانساني وما معناه . وكان على الطفلة لكي تبلغ مثل هذا الفهم ان تقوم بكشف جديد - كشف أهم من كل ما سبق ، كان عليها ان تفهم ان لكل شيء اسماً ، أي ان الوظيفة الرمزية ليست قاصرة على بعض الحالات الخاصة ، وانما هي مبدأ ذو انطباق شامل يحيط كل ميدان المعرفة الانسانية . وجاء هذا الكشف في حالة هيلين كالصدمة المفاجئة ؛ كانت ابنة سبع سنوات واذا استثنينا بعض النقص في حواسها قلنا انها كانت في حالة صحية ممتازة ولها عقل رفيع التقدم ، وكانت متخلفة كثيراً بسبب الاهمال في تعليمها ، وفجأة حلت اللحظة الحاسمة كأنما هي ثورة عقلية ، فبدأت الطفلة ترى الوجود تحت ضوء جديد ؛ تعلمت استعمال الكلمات لا على انها اشارات أو علامات آلية ، ولكن على انها أداة جديدة تمام الجدة للتفكير . وهكذا تفتح أمامها أفق جديد ، ومنذ تلك اللحظة ستجوب الطفلة هذه الدنيا الواسعة المطلقة متى شاءت .

ومثل هذا يمكن أن يبين أيضاً في حال لورا بردجان وان كانت قصتها اقل روعة ، لأن بردجان كانت اقل حظاً من هيلين كللر في القوة العقلية وفي التطور الفكري . وليس في حياتها وتعليمها تلك العناصر الدرامية التي نجدها لدى هيلين . لكن العناصر النموذجية حاضرة في كلتا

حال لورا
بردجان

الحاليتين ، فبعد ان تعلمت لورا بردهجان استعمال الابدعية باصابعها بلغت فجأة النقطة التي بدأت منها تفهم رمزية الكلام الانساني . ومن هذا الوجه نرى بين الحاليتين تماثلا مدهشاً . كتبت الآنسة درو احدى المجلات الاولى اللواتي درسن لورا بردهجان ، تقول : « لن أنسى الوجبة الاولى التي تناولتها بعد أن تذوقت استعمال الابدعية بأصابعها . كل شيء مسته لا بد من ان يكون له اسم ، واضطرت أن استدعي من يساعدي في مراقبة الاطفال الآخرين لأنها شغلني بتهجئة الكلمات الجديدة » (٢٠) .

قيمة الرمز
للانسان

إن مبدأ الرمز بشموله ومثاقه ومدى انطباقه هو الكلمة السحرية « افصح باسم » التي تبلغ قائلها الى العالم الانساني ، اي الى عالم الحضارة الانسانية . وحالما يمتلك الانسان هذا المفتاح السحري فان تقدمه قدماً امر مضمون ، ومثل هذا التقدم لا يعوقه أي نقص في الحواس ولا يجعله شيئاً مستحيلاً ، إن حال هيلين كلر التي بلغت درجة عظمى من التطور العقلي والحضارة الفكرية لتدلنا بوضوح وثقة لا نقض لها على ان الكائن الانساني في بناء عالمه الانساني لا يعتمد على ما في مادة حواسه من خواص ، ولو كانت نظريات الفلاسفة الحسنيين صحيحة ، لو كانت كل فكرة لا تعدو أن تكون نسخة باهتة من انطباع حسي أصيل ، لكانت حالة طفل أعمى اصم آخرس - في الحقيقة - امراً ميثوساً ، لأن مثل هذا الطفل محروم من مصادر المعرفة الانسانية ، أي هو مقصى عن الحقيقة . غير انا اذا درسنا الترجمة الذاتية لهيلين كلر تنبهنا الى ان هذا خطأ ، وفهمنا في الوقت نفسه لم كان خطأ . إن الحضارة الانسانية لتستمد طابعها المعين وقيمها الفكرية

٢٠ - انظر ماري سويفت لاسون : حياة لورا ديوي بردهجان الفتاة الصماء الخرساء العمياء ، وتعلمها (بوسطن ، هوتن ، مغلن وشركاء ١٨٨١) ص : ٧ وما بعدها .

والخلفية من شكلها ، من مبنائها المعاري لا من المواد التي منها تتألف . ويمكن أن نعبر عن هذا الشكل بأي مادة حسية . ولا ريب في أن اللغة الصوتية تتميز في هذا السبيل على اللغة اللسية ، ولكن التفاصيل الفنية في هذه الثانية لا تقضي قضاءً مبرماً على فائدتها الأساسية ، وليس مما يعوق التطور الحر للأفكار الرمزية أن تستعمل الاشارات اللسية في مقام الاشارات الصوتية . وإذا نجح الطفل في حيازة معنى اللغة الانسانية لم يهمل بأي مادة تأدّى اليه ذلك المعنى ، ويستطيع الانسان ، حسبما دلتنا حالة هيلين كليلر ، أن يبنى عالمه الرمزي من أقل المواد وأشدها فقرّاً . ففي الشكل المعاري ليست الأهمية للطوب والحجارة وانما في الوظيفة العامة لها . وفي عالم الكلام لا يبحث الحيوية في الاشارات المادية ويجعلها « تنطق » الا وظيفتها الرمزية العامة . ومن دون هذه القوة الباعثة للحياة يبقى العالم الانساني أصمّ أخرس . وبها يصبح عالم الطفل الأصم ، الأخرس الأعمى أوسع وأغنى من عالم كثر الحيوانات تطوراً .

وبما ان لكل شيء اسماً فان صفة الانطباق العام من أعظم الخصائص التي تمتاز بها الرمزية الانسانية ، إلا انها ليست الخاصة الوحيدة ، فهناك ميزة أخرى للرموز تصاحب هذه الخاصة الاولى وتكملها وتقف منها موقف القرن الضروري ، وتلك هي التنوع . فالرمز ليس شاملاً فحسب وانما هو ايضاً شديد التنوع ، فأنا استطيع ان أعبر عن المعنى الواحد بلغات مختلفة وقد أعبر عن رأي أو فكرة في حدود لغة واحدة بمصطلحات مختلفة ، وهذا هو ما يفرق الرمز عن الاشارة . فالاشارة أو العلامة مرتبطة بالشيء الذي اليه تشير على نحو ثابت لا يتكرر . وكل اشارة واحدة ملوثة تشير الى شيء واحد معين . وفي تجارب بافلوف يمكن ان تدرب الكلاب - في يسر - لتصل الى الطعام حين تعطى لها اشارات

ضيق
سام في
رموز
سانية

خاصة ، ولا تأكل حتى تسمع صوتاً معيناً اختاره القائم بالتجربة بمحض اختياره ؛ وكثيراً ما فُسر هذا العمل بأنه مشبه للرمزية الانسانية وانا اقول انه لا شبه هنالك ، وازيد ان الامر ، على العكس ، مضاد للرمزية . ذلك لأن الرمز الانساني الاصيل لا يتميز بالوحدة وانما يتميز بتغيره وتقلبه فهو ليس متصلباً جامداً وانما هو متنقل متحرك ؛ وان لم نستطع ان ننكر ان وعي الانسان بهذه الحركة وادراكه أمر حققه الانسان - فبما يبدو - في دور متأخر من تطوره الفكري والحضاري . وقبلنا نجد العقلية البدائية احرزت مثل هذا الوعي والادراك ، بل كانت تعتبر الرمز ملكاً للشيء المرموز له كسائر ممتلكاته المادية . فاسم الاله في الفكر الاسطوري جزء مكمل لطبيعة الاله ، وإذا لم ينادِ الرجل البدائي الاله باسمه الصحيح اصبحت الرقية أو الصلاة عديمة التأثير . وقد كان هذا يصدق أيضاً على الاعمال الرمزية ، فالشعيرة الدينية ، كالتضحية مثلاً ، لا بد ان تُؤدّى دائماً بالطريقة عينها وبالترتيب نفسه ، ان كان لها ان تأتي بنتيجة او اثر (٢١) . وقد يضطرب الامر على الاطفال اذا تعلموا ان ليس كل اسم لشيء من الاشياء « علماً عليه » وان الشيء نفسه قد يسمى اسماء مختلفة في لغات مختلفة . لانهم يميلون الى ان المسمى هو الاسم نفسه ؛ الا ان هذه خطوة اولى ، ليس إلا ، ثم يتعلم كل طفل طبيعي ، في وقت قصير ، انه يستطيع استعمال رموز متنوعة ليعبر عن رغبة او فكرة واجدة . ولا شيء في عالم الحيوان يضاهي هذا التنوع وهذه الحركة (٢٢) . فقبل ان تتعلم لورا بردجمان ان تتكلم - بوقت طويل - طوّرت لنفسها طريقة غريبة من التعبير ، لغة

الرمز أ
الفكر
الاسطوري

الرمز عند
الطفل

٢١ - راجع من أجل تفصيلات أزيد كتاب كاسير « اللغة والاسطورة » (ليزج ١٩٢٥) .

٢٢ - انظر في هذه المشكلة كتاب و . م . اربان « اللغة والحقيقة » القسم الاول ٢ : ٩٥ .

وما بعدها .

خاصة بها . ولم تكن تلك اللغة مؤلفة من اصوات مستبانة وانما من ضروب متنوعة من اللفظ توصف بأنها « لفظ عاطفي » . وكان من عاداتها ان تلتفظ بتلك الاصوات في محضر بعض الاشخاص ، وبهذا تخصصت تلك الاصوات تماماً ، فاصبح كل شخص في بيئتها يُحِبُّ بجلبة خاصة . كتبت الدكتورة لير تقول : « كنت اجدها اذا التقت بأحد معارفها على غير انتظار تعبد نطق الكلمة لذلك الشخص قبل ان تأخذ في الكلام ، وكان نطقها تعبيراً عن تعرفها واستمتاعها بذلك التعرف » (٢٣) . ولكن الحال تغيرت حين احرزت تلك الطفلة معنى اللغة الانسانية عن طريق تحسس اليجدية باصابعها ، في هذه الحال اصبح الصوت اسماً ، ولم يعد هذا الاسم مرتبطاً بفرد واحد ، وانما اصبح من الممكن تغييره اذا استدعت الظروف ذلك . وفي يوم من الايام - مثلاً - تلقت لورا بردجان رسالمن مدرستها السابقة ، الآنسة درو ، التي كانت قد تزوجت واصبحت بذلك تدعى مسز مورتن ، وكانت الرسالة تدعوها لزيارة معلمتها فنحها ذلك لذة كبيرة ، ولكنها اكتشفت ان الآنسة درو قد اخطأت اذ وقعت الرسالة باسمها الاول بدلا من أن تستعمل في توقيعها نسبتها الجديدة الى زوجها ، حتى لقد قالت انها يجب ان نجد « لفظاً » جديداً تقرنه بمعلمتها لان الذي كان مقترناً باسم درو لا يجوز ان يكون هو نفسه المقترن باسم مورتن (٢٤) . وواضح من هذا ان « ضروب اللفظ » السابقة قد تعرضت لتغير هام في المعنى ممثع جداً لانها لم تعد منطوقات خاصة لا انفصال لها من الموقف المعين للموس وانما اصبحت اسماء مجردة ، اما الاسم الجديد الذي اخترعته

٢٣ - انظر فرانس لير « مقال في الاصوات المفروضة لدى لورا بردجان » في

Smithsonian Contributions to Knowledge II , Art. 2. p. 27 .

٢٤ - انظر ماري سويقت لامسون ، المصدر نفسه : ٨٤

الطفلة فلم يكن يعين فرداً جديداً وإنما كان يعين الفرد نفسه في وضع جديد .

وها هنا يبرز مظهر هام آخر لهذه المشكلة العامة ، أعني مشكلة اعتماد الفكر العلائقي على الفكر الرمزي . ان الفكر العلائقي لا يمكن ان ينشأ ابدأ دون جهاز مركب من الرموز فضلاً عن انه لا يستطيع ان يبلغ تطوره الكامل دونهُ ؛ وليس من الصحيح ان يقال ان مجرد الوعي بالعلاقات يفترض مقدماً عملاً عقلياً ، عملاً للفكر المنطقي أو المجرد ؛ فكل هذا الوعي ضروري حتى في الاعمال الاولى من الادراك . لقد دأبت النظريات الحسية على ان تصف الادراك بأنه فسيفساء من معلومات حسية بسيطة . ومن كان من المفكرين بهذا الرأي يغفلون دائماً عن ان الحس نفسه ليس بأي حال ضمنية أو حزمة من الانطباعات المتفرقة ، وقد صححت السيكولوجيا الجشطالتي الحديثة هذه النظرة فأظهرت أن أبسط عمليات الادراك تتضمن عناصر بنائية أساسية ، أعني نماذج معينة او هيئات .

وهذا المبدأ ينطبق على كلا العالمين : الانساني والحيواني . حتى لقد برهن - تجريبياً - على وجود هذه العناصر البنائية - وبخاصة في ضروب التركيب الفراغية والبصرية في المراحل التي تعد نسبياً مراحل سفلى من حياة الحيوان (٢٥) . إذن فان الوعي بالعلاقات لا يمكن اعتباره مظهراً مغنياً من الوعي الانساني . نعم اننا نجد لدى الانسان نموذجاً خاصاً من الفكر العلائقي ليس له ما يوازيه في عالم الحيوان . فان القدرة في الانسان على ان يفرد العلاقات ، أي ان ينظر الى كل واحدة منها في معناها المجرد ، قد تطورت

٢٥ - انظر غلفنجانج كويلر : « بحث بصري عن الشبانزي والفراخ البيئية - برهان على الوظائف البسيطة في تركيب الشبانزي والفراخ البيئية » .

Abhandlungender Berliner Akademie der Wissenschaften (1915, 1918).

ولم يعد الانسان ، لكي يحوز هذا المعنى ، معتمداً على المعلومات البصرية والسمعية واللمسية والعضلية ، انما يعتبر تلك العلائق « في ذاتها » Auto kath'auto كما قال افلاطون . والهندسة هي المثل القديم على نقطة التحول هذه في حياة الانسان الفكرية . فنحن حتى في الهندسة الاولى غير مرتبطين بادراك الاشكال المحسوسة . ولسنا نهتم بالاشياء المادية أو الامور المُحسَّنة لاننا ندرس علاقات فراغية عامة وللتعبير عنها لدينا رمزية مناسبة . وتحقيق هذا لم يكن ممكناً دون اللغة الانسانية وهي الخطوة الاولى . وقد اتضحت هذه النقطة في جميع الاختبارات التي اجريت على عمليات التجريد والتعميم في الحيوانات ؛ وقد نجح كويلر في ان يبين قدرة الشبازي على الاستجابة الى « العلاقة » بين شيئين او اكثر ، بدلاً من الاقتصار في الاستجابة على شيء واحد . فقد وضع أمام الشبازي صندوقين يحتويان على طعام ، فكان الشبازي يختار اكبرهما دائماً لانه كُدرّب تدريباً عاماً وان كان لعله قد رفض في تجربة سابقة نفس الشيء الذي اختاره من بعد ، لانه وجدده اصغر الشيتين . ثم كشفت التجربة عن قدرته على الاستجابة الى اقرب الشيتين او اشدهما لمعاناً او زرقة ، لا الى صندوق خاص . وقد ايدت التجارب الاخرى من بعد نتائج كويلر هذه ووسعتها ، مما دلّ على ان الحيوانات العليا قادرة على ما سمي « فصل العوامل الحسية » ، اي ان لديها القدرة على افراد خاصية حسية معينة في الموقف التجريبي ثم الاستجابة لها على حسب ذلك . وبهذا المعنى تكون الحيوانات قادرة على ان تعزل اللون عن الحجم والشكل او الشكل عن الحجم واللون . وفي بعض التجارب التي اجرتها السيدة كوتس ، استطاع شبازي ان يختار من مجموعة من الاشياء شديدة التنوع في خصائصها المنظورة - ان يختار تلك الاشياء التي كانت تشترك في خاصية واحدة ، اي كان يقدر

الهندسة نقطة تحول في الرمز

الفصل بين الدلالات الحسية لدى الحيوان

— مثلاً — على ان يلتقط كل الاشياء التي تشترك في لون واحد ويضعها في صندوق . ويبدو ان هذه الامثلة تثبت ان الحيوانات العليا قادرة على تلك العملية التي يسميها هيوم في نظريته عن المعرفة « تمييز العقل » (٢٦) . غير ان المهجرين الذين اشتغلوا في هذه البحوث اكدوا ندرة هذه العمليات وفطريتها ونقصها ، لان الحيوانات عرضة لكل انواع الاخطاء الغريبة حتى بعد ان تتعلم كيف تفرد خاصية معينة (٢٧) . واذا كان في عالم الحيوان اي آثار معينة من التمييز العقلي distincti orationis فانها لم تتجاوز عهد البرعمة ، وهي واقفة النمو لا تستطيع ان تتطور لانها لا تملك العون القيم الذي لا غني لها عنه حقاً ، وهو عون الكلام الانساني او جهاز الرموز .

واول مفكر كان ذا بصرجلي في هذه المشكلة هو هيردر فقد تحدث حديث فيلسوف الانسانية الذي يريد ان يضع المشكلة في مصطلح « انساني » خالص ، فرفض اولاً النظرية المتافيزيقية او الكلامية اللاهوتية التي ترى ان اصل اللغة توقيفي او إلهي ، وبدأ يعيد النظر في المسألة نفسها على نحو نقدي ، فتوصل الى أن الكلام ليس شيئاً مادياً حتى نطلب له علة طبيعية او غيبية وانما هو عملية ، اي وظيفة عامة للعقل البشري . ومن الزاوية السيكلوجية لا نستطيع ان نصف هذه العملية بالمصطلح الذي كانت تستعمله المذاهب السيكلوجية في القرن الثامن عشر . ورأى هيردر ان الكلام ليس خلقاً مصطنعاً أوجده العقل ، ولا يُبحث عن علة بالية خاصة من الروابط . وفيما كان هيردر يحاول ان يحدد طبيعة اللغة ألقى

٢٦ — شرح هيوم نظريته هذه في « تمييز العقل » في مقاله عن الطبيعة الانسانية ، القسم الأول ، الفقرة ٧ : (لندن ، جرين وجروز ١٨٧٤) ١ : ٣٣٢ وما بعدها .

٢٧ — قدم بركنس أمثلة من هذه في كتابه « الشبانزي » : ١٠٣ وما بعدها .

كل الثقل والتوكيد على ما سماه « التأمل » وهذا التأمل او الفكر التأملي هو قدرة الانسان على ان يقرر عناصر معينة ثابتة ينزعها من كتلة صماء من تيار المظاهر الحسية العائمة لكي يعزلها عما عداها ويركز فيها انتباهه : « يُظهر الانسانُ التأملَ حين تعمل قوة روحه بجرئية حتى نستطيع ان تعزل من كل محيط الحسّ الذي يهدر خلال حواسه موجةً واحدة ، فيوقف تلك الموجة ويوجه الانتباه اليها ويكون على وعي بهذا الانتباه . ويظهر الانسان التأمل حين يستطيع ان يستجمع نفسه ، من خلال احلام الصور المتمايلة المتدفعة خلال حواسه ، في لحظةٍ بقطةٍ ، فيقف عند صورة واحدة تلقائياً ويلحظها بوضوح ومزيد من الهدوء ، ويستخلص مميزات وخصائص تدله على انها هي ذلك الشيء لا غيره . وهكذا يُظهر الانسان التأمل ، لا فحسب حين يلحظُ كلَّ الخصائص بوضوح وحيوية ، بل حين يدرك ان واحدة او بعضاً من تلك الخصائص هي الصفات الفارقة المميزة ، بأيّ الوسائل يتم له ذلك الادراك ؟ بخاصية لا بد له من ان يستخلصها ، وهي قد قدمت له نفسها واضحة لانها عنصر من الوعي . فلنقل إذن : وجدتها ! ما هذه الصيغة من الوعي إلا لغة الروح . وبها تُخلق اللغة الانسانية » (٢٨) .

على هذا الرأي مظهر الصورة الشعرية اكثر مما فيه من تحليل منطقي للكلام الانساني ، وقد ظلت فكرة هيردر في اصل اللغة ذات طابع نظري تماماً ، لانها لم تنشأ من نظرية عامة في المعرفة ولا من مشاهدة حقائق تجريبية ، وإنما بنيت على مثله الاعلى الذي ارتآه للانسانية ، وعلى حذقه العميق لطابع الحضارة الانسانية وتطورها . ومع ذلك فان فيها

٢٨- هيردر : في اصل اللغة (١٧٧٢) ، مؤلفاته نشر سوفان ، المجلد الخامس ص : ٣٤ وما تلاها .

عناصر منطقية وسيكولوجية من نوع بالغ القيمة . فكل عمليات التعميم والتجريد لدى الحيوانات ، وقد بحثت ووصفت بدقة (٢٩) ، تفقر - بوضوح - الى العلامة المميزة التي نصّ عليها هيردر . على ان نظرية هيردر من بعد وجدت توضيحاً وتأيداً غير متوقعين من مصدر آخر مختلف ، ذلك ان البحث الحديث في ميدان الباثولوجيا السيكلوجية للغة قد ادى بالباحثين الى ان يستنتجوا ان فقدان الكلام او تعطله العنيف الناشء عن اذى في الدماغ لا يكون ظاهرة معزولة عما حولها ، بل ان مثل هذا النقص يغير طابع السلوك الانساني كله ، فلم يفقد المرضى الذين يعانون احتباس النطق او ما اشبهه من امراض قدرتهم على استعمال الكلمات فحسب بل تعرضوا لتغيرات في الشخصية ، إلا ان مثل هذه التغيرات قلما تلحظ في سلوكهم الخارجى لانهم في هذه الناحية يعملون على نحو طبيعي سليم تماماً . فهم يستطيعون ان يؤدوا واجبات الحياة اليومية ، وبعضهم يحرزون مهارة في كل التجارب التي هي من هذا النوع . ولكنهم يغدون ولا حولَ لهم اذا تطلب حلُّ المسألة منهم نشاطاً نظرياً او تأملياً ، إذ لا يعودون قادرين على ان يفكروا في المبادئ والمقولات العامة . وبما انهم فقدوا السيطرة على العموميات فأنهم يتمكنون بالحقائق القريبة والمواقف المحسوسة . ومثل هؤلاء المرضى عاجزون عن ان يؤدوا أية مهمة لا تؤدي إلا عن طريق فهم المجرد (٣٠) .

٢٩ - انظر مثلاً ملاحظات يركس عن « الاستجابات المعممة » عند الشبانزي ، المصدر نفسه : ١٣٠ وما يليها .

٣٠ - هنالك تفصيل غاية في الامتاع لهذه الظواهر موجود في كثير مما نشره ك. جولدشتين ر أ . جلب . وقد قدم جولدشتين موجزاً عاماً لأرائه النظرية في « الطبيعة الانسانية في ضوء الباثولوجيا السيكلوجية » - محاضرات وليم جيمس بجامعة هارفارد ١٩٣٧ - ٣٨ (كيمبردج ، ماسشوست مطبعة جامعة هارفارد ١٩٤٠) وقد ناقشت انا هذه المسألة من زاوية فلسفية عامة في كتابي « فلسفة الاشكال الرمزية » ٦/٣ : ٢٣٧ - ٢٢٣ .

ولهذا كله مغزى كبير لانه يدلنا الى أي حد يعتمد ذلك النموذج من الفكر الذي سماه هيردر « تأملياً » على الفكر الرمزي . فبغير الرمز تكون حياة الانسان كحياة السجناء في كهف افلاطون • - وإذن تصبح حياة الانسان محصورة في حدود حاجاته البيولوجية ورغباته العملية ولا تجد منفذاً يوصلها الى « العالم المثالي » الذي فتحه الدين والفن والفلسفة والعلم - أمام الانسان - من جهات مختلفة .

• [هو التشبيه المشهور الذي ذكره في الجمهورية ، الفصل : ١٥ ص : ٢٢٢) ترجمة كورنفورد] ، وقد مثل فيه عالم المحسوسات بالكهف ، والناس فيه مقيدون يرون أظلمة كل ضوء نادر فيحبونها حقائق ؛ حتى اذا أتيح لاحدهم ان يخرج ويرى الشمس « مثال الخير » أعتت عينه ... الخ التشبيه [. (المترجم)

العالم الانساني - عالم المسافة والزمن

ان المسافة والزمن هما الاطار الذي لا تنفك منه الحقيقة كلها ، حتى اننا لا نستطيع ان نتصور شيئاً حقيقياً إلا في ظلّ المسافة والزمن . ومن قديم قال هرقليطس : لا شيء في العالم يستطيع ان يتجاوز مقاييسه ، وهذه المقاييس هي الحدود الاتساعية والزمنية ، غير ان المسافة والزمن لا يعتبران في الفكر الاسطوري شكلين خالصين او فارغين ، وانما يعدان القوتين العظيمتين الفاضلتين اللتين تحكمان كل الاشياء وتصرّفان وتحددان حياتنا القانية وحياة الآلهة ايضاً .

ومن الواجبات العامة المرغوبة لدى الفلسفة الاثروبولوجية ان تصف وتحلل الطابع الخاص الذي تتميز به المسافة والزمن في التجربة الانسانية . ومن الظنون الساذجة المنهارة أسسها ، الاعتقاد بان الكائنات العضوية تتساوى لديها حقيقتا المسافة والزمن بالضرورة ؛ فمن الواضح انه لا يمكننا ان ننسب الى الكائنات العضوية الدنيا مثل ما للانسان من ادراك للمسافة ؛ حتى بين العالم الانساني وعالم القروء الشبيهة بالانسان يبقى في هذا المجال اختلاف لا تحطئه العين ولا يمكن طمسه ، إلا انه ليس من السهل التعليل

لهذا الاختلاف اذا اكتفين بتطبيق مناهجنا السيكلوجية المألوفة ، بل علينا ان نسلك طريقاً غير مباشرة فنحلل صور الحضارة الانسانية من اجل ان نستين الطابع الصحيح للزمن والمسافة في العالم الانساني .

واول ما يتضح بهذا التحليل ان هناك نماذج مختلفة من التجربة المسافية والزمنية ، وليست كل صور هذه التجربة في مستوى واحد بل هناك طبقات عليا وطبقات دنيا مترتبة حسب نظام معين . وقد تسمى الطبقة الدنيا « المسافة والزمن العضويان » فكل كائن عضوي يعيش في بيئة معينة ، وعليه دائماً ان يكيف نفسه لظروف تلك البيئة ليكفل لنفسه البقاء . وهذا التكيف يتطلب ، حتى في الكائنات الدنيا ، نظاماً معقداً من ردود الفعل ، اي قدرة على التمييز بين الدوافع المادية والاستجابة الملائمة لتلك الدوافع . وهذا كله لا يتعلمه الكائن عن طريق التجربة الفردية ، إذ يبدو ان الحيوانات حديثة الميلاد ذات احساس دقيق منضبط بالمسافة والاتجاه ، فالفرخ الصغير الذي تفلق عنه البيضة حديثاً يماسك مثبتاً ويلقط الحب المتناثر في طريقه ، وقد درس البيولوجيون والسيكولوجيون — باعثناء — الظروف الخاصة التي تعتمد عليها هذه العملية من الإحساس بالمسافة . ومع اننا لا نستطيع ان نجيب على كل الاسئلة المتشابهة التي تثار حول قوة الاحساس بالبيئة والتكيف بها لدى النحل والنمل والطيور القاطنة المهاجرة ، فان في مقدورنا — على الأقل — ان نعطي جواباً سالباً . فنحن لا نستطيع ان نفترض بان الحيوانات تهتدي ، وهي تؤدي هذه الردود المعقدة ، بعمليات ذات طابع فكري ، بل هي على العكس من ذلك ، فيما يبدو ، تنقاد بدوافع جسمية من نوع خاص ، فليس لديها صورة عقلية او فكرة عن المسافة ولا تصور لعلاقات مسافية .

فاذا اقتربنا من الحيوانات العليا التقينا شكلاً جديداً من المسافة يمكن

المسافة
والزمن
العضويان

قوة المسافة
النسوية لدى
الحيوان

ان نسميه « المسافة الحسية » . هذه المسافة ليست مدلولاً حسيّاً بسيطاً وإنما هي ذات طبيعة معقدة تحتوي عناصر من مختلف انواع التجربة الحسية - من بصرية ولمسية وسمعية وعضلية ، اما الطريقة التي بها تتعاون كل هذه العناصر في بناء المسافة الحسية فقد دلت الدلائل على انها من أعوص المسائل في السيكلوجيا الحديثة التي تتناول شؤون الحس . وقد وجد عالم كبير اسمه هرمان فون هلمهولتز ان من الضروري إضافة فرع جديد من فروع المعرفة ، أي خلق علم البصريّات الفيزيولوجية ، لكي نحل المشكلات التي تواجهنا هنا . ومهما يكن من شيء فان مسائل كثيرة تبقى في الحاضر دون ان يستطيع الجزم فيها على نحو واضح لا غموض فيه . ويبدو ان العراك في تاريخ السيكلوجيا « على الميدان المظلم من المذهبين القطري والتجريبي » عراكٌ لن ينتهي^(١) .

وليس اهتمامنا في هذا المقام معلقاً بهذا الوجه من المشكلة ، فان مسألة أصل الادراك المسافي - وهي التي طالما طفت على غيرها من المسائل وحجبت وجهها - ليست هي المسألة الوحيدة ثمة ولا هي اكثر المسائل أهمية . واذ كنا ندرس الموقف من زاوية نظرية المعرفة العامة والفلسفة الاثروبولوجية فان الذي يستأثر باهتمامنا مظهر آخر لا بد من ان نركز فيه النظر . وبدلاً من ان نبحث اصل المسافة الحسية وتطورها علينا ان نحلل « المسافة الرمزية » ؛ وحين نقترّب من هذا المظهر نكون قد وقفنا على الحد بين العالمين الحيواني والانساني . فأما فيما يتعلق بالمسافة العضوية و « مسافة العمل » فان الانسان - فيما يبدو - ادنى فيها حالاً من الحيوان ، من وجوه عدة . وحال الطفل تدل على ذلك فان عليه ان يتعلم ضرورياً من المهارة لا يحتاج الحيوان ان يتعلمها لانها تولد معه . الا ان الانسان

المسافة
الرمزية او
المجردة

١ - راجع ملاحظات ولیم ستيرن في كتابه « سيكلوجية الطفولة الاولى » ترجمة انا باروويل (الطبعة الثانية ، نيويورك ، هولت وشركاه ١٩٣٠) ص : ١١٤ وما بعدها .

عَوَّضَ عن هذا النقص بحجة اخرى هو وحده يطورها ولا شيء يضاهيها في الطبيعة العضوية ، تلك هي فكرة « المسافة المجردة » التي لا يتوصل اليها الانسان تَوْأً وانما يبلغها بوساطة عملية فكرية بالغة التعقيد والصعوبة ، وهي تلك الفكرة التي تعبد الطريق امام الانسان لا لينفذ فحسب الى حقل جديد من حقول المعرفة بل ليسلك وجهة جديدة تماماً في حياته الحضارية .

وقد واجه الفلاسفة انفسهم ، منذ البداية ، الصعوبات العظيمة ليعملوا طبيعة المسافة الرمزية او المجردة ويصفوها . وكان الاهتمام الى وجود شيء كهذه المسافة الرمزية من اول مستكشفات الفكر الاغريقي واهمها . وكلا الفريقين من ماديين ومثاليين نصّاً على اهمية هذا الكشف ولكنّ المفكرين من كلا المذهبين عانوا كثيراً في سبيل ان يميزوا لها طابعها المنطقي ، فتوجهوا الى التذرع باقرارات المتناقضة فقال ديموقريطس : إن المسافة عدم (mē on) إلا ان لهذا عدم حقيقة واقعة . وقال افلاطون في « طيماوس » ان فكرة المسافة « فكرة مختلطة النشأة » ، يكاد لا يوجد مصطلح مناسب لوصفها . ولا تزال هذه الصعوبات القديمة مستعصية على الحل حتى في العلم والفلسفة الحديثين . فيحذرتا نيوتن من ان تخلط المسافة المجردة - المسافة الرياضية الصحيحة - بالمسافة التي ندركها بتجاربنا الحسية ، ويقول : ان الناس العاديين لا يفكرون في المسافة والزمن والحركة الا من حيث علاقاتها بالاشياء المحسوسة ، ولكن علينا ان نهجر هذه الطريقة إن كنا نريد التوصل الى حقيقة علمية او فلسفية ، ففي الفلسفة علينا ان ننتزع تجريداً من معلوماتنا الحسية (٢) . وقد اصبحت نظرة نيوتن هذه حجر عثرة أمام كل الفلسفات الحسية ، فركّز بيركلي كل

اكتشاف
اليونان
للمسافة
المجردة

نيوتن
والمسافة
المجردة

٢ - انظر « مبادئ » نيوتن ، الكتاب الاول ، التعريف : ٨ - تعليق .

هجاته النقدية ضدها وذهب الى أن « المسافة الرياضية الصحيحة » التي زعمها نيوتن ليست تعدو ان تكون مسافة متوهمة ، تخيلها العقل الانساني . وإذا وافقنا بيركلي على المبادئ العامة التي قررها في نظريته عن المعرفة ، لم نستطع ان ننكر عليه رأيه هذا ، ويجب ان نسلم بأن المسافة المجردة ليس لها نظير ولا اساس في اي حقيقة مادية او سيكولوجية ، فالنقط والخطوط التي يضعها المهندس ليست اشياء مادية او سيكولوجية ، وليست هي إلا رموز لعلاقات مجردة ، وإذا وصفنا هذه العلاقات بأنها « حقيقة » احتجنا الى ان نعيد النظر في تعريف مصطلح « حقيقة » لانا في حال المسافة المجردة لا نهم بحقيقة الاشياء وإنما نهم بحقيقة الفروض والاحكام . وقبل ان تتمكن الفلسفة والعلم من اداء هذه الخطوة وإيجاد اساس منظم لها كان عليهما ان يسيرا مسافة طويلة وان يمرا بمراحل متوسطة عديدة . ان تاريخ هذه المشكلة لم يكتب بعد ، ولقد يكون تتبع الخطوات في هذا التطور خطوة اثر خطوة من المهات الجلذابة ، فان تلك الخطوات تمنح متابعها بصرأ نافذاً في صميم طابع الحياة الحضارية الانسانية ووجهتها العامة . وسأكتفي في هذا الموطن باختيار بضع مراحل نموذجية بادئاً بالمرحلة البدائية : في الحياة البدائية ونحت ظروف المجتمع البدائي نكاد لا نجد اي اثاره من فكرة المسافة المجردة . لان المسافة البدائية مسافة عمل [عضوية] . ويرتكز العمل حول حاجات ورغبات ماسة مباشرة . فان تحدثنا عن « فكرة » بدائية في المسافة ، فان هذه الفكرة لن تكون ذات طابع نظري خالص اذ ما تزال مغممة بمشاعر ذاتية او اجتماعية محسوسة ، اي مغممة بعناصر عاطفية . يقول هاينز فرنز :

« حين يقوم البدائي بأية فعاليات عملية فيقيس المسافات أو يبحر في زورقه او يقذف بحبرته نحو هدف معين ، وما اشبه ، تكون

مسافته - وهي ميدان عمله وهي ايضاً مسافة نفعية - غير مفترقة
 في مبناها عن مسافتنا نحن غير البدائيين ؛ ولكن هذا البدائي حين
 يجعل مسافته موضوع تمثيل وفكر تأملي ، تنشأ ثمة فكرة أولية
 - على نحو محدد - مختلفة جوهرياً عن كل محل ذي طابع فكري .
 إن فكرة المسافة لدى الرجل البدائي ، حتى وان كانت منظمة ،
 لمي مرتبطة ارتباطاً وحدة بالموضوع . هي فكرة أكثر نضجاً
 بالعاطفة والمحسوسية من المسافة المجردة لدى الانسان المتقدم حضارياً .
 هي ليست موضوعية قابلة للقياس أو مجردة في طابعها وإنما تبرز
 خصائص ذاتية وتجسيمية ، وهي مظهرية الملامح دينامية متأصلة
 الجذور في المحسوس والمادي ^(٣) .

وتكاد الخطوة الحاسمة التي تنقلنا من مسافة العمل الى فكرة نظرية او
 علمية عن المسافة - أي المسافة الهندسية - تكاد هذه الخطوة تكون في
 الحق مهمة لاحقة بالمستحيل إذا نظرنا إليها من زاوية العقلية البدائية
 والحضارة البدائية . ففي المسافة الهندسية تمحى الخلافات المحسوسة بين
 ضروب تجربتنا الحسية المباشرة ؛ فيبطل ان يكون لدينا مسافة بصرية
 ولمسية وسمعية وشمية . ان طبيعة حواسنا المتباينة تلقي علينا تنوعاً ونكثراً
 فتكون المسافة الهندسية تجريداً متزجاً من حومة هذا التنوع والتكثر ، فاذا
 لدينا مسافة عامة متجانسة الاجزاء . وبوساطة من هذا الشكل الجديد
 المتميز للمسافة - بوساطة منه وحده - استطاع الانسان ان يصل الى فكرته
 عن نظام كوني فذٍ منظم . ولولا فكرة المسافة « الموحدة » لما استطاع
 الانسان ان يتوصل الى فكرة عن هذا النظام ، أي عن وحدة الكون

صعوبة
 الانتقال
 من المسافة
 العملية الى
 المسافة
 الهندسية

٣ - انظر هاينز فرزر « السيكولوجيا المقارنة للتطور العقلي » (نيويورك ، هاربر واخوانه

١٩٤٠) ص : ١٦٧

وقانونيته . لكن مضي وقت طويل قبل ان تم هذه الخطوة ، فالعقل البدائي ليس فحسب عاجزاً عن التفكير في نظام مسافة ، بل انه لا يستطيع ان يتصور "خطّة" مسافة ، ولا تتحول مسافته المحسوسة الى شكل مخطّط . ويدلنا علم الاجتناس [الانثولوجيا] على أن القبائل ، في العادة ، موهوبةٌ باحساسٍ للمسافة غايةٍ في الحدة . فالفرد من تلك القبائل ذو بصر بأدق الدقائق في بيئته ، مرهف الحس لكل تغير يطرأ على الموجودات المألوفة من حوله ، ويستطيع ان يجد طريقه في أشد الظروف عسراً ، فاذا جدّف او أبحر تتبع بدقة بالغة كل منعطفات النهر ذاهباً وآيياً . لكن اذا دققنا الفحص اكنشفنا ، لدهشتنا ، انه يفترق افتقاراً غريباً لادراك المسافة على الرغم من هذه الامكانيات الميسّرة . فان سأله ان يعطيك وصفاً عاماً ، أي تخطيطاً لمجرى النهر عجز عن ذلك . واذا رغب اليه في ان يرسم خريطة للنهر ومنعطفاته المتعددة لم يكذ يفهم ما تقول . ومن هذا نتبين بوضوح وجلاء أمر الاختلاف بين الفهم المحسوس والمجرد للمسافة والعلاقات المسافية . فذلك الفرد الذي ذكرناه يعرف مجرى النهر تمام المعرفة ولكن معرفته بعيدة كل البعد عما قد نسميه معرفةً بالمعنى المجرد أو النظري . ومعرفته تلك تعني « الحل » فحسب . اما المعرفة النظرية فانها تحتوي « النقل » وتفترض وجوده . والحل هو تقديمك الشيء أو تناولك له ، وهذا لا يتطلب منك الا عدداً محدداً من الاعمال والحركات الجسمية تكون متواكبة معاً أو متتالية . وهو امر منوط بالعادة ، والعادة تتم بتكرار اعمال معينة تؤدى دون تغيير . إلا ان نقل المسافة والعلاقات المسافية شيء مختلف عن هذا وفيه معنى أكثر منه . فنقلك الشيء لا يكفي فيه ان تكون قادراً على السيطرة عليه واستغلاله في شؤون عملية ، بل لا بد لك من أن تعرف فكرة عامة عن الشيء وتنظر اليه من زوايا مختلفة لتستطيع ان تجد علاقاته بغيره

زيادة اوضح
في الفرق بين
المسافة العملية
والمسافة
المجردة لدى
البدائيين

من الاشياء ؛ عليك أن تضعه في مكانه وتعين له ذلك المكان في نظام عام . ويبدو أن هذا التعميم العظيم الذي ادى ، في تاريخ الحضارة الانسانية ، الى فكرة النظام الكوني ، نشأ في أول أمره في علم الفلك البابلي ، وهنا نجد أول شهادة محددة على فكر يعتلي فلك الحياة الانسانية العملية المحسوسة ويعانق العالم كله بنظرة شاملة . ولهذا السبب ذهب بعض الباحثين يقولون : ان الحضارة البابلية هي مهد الحياة الحضارية جميعاً ، وقال بعض الدارسين : ان الافكار الاسطورية والدينية والعلمية لدى الانسانية جمعاء استمدت من ذلك المصدر . ولست اناقش في هذا المقام هذه النظريات المتعلقة بشمول الحضارة البابلية^(٤) لأنني أود أن أثير سؤالاً آخر : هل في الامكان ان نقدر سبباً نعلل به لم كان البابليون أول من أرسى قواعد النظريات الفلكية والكونية العلمية فضلاً عن انهم كانوا هم اول من لاحظ الظواهر السماوية ؟ لا ريب في ان الانسان ، قبل البابليين ، لم يغفل عن اهمية الظواهر في السماء اغفالا تاماً ، ولا بد انه قبل مضي وقت طويل تنبه الى ان حياته كلها تعتمد على بعض ظروف كونية عامة ، فطلوع كل من الشمس والقمر والكواكب وغروبها ودورة الفصول - كل هذه الظواهر الطبيعية حقائق مشهورة تلعب دوراً هاماً في الميثولوجيا البدائية . لكن ادخالها جميعاً في نظام فكري تطلب وضعاً جديداً لم يكن يمكن تحقيقه الا في ظروف خاصة . وهذه الظروف المواتية هي التي كانت سائدة في نشأة الحضارة البابلية ، وقد كتب اوتو نيوجيباور دراسة غاية في الامتاع في تاريخ

٤ - انظر في هذه النظريات مؤلفات هوجو فنتكلر وبخاصة : «صورة السماء والكون لدى قدماء البابليين باعتبارها اساساً للفكر والميثولوجيا لدى كل الشعوب» (ليزج ١٩٠١) وكذلك كتاب « المدنية البابلية وصلتها بتطور حضارة الانسانية » (ليزج ١٩٠١)

الرياضيات القديمة صحَّح بها كثيراً من الآراء السابقة حول هذه المسألة .
فقد كانت النظرة الماثورة هي انه لا توجد اي شواهد قبل عصر الاغريق
عن رياضيات علمية ، وكان الباحثون يعتقدون ان البابليين والمصريين
أحرزوا تقدماً عملياً « وتقنياً » عظيماً ، ولكنهم لم يستكشفوا المبادي الاولى
في الرياضيات النظرية . اما نيوجيباور فانه توصل من تحليله النقدي لكل
الشواهد المبصرة الى تفسير مختلف عن هذا ، اذ اتضح له ان التقدم
الذي احرزه البابليون في الفلك لم يكن ظاهرة منعزلة عما عداها وانما اعتمدت
على حقيقة أساسية ، وهي استكشاف اداة عقلية جديدة واستغلالها - ذلك
ان البابليين اكتشفوا « الجبر الرمزي » ؛ واذا قارنا هذا الجبر بتطورات جدت
من بعد في الفكر الرياضي حكمتنا انه كان ما يزال ، طبعاً ، بسيطاً
أوليساً ، ومع ذلك فقد كان يحوي فكرة جديدة في غاية الخصوصية .
ويتتبع نيوجيباور هذه الفكرة من مبادي الحضارة البابلية ، ويخبرنا انه
لكي نفهم الشكل المميز للجبر البابلي علينا ان نحسب حساب المستند
التاريخي للمدنية البابلية ، فهذه المدنية تدرجت في ظروف خاصة ، اذ
كانت وليدة لقاء وصادم بين جنسين مختلفين : السومريين والآكديين ،
وهذان الجنسان من أصلين مختلفين ، يتحدثان لغتين لا صلة بين واحدهما
والاخرى ، فاللغة الأكديّة تنتمي الى اسرة اللغات السامية ، وتنتمي
السومرية الى أسرة أخرى لا هي سامية ولا هندية أوروبية . وعندما
التقى هذان الشعبان وشاركاً معاً في حياة سياسية واجتماعية وثقافية مشتركة
جدت لديها مشكلات تستدعي حلولاً ، مشكلات وجدا من الضروري
لحلها ان يطوراً قوى فكرية جديدة . ولم تكن اللغة السومرية الاصلية
مفهومة لدى الآكديين ، ولم يستطع هؤلاء ان يحلوا النصوص السومرية
المكتوبة إلا بعد جهد عقلي مرير ومشقة بالغة . وبهذا الجهد تعلم البابليون

اول مرة ان يفهموا معنى الرموز المجردة وان يستغلوها . يقول نيوجيباور :
 « كل عملية جبرية تفترض مقدماً ان الواحد يملك رموزاً معينة
 ثابتة من اجل غرضين : من اجل العملية الرياضية ، ومن اجل
 الكميات التي تطبق عليها هذه العمليات . ولا يمكن بغير مثل هذه
 الرمزية ان نضم معاً الكميات التي لا تُحدّث او تميّز عددياً ، ولا
 نستطيع ان نشق منها توافيق جديدة . إلا ان مثل هذه الرمزية
 ظهرت حالاً واضطراباً في كتابة النصوص الأكاديمية .. ومنذ البدء
 استطاع البابليون ، إذن ، ان يحكموا أهمّ أساس للتطور الجبري ،
 أي ان يحكموا رمزية لازمة مناسبة »^(٥) .

التباس الفلك
 بالتنجيم
 واثار ذلك

وعلى ذلك ، فان ما نجده في الفلك البابلي ليس الا المراحل الاولى من
 تلك العملية الكبرى التي ادت في النهاية الى الانتصار العقلي على المسافة
 والى استكشاف النظام الكوني . ولم يستطع تفكير رياضي كهذا ان يؤدي
 الى حل عاجل للمشكلة لأن الفكر الرياضي في فجر المدنية الانسانية لم
 يظهر أبداً في شكله المنطقي الصحيح ، وانما كان مغلفاً في جو من الفكر
 الاسطوري ، ولم يستطع المكتشفون الأول للرياضيات العلمية ان ينفذوا من
 ذلك الغلاف ، فتحدث الفيثاغوريون عن الأعداد من حيث هي قوة
 سحرية خفية ، وحتى في نظريتهم عن المسافة استعملوا لغة اسطورية .
 وغدا هذا التداخل بين عناصر تبدو غير متجانسة واضحاً في كل النظم
 البدائية المتعلقة بأصل الكون . وما يزال علم الفلك البابلي - بكليته - تفسيراً
 اسطورياً للعالم . ولم يعد محدوداً بالمسافة المحسوسة الجسمية البدائية وبدائيتها

(٥) اوتو نيوجيباور : « الرياضيات قبل عهد الاغريق » في :

Vorlesungen über die Geschichte der antiken Mathematischen
 Wissenschaften (Berlin, J. Springer, 1934), 1, 68. ff.

الضيقة ، اي انتقلت المسافة من الارض الى السماوات . ولكن بني الانسان حين حوّلوا أنظارهم الى نظام الظواهر السماوية ، لم يستطيعوا ان ينسوا حاجاتهم ورغباتهم الارضية ، واذا كان الانسان قد وجه بصره الى السماء فما ذلك منه الا إرضاء لحب استطلاع فكري ، فحسب ، وكل ما كان يبحث عنه في السماء انما هو على التحقيق انعكاس صورته ونظام عالمه الانساني ، فقد أحس أن عالمه مربوط الى النظام الكوني العام ، بروابط مرئية وخفية ، فأراد أن يتغلغل في هذه الصلة الغريبة ولذلك لم يستطع ان يدرس الظواهر السماوية بروح محايدة من التأمل المجرد والعلم الخالص . وانما اعتبر تلك الظواهر سادة العالم وحكامه والمصرفين للحياة الانسانية ، ووجد من الضروري ان يولي وجهه شطر السماوات لكي ينظم بذلك حياته السياسية والاجتماعية والاخلاقية . وبدا له ان ليس في الظواهر الانسانية واحدة تفسر نفسها بنفسها ، وان لا بد من تفسيرها بالعودة الى ظاهرة سماوية مماثلة تعتمد عليها تلك الظاهرة الانسانية .

من هذه الاعتبارات يتضح أن المسافة في النظم الفلكية الاولى لم تكن محض مسافة نظرية ويتضح لم كان ذلك كذلك ، فلم تكن تلك المسافة تتألف من نقط وخطوط أي من سطوح بالمعنى التجريدي الهندسي الخالص لهذه المصطلحات ، وانما ملكت تلك المسافة بقوى سحرية من إلهية وشيطانية ، وكانت الغاية الاولى الاساسية من علم الفلك اكتساب بصر نافذ بنشاط تلك القوى وطبائعها ، من أجل ان يقدر الانسان على التنبؤ بتأثيراتها الخطرة ويعمل على تجنبها . ولم يتمكن علم الفلك من أن يرتفع الا في هذا الشكل الاسطوري السحري ، شكل التنجيم ، وظل يحتفظ بهذا الطابع على مدى آلاف عدة من السنين ، وكان هذا الطابع ، بمعنى من المعاني ، ما يزال هو المسيطر في القرون الاولى من عصرنا اي في حضارة عصر النهضة ، حتى

المسافة في
الفلك القديم
ليست هندسية
خالصة

ان كبلر . مؤسس علم الفلك العلمي ظلّ يكافح هذه المشكلة طوال حياته ؛ وأخيراً كان لا بد من ان تم هذه الخطوة ، فخلف الفلكُ التنجيم ، واحتلت المسافة الهندسية مكان المسافة الاسطورية والسحرية . لقد كان شكل الفكر الرمزي الذي عبّد الطريق اولاً امام رمزية جديدة صحيحة ، رمزية العلم الحديث - كان ذلك الشكل خادعاً خاطئاً .

وكان من اولى مهمات الفلسفة الحديثة واشدها صعوبة ان تفهم هذه الرمزية بمعناها الصحيح وان تدرك خطرها كاملاً . واذا درسنا تطور الفكر الديكارتي وجدنا ان ديكارت لم يبدأ بمقولته المشهورة : « أنا افكر اذن فأنا موجود » Cogito ergo sum ، وانما ابتدأ بفكرته ومثاله : « الرياضيات الكلية العامة » mathesis universalis ، وكان مثاله مؤسساً على كشف رياضي عظيم هو الهندسة التحليلية ، وبهذا خطا الفكر الرمزي خطوة اخرى الى الامام كان لها أهم النتائج النظامية ، واصبح من الواضح ان كل معرفتنا بالمسافة والعلاقات المسافية يمكن ان تترجم الى لغة جديدة هي لغة الاعداد ، وان بهذه الترجمة والتحويل يمكن ان تُتصَوّر الصبغة المنطقية الصحيحة للفكر الهندسي على نحو انسب واشد وضوحاً .

ونجد نفس هذا التطوّر المتميز حين ننقل من مشكلة المسافة الى مشكلة الزمن . والحق ان بين تطور هاتين الفكرتين مقاييسات صارمة ، ليس هذا فحسب بل ان بينهما اختلافات مميزة ايضاً . فاما المسافة فيها يرى كانت ، فانها شكل « تجربتنا الخارجية » واما الزمن فانه شكل « تجربتنا الداخلية » . فقد واجهت الانسان مشكلات جديدة وهو يحاول ان يفسر تجربته الداخلية ، فلم يستطع ان يستعمل فيها نفس المناهج التي اتبعها في محاولته الاولى لينظم معرفته بالعالم المادي وينسقها ، غير ان هناك

ديكارت
والهندسة
التحليلية

الزمن

• يوهانس كبلر الفلكي الالمانى ١٥٧١ - ١٦٣٠ . (المترجم)

مُتَّكًا عاماً تستند اليه المسألتان ، حتى الزمن رآه الانسان اول ما ففكر فيه حالة عامة من احوال الحيوية العضوية لا شكلاً معيناً من أشكال الحياة الانسانية . والحياة العضوية لا توجد الا بمقدار ما هي تتطور في زمن ، فهي ليست شيئاً وانما هي عملية ، أي هي تيار من الاحداث مستمر لا يهدأ . وفي هذا التيار لا شيء يعود بنفس الشكل الذي مرّ فيه أولاً . لقد تصدق قوله هرقليطس على الحياة العضوية كلها : « انك لا تستطيع ان تخطو مرتين في النهر نفسه » . وحين نعالج مشكلة الحياة العضوية علينا ، أولاً وقبل أي شيء آخر ، أن ننفي عن انفسنا ما سماه هوايتهد اعتقاد « الاقامة البسيرة » . فالكائن العضوي لا يقيم ابداً في لحظة واحدة ، بل ان احوال الزمن الثلاث – الماضي والحاضر والمستقبل – تكون في حياة ذلك الكائن كلا لا يمكن تجزئته الى عناصر متفرقة . لقد قال ليبنتز : « الحاضر مفعم بالماضي مثقل بالمستقبل » . ونحن لا نستطيع ان نصف الحالة الآنية للكائن العضوي دون ان نأخذ تاريخه بعين الاعتبار ، ودون ان نحولها الى حالة في المستقبل تكون الحالة الآنية منها بمثابة نقطة العبور اليها .

معنى الازمنة
الثلاثة

الذاكرة
والماضي

دافع إيفالد هرنج احد الفيزيولوجيين المشهورين في القرن التاسع عشر عن النظرية التي تقول : ان الذاكرة يجب ان تعتبر وظيفة عامة تقوم بها كل المادة العضوية ^(٦) . وانها ليست فحسب ظاهرة من حياتنا الواعية وانما هي منتشرة في منطقة الطبيعة الحية كلها . وقد تقبل هذه النظرية وطوّرها ر . سمون ، الذي طوّر على هذا الاساس خطة سيكولوجية عامة جديدة . ويرى سمون ان السبيل الوحيد الى السيكولوجيا العلمية انما تكون بوساطة « البيولوجية الذكّريّة » Mnemic biology . وقد

٦ - انظر إيفالد هرنج : « في الذاكرة من حيث هي وظيفة عامة للمادة العضوية » (١٨٧٠) .

عرف سمون الذاكرة Mneme بأنها مبدأ الاستثبات والحفظ أثناء تغير كل الاحداث العضوية . والذاكرة والوراثة وجهان من وظيفة عضوية واحدة . وكل مؤثر يفعل في كائن عضوي يترك فيه « أثراً ثابتاً » engram أي أثراً فيزيولوجياً محدداً ، وتعتمد ردود الفعل التي يبدئها الكائن العضوي مستقبلاً على سلسلة هذه الآثار الفيزيولوجية المتصلة ، أي على ما قد يسمى « engram complex »^(٧) . ولكن هب اننا نقبلنا الفكرة العامة التي قدمها كل من هرنج وسمون ، مع ذلك فاننا لا نزال بعيدين عن تفسير الدور والخطورة اللذين تمثلهما الذاكرة في عالمنا الانساني . اما الفكرة الانثروبولوجية عن « المنيمة » او الذاكرة فانها مختلفة عما قاله هذان العالمان . فان فهمنا ان الذاكرة وظيفة عامة لكل المادة العضوية فانما نعني فحسب أن الكائن العضوي يحتفظ ببعض آثار تجربته السابقة ، وان هذه الآثار ذات تأثير محدد على ردود فعله من بعد . ولكن ان كنا نفهم الذاكرة بالمعنى الانساني لهذه الكلمة ، فليس يكفي ان يتبقى « باقٍ متخلف عن فعل مؤثر سابق »^(٨) . فان حضور هذه « البواقي » بمجموعها جميعاً لا يستطيع أن يعلل ظاهرة الذاكرة ، لأن الذاكرة تتضمن عملية تعرف وتحقق ذات ، وهي عملية فكرية من نوع شديد التعقيد . ولا يكفي فحسب ان تعاد الانطباعات السابقة بل يجب أن تنظم وتقرر في أماكنها وترد الى نقاط مختلفة في الزمن ؛ وقرارها في أماكنها غير ممكن دون أن نعد الزمن خطة عامة - نظاماً تسلسلياً يستوعب كل الاحداث واحداً واحداً . وان

٧ - من شاء تفصيلاً فليراجع « الذاكرة » لسمون (١٩٠٩) و « الخواطر عن طريق الذاكرة » (١٩٠٩) وقد نشر من هذين الكتابين موجز بالانجليزية من صنع بلا دني بعنوان « سيكولوجية الذكر » (نيويورك ١٩٢٣)

٨ - نص قول سمون : « Der latente rest einer früheren Reizwirkung »

الوعي بالزمن يشمل ضمناً فكرة مثل هذا النظام المتسلسل بالضرورة، وهذه الفكرة تشبه تلك القضية التي أسميناها المسافة.

التذكر عند
الحيوانات

أما التذكر الذي لا يعدو أن يكون استعادة بسيطة لحادثة سابقة فانه يتم أيضاً في حياة الحيوانات العليا ؛ لكن الى أي حد يعتمد على عمليات فكرية تقارن بتلك العمليات الموجودة لدى الانسان ؟ تلك مشكلة صعبة ثار حولها جدل كثير ، وقد خصص روبرت م. بركس في آخر مؤلف له فصلاً خاصاً لبحث هذه المشكلة وتوضيحها . وينساءل مشيراً الى فصيلة الشمبانزي :

« أتعمل هذه كأنما هي قادرة على تذكر تجارب ماضية واسترجاعها وتمييزها أم أن ما غاب عن نظرها فقد غاب من الذهن ؟ أتستطيع أن ترجو وتوقع وتخيل وعلى أساس من مثل هذا الوعي تستعد لأحداث مستقبلية ؟ ... أتستطيع ان تحل مشكلات وتتكيف في المواقف البيئية بعون من عمليات رمزية مشابهة لرموزنا الكلامية وبالاتماد على أنواع من التداعي تستخدمها كإشارات ؟ » (٩) .

ويميل بركس الى أن يكون جوابه على هذه الاسئلة بالإيجاب . ولكن المسألة الحرجة تظل حاضرة حتى وان قبلنا كل شواهدنا . اذ المهم هنا ليس هو حقيقة العمليات الفكرية لدى الانسان والحيوان وانما المهم هو شكل هذه العمليات . فنحن لا نستطيع أن نقول إن التذكر لدى

التذكر
الانساني
ولادة

الانسان هو مجرد عودة حادثة كأنما هي صورة باهتة او نسخة من انطباعات سابقة ؛ ليس التذكر لإعادة وانما هو ولادة الماضي من جديد ، وهذا يعني ضمناً عملية خالقة ببناءة ، ولا يكفي أن نلتقط معلومات متزعة

من تجربتنا الماضية بل علينا ، في الحقيقة ، جمعها ثانية ، أي تنظيمها وتأليفها وحشدتها حول مركز فكري ، وهذا النوع من إعادة الجمع هو الذي يميز صورة الذاكرة الانسانية ويفرقها عن سائر الظواهر الاخرى في الحيوان او الحياة العضوية .

انواع
انسانية من
التذكر لدى
الحيوان

يقيناً إننا لنجد في تجربتنا العادية صوراً كثيرة من التذكر لا ينطبق عليها هذا الوصف ؛ وكثير من احوال التذكر ، وربما قلنا اكثرها ، يمكن تحليلها حسباً تراه مذاهب الفلاسفة الحسين ، أعني ان تفسر بأنها عملية آلية بسيطة من « تداعي الافكار » . وقد اقتنع كثير من السيكلوجيين بأن ليس افضل لاختبار ذاكرة المرء من ان تعرف كم كلمة بلا معنى - او مقطعاً - يستطيع ان يحتفظ بها في ذاكرته وان يعيدها بعد فترة معينة من الزمن . وقد بدا ان التجارب التي تمت في ظل هذا الرأي لا تعطي الا القياس الصحيح الوحيد للذاكرة الانسانية ، ولكن من أهم ما أسهم به برجسون في ميدان علم النفس هو هجته على كل هذه النظريات الآلية القائمة حول الذاكرة . ويرى برجسون كما ذكر في كتابه « المادة والذاكرة » ان الذاكرة ظاهرة اعتمى واشد تركباً [مما يُظن] ، لأنها تعني « تحويلاً الى الداخل » وتكثيفاً ، تعني تغلغلاً متواصلاً لكل العناصر من حياتنا الماضية . وقد اصبحت هذه النظرية في مؤلف برجسون نقطة بدء متافيزيقية جديدة ثم تحولت الى ان تكون حجر الزاوية في فلسفة الحياة لديه .

التذكر
الرمزي ، مثل
من حياة
جوته

ونحن هنا لسنا معنيين بالمظهر المتافيزيقي من المشكلة لأن غايتنا هي « علم ظواهر الحضارة الانسانية » واذن فعلينا ان نحاول توضيح هذه المسألة وتبيانها بأمثلة محسوسة مأخوذة من الحياة الحضارية للانسان . وحياة جوته ومؤلفاته مثل معتمد : فالتذكر الرمزي هو العملية التي سيقيد بها الانسان تجربته الماضية ويعيد بناءها ، وفي هذه الحال يصبح الخيال عنصراً

ضرورياً للاستعادة الصحيحة ؛ وهذا هو السبب الذي جعل جونه يتخذ « الشعر والحقيقة » عنواناً لسيرته الذاتية ، ولم يعنِ بذلك انه دسّ في قصة حياته عناصر متخيلة او مختلفة ، انما اراد ان يستكشف الحقيقة حول حياته وان يصفها ، ولم يكن لديه من طريقة لايجاد هذه الحقيقة إلا بأن يمنح الحقائق المتفرقة المشتتة من حياته شكلاً شعرياً أي شكلاً رمزياً ؛ وهناك شعراء آخرون نظروا الى آثارهم على نحو مشابه ، فقد قال هنريك إبسن : « ان تكون شاعراً معناه ان تقف حكماً على نفسك » (١٠) . والشعر من الاشكال التي يعطي الانسان فيها حكماً على نفسه وعلى حياته . فهو معرفة للذات ونقد ذاتي . ويجب ان لا يؤخذ هذا النقد بالمعنى الاخلاقي ، فهو لا يعني ثناء او لوماً ، تسويغاً او إدانة ، وإنما هو فهم جديد عميق ، واعادة تفسير لحياة الشاعر الشخصية ، وهذه العملية غير مقصورة على الشعر بل هي ممكنة في كل وسيلة اخرى من وسائل التعبير الفني . واذا نظرنا الى الصور الذاتية التي رسمها رمبراندت في حَقَب مختلفة من حياته وجدنا في الملامح قصة حياة رمبراندت وشخصيته وتطوّره الفني جميعاً

التذكر
الرمزي في
اعترافات
أوغسطين

الا ان الشعر ليس الشكل الوحيد من اشكال الذاكرة الرمزية وربما لم يكن اشد الاشكال تميزاً ، فهناك السيرة الذاتية ، واول مثل عظيم منها وما تعنيه متوفر في « اعترافات » أوغسطين ، ففي هذه الترجمة نجد نموذجاً مختلفاً من المعالجة الذاتية ، اذ ان أوغسطين لا يقص أحداث حياته التي كانت في نظره لا تستأهل التذكر او التقييد ، أو لا تكاد . ولكن الرواية التي قصها علينا اوغسطين هي الرواية الدينية لبني الانسان ؛ وما نحوله الديني الا تكرار وانعكاس للعملية الدينية عامة — هبوط الانسان

وخلاصه - ولكل سطر في كتاب أوغسطين معنى رمزي دفين فضلاً عن المعنى التاريخي الظاهر . ولم يستطع أوغسطين ان يفهم حياته او يتحدث عنها الا باللغة الرمزية للعقيدة المسيحية ، وبهذا المنحى أصبح مفكراً دينياً عظيماً ومؤسساً لسيكولوجية جديدة ، أي لمنهج جديد من الاستبطان والتفحص الذاتي .

المستقبل

إلى هذا الحد عيننا بوجه واحد فحسب من أوجه الزمن وذلك هو علاقة الحاضر بالماضي ، غير ان هناك وجهاً آخر يبدو انه أهم لبنى الحياة الانسانية وأدل عليها . وهذا ما يمكن ان نسميه البعد الثالث من أبعاد الزمن - بعد المستقبل ، والمستقبل عنصر لا غنى لنا عنه في وعينا للزمن . حتى في المراحل الاولى من الحياة يأخذ هذا العنصر يلعب دوراً بارزاً . قال ولیم ستيرن : « ان مما يميز كل التطور المبكر لحياة الافكار انها ليست تمثل ذكريات تشير الى شيء في الماضي وانما تطلعات موجهة للمستقبل - حتى وان كانت تتوجه فحسب الى مستقبل قريب . وها هنا يلتقينا لأول مرة قانون عام للتطور وهو : التطلع للمستقبل يتم عن طريق الوعي بأسرع مما يتم الالتفات الى الماضي » (١١) . ومن بعد يصبح هذا الميل في حياتنا صارخاً قوياً . فنحن نعيش في شكوكنا ومخاوفنا وتوجساتنا وآمالنا حول المستقبل اكثر مما نعيش في ذكرياتنا او في تجاربنا الراهنة . وقد تظهر هذه الحقيقة للنظرة الاولى منحة مؤذية للانسان ، لأنها توجد عنصراً من الحيرة والقلق في الحياة الانسانية لا تعرفه سائر المخلوقات ، ويبدو ان الانسان قد يكون أسعد وأحكم لو انه تخلص من هذه الفكرة الوهمية - أعني سراب المستقبل . وفي كل عصر وقف الفلاسفة والشعراء

دمعة لاغفال
المستقبل

والمعلمون الدينيون العظام يحذرون الانسان من هذا المصدر الذي ينطلق منه خداع ذاتي مستمر . والدين ينذر الانسان ان لا يخشى الغد ، والحكمة الانسانية تنصحه ان يستمتع بيومه غير عابئ بالمستقبل ؛ ويقول هوراس : « لا تمن نفسك بالسؤال عما يأتي به الغد » Quid sit futurum cras fuge quaerere ولكن الانسان لم يستطع ان يتبع هذه النصيحة ابداً فالتفكير في المستقبل والحياة في المستقبل جزءان ضروريان من طبيعته .

الحيوان
والمستقبل

ويظهر ان هذا الميل ، على نحو ما ، لا يجاوز حدود كل الحياة العضوية ، فهو مميز لكل العمليات العضوية ، حتى اننا لا نستطيع ان نصفها دون إلماع الى المستقبل . واكثر غرائز الحيوان يجب ان تفسر على هذا النحو ، فالاعمال الغريزية ليست تمليها حاجات مباشرة وانما هي دوافع موجهة الى المستقبل ، وكثيراً ما تكون موجهة الى مستقبل جد بعيد . ولا يرى الحيوان الذي يؤدي هذه الاعمال ما لها من نتائج لانها تنتمي الى حياة جيل آت . ولو درسنا كتاباً مثل : « ذكريات انتمولوجية » Souvenirs entomologiques لجول فابر لوجدنا على كل صفحة - تقريباً - أمثالا فذة من هذه الخاصية المميزة لغرائز الحيوان .

كل هذا لا يتطلب ، ولا يثبت ، فكرة او وعياً بالمستقبل لدى الحيوانات الدنيا ، وحالما تقترب من حياة الحيوانات العليا تصبح القضية موضع شك . لقد تحدث كثير من الملاحظين الاكفاء عن قدرة الحيوانات العليا على التنبؤ ، ويبدو اننا بدون هذا الفرض نكاد لا نستطيع اعطاء وصف مناسب عن سلوكها ، واذا وجدنا حيواناً في تجارب ولف يقبل « المكافآت الرمزية » بدلا من الحقيقية فان هذا يعني ضمناً تطلعا واعياً الى حقائق مستقبلية ، اي ان الحيوان « يتوقع » ان الطعام سيبدل - في المستقبل - بهذه الرموز . يقول فلفجانج كويلر : « قليل هو عدد

الملاحظات التي يستطيع فيها تبين أي حساب لحادثة مقبلة ، ويبدو لي ان هناك اهمية نظرية في انّ اوضح اعتبار للحادثة المستقبلية يحدث حين تكون الحادثة المتوقعة عملاً قام بتخطيطه الحيوان نفسه . في مثل هذه الحال قد يحدث حقاً ان ينفق الحيوان وقتاً غير قصير في عمل اعدادي (بمعنى غير غامض) ... واذا استمر هذا العمل الأولي وقتاً طويلاً - وهو انما اتخذ للبلوغ الى الهدف النهائي ، إلا انه لم يهيء في ذاته اقتراباً من تلك الغاية - فهناك نجد دلالات ، على الاقل ، من بعض الاحساس بالمستقبل ، (١٢) .

على اساس هذه الشهادة يبدو ان توقع الاحداث المستقبلية بل وحتى تخطيط الاعمال للمستقبل ليسا بعيدين عن تناول حياة الحيوان . لكن الوعي بالمستقبل لدى الكائنات الانسانية يتعرض لنفس التغير المميز في المعنى ، التغير الذي لحظناه ونحن نتحدث عن فكرة الماضي . فلا يبقى المستقبل صورة بل يصبح « مثلاً » . ومعنى هذا التغير يعلن عن ذاته في كل أوجه الحياة الحضارية لدى الانسان ، اما ما دام الانسان مستغرقاً تماماً في فعالياته العملية ، فلا يكون هذا الاختلاف ملحوظاً بوضوح ، بل يظهر حينئذ انه مجرد اختلاف في الدرجة لا انه اختلاف محدد . أما المستقبل الذي يستنظره الانسان فانه يمتد على مدى أوسع ويكون تخطيطه له اكثر نصيباً من الوعي والعناية . وكل هذا ينتمي الى مجال « الزكاة » لا الى مجال الحكمة ، وفي الزكاة ذكاء وفيها قدرة على حُدس ما يقع في المستقبل وعلى التهيؤ لمواجهته ؛ إلا أن الفكرة « النظرية » عن المستقبل - وهي الفكرة الضرورية لكل أنواع النشاط الحضاري الراي - من نوع مختلف تماماً عن الزكاة . فهي اكثر من محض التوقع ؛

معنى استنظار
الانسان
للمستقبل
والفرق بينه
وبين الحيوان

المستقبل
الرمزي

إنها تصبح قوة مصرفة في الحياة الانسانية ، وهذه القوة المصرفة تتجاوز حدود الحاجات العملية المباشرة تتجاوزاً بعيداً ، وتبلغ في أعلى صورها وراء حدود الحياة التجريبية . هذا هو « المستقبل الرمزي » للانسان وهو يشبه ماضيه الرمزي ويقاس عليه ، وقد نسميه المستقبل « النبوي » لأن أحداً لم يعبر عنه بمثل ما عبرت عنه حيوات الأنبياء العظام ، فلم يفتن هؤلاء المعلمون بالآخبار عن الحوادث المغيبة أو بأن يحذروا من الشرور المرصدة ولا هم تكللوا كالعرافين وقبلوا الانصياع الى القول والتذر - كان هدفهم شيئاً آخر ، كان في الحق نقيصاً لأهداف العرافة والكهان ، فتحدثوا عن مستقبل لم يكن حقيقة تجريبية وإنما كان واجباً أخلاقياً ودينياً . ومن ثم تحول التكهن الى نبوة ، والنبوة لا تعني الآخبار بالغيب وإنما تعني وعداً ، وهذا هو المظهر الجديد الذي اتضح أول ما اتضح عند أنبياء بني اسرائيل ، لدى أشعيا وإرميا وحزقيال ، فإن مستقبلهم المثالي يعني رفض العالم التجريبي ، « نهاية كل الأيام » ، إلا أنه يحتوي في الوقت نفسه على أمل وتأميل واثق « بساء جديدة وأرض جديدة » . ها هنا أيضاً غامرت القدرة الرمزية لدى الانسان فتجاوزت حدود وجوده المحدود ، غير أن هذا الرفض يحمل ضمناً عملاً عظيماً من التكامل ، فهو يشير الى مرحلة حاسمة في حياة الانسان الدينية والأخلاقية .

جائز ومثل

أثار كانت في كتابه « بحث تحليلي في الحكم » Critique of Judgment هذا السؤال : « أممكن ان نستكشف معياراً عاماً نَصِفُ به المبنى الأساسي للعقل الانساني ونميز هذا المبنى من كل أشكال المعرفة الأخرى الممكنة ؟ » . وتوصل كانت بعد تحليل ثاقب مستقصى الى هذه النتيجة : « يطلب مثلُ هذا المعيار في طبيعة المعرفة الانسانية ، وهي طبيعة من حالها ان تجعل الفهم مضطراً الى أن يُميز تمييزاً حاداً بين حقيقة الاشياء وإمكاناتها ، وهي تلك التي تقرر مكان الانسان في سلسلة الوجود العامة ، فالفرقة بين « الحقيقي » و « الممكن » تفرقة غير قائمة لدى الكائنات الأدنى من الانسان ولا لدى التي فوقه . أما الكائنات الواقعة دونه فانها محصورة في عالم من مدركاتها الحسية ، فهي تتقبل الدوافع المادية الواقعة وتجب عليها بردود فعل ، ولكنها تعجز عن ان تكون فكرةً عن الاشياء « الممكنة » . واما العقل الإلهي ، من الناحية الثانية ، فانه لا يعرف تمييزاً بين الحقيقة والإمكان لأن الله « عمل خالص » actus purus . فكل ما في تصوّره حقيقة ، وذكاء الله « عقل أعلى » intellectus

الإمكان
يميز العقل
الإنساني

archetypus أو « بصيرة أصيلة » intuitus originarius وهو لا يفكر في شيء إلا وهذا الشيء يتكون ويخلق ، بالتفكير نفسه ، وإذن لا تنشأ مشكلة « الامكان » إلا لدى الانسان ، أي في « ذكائه المكتسب » « intellectus ectypus » . وليس الفرق بين الحقيقة والامكان متافيزيقياً وإنما هو لاحق بفلسفة المعرفة والمنطق ، فهو لا يكشف عن أي صبغة للأشياء في ذاتها وإنما ينطبق على معرفتنا للأشياء . ولم يقصد كانت الى أن يقرر بطريقة ايجابية حاسمة ان العقل الالهي موجود حقاً ، وإنما استعمل فكرة « البصيرة الأصيلة » لكي يصف طبيعة العقل الانساني وجوده ، وهذا العقل الانساني « فهم » استطرادي « يعتمد على عنصرين غير متشابهين : فنحن لا نستطيع أن نفكر دون صور ولا أن نحس دون فكر . » « فالفكر بغير حدس فارغة ، والحدوس بغير فكر عمياء » . وهذه الثنائية في الأحوال الأساسية للمعرفة هي التي تقف ، حسب رأي كانت ، في قاعدة تمييزنا بين الامكان والحقيقة^(١) .

من هذه الزاوية في مشكلتنا ، تمثل هذه العبارة المقتبسة من كانت ، وهي من أهم العبارات واصعبها في مؤلفاته النقدية ، أهمية خاصة ، فهي تشير الى مشكلة محيرة لكل فلسفة انثروبولوجية . لكن بدلاً من أن نقول ان العقل الانساني عقل « في حاجة الى صور »^(٢) ، من الأفضل ان نقول انه في حاجة الى رموز . فالمعرفة الانسانية ، بلب طبيعتها ، معرفة رمزية ، وهذا هو المظهر الذي يشخص لما قوتها وقصورها ، ومن الضروري من اجل الفكر الرمزي ان يوضع فصلٌ حاد بين الحقيقي والممكن ، اي بين الأشياء الواقعية والمثالية . ليس للرمز وجود واقعي

معرفة
الانسان
رمزية

١ - انظر كانت : بحث تحليلي في الحكم ، الفترة ٧٦ ، ٧٧ .

٢ - نص قوله كانت : « ein der Bilder bedürftiger Verstand ... »

كجزءٍ من العالم المادي" ، وانما له « معنى » ، وقد كان من العسير على الفكر البدائي ان يميّز بين الوجود والمعنى ، فهما هنالك تختلطان دائماً فينظر البدائي الى الرمز نظره الى شيء قد « وُهِبَ » قوًى سحرية ومادية ، إلا ان التفرقة بين الاشياء والرموز أصبحت بعد تقدم الحضارة الانسانية امراً ملوساً بوضوح ، وهذا يعني ان التفرقة بين الواقع والامكان أصبحت ملحوظة بقوة .

ويمكننا ان نبرهن على هذا الاعتماد المتبادل [بين الواقع والامكان] بطريقة غير مباشرة : تحت ظروف خاصة تنبهم فيها وظيفة الفكر الرمزي أو «تعوّق» نجد ان الفرق بين الواقع والامكان يغدو غير حاسم ، اي لا نعود نلاحظه بوضوح ، وقد ألقى علم الامراض المتعلق بالكلام ضوءاً فذاً على هذه المشكلة فكثيراً ما وجد العلماء في حال فقدان القوة على النطق « الأفازيا » أن المرضى لم يفقدوا فحسب استعمالهم لفئات معينة من الكلمات ولكنهم في الوقت نفسه تكشفوا عن نقصٍ غريب في الموقف العقلي العام . حقاً ان كثيراً من أولئك المرضى لم ينحرفوا كثيراً عن سلوك الاشخاص الطبيعيين ولكنهم حين كانوا يواجهون بمشكلة تتطلب طريقة من التفكير اكثر تجريداً ، أي حين كان عليهم ان يفكروا في الامكانات اكثر من تفكيرهم في الواقعيات - حينئذ كانوا يعانون ، على التوّ ، صعوبة كبيرة . فلم يستطيعوا التكلم او التفكير في اشياء و غير واقعية ، وكان احد المرضى قد أصيب بشلل نصفي عطّل يده اليمنى ، فلم يستطع - مثلاً - ان ينطق بهذه الكلمات : « أستطيع أن اكتب بيدي اليمنى » بل لقد أبى أن يعيد هذه الكلمات حين نطق بها الطبيب أمامه . إلا أنه استطاع في سر أن يقول : « أستطيع ان أكتب بيدي اليسرى » - ذلك لأن هذا القول كان بالنسبة اليه تقريراً لحقيقة لا تقريراً لحالة

اثبات الفرق
بين الواقع
والامكان

الافازيا
دليل على ذلك

مفترضة غير واقعة^(٣) . يقول كرت جولدشتين : « هذه الأمثلة وما شابهها تدل على أن المريض لا يستطيع أبداً ان يعالج أي موقف ليس له إلا صفة « الامكان » . وهكذا نستطيع ان نصف النقص لدى هؤلاء بأنه افتقار الى القدرة على الاقتراب من الموقف « الممكن » ... وقد كان مرضانا يعانون أشد صعوبة في بدء أي عمل لا تتحكم فيه المؤثرات الخارجية مباشرة ... فقد كانوا يصادفون اضطراباً شديداً في التنقل الارادي ، أي في التنقل الاختياري من موضوع الى آخر ، وبالتالي كانوا يخفقون في الاعمال التي يكون هذا التنقل فيها ضرورياً .. والتنقل يفترض مقدماً أنني ذاكر الشيء الذي أستجيب له في هذه اللحظة والشيء الذي سأستجيب له ، ذاكرٌ هذين في نفس الوقت ، وأحدهما في المقدمة وثانيهما في المؤخرة ، أما الذي في المؤخرة فلا بد من ان يكون في مكانه على انه شيء ممكن ، من أجل استجابة تحدث من بعد ؛ هذا شيء اساسي وبدونه لا أستطيع ان انتقل من واحد الى آخر ، وهذا يفترض سلفاً القدرة على الاقتراب من الاشياء التي ليست الا متخيلة ، أي الاشياء

٣ - يبدو ان الاطفال أيضاً يستصعبون أحياناً تخيل حالات مفترضة ، وهذا يتضح بنحو خاص اذا حدثت أحداث خاصة تميّح نمو الطفل . ومن الأمثلة البارزة التي توازي الحالات المرضية التي ذكرناها في المتن ما يمكن ان نستعده من حياة لورا بردجهان وتعليمها . كتبت إحدى معلماتها تقول : لاحظت انه من كان من العسير في البداية ان نجعلها تفهم المجازات او الخرافات او الحالات المفترضة من أي نوع ، وحتى الآن لم نستطع التغلب على هذه الصعوبة واذا أعطيت أي مسألة في الحساب فأول انطباع لديها ان ما سيق على سبيل الفرض وقع فعلاً . مثلاً : قبل بضعة ايام أدخلت معلمتها كتاباً في الحساب نقرأ مسألة فاذا بها تسألها : « كيف حرف الرجل الذي كتب هذا الكتاب اتني موجودة هنا ؟ وكانت هذه هي المسألة التي أعطيت لها : « اذا استطعت ان تشتري برميلا من عصير التفاح بأربعة دولارات فكَمْ تشتريين بدولار واحد ؟ » وكان أول تعليق لها على المسألة ان قالت : « لا أستطيع أن أنفق كثيراً من أجل عصير التفاح لأنه شديد الحموضة » . (انظر : مود هاو وفلورنس هاو هول : « لورا بردجهان » ص : ١١٢) .

و الممكنة ، ، أي الاشياء التي لا تعطى في المواقف الحسية ... غير ان الرجل المريض عقلاً عاجز عن هذا لعجزه عن أن يدرك ما هو مجرد . ولذلك كان مرضانا عاجزين عن ان يقلدوا أو يقتبسوا أي شيء ليس جزءاً من تجربتهم الحسية المباشرة ، وهم يعبرون عن هذا العجز تعبيراً على غاية من الاهمية ، وذلك أنهم يجدون صعوبة فائقة في إعادة جملة لا معنى لها لديهم ، يعني ان محتواها لا يُشابه الحقائق التي يقدرّون على ادراكها .. فنطقهم لهذه الاشياء يتطلب منهم - فيما يظهر - ان يتحلوا موقفاً يصير عليهم انتحاله ، يتطلب منهم القدرة على ان يعيشوا في دائرتين : دائرة محسوسة تحدث فيها الاشياء الحقيقية ودائرة غير محسوسة وانما هي « ممكنة » ... وهذا ما يعجز عنه المريض لأنه يستطيع ، فحسب ، أن يعيش ويعمل في الدائرة المحسوسة » (٤) .

في هذا المقام وضعنا الاصبع على مشكلة عامة ، مشكلة ذات أهمية فائقة بالنسبة لطابع الحضارة الانسانية كله ولتطورها . لقد ظل الفلاسفة التجريبيون والوضعيون يذهبون دائماً الى ان أعلى واجبات المعرفة الانسانية هو ان تعطينا الحقائق ، ولا شيء سوى الحقائق ، وان النظرية التي لا تؤسس على الحقائق إنما هي في الحق قلعة قائمة في الفضاء . ولكن هذا ليس جواباً على المشكلة المتعلقة بمنهاج علمي صحيح . بل على العكس من هذا انه هو المشكلة نفسها . اذ ما معنى « حقيقة علمية » ؟ من الواضح ان مثل هذه الحقيقة لا يعطى في ملاحظات عرضية او في محض جمع لمعلومات حسية ، فحقائق العلم دائماً تشمل ضمناً عنصراً نظرياً يعني عنصراً رمزياً ، وكثير من هذه الحقائق العلمية ، ان لم نقل اكثرها ، التي غيرت

الحقائق
تتضمن
عنصراً
رمزياً

٤ - كرت جولدشتين : « الطبيعة الانسانية في ضوء علم الامراض النفسية » : ٤٩ وما بعدها

وص : ٢١٠

مجرى تاريخ العلم كله كانت حقائق افتراضية قبل أن تصبح حقائق ملحوظة . وعندما أوجد جاليليو علمه الجديد ، علم الديناميكا ، بدأ بفكرة الجسم المزعول ، أي الجسم الذي يتحرك دون تأثير من أية قوة خارجية ، ومثل هذا الجسم لم يُشاهد أبداً ولا يمكن مشاهدته أبداً . مثل هذا الجسم لم يكن واقعياً وإنما كان ممكناً - بل لم يكن ممكناً ، بمعنى من المعاني ، لأن الشرط الذي بنى عليه جاليليو استنتاجه ، أي تغيب كل القوى الخارجية ، لا يمكن تحقيقه أبداً في الطبيعة ^(٥) . وقد أصاب الذين أكدوا أن كل الأفكار التي أدت إلى استكشاف مبدأ القصور الذاتي ليست بأي حال مشهودة أو طبيعية وإن هذه الأفكار لو اطلع عليها الاغريق أو أهل القرون الوسطى لثبت لهم أنها كاذبة بل سخيفة ^(٦) . ومع ذلك فلولا عون هذه الأفكار غير الحقيقية لما استطاع جاليليو أن يقترح نظريته في الحركة ، ولا استطاع أن يطور « علماً جديداً يعالج موضوعاً قديماً » . ونفس هذا الأمر ينطبق على معظم سائر النظريات العلمية الكبرى ، فقد كانت جميعاً أول ظهورها متناقضات كبيرة فاحتاجت شجاعة عقلية فذة لبسطها والدفاع عنها .

اثبات ان
الحقائق
تتضمن
رموزاً من
تاريخ
الرياضيات

وربما لم تكن ثمة طريقة لاثبات هذه النقطة خير من الوقوف عند تاريخ الرياضيات : ولنتناول العدد فهو من أهم الأفكار الرياضية الأساسية ؛ منذ عهد الفيثاغوريين مَيَّز العدد وجعل موضوعاً مركزياً في الفكر الرياضي وأصبح إيجاد نظرية عددية مناسبة شاملة أعظم مهمة وأمسّها لدى الدارسين في هذا الميدان . ولكن في كل خطوة تمت في هذا الاتجاه كان الرياضيون

٥ - من شاء معالجة تفصيلية للمشكلة فليُنظر كاسيرر : « المادة والوظيفة » - ومنه ترجمة انجليزية من صنع و. س. / م. س. سواني (تشيكاغو ولندن ١٩٢٢) .

٦ - انظر ك. كويري : « جاليليو والثورة العلمية في القرن السابع عشر » في المجلة الفلسفية ٦٢ (١٩٤٣) : ٣٩٢ وما بعدها .

والفلاسفة يواجهون نفس الصعوبة اذ كانوا دائماً مضطرين لأن يوسعوا ميدانهم ويوجدوا اعداداً جديدة . وكانت هذه الاعداد الجديدة ذات طابع بعثوره التناقض ، ولدى ظهورها اول مرة أثارت أعرق ريبة في نفوس الرياضيين والمنطقيين ، حتى ظننت سخيفة أو ضرباً من المحال ، ونستطيع ان نتبع هذا التطور في تاريخ الاعداد السالبة والصماء < اللاعقلية > والتخيلية . وإن اصطلاح « صماء » < لاعقلية > نفسه ليغني شيئاً لا يصلح لأن يُفكر فيه أو يُتحدث عنه . وأول ما تظهر الاعداد السالبة في القرن السادس عشر في كتاب مايكل ستافل : « التكامل الرياضي » Arithmetica integra وتسمى فيه : « الاعداد التخيلية » Numeri ficti . ومضت مدة طويلة وكبار الرياضيين أنفسهم ينظرون الى فكرة الاعداد التخيلية ويعدون لها لغزاً لا حل له . وكان جاوس اول من قدّم تفسيراً مقنعاً لهذه الاعداد ونظرية رصينة عنها . وبدأت نفس هذه الشكوك والتوجسات تعود ثانية في ميدان الهندسة عندما بدأت تظهر النظم غير الاقليدية ، وهي التي أوجدها لوباتشفسكي وبولي وريمان . وقد كانت الرياضيات تعتبر وسط كل النظم العقلية العظيمة فخر العقل الانساني ، أي منطقة الافكار الواضحة الجلية . ولكن هذا الصيت الذي أحرزته الرياضيات قد ثار حوله غبار التساؤل فجأة . ذلك ان الافكار الرياضية الأساسية بدت محتشدة بالمبهات والمُعثرات بدلاً من ان تكون واضحة جلية ، ولم يكن في الامكان إزالة تلك المبهات إلا حين أدركت الطبيعة العامة للافكار الرياضية بوضوح - أي إلا حين اعترف المعترفون بأن الرياضيات ليست نظرية أشياء وانما هي نظرية رموز .

وقد نكمل ونؤيد هذا الدرس الذي استمددناه من تاريخ الفكر الرياضي بوقفات أخرى تبدو للنظرة الاولى لاحقة بفلك آخر ، إذ أن

وظيفة الرمز
تضح ايضاً
في الأخلاق

الرياضيات ليست الموضوع الوحيد الذي يمكن ان ندرس فيه الوظيفة العامة للفكر الرمزي . فان طبيعة هذا الفكر الحققة وقوته الكاملة تصبحان شاهدين واضحين اذا نحن تحولنا بانظارنا الى تطور افكارنا ومثلنا الاخلاقية . ولنعد الى ملاحظة كانت التي تقول : انه من الضروري الذي لا غنى عنه للفهم الانساني ان يميز بين حقيقة الاشياء وإمكانها . هذه الملاحظة تعبر عن حقيقة حول العقل العملي فضلا عن انها تعبر عن المميز العام للفكر النظري . ومما يمتاز به كل الفلاسفة الاخلاقيين العظام انهم لا يفكرون من خلال الواقع فحسب ، فان افكارهم لا تتقدم خطوة واحدة الا ان وسعوا حدود عالم الواقع واستعلوا عليه . وقد كان المعلمون الاخلاقيون دائماً يحوزون قوة عقلية واخلاقية عظيمة كما يتمتعون ايضاً بخيال عميق . وبصيرتهم ذات القدرة التخيلية هي التي تتخلل كل مقرراتهم وتنعشها بالحياة .

وقد كانت كتابات افلاطون وخلفائه دائماً عرضة لاعتراض معترض يرى انها تشير الى عالم لا وجود له اطلاقاً في الواقع . ولكن كبار المفكرين الاخلاقيين لم يفرقوا أبداً هذا الاعتراض بل تقبلوه وتقدموا لتحديه علناً ، فقال كانت في كتابه « بحث تحليلي في العقل الخالص » Critique of Pure Reason : « لقد قيل في جمهورية افلاطون انها مثل فذ على كمال متخيل متوهّم ، وقد أصبحت مضغّة في الافواه لأن الناس يعتقدون انها شيء لا وجود له الا في ذهن مفكر متبطل .. وانا لنحسن صنعا لو اننا تتبعنا فكره وحاولنا ان نضعه تحت ضوء أوضح بدلا من أن نطرحه جانباً زاعمين انه تافه لا جدوى منه محدوتين الى ذلك بدعوى جد خطيرة وهي : ان هذه الجمهورية شيء غير عملي ... ولا يؤدي فيلسوفاً ويكون غير لائق بمقامه مثل اللجوء المبتذل الى ما قد

افتراضات
افلاطون

يسمى « التجربة المضادة » ، وهي تجربة قد لا يكون لها وجود ابداً اذا قررت النظم في الوقت المناسب ، حسب تلك الآراء لا حسب افكار جافية . وهذه الافكار الجافية قد تشوه كل الاهداف الطيبة لأنها كانت وليدة التجربة وحدها .

وكل النظريات الاخلاقية والسياسية التي صيغت بعد « جمهورية افلاطون » ، فقد تخيلها واضعوها بنفس ذلك النحو من التفكير الافلاطوني . ولما كتب توماس مور « اليوتوبيا » عبّر عن نظريته هذه بالعنوان الذي اختاره لكتابه ، فالـيوتوبيا ليست صورة العالم الواقعي أو صورة النظام السياسي والاجتماعي الواقعيين . انما توجد اليوتوبيا في لا زمان ولا مكان . وهذه الفكرة نفسها قد نجحت في الاختبار واثبت قوتها في تطوّر العالم الحديث . هذا وان صميم طبيعة الفكر الاخلاقي وطابعه ليدلان على ان هذا الفكر لا يتنازل ابداً لقبول : « المُعطى » فالعالم الاخلاقي ليس عالماً مُعطى < جاهزاً > وانما هو في التكوين الى الابد . يقول جوته : « العيش في العالم المثالي معناه أن تعامل المستحيل وكأنه ممكن » (١٧) . والحق ان كبار المصلحين السياسيين والاخلاقين يضطرون دائماً الى ان يعاملوا المستحيل وكأنه ممكن . خذ مثلاً روسو فانه يبدو في كتاباته السياسية الاولى وهو يتحدث حديث مفكر طبيعي ، حتمي ، فهو يرغب في ان يعيد الى الانسان حقوقه الطبيعية ويعود به الى حاله الاصلية ، أي الى الطبيعة لكي يخلف الانسان الطبيعي الانسان الاجتماعي . ولكننا إذا تتبعنا من بعد التطور في فكر روسو اتضح لنا ان « الانسان الطبيعي »

افتراضات
الاخلاقين
الاخرين

افتراضات
روسو

٧ - نص كلامه : « In der Idee leben heisst das Unmögliche so behandeln als wenn es möglich wäre » .

وقد ورد هذا في مجموعة مؤلفاته (نشرة فيمر) المجلد : ٤٢ ، القسم : ١٤٢/٢ .

الذي يعنيه بعيد عن ان يكون فكرة مادية وإنما هو في الحقيقة فكرة رمزية . ولم ينالك روسو نفسه من الاقرار بهذه الحقيقة ، فهو يقول في المدخل الى « مقال في اصل الظلم بين الناس وأسس » : « لنبدأ أولاً بطرح الحقائق جانباً لأنها لا نهم المسألة . أما البحوث التي سننهمك فيها ، في هذه المناسبة ، فلا يجب ان تؤخذ مأخذ الحقائق التاريخية وإنما تعتبر أفكاراً افتراضية مشروطة ، توضح طبيعة الأشياء بأكثر مما تدل على اصلها الصحيح ، أي دعها تكن كهذه النظم التي يصوغها علماء الطبيعة يوماً حول تكون العالم » .

يحاول روسو في هذه الكلمات ان يُدخل في ميدان العلوم الاخلاقية تلك الطريقة الافتراضية التي استعملها جاليليو لدراسة الظواهر الطبيعية . وهو مقتنع بأنه لا يمكنه أن يصل الى فهم صحيح لطبيعة الانسان إلا بهذا النوع من « التفكير الافتراضي المشروط » . ولم يقصد روسو الى ان يتخذ من وصفه لحال الطبيعة وصفاً تاريخياً للماضي ، وإنما كان ذلك تركيباً رمزياً أقامه ليصور مستقبلاً جديداً لبني الانسان ويحقق له كيانه . وقد أنجزت اليوتوبيا في تاريخ المدينة هذه المهمة دائماً ؛ وفي فلسفة التجريبيين (Enlightenment) < في القرن الثامن عشر > أصبحت اليوتوبيا نوعاً أدبياً قائماً بذاته فأثبتت أنها من اقوى الاسلحة في الهجمات التي شنت على النظام الاجتماعي والسياسي القائمين حينئذ . ومن اجل هذه الغاية استغلها كل من مونتسكيو وفولتير وسويفت ؛ وفي القرن التاسع عشر استغلها صمويل بطلر للغاية عينها . إن الرسالة العظيمة لليوتوبيا هي ان تفسح مجالاً للممكن في مقاومة القبول التسليمي السالبي في واقع الحال الراهنة . إن الفكر الرمزي هو الذي يتغلب على القصور الذاتي الطبيعي لدى الانسان ويمنحه قدرة جديدة على أن يشكل العالم الانساني من جديد ، على الدوام .

القسم الثاني الإنسان والحضارة

- ٦ - تعريف الإنسان بواسطة مصطلحات الحضارة الانسانية
- ٧ - الاسطورة والدين
- ٨ - اللغة
- ٩ - الفن
- ١٠ - التاريخ
- ١١ - العلم
- ١٢ - خلاصة وخاتمة

تعريف الإنسان بوساطة مصطلحات إبحضارة الإنسان

حين فسّر افلاطون حكمة « اعرف نفسك » بمعنى جديد كل الجدة ، كان ذلك نقطة تحول في الحياة الاغريقية والفكر الاغريقي ، وقد أوجد هذا التفسير مشكلة لم تكن فحسب غريبة لدى الفكر قبل سقراط ، بل انها تجاوزت حدود منهج سقراط نفسه ؛ كان سقراط قد انجبه الى الفرد امثالاً لأمر إله دلفي وتحقيقاً لواجب ديني في امتحان الذات ومعرفتها ، إلا أن افلاطون أدرك نواحي القصور في طريقة سقراط فصرّح باننا ان شئنا ان نحل المشكلة فان علينا ان نبسطها على مخطط أوسع ، فالظواهر التي نلقاها في تجربتنا الفردية متنوعة معقدة متناقضة الى حد يكاد لا يمكننا من فرزها وحل متشابكها ، واذن فلنُدرس الانسان في حياته السياسية والاجتماعية لا في حياته الفردية ، اذ يرى افلاطون ان الطبيعة الانسانية كالنص الصعب لا يحل معناه سوى الفلسفة ، وهذا النص في تجربتنا الفردية مكتوب بأحرف صغيرة دقيقة لا تستطاع قراءتها ، وأول عمل تقوم به الفلسفة هو ان تكبر هذه الحروف ، أعني انها لا تستطيع ان تقدم لنا

افلاطون
يفسر
« اعرف
نفسك »
بفهم الدولة

نظرية مقبولة عن الانسان إلا حتى تطور لنا نظرية للدولة ، فاذا فعلت ذلك لاح المعنى الخبوء في النص فجأة ، وغدا الغامض المتشابك واضحاً مقروءاً . .

النقص في
فكرة
افلاطون

الا ان الحياة السياسية ليست هي الشكل الوحيد من الوجود الجماعي الانساني . فالدولة في تاريخ الانسانية نتاج متأخر من عملية التمدن ، وقبل ان يستكشف الانسان هذه الصورة من النظام الاجتماعي - بوقت طويل - قام بمحاولات أخرى لينظم مشاعره ورغباته وافكاره . وتلك التنظيمات والترتيبات محتواة في اللغة والاسطورة والدين والفن ، فاذا شئنا ان نطور نظرية في الانسان وجب ان نتقبل هذه القاعدة الأوسع ولا نقصر النظر على الدولة . فهما تكن الدولة هامة فانها ليست كل ما هنالك ، ولا نستطيع ان نعبر عن ضروب الفعاليات الاخرى لدى الانسان او ان تستوعبها . حقاً ان تلك الفعاليات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً في تطورها التاريخي بتطور الدولة ، وهي تعتمد من وجوه عدة على صور الحياة السياسية ، ولكن ما دامت تلك الفعاليات لا تتمتع بوجود تاريخي مستقل فان لها في ذاتها قيمة ومعنى .

كومت
والانجاء
الوضعي في
معرفة الذات

وكان كومت في الفلسفة الحديثة من أول من نمسوا بهذه المشكلة ووضعوها بطريقة اوضح واشد تنظيماً . ويشبه ان يكون ضرباً من التناقض في هذا المجال ان نعتبر وضعية كومت صنواً حديثاً لنظرية افلاطون في الانسان . فان كومت لم يكن افلاطونياً ، ولم يستطع ان يتقبل المفروضات المنطقية والمتافيزيقية التي اقام افلاطون عليها نظريته في المثل . غير انه من الناحية الاخرى كان خصماً عنيداً لنظرات الايديولوجيين الفرنسيين .

• [من اجل ذلك وصف افلاطون في الجمهورية النظام السياسي الذي يمتقده كاملاً . وهذه المقارنة بين الحروف الصغيرة والكبيرة مما استعمله افلاطون نفسه في حوار « الجمهورية »] . (المترجم)

وقد وضع في سلم المعرفة الانسانية علمين جديدين هما علم الاخلاق الاجتماعية والديناميكا الاجتماعية وجعلهما في أعلى الدرجات ؛ ومن هذه الزاوية الاجتماعية يهاجم كومت الاتجاه السيكولوجي في عصره . ومن القواعد الاساسية في فلسفته قوله : إن منهجنا لدراسة الانسان يجب ان يكون ، في الحقيقة ، ذاتياً ، ولكن لا يمكن ان يكون فردياً ، لأن الموضوع الذي نريد ان نعرفه ليس هو الوعي الفردي ، وانما هو الموضوع العام . ولو سمينا هذا الموضوع باسم « انسانية » فلتؤكد اننا يجب ان لا نفسر الانسانية بالانسان وانما نفسر الانسان بالانسانية . ولا بد اذن للمشكلة من ان يعاد تقريرها وفحصها ومن ان توضع على قاعدة أثبت واوسع ، وقد اكتشفنا هذه القاعدة في الفكر الاجتماعي والتاريخي . ومن ثم يقول كومت : « لكي تعرف نفسك اعرف التاريخ » . ومن ثم فان السيكولوجيا التاريخية تكمل كل الصور السابقة من السيكولوجيا الفردية وتحلقها في مكانها . وقد كتب كومت في احدى رسائله يقول : « اذا اعتبرنا الملاحظات التي قيدت عن العقل في ذاتها وبلاستنتاج العقلي ، وجدناها محض أوهام ، فكل ما نسميه منطقاً وميتافيزيقاً وايدولوجياً انما هو وهم متراخٍ وحلم ، حين لا يكون سخفاً » (١) .

وفي كتاب كومت : « اتجاه الفلسفة الوضعية » نستطيع ان نتتبع خطوة إثر خطوة ، الانتقال الذي تم اثناء القرن التاسع عشر ، في المثل العليا المنهجية . فقد بدأ كومت عالماً يوجه اهتمامه كله الى المشكلات الرياضية والفيزيائية والكياوية ؛ ويبدأ سلم المعرفة الانسانية لديه بعلم الفلك ويتدرج

١ - كومت : رسائل الى فاللا : ٨٩ ، منقولة عن لفي برول : فلسفة اوغست كومت ؛ وانظر تفصيلات اخرى في كتاب برول المذكور ، الترجمة الانجليزية (نيويورك ولندن ١٩٠٢) ص : ٢٤٧ وما بعدها .

صعوداً الى الرياضيات فالفيزياء فالكيمياء فالبيولوجيا ؛ ثم يبيح ما يشبه ان يكون عكساً مفاجئاً لهذا الترتيب ، اذ يرى كومت أننا كلما اقتربنا من العالم الانساني أصبحت مبادئ الرياضيات والعلوم الطبيعية غير كافية ، وإن لم تكن عاجزة في الميدان . والظواهر الاجتماعية تخضع لنفس القواعد التي تخضع لها الظواهر الطبيعية وإن كانت الاولى ذات طابع مختلف وأكثر تعقيداً . واذن يجب ان لا نكتفي في تفسيرها بمصطلح الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا . يقول كومت : « في كل الظواهر الاجتماعية نلاحظ عمل القوانين الفيزيولوجية الموجودة لدى الفرد ، ونلاحظ ايضاً شيئاً يعدل من نتائجها وينتمي الى تأثير الافراد ، واحدهم في الآخر - وهو شيء معقد في حال الجنس البشري من جراء تأثير الاجيال السالفة في الخالقة . وهذا يوضح لم يجب ان يصدر علم الاجتماع من ذلك الذي يتعلق بحياة الفرد . ومن الناحية الاخرى ليس لنا ان نظن كما يفعل بعض الفيزيولوجيين البارزين بأن الفيزياء الاجتماعية ليست إلا ملحفاً تابعاً للبيولوجيا ، فالظواهر في الاثنين ليست واحدة وإن كانت ظواهر متجانسة . ومن الاهمية بمكان ان نبقى هذين العليين منفصلين . ولما كانت الظروف الاجتماعية تعدل في عمل القوانين الفيزيولوجية فان الفيزياء الاجتماعية يجب ان تكون لها مجموعة ملاحظاتها الخاصة بها » (٢) .

كومت
يفصل بين
الفيزيولوجيا
وعلم الاجتماع

ولم يكن تلامذة كومت وأتباعه ميالين لتقبل هذه التفرقة ، بل انكروا الفرق بين الفيزيولوجيا وعلم الاجتماع لأنهم خشوا أن يقودهم اقرارهم بالتفرقة للعوة الى الثنائية المتافيزيقية ، وكانوا يطمحون الى انشاء نظرية طبيعية خالصة عن العالم الحضاري والاجتماعي . ووجدوا مسن الضروري لتحقيق

تلامذة كومت
ينكرون هذا
الفصل

٢ - كومت : « اتجاه الفلسفة الوضعية » ، الترجمة الانجليزية بعنوان « الفلسفة الوضعية » من صنع هاريت مارتنو (نيويورك ١٨٥٥) المقدمة ، والفصل الثاني : ٥٥ وما بعدها .

هذه الغاية ان ينفوا ويحطموا كل الحواجز التي قد يبدو انها تفصل العالم الانساني عن عالم الحيوان ، فقد كانت نظرية التطور قد عفت على كل الفروق ، بل حتى قبل داروين أحبط تقدم العلم الطبيعي كل المحاولات التي بذلت لايجاد تلك الضيقة ، وكان ما يزال في إمكان العالم ، في المراحل الاولى من الملاحظة التجريبية ، أن يظل حيّ الآمال في أن يجد ، في النهاية ، صبغة تشريحية خاصة بالانسان .

وظلّ العلماء حتى القرن الثامن عشر يقبلون بعامة النظرية التي ترى ان هناك فرقاً واضحاً — وأحياناً يكون من بعض الوجوه فرقة — أ حاداً — بين التركيب التشريحي لدى الانسان ، والتركيب التشريحي لدى الحيوانات الاخرى . وكان من اعظم حسنات جوته في حقل التشريح المقارن انه قاوم هذه النظرية بقوة ، وبقي على العلماء ان يظهروا التجانس نفسه لا فحسب في المبنى التشريحي والفيزيولوجي لدى الانسان بل في المبنى العقلي ايضاً ، ومن اجل هذه الغاية أصبح لزماً ان تتركز الهجمات على الطرق القديمة من التفكير في نقطة واحدة . وكان الشيء الذي يتطلب برهاناً هو أن ما نسميه الذكاء الانساني ليس بأي حال قدرة أصيلة معتمدة على ذاتها ؛ وكان في مقدور أشباع النظريات الطبيعية ان يفزعوا — من أجل البرهان — الى مبادئ السيكولوجيا التي أسستها المذاهب الحسية القديمة . فطورّ تين أساساً سيكولوجياً من أجل نظريته العامة عن الحضارة الانسانية في كتاب كتبه عن الذكاء الانساني^(٣) . ويرى تين أن ما نسميه « السلوك الذكي » ليس مبدأً خاصاً أو ميزة للطبيعة الانسانية ، وإنما هو مظهر أكثر إرهاباً وتعقيداً من الآلية واللاإرادية التي نجدها في كل ردود الفعل لدى الحيوان . فاذا قبلنا هذا التفسير أمكن إهمال الفرق بين الذكاء

٣ — « في الذكاء » ، (باريس ١٨٧٠) والكتاب في جزمين .

هل من فرق
بين التركيب
التشريحي
الانساني
والحيواني

نظرة
الطبيين الى
الذكاء
الانساني

محبوب
النظريات
الطبيعية
في الذكاء

الف- ريزة
والذكاء

والغريزة ، فهو فرق في الدرجة لا في النوع . واذن يصبح « الذكاء » مصطلحاً عادم الجدوى فارغاً من المعنى من الوجهة العلمية .

إن المظهر المدهش المتناقض في نظريات كهذه هو ذلك التباعد الصارخ بين ما تعدنا به وبين ما تقدمه لنا في الواقع . وقد كان المفكرون الذين بنوا هذه النظريات قساةً جائرين على مبادئهم المنهجية ، فلم يقنعوا بأن يتحدثوا عن الطبيعة الانسانية من خلال تجربتنا المشتركة ، لأنهم كانوا يجهدون للحصول على مثال أعلى وأسمى ، هو مثال الضبط العلمي المطلق . ولكننا إذا قارنا نتائجهم بهذا المستوى الذي أرادوا بلوغه لم نملك من الاحساس بنجية أمل . إن « الغريزة » مصطلح غامض ، قد يكون له قيمة وصفية معينة ، ولكن من الواضح انه عار من كل قيمة توضيحية ، فاذا أرجعنا بعض فئات الظواهر العضوية او الانسانية الى غرائز معينة أساسية لم نقدم بهذا العمل قضية جديدة ؛ وكل ما صنعناه هو أننا أوجدنا اسماً جديداً - أي وضعنا سؤالاً ولم نجب على سؤال . فمصطلح « غريزة » ، في خير أحواله ، يفسر الشيء بذاته وكثيراً ما يكون ذلك غموضاً في غموض . حتى في وصف السلوك الحيواني أصبح معظم البيولوجيين ، والبيولوجيين النفسانيين ، حذرين في استعمال هذا المصطلح ، وهم يحذروننا من الأغاليط التي ترتبط به ارتباطاً لا انفصام له . بل يحاولون أن يتجنبوا أو يهجروا « فكرة الغريزة المفعمة بالأخطاء وفكرة الذكاء البالغة البساطة » . ويصرح روبرت م . يركس في أحدث ما نشره ان مصطلحي « غريزة » و « ذكاء » قد أصبحا عتيقين ، وأن الفكرتين اللتين يعبر عنهما هذان المصطلحان في حاجة ماسة الى تحديد جديد (٤) . غير أننا لا نزال في ميدان الفلسفة الانثروبولوجية بعيدين ،

فما يظهر ، عن مثل هذا التحديد الجديد ، ولا تزال نتقبل هذين المصطلحين في هذا الميدان بسذاجة دون تحليل نقدي . وإذا استعملت فكرة الغريزة بهذه الطريقة أصبحت مثلاً على ذلك الخطأ المنهجي النموذجي الذي سماه وليم جيمس : « أغلوطة السيكلوجي » ، إذ تعتبر لفظة « غريزة » - وهي التي قد تفيد في وصف السلوك الحيواني او الانساني - نوعاً من القوة الطبيعية ، ومن غريب الأمر ان الذين وقعوا في هذه الغلطة مفكرون ظلوا ، من جميع الوجوه الأخرى - آمنين من نكسات واقعية القرون الوسطى أو « سيكلوجية القابليات » . وقد كتب جون ديوي نقداً واضحاً مؤثراً حول هذا النحو من التفكير ضمّنه كتابه « الطبيعة الانسانية والسلوك الانساني » . يقول ديوي :

نقد ديوي
لتحديد
الفرائز

« ليس من المنهج العلمي أن نحاول تحديد الفعاليات الأصلية وقصرها على عدد محدد من فئات الفرائز ، متميزة تمايزاً حاداً . إن التصنيف في الحقيقة مفيد وطبيعي ، فالكثرة الكثيرة من الاحداث الخاصة والمتغيرة يواجهها العقل بالتحديد والتصنيف والترتيب فيضعها تحت عناوات ويربطها في مجموعات ... ولكن حين نزعّم أن مصنفاتنا ومجموعاتنا تمثل تفريقات وتجميعات ثابتة « في طبيعة الاشياء » فأنا نعوّق معالجتنا للأشياء بأكثر مما نعينها ، وعندئذ نذنب في افتراض تعاقبنا عليه الطبيعة تواتراً ، إذ نغدو غير أكفاء لنارس البحث في طرائف الطبيعة والحياة وشئونها المرهفة إن الاتجاه لتجاهل مهمة التمييزات والتصنيفات واعتبارها تحدد الأشياء في ذاتها ، أغلوطة شائعة في التخصص العلمي وهذه النزعة التي نمت ذات يوم في العلم الطبيعي أصبحت اليوم تسيطر على كل النظريات التي تدور حول الطبيعة الانسانية . فقد قرّر بعض الدارسين أن الانسان مجموعة محددة من الفرائز الاولى تعد وتصنف ويمكن وصفها

وصفاً شاملاً ، واحدة إثر واحدة . ولا يختلف أصحاب النظريات إلا في عدد هذه الغرائز وفي ترتيبها حسب الاهمية . فبعضهم يجعلها غريزة واحدة هي حب الذات ، ويرأها ثان غريزتين هما الذاتية والغيرية ، ويحصرها ثالث في ثلاث هي الجشع والخوف والعظمة .

أما اليوم فان الكتاب ذوي الاتجاه التجريبي يبلغون بالعدد الحسين والستين . ولكن الحق ان هناك ردود فعل معينة لكل الظروف المؤثرة المعينة على قدر ما هناك من زمن ، ولا تعدو هذه القوائم بأسماء الغرائز ان تكون تصنيفات تؤدي غرضاً ما (٥) .

« بعد ان عرضنا بايجاز مختلف المناهج التي استخدمت حتى اليوم في الاجابة على هذا السؤال : ما الانسان ؟ نصل الى المسألة التي نخوم حولها : هل هذه المناهج كافية شاملة أو أن ثمة طريقة اخرى الى الفلسفة الانثروبولوجية ؟ هل تبقى لدينا سبيل آخر نسلكه عدا طريق الاسبطنان السيكلولوجي والملاحظة والتجربة البيولوجية والبحث التاريخي ؟ لقد حاولت ان استكشف سبيلاً آخر في كتابي « فلسفة الاشكال الرمزية » (٦) وليس منهج ذلك الكتاب ابداعاً اصيلاً بأي حال . ولم اكتبه لألغي به الآراء والنظرات السابقة بل لأأكملها . تبدأ فلسفة الاشكال الرمزية من فرض محمول فحواه أنه إن كان هناك تعريف لطبيعة الانسان او « جوهره » فان هذا التعريف لا يفهم الا بحسبانه وظائفياً لا مادياً . فنحن لا نستطيع أن نحدد الانسان بمبدأ فطري يؤلف جوهره المتافيزيقي ، ولا نستطيع أن نحدده بقابلية يحملها في ذاته أو غريزة تؤكد لها الملاحظة التجريبية . فان

قصود الحدود السابقة في ماهية الانسان

طريق الاشكال الرمزية

حد الانسان يجب ان يدور حول وظيفته

٥ - جون ديري : « الطبيعة الانسانية والسلوك الانساني » (نيويورك ، هولت وشركاء

١٩٢٢) القسم الثاني ، الفقرة : ٥ / ١٣١

٦ - فلسفة الاشكال الرمزية في ٣ مجلدات : المجلد الاول في اللغة ، والثاني في الاسطورة ، والثالث في علم ظواهر المعرفة .

المميز الأكبر للإنسان ، أي علامته الفارقة ، ليست هي طبيعته المتأفيزيقية او المادية وإنما هي عمله ؛ وهذا العمل ، أعني جهاز الفعاليات الإنسانية ، هو الذي يحدد دائرة « الإنسانية » ويحتمها . وتمثل اللغة والاسطورة والدين والفن والعلم قطاعات متنوعة في هذه الدائرة . إذن فإن « فلسفة الإنسان » عندئذ هي الفلسفة التي تمنحنا بصرأ نافذاً في تركيب كل واحدة من هذه الفعاليات الإنسانية ، وتمكننا في الوقت نفسه من فهمها في شكلها العضوي . وليست اللغة والفن والاسطورة والدين ، في الحقيقة ، موجودات خلقت منعزلة او كونت عرضاً ، وإنما هي مرتبطة معاً برابط مشترك ، إلا ان هذه الرابطة ليست رابطة مادية جوهرية Vinculum Substantiale كما كانت تتصور وتوصف في فكر القرون الوسطى ، وإنما هي رابطة وظيفية Vinculum Functionale ، والشيء الذي يجب ان نتغلغل في البحث عنه هو الوظيفة الأساسية التي يؤديها الكلام والاسطورة والفن والدين – فتطلبها بعيداً وراء أشكالها ومنطوقاتها التي لا تحصر ، وهذا بالتالي هو ما يجب ان نقتبعه عوداً حتى نبلغ به أصلاً مشتركاً .

ومن الواضح أننا في تأدية هذه المهمة لا نستطيع ان نهمل أي مصدر ممكن من مصادر المعرفة ، بل علينا ان نتفحص كل الشواهد التجريبية المتيسرة ونفيد من كل مناهج الاستبطان والملاحظات البيولوجية والبحث التاريخي ، فهذه الأساليب القديمة لن تُقْصَى وإنما ستتحول الى مركز فكري جديد ، ومن ثم تُرَى من زاوية جديدة . وانا لنحسّ ونحن نصف بناء اللغة والاسطورة والدين والفن والعلم أننا بحاجة دائمة الى المصطلح النفسي ، ذلك لأننا سنتحدث عن « الشعور » الديني و « الخيال » الفني أو الاسطوري والفكر المنطقي او العقلي ، ولا نستطيع أن ندخل هذه العوالم جميعاً دون منهج نفسي رصين . فسيكولوجية الاطفال مثلاً

الاستمارة
بالمصطلح
النفسي

ليضيع في حشدٍ لا حصر له من الحقائق المبعثرة إن لم يكن له خطة
 بنائية عامة ، يمكنه بوساطة منها ان يصنف تلك الحقائق وينظمها ويرتبها .
 وقد قدم هنريش فلفلن مثل هذه الخطة في تاريخ الفن^٨ . ويؤكد فلفلن
 ان مؤرخ الفن قد يكون عاجزاً عن ان يشخص فن^٩ الحقبة المختلفة ،
 أو فن الفنانين المختلفين ، إن لم تكن لديه « مقولات » أساسية في
 الوصف الفني^{١٠} ، وهو واجد^{١١} هذه المقولات اذا هو درس الاشكال
 والامكانات المختلفة من التعبير الفني وقام بتحليلها . وهذه الامكانات قابلة
 للتحديد بل قد نردها الى بضعة امكانات . وبوحي من هذه النظرة قدّم
 فلفلن وصفه المشهور للاتجاه الكلاسيكي والباروكي في الفن . ولم يستعمل
 هذين المصطلحين اسمين على مرحلتين تاريخيتين محددتين وانما اراد ان يبين
 بهما نماذج بنائية عامة غير مقصورة على عصر معين . يقول فلفلن في
 خاتمة كتابه « مبادئ تاريخ الفن » : « لم يكن الذي يراد تحليله هو
 فن القرنين السادس عشر والسابع عشر وانما الخطة العامة والامكانات
 الخالقة المنظورة التي عاش فيها الفن في ذينك القرنين . ولكي نوضح
 هذا نستطيع بطبيعة الحال ان نكتفي بالعودة الى اعمال فنية بأعيانها ،
 ولكن كل ما قيل عن روفائيل وتيتيان ورمبراندت وفلاسكيز انما قصد
 به أن يوضح ويفسر المجرى العام للاشياء ... كل شيء انتقال ، ومن
 العسير أن نجيب امرءاً يعتبر التاريخ تياراً لا ينتهي ، اما نحن ، فان
 الاحتفاظ الفكري بالذات يتطلب ان نصنف لانهاية الأحداث بالنظر الى
 بضع نتائج^(٨) .

النموذج من
 دراسة فلفلن
 لتاريخ الفن

ضرورة
 المقولات
 الاساسية

واذا كان عالم اللغة ومؤرخ الفن يحتاجان الى مقولات بنائية أساسية

٨ - فلفلن : « مبادئ تاريخ الفن » وقد عام بترجمته الى الانكليزية م . د . هوتنجر (لندن ،
 ج . بل واولاده ١٩٣٢) : ٢٢٦ وما تلاها .

ستيسر لنا مسارب قيمة لدراسة التطور العام في الكلام الانساني ؛ وربما كان العون الذي نستعده من دراسة علم الاجتماع العام أبلغ قيمة ، إذ لا نستطيع ان نفهم شكل الفكر الاسطوري البدائي دون ان نتعرف الى أشكال المجتمع البدائي . وأهم من هذين العلين ايضاً استعمالنا المناهج التاريخية ، لأن الاسئلة التي تدور حول ماهية اللغة والاسطورة والدين لا يجاب عليها دون دراسة تغفل في تطورها التاريخي .

وهب أننا نمكنا من الاجابة على كل هذه الاسئلة النفسية والاجتماعية والتاريخية ، فأننا ، مع ذلك ، ما تزال على حدود العالم « الانساني » الصحيح ، لم نتجاوز عتبه بعد . نعم إن كل الاعمال الانسانية تنشأ في ظروف تاريخية واجتماعية ولكننا لن نفهم هذه الظروف الخاصة إلا إن استطعنا السيطرة على المبادئ البنائية العامة التي تقع في أساس تلك الاعمال . وحين ندرس اللغة والفن والاسطورة فان مشكلة المعنى تتقدم لدينا على مشكلة التطور التاريخي ، وفي هذا المقام نستطيع ان نتعرف الى تغير بطيء مستمر في الافكار المنهجية لدى العلم التجريبي وفي مثله العليا . فشلاً كانت الفكرة المقبولة في العلوم اللغوية - على مدى زمن طويل - أن تاريخ اللغة يشمل كل ميدان الدراسات اللغوية ، وقد ترك هذا الاعتقاد طابعه على كل تطور اللغويات خلال القرن التاسع عشر ، أما اليوم فقد تخلى الناس عن هذه النظرة المتحيزة وطرحوها .

ومعظم الباحثين يدركون ضرورة المناهج المستقلة في التحليل الوصفي^(٧) ، لأننا لا نأمل في ان نقيس عمق فرع معين من فروع الانسانية إلا ان كان ذلك القياس مسبقاً بتحليل وصفي . وعلى هذا يجب ان تتقدم هذه النظرة البنائية في الحضارة على النظرة التاريخية ، بل إن التاريخ نفسه

الكشف عن
اصول المنهج
الواحد من
الاتكامل
الرمزية

اهمية
التحليل
الوصفي
لدراسة
الحضارة

يستدعيها « الاحتفاظ الفكري بالذات » فان الوصف الفلسفي للمدينة
الانسانية أشد احتياجاً الى مثل تلك المقولات . فالفلسفة لا تستطيع ان
تكتفي بتحليل صور فردية من الحضارة الانسانية وإنما تفتش عن نظرة
تركيبية عامة تشمل تلك الاشكال الفردية جميعاً ، ولكن أليست هذه
النظرة الشاملة مهمة - مستحيلة - أليست محض - أو هام ؟ إنما في التجربة
الانسانية لا نجد الفعاليات المختلفة التي تؤلف عالم الحضارة قائمة في انسجام ،
بل على العكس ، نجد كفاحاً دائماً بين القوى المتنوعة المتصارعة ، والفكر
العلمي يناقض الفكر الاسطوري ويبطله ، والدين في أعلى اشكاله النظرية
وفي التطور الاخلاقي مضطر الى أن يدافع عن نقاء مثله الأعلى ضد
الأوهام والتخيلات المسرفة في الاسطورة والفن . وهكذا تبدو الوحدة
والانسجام في الحضارة الانسانية شيئاً أعلى قليلاً من « خدعة ظاهرها
التقوى » *pium desiderium* ، يعوقها دائماً الاتجاه الواقعي للأحداث .
لكننا هنا يجب أن نميز ، تمييزاً حاداً ، بين وجهتي نظر إحداها مادية
والاخرى صورية : لا ريب في أن الحضارة الانسانية منقسمة في فعاليات
متنوعة تتجه اتجاهاً مختلفة وتسعى الى غايات مختلفة ، فاذا اكتفينا بتأمل
نتائج هذه الفعاليات - كالأموال التي تخلفها الاسطورة والشعائر الدينية
والمعتقدات والأعمال الفنية والنظريات العلمية - بدا من المستحيل أن زدها
الى « مقام » مشترك . ولكن التركيب الفلسفي يعني أمراً مختلفاً ، ففي
مثل ذلك التركيب لا نسعى الى وحدة النتائج بل الى وحدة العمل ، لا
وحدة المنتجات بل وحدة العملية الخلاقية . فاذا كان لكلمة « انسانية »
أي معنى فانها تعني أن صورها المتنوعة تعمل من أجل غاية مشتركة على
ما بينها من اختلاف وتضاد ، ومن بعد لا بد أن يوجد مظهر بارز أو
طابع عام تتفق فيه جميعاً وتنسجم ، فاذا استطعنا ان نعين هذا الطابع

الوحدة
في العمل
الذي تحققه
الفعاليات

تجمعت الاسئلة المضروقة وأصبحت جميعاً في بؤرة فكرية .
وقد ألمت من قبل الى أن تنظيم الحقائق المتصلة بالحضارة الانسانية
ماضي في سبيله في بعض العلوم - في علوم اللغة والدراسة المقارنة في
الأسطورة والدين وتاريخ الفن . وتحاول كل هذه العلوم أن توجد لنفسها
مبادئ معينة أي « مقولات » محددة لكي تستطيع أن تنظم بها ظواهر
الدين والفن واللغة . ولولا هذا التركيب الذي وصلت اليه العلوم نفسها
من قبل لما استطاعت الفلسفة أن تجدها نقطة بدء ؛ غير ان الفلسفة لا
تستطيع أيضاً ان تقف عند هذا الحد بل عليها ان تسعى لتحقيق مقداراً
اعظم من التركيز والتكثيف ؛ على الفكر الفلسفي ان يستكشف وحدة
العمل في ذلك التنوع والتكثر غير المحصور في الصور الاسطورية والعقائد
الدينية والاشكال اللغوية والآثار الفنية ، وهذه الوحسدة هي التي تمسك
هذه الموجدات معاً . واليوم تعد الاسطورة والدين والفن واللغة بل
والعلم نفسه صوراً متنوعة كثيرة لموضوع واحد ، ومهمة الفلسفة أن تجعل
هذا الموضوع مسموعاً مفهوماً .

مهمة الفلسفة
في هذا المقام

الأسطورة والدين

الاسطورة والدين - بين ظواهر الحضارة الانسانية كلها - من أشد تلك الظواهر استعصاءً على التحليل المنطقي . وتتبدى الاسطورة للنظرة الاولى فوضى محضاً أو كتلة لا شكل لها من الافكار المبعثرة ولذلك يبدو البحث عن « أسباب » تلك الافكار عبثاً لا غناء فيه ، وإذا كان ثمة ما يميز الاسطورة فذلك هو انها « بلا ضبط أو ربط » . أما الفكر الديني فليس هو بالضرورة ضداً للفكر الفلسفي ، وقد كان من المهمات الاولى لدى الفلسفة في القرون الوسطى أن تعين الصلة الحقة بين هذين الشكلين من أشكال الفكر ، وقد بدأ لمفكري تلك القرون ان المسألة حلت ، فقال توما الاكوييني : ان الحقيقة الدينية فوق الطبيعي وفوق المعقول الا انها ليست حقيقة لا عقلية ، وبالعقل وحده لا نستطيع ان نتغلغل في خفايا العقيدة ، إلا أن تلك الخفايا لا تعارض العقل بل تتمه وتكمله .

الفرق
الظاهر بين
الاسطورة
والدين

التوفيق
بين الدين
والفلسفة

وعلى الرغم من هذا فقد وجد دائماً مفكرون دينيون متعمقون اعترضوا

على كل هذه المحاولات التي كانت ترمي الى التوفيق بين هاتين القوتين المتقابلتين ، فاعتنقوا أفكاراً اكثر ثورية وأبعد عن تحقيق التوفيق ، منهم ترلتيان • الذي لم تفقد قولته : « أنا أؤمن به لانه سخيـف »

Credo quia absurdum

قوتها ، ومنهم بسكال الذي صرح ان الغموض والابهام هما عنصرا الدين وأن الاله الحق ، إله الدين المسيحي ، يظل دائماً « إله غيب » - خفياً لا يظهر^(١) . ووصف كبير كجورد الحياة الدينية بانها « التناقض » العظيم ، وهو يرى ان السعي لتقليل هذا التناقض يعني نفي الحياة الدينية وتخطيها ، وان الدين يظل لغزاً لا بالمعنى النظري فحسب وإنما بالمعنى الاخلاقي أيضاً • فهو مليء بالتضاربات النظرية والتناقضات الاخلاقية ، وهو يعدنا بالاتحاد مع الطبيعة ومع الآدميين الآخرين ومع قوى الغيب ومع الآلهة نفسها الا ان تأثيره يجيء ضد هذا كله ؛ إذ يصبح في شكله المحسوس مصدر كل الانقسامات العميقة والعراكات المتهوسة بين الناس . ويزعم الدين انه حاز الحقيقة المطلقة إلا ان تاريخه تاريخ اخطاء وضلالات ، وهو يعدنا بعالم آخر بعيد جداً عن حدود تجربتنا الانسانية ثم يظل إنسانياً خالصاً في طابعه .

وحالما نقرر ان تغير زاوية النظر تبدو المشكلة في « بُعد » جديد • ولننتقل بها من الوضع المتافيزيقي او اللاهوتي الى وضعها أمام فلسفة الحضارة الانسانية ، فإذا زرى ؟ زرى ان فلسفة الحضارة الانسانية لا تلقي نفس السؤال الذي كانت تلقيه المتافيزيكا واللاهوت لأنها لا تبحث في الموضوع وإنما تبحث في صورة الخيال الأسطوري والفكر الديني ، ذلك لأن

• [كوينتس سبتيوس ترلتيانوس أحد آباء الكنيسة اللاتينية (١٦٠-٢٣٠ ؟)] (المترجم) .

١ - انظر الفصل الاول ص : ٤٤ وما بعدها .

الموضوعات والدوافع في الفكر الاسطوري لا يستطيع حصرها ، واذا اقتربنا من العالم الاسطوري من هذه الناحية بقي ذلك العالم : — كما قال ملتون —
« محيطاً مظلماً لا يجد

بلا تخم ولا بُعد ، حيث الطول والارتفاع والاتساع ،
وحيث الزمان والمكان جميعاً الى ضياع » .

ولست ثمة ظاهرة طبيعية أو ظاهرة من ظواهر الحياة الانسانية تأبى تفسيراً اسطورياً أو لا تستدعي مثل ذلك التفسير . وكل المحاولات التي بذلتها مذاهب الميثولوجيا المقارنة — على اختلافها — لتوحيد الافكار الاسطورية ، أي لردّها الى نموذج موحد ، قد قُدر لها ان تنتهي الى الاخفاق الذريع . لكن على الرغم من هذا التنوع والاختلاف في المنتجات الاسطورية فان وظيفة خلق الاسطورة لا تقتصر الى تجانس حقيقي . وكثيراً ما دهش الانثروبولوجيون والاثنولوجيون اذ وجدوا نفس الافكار الأولية منتشرة في العالم كله في ظروف اجتماعية وحضارية مختلفة . وهذا الشيء نفسه يصدق على تاريخ الدين ، فأنت تجد جوامع الايمان والعقائد الجازمة والهيئات الكلامية منهكة في كفاح لا ينتهي . حتى المثل الاخلاقية في الأديان المختلفة تتباعد تباعداً لا يرجى فيه توفيق والتسام .

ومع ذلك فان هذا كله لا يؤثر في شكل الشعور الديني وفي الوحدة الداخلية للفكر الديني^(٢) . وتتغير الرموز الدينية تغيراً مستمراً ولكن المبدأ الذي تقوم عليه تلك الرموز أعني الفعالية الرمزية لا يدرکہا تغير :
« واحد هو الدين وان تعددت الشعائر » una est religio in rituum varietate .
ومهما يكن من شيء فان وضع « نظرية » للأسطورة أمر مثقل

من وحدة
الاساطير

الوحدة
الحقيقية
في الأديان

٢ — قدم أرشيبالد ألان بومان وصفاً ممتازاً لهذه الوحدة الداخلية في كتابه : « دراسات في فلسفة الدين » — في مجلدين — (لندن ١٩٣٨) .

بالصعوبات منذ البداية ، لأن الاسطورة « لا نظرية » في معناها وجوهرها وهي تتحدى مقولاتنا الفكرية الأساسية ، ومنطقها — إن كان لها منطق — لا ينقاس بكل أفكارنا عن الحقيقة التجريبية أو العلمية . إلا أن الفلسفة لا تقبل هذه القسمة ، فقد اقتصت أن المؤجّدات التي توجد لها وظيفة خلقت الاسطورة تحتوي « معنى » فلسفياً مفهوماً : ولا بدّ . وإذا كانت الاسطورة تخبئ هذا المعنى تحت كل أنواع الصور والرموز فهمة الفلسفة أن ترفع تلك الحجب عن ذلك المعنى ، ومنذ أيام الرواقيين طوّرت الفلسفة وسيلةً خاصة جيدة الإحكام من التفسير التمثيلي allegorical ، وكانت هذه الوسيلة تعد — على مدى عدة قرون — السبيل الوحيد الممكن إلى ارتياد العالم الاسطوري ، وقد سادت هذه الوسيلة في القرون الوسطى وظلت تحتفظ بكل قوتها عند بداية العصور الحديثة . وقد كتب ليكون رسالة مفردة في « حكمة القدماء » أظهر فيها حدقاً عظيماً في تفسير الميثولوجيا القديمة .

ولو درسنا هذه الرسالة لا يتسمنّا استخفافاً بهذه التفسيرات التمثيلية التي تبدو لعيني القارئ الحديث غاية في السذاجة . ومع هذا فإن مناهجنا الحديثة المحصنة المتذرعة بالتأنيق والاتقان عرضةً لمثل ذلك الاعتراض ، إلى حدّ كبير ، لأن « تفسيرها » لتلك الظواهر الاسطورية يغدو في النهاية إنكاراً تاماً لتلك الظواهر . وعلى ذلك يبدو العالم الاسطوري عالماً مصطنعاً ، صوراً مزوّرةً عن أصل ، وبدلاً من أن يكون اعتقاداً يصبح دعوى اعتقاد . إنما الذي يميز هذه المناهج الحديثة من التفسيرات التمثيلية القديمة أنها لم تعد تعتبر الاسطورة محض ابتداء تمّ من أجل غاية معينة . بل نقول مناهجنا الحديثة إن الاسطورة مبتدعة ، وتزيد إلى هذا أن ابتداعها تمّ لا شعورياً .

معارضة
الكشف
عن معنى
الاسطورة

التفسير
التمثيلي
للأساطير

مناهجنا
الحديثة
في تفسير
الأسطورة

أي لم يكن العقل البدائي واعياً بمعنى ما يخلقه ، وعلينا نحن ، على تحليلنا العلمي ان يكشف النقاب عن ذلك المعنى أي أن يعثر على الوجه المحتجب وراء ما لا يحصى من الاقنعة . وقد يتخذ هذا التحليل له وجهتين فيذهب في منهج موضوعي او ذاتي . فاذا اختار الاول حاول أن يصنف موضوعات الفكر الاسطوري ، واذا اختار الثاني حاول ان يصنف الدوافع . وكلما اتجهت نظرية في هذا النوع من التبسيط بدت أكمل ، فاذا وفقت في النهاية الى استكشاف « موضوع » واحد او « دافع » واحد كانت قد بلغت غايتها وأدّت واجبها . وقد حاول علم الاجناس الحديث وعلم النفس الحديث كلتا هاتين الطريقتين ، كما ان كثيراً من المذاهب الاثنولوجية والانثروبولوجية بدأ بهذا الافتراض : اولاً وقبل كل شيء آخر لا بد من البحث عن مركز موضوعي للعالم الاسطوري . يقول مالمينووسكي : « يعتقد كَتَّاب هذا المذهب ان كل اسطورة تحتوي ظاهرة طبيعية هي لبّها او حقيقتها القصوى ، ولكنها نسجت نسجاً محكماً في قالب حكاية حتى تكاد تلك الظاهرة تحتجب فيها او تنطمس . ولا يتفق هؤلاء الدارسون كثيراً على نوع الظاهرة الطبيعية التي تقع في قاعدة اكثر المتنوجات الميثولوجية ، فهناك دارسون « قرنهم » فكرتهم تماماً فقالوا ان الظاهرة هي القمر- حتى انهم لا يقرون بأي ظاهرة اخرى لتفسير تلك الحكايات البدائية سوى ذلك الكوكب الليلي المطل على الارض ؛ وآخرون . . يعتبرون الشمس الموضوع الوحيد الذي نسج البدائي حكاياته الرمزية حوله . ثم هنالك المنحازون الى علم الانواء والتقلبات الجوية وهم يعتبرون الريح والطقس وألوان الساعات جوهر الاسطورة . كل حزب بما لديهم فرحون ، بل إن بعضهم ليقا تل بعنف دفاعاً عن كوكبه المفضل او عن مبدأه . وآخرون أصحاب مزاج توفيقي مستعدون ليوافقوا على

ان الرجل البدائي قد قطر شرابه الاسطوري من الكواكب الساوية
جماء ١٣ .

ويرى فرويد في نظريته النفسية عن الاسطورة ان كل صورها انواع
واقعة لشيء واحد - هو الجنس . ولا حاجة بنا هنا للدخول في
تفصيلات هذه النظريات ، فهما تختلف في محتوياتها فانها جميعاً تدلنا على زعة
منهجية واحدة - فهي جميعاً تأمل في ان تجعلنا نفهم العالم الاسطوري
بعملية اختزال فكري ، ولكن لا تستطيع واحدة منها ان تبلغ هدفها
دون ان تظل دائماً ناقصة الحقائق أو تخطئ من أجل ان 'تكتب'
النظرية كلاً متجانساً .

وتضم الاسطورة عنصراً نظرياً وعنصراً من الخلق الفني . واول ما
يلفت انتباهنا فيها قرابتها الوثيقة بالشعر . ولقد قيل : « الاسطورة
القديمة هي » الكمية « التي تطور منها الشعر الحديث في بقاء بعمليات
يسمونها علماء التطور : التمايز والتخصص . وعقل "موجِد" الاسطورة
أنموذج أعلى ، وعقل الشاعر .. ما يزال في الاساس صانع أساطير » (١) .
وعلى الرغم من رابطة المولد هذه فاننا لا نخطئ في ادراك فرق نوعي
بين الاسطورة والفن ، ومفتاح هذا موجود في قول كانت : إن التأمل
الجمالي « لا يهتم ابداً بوجود الشيء موضوع التأمل أو بعدم وجوده » .
وهذا النوع من عدم الاهتمام غريب على طبيعة الخيال الاسطوري تماماً .
ففي الخيال الاسطوري نجد ضمناً - وعلى وجه دائم - « اعتقاداً » ،
ولولا هذا الاعتقاد في واقعية الموضوع الاسطوري لفقدت الاسطورة

٣ - مالفينوسكي : « الاسطورة في سيكولوجيا البدائيين » (نيويورك ، نورتن ١٩٢٦) ص :
١٢ وما يليها .

٤ - ف . س . برسكوت : « الشعر والاسطورة » (نيويورك ، مكملان ١٩٢٧) ص : ١٠

مقارنة
بين الفكر
الاسطوري
والعلمي

نظرية فريزر
في السحر

اساسها ، وبهذا الشرط الضروري الجوهرى " نجدنا نذهب الى الطرف
المقابل ، لكي نقارن بين الفكر العلمي والفكر الاسطوري . فان هذه المقارنة ،
في هذا المقام ، أمر ممكن بل ضروري " . حتماً لا يسير الفكران في
طرق واحدة غير انهما يبحثان ، فيما يبدو ، عن شيء واحد هو الحقيقة ،
وقد اكد هذه العلاقة فيما بينهما السير جيمس فريزر في دراساته
الانثروبولوجية ، فهو الذي بسط الفكرة القائلة بان ليس ثمة من حدود
فاصلة تفرق فن السحر من أساليب الفكر العلمي ، وانه مهما يكن السحر
خيالياً وهمياً في وسائله فانه علمي في غايته ، بل ان السحر من الناحية
النظرية علم وان كان من الناحية العلمية علماً خادعاً مزيفاً - اذ السحر
نفسه يناظر ويعمل على اساس من هذا الاقتراض : تتلو الحادثة اختها في
في الطبيعة ضرورة " ودون تغيير من غير ان تتدخل فيها قوة روحية أو
شخصية . فالاعتقاد الموجود هنا هو : « لا يتعين اتجاه الطبيعة بعواطف
الكائنات الآدمية وأهوائها وانما يتعين بقوانين ثابتة لا تتغير ، تعمل على
نحو آلي » . من ثم كان السحر عقيدة ضمنية في نظام الطبيعة ووحدتها ،
ولكنها الى ذلك عقيدة ثابتة واقعية^(٥) . غير ان هذه النظرية التي بسطها
فريزر لا تقف في وجه الامتحان النقدي ، ويبدو ان الانثروبولوجيا
الحديثة تخلت* - كلية - عن آراء فريزر^(٦) . ومن المسلم به اليوم بوجه
عام ان لا يعتبر السحر والاسطورة عنصريين كاشفين عن العلل أو موضحين ،
فتلك فكرة اصبحت تبدو قاصرة غير ملائمة . ونحن لا نستطيع ان نرد

٥ - راجع فريزر : « فن السحر وتطور الملوك » ، الجزء الاول من كتاب « الفصح العلمي »
(الطبعة الثانية ، مكملان ١٩٠٠) الصفحات ٦١ ، ٢٢٠ وما بعدها .

٦ - اذا شئت نقداً لفكرة فريزر فراجع ر . ر . ماريت : « عبة الدين » (الطبعة الثانية ،
لندن ، مثنون ١٩١٤) ص ٤٧ وما يتلوها و١٧٧ وما يتلوها .

الاسطورة الى عناصر معينة ثابتة ولذلك فعلينا ان نحاول استجلاءها في حياتها الداخلية ، في تنقلها وتنوعها ، في مبدأها الدينامي .

ومن السهل ان نصف هذا المبدأ اذا نحن تقدمنا الى المشكلة من زاوية أخرى : للاسطورة وجهان ، فهي من ناحية ترينا مبنى فكرياً ومن الناحية الأخرى ترينا مبنى حسيّاً ، لكنها ليست كتلة من الأفكار المضطربة المبعثرة وإنما تعتمد على شكل محدد من الادراك الحسي . فلو أن الاسطورة لم « تدرك » العالم بطريقة مختلفة لما استطاعت أن تحكم عليه أو أن تفسره بطريقة الخاصة ، وإذن فعلينا أن ننزل الى هذه الطبقة العميقة من الادراك الحسي لكي نفهم طبيعة الفكر الأسطوري ، والذي يهيمن في الفكر التجريبي هو ملامح تجربتنا الحسية — وهي ملامح ثابتة — فهنا نميز دائماً بين ما هو جوهري وما هو عارض ، بين ما هو ضروري وما هو ممكن ، بين ما هو ثابت وما هو متغير ، وبهذا التمييز نصل الى فكرة عن عالم مكوّن من مواد مادية يتمتع بخصائص ثابتة محددة . إلا أن هذا كله يطوي في ذاته عملية تحليلية تضادّ المبنى الأساسي للادراك والفكر الأسطوري ، لأن عالم الاسطورة في مرحلة اشدّ سبولة وتغيّراً من عالمنا النظري — عالم الأشياء والخصائص ، عالم الجواهر والأعراض .

ومن أجل ان ندرك الفرق ونصفه قد نقول : إن ما ندركه الاسطورة هو الطوابع « الفراسية » لا الطوابع الموضوعية . وقد نحدّ الطبيعة ، بمعناها التجريبي أو العلمي فنقول : « انها وجود الاشياء ما دام هذا الوجود متعيّناً بقوانين طبيعية »^(٧) . مثل هذه « الطبيعة » غير موجود لدى الأساطير ، فعالم الأسطورة عالم درامي — عالم أعمال وقدرات وقوى

٧ — راجع كانت : « مقدمة لكل اتجاه متافيزيقي يجد » ، الفقرة : ١٤ .

تفسير جديد
للاسطورة
يرد على
نظريات
فريزر

الفرق بين
مدركات
الفكر
التجريبي
ومدركات
الاسطورة

الخصائص
ال عاطفية
في الادراك
الاسطوري

متصارعة ، والاسطورة ترى هذا الاصطدام بين تلك القوى في كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة . والادراك الأسطوري مفعم دائماً بهذه الخصائص العاطفية ، فكل ما يرى أو يحس محاطٌ بجو خاص - جو من الفرح أو الحزن أو العذاب والهياج والاستبشار والغم . في حال الاسطورة لا نستطيع ان نتحدث عن « الأشياء » باعتبارها مادةً ميتة أو هامدة ، فكل شيء ثمة خير أو شرير ، صديق أو عدو ، مألوف أو غريب ، جذاب معجب أو منفر متوعد . ومن السهل أن نعيد بناء هذا الشكل الأولي من أشكال التجربة الانسانية لأنه لم يفقد قوته الأصلية ، بأية حال ، في حياة الانسان المتمدن .

وإذا كنا في حال هياج عاطفي نحقق لدينا هذا الادراك الدرامي للأشياء جميعاً ، إذ لا تظل هذه الاشياء في نظرنا تواجهنا بوجوهها المعروفة وإنما تتغير سحنها فجأة وتصطبغ باللون الذي نلقيه عليها من عواطفنا ، من حبنا وبغضنا ، من خوفنا ورجائنا . وليس أبين من هذه المفارقة القائمة بين هذا الاتجاه الأصيل في تجربتنا ، ومثال الحقيقة الذي اوجده العلم . ولقد وجهت كل جهود الفكر العلمي من أجل طمس كل أثر لذلك الاتجاه الاول . وكان على الادراك الاسطوري ان يخفي لأن العلم فاض بنور جديد . إلا ان هذا لا يعني ان المعلومات التي حصلناها من تجربتنا « الفراسية » قد تحطمت وتلاشت . نعم فقدت كل تلك المعلومات كل قيمتها الموضوعية والكونية إلا ان قيمتها الانثروبولوجية لا تزال قائمة . فنحن في عالمنا الانساني لا نستطيع ان ننكرها ولا نستطيع ان نفقدها بل هي تحتفظ بموضعها وخطرها . وفي حياتنا الاجتماعية ، في اتصالنا اليومي بالناس ، لا نستطيع ان نطمس وجه هذه المعلومات . حتى في نظام النشوء يحىء التمييز بين الخصائص السبائية

العلم في هذه
الناحية
ثورة على
الاسطورة

قيمة
المعلومات
التي جاءت
عن طريق
الاسطورة
وطابعها
العاطفي

سابقاً — فيما يبدو — للتمييز بين الخصائص الحسية ، إذ يبدو ان الطفل يحسُّ بتلك الخصائص السيائية في المراحل الاولى من تطوره^(٨) . وبما ان العلم يتزعج تجريباً من هذه الخصائص لينجز مهمته ، فهو اذن لا يستطيع طرحها ، ولذلك فانها خصائص لا تستأصل من جذورها وانما تحصر في ميدانها الخاص بها فحسب ، وهذا الحصر للخصائص الذاتية هو الذي يميز الطريقة العلمية العامة ، اذ العلم يحدّ من موضوعيتها لكنه لا يستطيع ان يحطم حقيقتها . وكل مظهر من مظاهر تجربتنا الانسانية ذو نسبة الى الحقيقة ، ففي أفكارنا العلمية نردّ الفرق بين لّونين ، ولنقل لإنهما الاحمر والازرق ، الى فرق عدديّ ، ولكننا ان قلنا ان العدد أكثر انتساباً للحقيقة الواقعة من اللون كان هذا القول قاصراً كلاًّ القصور . ولكننا نعني بمثل هذا القول ان العدد أكثر « عمومية » . فالتعبير الرياضي يقدم لنا نظرة جديدة أشمل ، أي يهيئ لنا أفقاً من آفاق المعرفة أوسع وأشد انطلاقةً . ولكننا حين نرفع من شأن العدد كما فعل الفيشاغوريون ، حين نقول انه الحقيقة القصوى ، وأنه جوهر الاشياء وصورتها ، فذلك كله مغالطة متافيزيقية . فاذا اتخذنا هذا المبدأ المنهجي المنطقي أساساً لجدلنا ظهرت أدنى طبقة من تجربتنا الحسية — طبقة « خصائصنا الشعورية » — في ضوء جديد ، ويقع عالم إدراكاتنا الحسية او ما تسمى « الخصائص الثانوية » في موقع متوسط . فقد هجر ذلك العالم المرحلة الاولى النظرية من تجربتنا الفراسية وتغلب عليها دون ان يبلغ ذلك الشكل من التعميم الذي بلغته أفكارنا

٨ — راجع في هذه المسألة كتاب كاسيرر « فلسفة الاشكال الرمزية » الجزء الثالث القسم الاول ، الفصل الثاني والثالث [يقول كوفكا : ان الطفل تلفته اولاً الوجوه الانسانية . ففي نصف العام الاول نجد أثر تعبيرات وجهي والديه ، اذ انه يعرف وجه امه في الشهر الثاني ، وعندما يكمل الستة شهور يميز الوجه الغاضب من الوجه المتعجب المستبشر] (المترجم) .

العلمية — أفكارنا عن العالم المادي . ولكن لهذه المراحل الثلاث قيمتها الوظيفية المحددة . وليس فيها مرحلة وهمية ، بل كل واجدة منها — حسب مقاييسها — خطوة في طريقنا الى الحقيقة .

وقد قدم جون ديوي خيراً بيان ووضحه عن هذه النظرية ، فيها اعتقد ، إذ كان من اول من ادركوا وأكدوا الحق النسبي لهذه الخصائص الشعورية التي تبدو بكل قوتها في الادراك الاسطوري ، وتعتبر فيه العناصر الأساسية من الحقيقة . وكان الذي اوصله الى تلك النتيجة هو — على وجه الدقة — فكرته عن مهمة الانجاء التجريبي الاصيل . يقول ديوي :

رأي ديوي
في الخصائص
الشعورية

والاشياء — من وجهة تجريبية — مؤثرة مؤسّسة جميلة مضحكة مستقرة مضطربة مريحة مزعجة فارغة جافية معزّية باهرة مخيفة ، هي كذلك من وجهها القريب وبحقها الذاتي ... وهذه الخصائص تقف في ذاتها على نفس المستوى الذي تقف عليه الالوان والاصوات وخصائص اللمس والذوق والشم . وأي معيار يجد هذه الثانية معلومات « صلبة » اساسية سيجد الاولى كذلك — اذا استعمل دون تحيز . فأني خاصة كهذه الخصائص اساسية لها بدء ولها نهاية ، هي هي حسبما هي موجودة ، وقد ترد الى اشياء اخرى قد تعتبر نتيجة أو دلالة ، الا ان هذا يشمل امتداداً واستعمالاً خارجيين لأنه يأخذنا الى ما وراء تلك الخاصية في مدلولها الخاصيصي المباشر . غير ان اخضاع هذه الخصائص ، وهي حسبة خطيرة ، وجعلها عرضة للنظر العلمي وأشكالاً صالحة للتصنيف والفهم ، خلّى هذه الخصائص — في الواقع — كما كانت . فما دامت هذه الخصائص موجودة لدى حاملها فلا حاجة بهم الى ان يعرفوها ... ولكن النظرة التقليدية التي ترى أن موضوع المعرفة

هو الحقيقة ، قبل كل شيء ، أدت الى هذه النتيجة وهي : ان موضوع العلم ، حقيقي ، قبل كل شيء ، من الناحية المتافيزيقية ، ومن ثمّ فإن هذه الخصائص المباشرة لامتدادها من موضوع العلم خُلِّيتْ ثَمَّةً ذيلًا للموضوع «الحقيقي» . وبما ان وجودها لا يمكن نكرانه جمعت معاً في نطاق «الوجود النفسي» ، اتُّخِذَ مضاداً لموضوع الفيزياء . وعلى حسب هذه المقدمة تتلو بالضرورة كل المشكلات المتعلقة بالعلاقة بين العقل والمادة أي المشكلات النفسية والجسمية . غيرُ هذه المقدمة المتافيزيقية ، أُعِدَّ الخصائص المباشرة الى موضعها الصحيح باعتبارها خصائص لمواقف مُتَضَمِّنَةٍ ، تَبْطُلُ المشكلاتُ الراهنة ان تكون مشكلات متصلة بالمنطق والمعرفة ، وتغدو مشكلات علمية قابلة للتحديد ، أي تغدو مسائل عن كيف تحدث هذه الحادثة أو تلك وهي التي لها هذه الخصائص او تلك» (٩) .

مدلول
الخصائص
مقياس لقينة
الاسطورة
وما فيها من
مواد

لذلك إذا شئنا أن نعلّلَ لعالم الافكار الاسطورية والخيال الأسطوري فيجب ألا نبدأ بنقد هذين العالمين من زاوية المثل النظرية في المعرفة والحقيقة ، بل علينا أن نأخذ خصائص التجربة الأسطورية حسب «مدلولها» الخصائصي المباشر . لأن الذي نحتاجه في هذا المقام هو تفسير الحياة الاسطورية لا تفسير أفكار ومعتقدات . والاسطورة ليست نظاماً من العقائد الجازمة وإنما تتضمن عملاً أكثر مما تتضمن صوراً وتمثيلات . وقد أخذت هذه النظرة تزايد شيئاً فشيئاً في الانثروبولوجيا الحديثة والتاريخ الحديث للدين ، وتلك علامة على تقدم جلي . فقد أصبح من القواعد المقبولة

٩ - التجربة والطبيعة : (تشيكاغو ، شركة أوبن كورت للنشر ١٩٢٥) ص : ٩٦ ، ٢٦٤

وما بعدها .

قبولاً عاماً اليوم أن الشعائر السابقة للعقيدة ، بالمعنى التاريخي والنفسي . وحتى لو نجحنا في تحليل الأسطورة الى عناصر فكرية حاسمة ، فإننا لا نستطيع بهذه العملية التحليلية أن نقع على مبدأها الحيوي لانه دينامي لا ثابت ولا يمكن وصفه إلا من خلال العمل . فالانسان البدائي لا يعبر عن مشاعره وعواطفه برموز مجردة ، وإنما يعبر بطريقة محسوسة مباشرة ؛ ولا بد لنا من أن ندرس كل هذا التعبير من أجل أن نعي مبنى الأسطورة والدين البدائي .

ومن أوضح النظريات وأكثرها ثباتاً عن هذا المبنى تلك النظريات التي قدمتها مدرسة علم الاجتماع الفرنسية في مؤلفات دوركهيم وتلاميذته وخلفائه . يبدأ دوركهيم من المبدأ القائل باننا لا نستطيع أن نعلل للأسطورة تعليلاً مناسباً ما دمنا نفتش عن مصدرها في العالم المادي أي في حدس الظواهر الطبيعية ، ومثال الاسطورة الحق إنما هو المجتمع لا الطبيعة فكل دوافعها الأساسية انعكاسات للحياة الاجتماعية لدى الانسان ، وبهذه الانعكاسات تصبح الطبيعة صورة للعالم الاجتماعي فهو يعكس كل ملاحظها الأساسية ونظمها ومبناها وأقسامها وتفرعاتها^(١٠) .

وقد بلغت فكرة دوركهيم تطورها الكامل على يدي لفي - برول ، إلا اننا نلتقي لديه بمميز أعم ، فهو يصف الفكر الاسطوري بأنه « فكر ما قبل المنطق » . واذا تطلب الفكر الأسطوري عللاً لم تكن العلل التي تلبي طلبه منطقية أو تجريبية وإنما كانت « عللاً خفية » . ويقول : « تتضمن فعاليتنا اليومية ثقة كاملة غير مضطربة في ثبات القوانين الطبيعية ، إلا أن نزعة الانسان البدائي مختلفة عن ذلك

مدرسة علم
الاجتماع
الفرنسية
وتعليل
الأسطورة

دوركهيم

برول

١٠ - انظر دوركهيم : « الاشكال الأولية للحياة الدينية » (باريس ١٩١٢) والترجمة الانجليزية

(نيويورك ١٩١٥) .

أشد اختلاف . إذ تظهر له الطبيعة التي يعيش في وسطها
تحت مظهر مختلف جداً ، فكل الاشياء والمخلوقات فيها محتواة في
شبكة من شؤون المشاركة والانكار ، وكلها شؤون خفية » .

وبرى لفي - برول ان هذه الصبغة الغيبية للدين البدائي تابعة لكون
تمثيلات ذلك الدين « تمثيلات جماعية » . ولا نستطيع ان نطبق عليها
قواعد منطقنا التي وضعت من أجل غايات مختلفة ، وإذا اقتربنا من هذا
الميدان أصبحت القوانين ، حتى قانون التضاد وغيره من قوانين الفكر
العقلي ، غير واردة (١١) .

ما لم تحمله
آراء المدرسة
الفرنسية

وأرى ان المدرسة الاجتماعية الفرنسية قد قدمت برهاناً كاملاً جامعاً على
الجزء الاول من الفكرة ولم تفعل ذلك في الجزء الثاني . لا أحد ينازع
في كون طابع الاسطورة اجتماعياً أساسياً ، ولكن القول بأن كل العقلية
البدائية - بالضرورة - من عهد ما قبل المنطق أو أنها خفية غيبية - هذا
القول يتعارض - فيما يبدو - مع الشواهد الانثروبولوجية والاثنولوجية .
واننا لنجد مناطق كثيرة من الحياة والحضارة البدائية تتمتع بالملامح
المشهورة التي توجد في حياتنا الحضارية ؛ وما دما نزع مخالفات مطلقاً بين
منطقنا ومنطق العقل البدائي ، وما دما نعتبر المنطقين مختلفين نوعاً متضادين
أصلاً ، فليس من السهل علينا ان نعلل لذلك التشابه في الملامح الحضارية .
حتى لنجد دائماً في الحياة البدائية نفسها منطقة دنيوية أو ارضية خارج
المنطقة المقدسة ؛ وهناك موروث دنيوي يتألف من قواعد العرف او القانون

١١ - انظر لفي - برول : «الوظائف العقلية في المجتمعات البدائية» (باريس ١٩١٠) والترجمة
الانجليزية بعنوان « كيف يفكر البدائيون » - (لندن ونيويورك ١٩٢٦) و « العقلية البدائية »
(باريس ١٩٢٢) والترجمة الانجليزية (نيويورك ١٩٢٣) و « نفس البدائي » (باريس ١٩٢٨)
والترجمة الانجليزية (نيويورك ١٩٢٨) .

يعين الطريقة التي تسير بها الحياة الاجتماعية . يقول مالىنوسكي :

« ان القواعد التي نَجدها ها هنا مستقلة تمام الاستقلال عن السحر ، عن القداسات الغيبية ، وليست مصحوبة بأي عناصر شعائرية أو طقسية . ومن الخطأ ان نزع من الانسان ، في مرحلة مبكرة من مراحل التطور ، عاش في عالم مضطرب ، اختلط فيه الواقعي بغير الواقعي . والتقت فيه الغيبية بالعقل كما تختلط النقود الصحيحة والزائفة في بلدٍ فاسد النظام . وأهم نقطة - بالنسبة لنا - حول السحر والشعائر الدينية ، انها لا تتقدم لعون لانسان إلا حيث تحقق المعرفة ، والطقس الذي يقوم على أسس غيبية ينمو ايضاً من الحياة نفسها ولكنه لا يعيق ابدأ جهود الانسان العملية . ويحاول الانسان في شعيرة السحر أو الدين ان يصنع المعجزات ، لا لأنه يغفل حدود قواه العقلية بل على العكس لأنه عارف بها تمام المعرفة . ولأن تقدم خطوة اخرى فأقول : ان إدراك هذا الامر يبدو لي شيئاً لا غنى عنه ان كنا نريد ان نقيم الحقيقة القائلة بأن الدين له موضوعه الخاص ، وميدانه الخاص المشروع في التطور - ذلك لا غنى عنه ان كنا نريد ان نقيم هذه الحقيقة الى الابد » (١٢) .

منطق
الاسطورة
وعنصرها
العقلي

وفي هذا الميدان نفسه ، في ميدان الدين والاسطورة المشروع لا تكون فكرة الطبيعة وفكرة الحياة الانسانية خاليتين من أي معنى عقلي . وما نسميه نحن ، من وجهة نظرنا ، لا عقلياً ، ما قبل المنطق ، غيبياً ، إنما هو مقدمات تبدأ منها التفسيرات الاسطورية او الدينية ، لا طريقة التفسير . فاذا قبلنا هذه المقدمات وفهمناها على وجهها الصحيح - أي إذا رأينا

١٢ - مالىنوسكي : « أسس الايمان والاخلاق » (لندن ، مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٣٦

نشر من أجل جامعة درهام) ص : ٣٤ .

فيها النور الذي يراه الانسان البدائي - فان المستنتجات المستمدة منها تكف عن ان تبدو لنا لا منطقية أو ضد المنطق . ومن المؤكد ان كل المحاولات لصيغ الاسطورة بصيغة عقلية - أي لعدّها تعبيراً تمثيلاً يومي الى حقيقة أخلاقية أو نظرية - قد اخفقت اخفاقاً تاماً^(١٣) ، ذلك لان تلك المحاولات قد تجاهلت الحقائق الاساسية في التجربة الاسطورية ، فالطبقة الدنيا الواقعية في الاسطورة ليست طبقةً دنيا من الفكر وانما هي من الشعور ، والاسطورة والدين البدائي ليسا بأي حال منقطعي الصلة متنافرين ولا مجردين من المعنى والعقل . إلا ان انسجامهما يعتمد على وحدة الشعور اكثر من اعتماده على القواعد المنطقية ، وهذه الوحدة من اقوى الدوافع وأعمقها في الفكر البدائي . وإذا شاء الفكر العلمي ان يصف الحقيقة او يشرحها كان لزاماً عليه أن يستعمل منهجه العام ، وهو منهج التصنيف والتنظيم . فالحياة مقسمة في مقاطعات متفرقة مميزة لإحداها من الاخرى تمييزاً حاداً ، والحدود بين ممالك النبات والحيوان والانسان - أي الفروق بين الانواع والسلائل والفصائل - فروق اساسية لا يستطيع طمسها ، الا ان العقل البدائي يتجاهلها وينكرها جميعاً ، فنظرته الى الحياة تركيبية لا تحليلية - الحياة لديه ليست منقسمة الى فئات وفروع فئات ، وإنما هي كل^١ مستمر لا ينقطع ولا يقبل تفرقات حاسمة صارمة ؛ وليست الحدود بين المناطق المختلفة حواجز يتعسر اجتيازها وإنما هي سيالة متغيرة . ليس بين مناطق الحياة المتنوعة فرق محدد وليس لشيء شكل محدد ثابت لا يتغير ، وقد تحدث الاستحالة فجأة فاذا كل شيء يتحول الى كل شيء ، وإذا كان للعالم الاسطوري مظهر مميز بارز ، أي قانون يحكمه ،

١٣ - حتى في الأدب الحديث ما نزال نجد آثاراً كثيرة لهذه المحاولة . انظر مثلاً . لانجر

« الميثولوجيا العقلية » (ليبزج ١٩١٦) .

فهو قانون الاستحالة هذا . ومع هذا نكاد لا نستطيع ان نفسر عدم ثبات العالم الاسطوري بعجز الانسان البدائي عن أن يفقه الفروق التجريبية بين الاشياء . ففي هذه الناحية كثيراً ما يتفوق المتوحش على الانسان المتمدن ، فهو قابل لادراك كثير من الملامح المميزة التي تفوت انتباهنا . وكثيراً ما اثارت الصور والرسوم التي وجدت في أدنى مراحل الحضارة الانسانية ، أي فن العصر الحجري المتوسط < الباليوليثي > ، إعجاباً لما فيها من صبغة طبيعية ، وهي تدل على معرفة مدهشة بكل أنواع الاشكال الحيوانية . وكل وجود الانسان البدائي يعتمد - في أكثره - على مواهبه في الملاحظة والتمييز . فان كان صياداً فعليه ان يكون على معرفة بأصغر التفاصيل عن حياة الحيوان وعليه ان يميز آثار مختلف الحيوانات . وكل هذا لا يتفق مع الزعم بأن العقل البدائي - بلب طبيعته وجوهره - مضطرب غير متميز ، وانه عقل غيبي ينتمي الى ما قبل المنطق .

ادراك
الانسان
البدائي
للفروق
التجريبية

٢٠٠ ان الذي يميز العقلية البدائية هو عاطفتها العامة نحو الحياة لا منطقها ، فالانسان البدائي لا ينظر الى الطبيعة بعيني عالم طبيعي يريد ان يصنف الاشياء ليرضي لديه حب استطلاع فكرياً ، ولا يقترب منها برغبة نفعية او « تقنية » ، وليست هي لديه موضوعاً للمعرفة ولا ميداناً لحاجاته العملية المباشرة . نحن الذين تعودنا أن نقسم حياتنا في منطقتين : فعالية عملية واخرى نظرية ، ونحن نميل في هذه القسمة الى ان ننسى ان دون هاتين المنطقتين طبقة أدنى منهما ، اما الانسان البدائي فلا يجوز عليه هذا النسيان لان كل افكاره ومشاعره ما تزال راسخة في هذه الطبقة الدنيا الاصلية ، ونظرته الى الطبيعة ليست نظرية او عملية وانما هي « تعاطفية » ؛ واذا أغفلنا هذه النقطة لم نستطع ان نجد السبيل الى العالم الاسطوري ، وأهم

نظرة البدائي
الى الطبيعة
(تعاطفية)

مظهر للاسطورة ليس اتجاهاً خاصاً للفكر او اتجاهاً خاصاً للخيال الانساني -
الاسطورة بنت العاطفة ، وهذا المنبت العاطفي هو الذي يصبغ كل فروعها
بلونه الخاص . والبدائي لا يفتقر بأي حال الى القدرة على ان يدرك الفرق
الفرق التجريبية بين الأشياء الا ان هذه الفروق جميعاً ، في فكرته عن
الطبيعة والحياة ، يطمسها لديه شعور قوي وهو اقتناع عميق بأن للحياة
« وحدة » اساسية لا تنظمس ، هي التي تربط المفردات في تكثرها وتنوعها .
وهو لا يعزو لنفسه مكاناً مفرداً ممتازاً في سلم الطبيعة . ويبدو أن فكرة

وحدة الحياة
لدى البدائي

القرباة العاصبة بين أشكال الحياة هي « مفترَض » عام للفكر الاسطوري .
والعقائد الطوطمية من بين أكثر الملامح تمييزاً للحضارة البدائية ، فالافكار
الطوطمية تسيطر على كل الحياة الدينية والاجتماعية لدى أشد القبائل بدائية
مثل سكان استراليا الاصليين الذين درسهم ووصفهم بعناية كل من سبنسر
وجلن^(١٤) . بل إننا لنجد نظاماً معقداً دقيقاً من عبادة الحيوان في دين شعوب
بلغت درجة عالية في الحضارة وفي مراحل راقية من حياة ذلك الدين ؛ ولا
يعدّ الانسان نفسه ، في الطوطمية ، منحدرأ من نوع حيوان معين ، فحسب ،
وانما هناك رابطة شاهدة واقعية ، ولادية ايضاً ، تصل وجوده المادي
والاجتماعي بالاسلاف الطوطميين ، وفي كثير من الاحوال يحسّ ان هذه
الرابطة هوّية له ويعبر عنها كذلك . ويقص علينا العالم الانثولوجي كارل
فون دن شتاين أن افراداً من عشائر طوطمية في احدى القبائل الهندية
اكدوا أنهم شيء واحد هم والحيوان الذي استمدوا منه أصلهم ، فأعلنوا
انهم هم أنفسهم حيوانات مائة أو بئغوات حمراء^(١٥) . ويريوي فريزر ان

١٤ - انظر سير بلدوين سبنسر و ف . ج . جلن في « القبائل الاصلية في أواسط استراليا ،
والقبائل الشمالية في أواسط استراليا » .

١٥ - انظر كارل فون دن شتاين « بين البدائيين في البرازيل الوسطى » (برلين ١٨٩٧) ،

الرئيس في قبيلة الديري باستراليا ، وهو ذو طوطم مؤلف من نوع من البذور ، كان شعبه يتحدث عنه انه هو النبات الذي ينتج تلك البذرة^(١٦) .

ورى من هذه الامثلة كيف ان الاعتقاد المتين بوحدة الحياة يطمس كل تلك الفروق التي تبدو من وجهة نظرنا ، شاهدة لا تخطئها العين ولا تنطمس . ولسنا بحاجة الى ان نزعّم أن هذه الفروق مغفلة لدى البدائي تماماً . إنه لا ينكرها بمعنى تجريبي وانما بصرح انه لا يأخذ بها ، بمعنى ديني . والطبيعة لدى الشعور الاسطوري والديني تصبح مجتمعاً واحداً كبيراً هو « مجتمع الحياة » ، ولا يمنح الانسان في هذا المجتمع منزلة عالية وانما هو جزء منه لكنه ليس أعلى من الافراد الآخرين فيه ، بأي وجه . وتتمتع الحياة في أرفع أشكالها وأوضاعها برفعة دينية واحدة . فالتناس والحيوانات ،

والحيوانات والنباتات ، كلها تقف في صعيد واحد . وفي المجتمعات الطوطمية نجد طوطماً نباتياً كما نجد طوطماً حيوانياً . ونجد المبدأ نفسه - أعني مبدأ وحدة الحياة التي لا تنقسم - اذا انتقلنا من المسافة الى الزمن . فهو لا يصدق فحسب في اتحاد زمن الحدوث وانما يصدق ايضاً في نظام التوالي . فأجيال الناس تكون سلسلة فذة لا تنقطع ، وبالتجسد تظل المراحل الاولى من الحياة محفوظة فتظهر روح الجد في طفل حديث الميلاد ، بعد ان جرى عليها التجديد وأعيد لها فتاؤها . ويمتزج الحاضر والماضي والمستقبل ، احدها في الآخر ، دون ان يكون بينها خط حاسم ، واذا الحدود بين الاجيال من بني الانسان قد أصبحت غير محققة المعالم . والشعور بوحدة حياة صلبة لا يدركها التحطيم شعور بالغ القوة ، وتبلغ به قوته ومنعته الى حد ان يتحدى حقيقة الموت وينكرها . فالموت في الفكر البدائي لا يعتبر أبداً ظاهرة طبيعية تخضع لقوانين عامة .

زيادة بيان
في وحدة
الطبيعة عند
البدائي

الوحدة
الزمنية
تتحقق
بالتجسد

الوحدة
الزمنية
والموت في
فكر البدائي

١٦ - فريزر : « محاضرات في التاريخ المبكر للملكية » (لندن ، مكملان ١٩٠٥) ص : ١٠٩

وحدوثه عارض لا ضروري ، ويعتمد دائماً على علل فردية عرضية ، وهو من عمل الكهانة أو السحر أو من تأثير شخص ضار . وقد بين سنسر وجلن في وصفهما للقبائل الاصلية باستراليا أن الفرد من تلك القبائل لا يعرف شيئاً اسمه الموت الطبيعي ، فن مات فقد قتله بالضرورة رجل آخر وربما كان القاتل امرأة ، ولا بد من مهاجة ذلك الرجل أو تلك المرأة عاجلاً أو آجلاً^(١٧) . أما الموت فلم يكن دائماً موجوداً وإنما جاء الى الوجود بواسطة حادثة معينة ، كعجز انسان او حادثة ما . ويرتبط كثير من الحكايات الاسطورية باصل الموت . ويبدو ان كون الانسان فانياً ، بطبيعته وجوهره ، فكرة غريبة على الفكر الديني والاسطوري البدائيين . ولذلك فهناك بهذا الاعتبار فرق لافت بين المعتقد الاسطوري في الخلود وكل الاشكال المتأخرة من المعتقد الفلسفي الخالص . واذا قرأنا « الفيدون » لافلاطون شعرنا بجهد الفكر الفلسفي كسله وهو يحاول ان يقدم برهاناً عن خلود النفس الانسانية واضحاً لا ينقض . اما في الفكر الاسطوري فالمسألة تختلف عن هذا اذ يقع عبء البرهان ، هنا ، على الجهة المقابلة ، فان كان كل شيء بحاجة الى برهان فذلك هو حقيقة الموت لا حقيقة الخلود . ولا تقبل الاسطورة والدين البدائي أي برهان على حقيقة الموت لأنها تنكر إمكان الموت . حتى يمكننا ، بمعنى من المعاني ، ان نفسر كل الفكر الاسطوري بأنه إنكار عنيد ثابت لظاهرة الموت . وبفضل هذا الاعتقاد بوحدة حياة لا تنقطع وباستمرار تلك الحياة كان على الاسطورة ان تزيل هذه الظاهرة من الطريق . وربما كان الدين البدائي أقوى وأشد تأكيداً للحياة ، نجده في الحضارة الانسانية . يقول برستد في وصفه أقدم نصوص الاهرام : « ان النعمة الكبرى المسيطرة

الموت يحتاج
برهاناً لا
الخلود

فيها جميعاً هي احتجاج ثابت ، بل عاطفي ، ضدّ الموت . وقد يقال انها أقدم سجل لأقدم ثورة انسانية ضد عالم الظلام والصمت الذي لم يعد منه احد . ولا نرد كلمة « موت » في نصوص الاهرام الا منفية او منسوبة الى عدو ، ولا نفتأ نسمع التأكيد الذي لا يين بأن الاموات يحيون ، (١٨) .

عبادة السلف
وتحتي الموت

وهذا التأكيد يملأ الشعور الاجتماعي والفردي لدى الانسان البدائي . فحياة الانسان في نظره ، لا تحدّها حدود من مسافة أو زمن وانما تمتد على كل دنيا الطبيعة وعلى مدى تاريخ الانسان كله . وقد بسط هربرت سبنسر الفكرة التي تقول ان عبادة السلف يجب ان تعتبر المصدر الاول الاصلي للدين ، وعلى أية حال فانها من أكبر الدوافع الدينية وأوسعها ؛ ويبدو ان قلة من الاجناس هي التي لا تمارس ، بشكل او بآخر ، نوعاً من شعائر الموت . ومن الواجبات الدينية الكبرى ان يقوم الخلف بعد موت أحد ابويه بتزويده بالطعام والضروريات الاخرى لتعينه في الحال الجديدة التي وقع فيها (١٩) . وفي كثير من الاحوال تبدو عبادة السلف المظهر الوحيد الذي يشخص كل الحياة الدينية ويعيّنّها ، ففي الصين تعد عبادة الاسلاف الدين الوحيد الذي يدين به الشعب لان دين الدولة قد نظم هذه العبادة وأقرّها . وهذه العبادة — حسبما يقول دي جروت في وصف الدين الصيني :

عبادة السلف
عند الصينيين

« تدلّ على ان روابط العائلة مع الموتى لا تنفصم ، ويظلّ

١٨ — جيمس هنري برستد : « تطور الدين والفكر في مصر القديمة » (نيويورك ، ابناء تشارلس

سكرينر ١٩١٢) ص : ٩١

١٩ — هناك مادة اثنولوجية خصية توضح هذه النقطة موجودة في « عبادة الاسلاف »

بموسوعة الدين والاخلاق ١ : ٤٢٥ وما بعدها .

الموتى يمارسون سلطتهم وحايثهم ، منهم الارباب الحماة الطبيعيون
للشعب الصيني ، وآلهتهم البيتية ، الذين يقدمون الحماية ضد الاشباح ،
ويخلقون بذلك بركة ... وعبادة الاسلاف تمنح المرء حماية الفقيده
من عائلته فتمنحه بذلك ثروة وفلاحاً . لذلك فان ما يملكه في
الحقيقة هو ملك الموتى يظلون يعاشونه ، وتقول قوانين السلطة
الابوية ان الآباء يملكون كل شيء في ايدي ابنائهم .. ومن ثم
علينا ان نعتبر عبادة الآباء والاسلاف لب الحياة الدينية والاجتماعية
لدى الشعب الصيني » (٢٠) .

تعد الصين الموطن الكلاسيكي لعبادة الاسلاف حيث نستطيع ان ندرس
كل مظاهرها الاساسية ومضموناتها الخاصة . ومع ذلك فان الدوافع
الدينية العامة التي تقع في أساس مذهب عبادة السلف لا تعتمد على ظروف
ثقافية او اجتماعية خاصة ، وانما نجدتها في بيئات حضارية متفاوتة تماماً .
فاذا نظرنا الى اليهود الكلاسيكية التقينا هذه الدوافع نفسها في الدين الروماني -
وهي ايضاً تصبغ شخصية الحياة الرومانية كلها . وقد قدم فستل دي كولانج .
في كتابه المشهور « الدولة القديمة » وصفاً للدين الروماني حاول ان
يوضح فيه كيف ان الحياة الاجتماعية والسياسية لدى الرومان تحمل
طابع عبادة أرواح الموتى < Manes > ، وظلت عبادة الاسلاف

عبادة السلف
عند الرومان

٢٠ - ج . م . دي جروت : دين الصينيين (نيويورك ، مكيلان ١٩١٠) ص ٦٧ ،
٨٢ . وانظر مزيداً في دي جروت « النظام الديني في الصين » (ليدن ١٨٩٢ والسنوات التالية)
المجلد ٤ - ٦

• [فستل دي كولانج : مؤرخ فرنسي كان يرى ان تاريخ الدولة الحقيقي هو تاريخها الداخلي
لا الخارجي ، ولذلك وجه همه لدراسة النظم ، وحاول في كتابه « الدولة القديمة » ان يصور
موقف العقيدة وصورتها في حياة الرومان واليونان ، لاعتقاده ان الفكرة الدينية هي مانحة
الحياة للمجتمع القديم ، انظر فصلاً عنه المؤلف في كتابه « مشكلة المعرفة » - (الترجمة الانجليزية
١٩٥٠ ص : ٣٠٩ - ٣٢٣) (المترجم) .

تحليل
صلة الخوف
بنشأة العبادة

من المميزات الأساسية المسيطرة في الدين الروماني (٢١) . كذلك فان من ابرز الملامح في دين الهنود الاميركيين ، وفيه تشترك تقريباً كل القبائل العديدة من ألاسكا حتى بتاجونيا ، اعتقادهم بحياة بعد الموت مبنية على اعتقاد آخر عام من الاتصال بين أبناء البشرية وأرواح الموتى (٢٢) . وكل هذا يُرى - على نحو واضح صحيح - أننا هنا إزاء خاصية أساسية في الدين البدائي لا يمكن تحويرها أو إنقاصها . ومن المستحيل ان نفهم هذا العنصر بمغناه الصحيح ان كنا نبدأ دائماً باقتراض أن كل دين يستمد أصله من الخوف ، بل علينا ان نفتش عن مصدر آخر اعظم ان شئنا ان نفهم الرابطة المشتركة التي توحد بين ظاهرة الطوطمية وظاهرة عبادة الاسلاف . حقاً ان المقدس ، الجليل ، الالهي يحتوي دائماً عنصراً من الخوف الا انه في الوقت نفسه « غيب جَذَاب » *Mysterium fascinosum* و « غيب رَائِع » *Mysterium tremendum* (٢٣) .

ولكننا اذا اتبعنا خطتنا العامة - اي حكمنا على عقلية الانسان البدائي باعماله كما نحكم عليه بتمثيلاته وعقائده - وجدنا ان تلك الاعمال تتضمن دافعاً اقوى مختلفاً . فحياة البدائي من جميع الجوانب وفي كل اللحظات مهددة باخطار مجهولة ، ولذلك فان القولة القديمة « اول ما خلق الله على الارض الخوف » تحتوي رجحاناً من الصديق ، سيكولوجياً داخلياً . ولكن يبدو كأنما الانسان حتى في اول المراحل المدنية وادناها وجد قوة جديدة يقاوم بها الخوف من الموت ويتقيه عن نفسه . فوضع ازاء حقيقة الموت ثقته بوحدة حياة لا تنفصم ولا تنحطم . حتى الطوطمية تعبر عن هذا

وحدة الحياة
لمقاومة
الخوف من
الموت

٢١ - فستل دي كولانج : « النولة القديمة » ؛ ووسوا : « دين روما » (١٩٠٢) ص : ١٨٧

٢٢ - انظر « عبادة الاسلاف » في موسوعة الدين والاخلاق ١ : ٤٣٣

٢٣ - انظر رودلف اوتو : « المقدس » (جوتنجن ١٩١٢)

عنصر آخر
هذا الخوف
اساسي في
روح الدين

روبرتسون
- سمث
وتوضيح
هذه النقطة

الاعتقاد باشتراك الاحياء جميعاً في هيئة اجتماعية واحدة - هيئة لا بد من استبقائها وتقويتها بيزل جهود انسانية مستمرة ، وذلك باداء الشعائر السحرية والتعاليم الدينية في حزم وصرامة . ومن الحسنات الكبرى في كتاب و . روبرتسون - سمث في دين الساميين انه يؤكد هذه النقطة . ولذلك استطاع ان يربط ظواهر الطوطمية بظواهر اخرى من الحياة الدينية ، وهذه الثانية تبدو للنظرة الاولى من نوع مختلف عن الاولى . حتى أجفى الخرافات واقساها تبدو في ضوء مختلف اذا هي رثيت من هذه الزاوية . يقول روبرتسون - سمث : « بعض ملامح الوثنية القديمة في ابرز صورها واثبتها ابتداءً من طوطمية المتوحشين فصاعداً تجد تفسيرها الكافي في القرابة المادية التي تربط بين الافراد الانسانيين والافراد فوق الانسانيين المتمين الى دين واحد وهيئة اجتماعية واحدة ... فالرابطة الوثيقة التي تصل الاناسي بآلههم هي نفس الرابطة الدموية التي تعتبر في المجتمع القديم الرابطة الوحيدة بين الانسان والانسان ، وتعد المبدأ الوحيد المقدس في الواجب الاخلاقي ... ومنذ أقدم الأزمنة توجه الدين - متميزاً بذلك من السحر والعرافة - الى كائنات تربطها بعبادها القرابة والصدقة ، وقد تغضب على عبادها أحياناً ثم انها تنزع الى المسامحة إلا نحو أفراد يعادون عبادها أو أناس من نفس الجماعة كفروا بها فالدين بهذا المعنى ليس وليد الخوف ، والفرق بينه وبين خوف المتوحش من الأعداء غير المنظورين ، فرق مطلق اساسي في المراحل الاولى - والمراحل المتأخرة - من التطور » (٢٤) . وتتجه شعائر الدفن التي نجدها في كل أنحاء العالم الى هذه النقطة

٢٤ - و . روبرتسون - سمث : محاضرات في دين الساميين (ادنبره نشر ، آ . و . من . يلاك ١٨٨٩) المحاضرة : ٢ ص : ٥٣ وما بعدها ، وانظر المحاضرة : ١٠ ص : ٢٣٤ وما بعدها .

نفسها . فالخوف من الموت - بلاريب - من اوسع الغرائز الانسانية نطاقاً واشدها تأصلاً وعمقاً . ولا بدءاً أن اول رد فعل ابداه الحيُّ نحو جثة الميت هو ان يتركها ويهرب منها مفرّجاً . إلا ان هذا لا يوجد إلا في حالات استثنائية قليلة ، ثم خلفه نزعة مضادة بعد وقت قصير وهي الرغبة في احتجاز روح الميت او استعادتها . وتدل المادة الاثنولوجية على صراع وقع بين هذين الدافعين ، وتغلب الثاني على الاول - فيما يبدو . وفي الحق اننا نجد محاولات كثيرة لمنع روح الميت من العودة الى البيت ، من ذلك ان الرماد يرش خلف التابوت بعد ان يحمل الى القبر حتى تفضل هامةُ الميت طريقها ، كما ان اغلاق عيني الميت قد فسر بأنه محاولة لحجب بصر الجنة ومنعها من رؤية الطريق التي حلت فيها الى القبر^(٢٥) . هذا هو المسلك في بعض الاحوال لكن الميل المضاد هو الذي يسود اكثر الاحوال الاخرى . فالخالفون يجاهدون بكل قوتهم ليحتفظوا بروح الميت قريبة منهم ، وغالباً ما يدفنون الجثة في البيت الذي كان مسكناً لها حتى يظل مسكنها الابددي ، وتصبح اشباح المفقودين آلهة بيتية ، وتعتمد حياة العائلة وفلاحها على مساعدتها وحبها . وعند موت الاب يخاطبه ابناءؤه ملحفين الرجاء الا يذهب عنهم ، وتقول اغنية اقتبسها تابلور : « لقد احببتك دائماً واعززناك ، وعشنا معاً طويلاً تحت سقف واحد ، مالك تهجره اليوم ؟ عد الى بيتك فقد كنسناه ونظفناه لك ، ونحن هنا ، نحن الذين احبوك ابدأ . وقد اعددنا لك الارز والماء . عد الى البيت ، عد الى البيت ، عد الى البيت » (٢٦) .

٢٥ - اذا شئت مزيداً من مادة اثنولوجية فراجع سير ادورد بيرنت تابلور : « الحضارة البدائية » (نيويورك ، هنري هولت وشركاء ١٨٧٤) الفصل : ١٤
٢٦ - تابلور : المصدر نفسه (الطبعة الثالثة) ٢ : ٣٢ وما بعدها .

متى تنتهي
الاسطورة
ويبدأ الدين

وليس ثمة من فرق جذري في هذا المجال بين الفكر الاسطوري والديني - كلاهما وجد أصلاً في نفس الظواهر الاساسية من الحياة الانسانية، ولا نستطيع في تطور الحضارة الانسانية ان نعين نقطة تنتهي عندها الاسطورة ويبدأ الدين . وقد بقي الدين في كل انجاه تاريخه مرتبطاً بالعناصر الاسطورية متواشجاً بها على نحو لا ينفصم . ومن الناحية الثانية كانت الاسطورة ، في اجفى اشكالها واشدها مظاهر فطرية ، تحتوي بعضاً من دوافع تعد تبشير لمثل دينية عليا وجدت من بعد ، فالاسطورة منذ البدء دين بالقوة ، وليس الذي ينقل الانسان من المرحلة الاولى الى الثانية أزمة مفاجئة في الفكر أو ثورة في الشعور . ويحاول هنري برجسون في « مصدرا الاخلاق والدين » ان يقتنعا بأن هناك تضاداً لا توفيق فيه بين ما يسميه « دين ثابت » و « دين دينامي » ، فالاول نتيجة ضغط اجتماعي ، والثاني مبني على الحرية . وفي الدين الدينامي لا نخضع للضغط ولكن ننجذب ، وبهذا الانجذاب نخطم الروابط الاجتماعية السابقة التي فرضتها علينا الاخلاقية الثابتة العرفية التقليدية . ولسنا نبلغ أعلى اشكال الدين ، دين الانسانية ، على درجات متدرجة خلال مراحل الاسرة والشعب . يقول برجسون :

« يجب علينا في طفرة واحدة ان نتجاوز حدود > دين الانسانية < ، ودون ان نعين هدفنا نبلغه بتجاوزنا وسبقنا له .. وسواء أكنّا نتكلم لغة الدين او لغة الفلسفة ، وسواء أكانت المسألة مسألة حب او احترام ، فان اخلاقية اخرى - ان نوعاً آخر من الواجب هو الذي يتلو ، ويكون فوق الضغط الاجتماعي ومن ورائه .. وبيننا يكون الواجب الطبيعي ضغطاً او قوة قسرية تكون الاخلاقية التامة الكاملة ذات اثر كأثر الانجذاب ... ولسنا نتقل من الحالة الاولى الى الثانية بعملية امتداد في النفس .. عندما

رأي برجسون
في الدين

نطرد المظاهر لنصل الى الحقيقة .. عندئذ في الطرفين نجد ضغطاً ورجاء طامحاً ، والاول يغدو اكثر كمالاً كلما تجرد من الذاتية واصبح قريباً من تلك القوى الطبيعية التي نسميها عادة او غريزة ، والثاني يغدو اقوى كلما زادت استثارته فينا على يد اشخاص بأعيانهم وكلما ازداد انتصاره على الطبيعة » (٢٧) .

ومن الغريب ان برجسون ، الذي وُصِفَ مبدؤه كثيراً بأنه فلسفة بيولوجية ، فلسفة حياة وطبيعة ، قد انتقاد في مؤلفه الاخير الى حيز اخلاقي وديني بعيدٍ وراء هذا الميدان ، فهو يقول :

« يغلب الانسان الطبيعة حين يدخل الوحدة الاجتماعية في الاخوة الانسانية ، ولكنه ايضاً يخلبها ويخدعها بذلك ، لان تلك المجتمعات التي رسم تصميمها في المبنى الاساسي للنفس الانسانية ... تطلبت ان تكون الجماعة مرتبطة ترابطاً وثيقاً لكن على ان يكون بين جماعة واخرى عداوة فاضلة ... لقد كان الانسان ، حين سوتته يد الطبيعة اول ما سوتته ، كائناً يتمتع بالذكاء والروح الاجتماعية ، وكانت قد خططت له زرعته الاجتماعية لتجد مجالها في الهبات الصغيرة ، وقُدِّرَ له ذكاؤه ليسعفه في حياة فردية اخرى وفي حياة الجماعة . لكن الذكاء تطوّر فجأة لانه امتدّ عن طريق ما بذله من مجهودات ، فحرّر الناس من التقييدات التي حكمت عليهم بها نواحي القصور في طبيعتهم ؛ ولما كان ذلك كذلك لم يكن مستحيلاً ان يفتتح بعضهم ، لموهبة خاصة احرزوها ، ما كان مغلقاً امامهم وان يصنعوا لانفسهم على الاقل ، ما لم تستطع الطبيعة ان تصنعه لبني الانسان » (٢٨) .

تطور آراء
برجسون

٢٧ - برجسون : « مصدرا الاخلاق والدين » ، والترجمة الانجليزية بقلم ر . اشلي اودرا وكلودسلي بريرتون (نيويورك ، هولت وشركاه ١٩٥٣) ٢ : ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٢ .

٢٨ - برجسون ، المصدر نفسه : ٤٨ وما بعدها .

ان علم الاخلاق لدى برجسون نتيجة لمبادئه المتافيزيقية ، مترتب عليها . وكانت المهمة التي وضعها لنفسه هي ان يفسر حياة الانسان الاخلاقية بمصطلح من نظامه المتافيزيقي . وقد وصف العالم العضوي في فلسفته الطبيعية بأنه نتيجة الصراع بين قوتين متضادتين ، ففي ناحية نجد آلية المادة ، وفي ناحية ثانية نجد القوة الخالقة البناء - قوة « الدافع الحيوي » *élan vital* . ويتأرجح « رقاص » الحياة دائماً بين هذين القطبين ، ويقاوم القصورُ الذاتي في المادة الطاقة الموجودة في الدافع الحيوي . ويرى برجسون ان الحياة الاخلاقية لدى الانسان تعكس هذا الصراع المتافيزيقي بين مبدأ حيوي وآخر هامد ، وتعيد الحياة الاجتماعية وتعكس العملية العامة التي نجدها في الحياة العضوية . فهي منقسمة بين قوتين متضادتين احدهما تميل الى ان تجعل الحال الراهنة خالدة وتسندها كذلك ، والثانية تجهد وراء صور جديدة من الحياة الانسانية لم تكن موجودة من قبل . والزعة الاولى تميز الدين الثابت والثانية تميز الدين الدينامي ، ولا يمكن ان يرد الاثنان الى مقام واحد ، ذلك لان الانسانية لم تستطع ان تنقل الا بطفرة فجائية من نقطة الى اخرى ، من همود الى حيوية ، من ضغط اجتماعي الى حياة اخلاقية فردية معتمدة على ذاتها .

وانا لا انكر ان هناك فرقاً اساسياً بين هذين الشكلين الدينيين اللذين سماهما برجسون « ضغطاً » و « انجذاباً » . وفي كتابه تحليل واضح عميق الاثر لهذين الشكلين . ولكن النظام المتافيزيقي لا يقنع بوصف تحليلي للظواهر ، بل عليه ان يتبعها عوداً الى عللها الاولى . واذن اضطر برجسون الى ان يستمد هذين النموذجين الاخلاقيين الدينيين من قوتين متباعدتين : اولاهما تحكم الحياة الاجتماعية البدائية ، والثانية تحطم قيد المجتمع لتخلق مثالا جديداً من الحياة الفردية الحرة . واذا قبلنا هذه الفكرة لم

نجد عملية مستمرة تؤدي بنا من هذا الشكل الى الشكل الآخر . اما الذي يميز الانتقال من الاديان الثابتة الى الدينامية فانه فيها ارتآه برجسون ازمة مفاجئة في الفكر وثورة في الشعور .

مناشئة رأي
برجسون

ولكن دراسة مدققة لتاريخ الدين تكاد ان تكون غير ملية بتأييد هذه الفكرة . فلو نظرنا من الزاوية التاريخية لوجدنا انه من الصعب ان نسند هذه التفرقة الحاسمة بين هذين المصدرين للدين والاخلاق . حقاً ان برجسون لم يقصد الى ان يؤسس نظريته الاخلاقية والدينية على اسباب متافيزيقية فحسب ، وانما هو يشير دائماً الى الشواهد التجريبية التي تحتويها مؤلفات علماء الاجتماع والانثروبولوجيا . وقد كان من الآراء الشائعة بين دارسي الانثروبولوجيا اننا لا نستطيع ان نتحدث عن اي فعالية لدى الرجل البدائي تحت ظروف الحياة الاجتماعية البدائية ، اذ زعم هؤلاء ان الفرد في المجتمع البدائي لم يبلغ مرحلة الاختيار ، فالمشاعر والافكار والاعمال لديه لا تنبع من نفسه ، وانما تفرض عليه بقوة خارجية ، وتتميز حياته البدائية بآلية قاسية متناسقة صلبة لا تلين . وهو يخضع للتقاليد والعادات خضوع عبودية ودون فطنة بواسطة قصور ذاتي عقلي او بواسطة من غريزة التجمع المسيطرة عليه . وقد طالما اعتبر هذا الخضوع الآلي الذي يؤديه كل فرد في القبيلة نحو قوانينها هو القاعدة الاساسية التي يقوم عليها كل بحث في النظام البدائي والانصياع للقواعد . الا ان البحث الانثروبولوجي الحديث قد ادّعى عملاً جليلاً حين هزّ هذا الرأي في آلية الحياة الاجتماعية البدائية . ويرى مالىنوسكي ان هذا الرأي ، في الحقيقة ، قد وضع حياة الاقوام البدائية في صورة زائفة . وهو يشير الى ان المتوحش يقدم حقاً اعظم احترام للعادات والتقاليد القبلية ، ولكن قوة العادات والتقاليد ليست هي القوة الوحيدة في حياة المتوحشين ، بل اننا

خطأ الاثرو
بولوجيين
في تصور
البدائي

رأي
مالينوسكي

لنجد آثار قوة اخرى على أدنى مستوى من مستويات الحضارة الانسانية^(٢٩).
اما القول بأن هناك حياة هي نوع من الضغط والقسر ، ان هناك حياة
انسانية تكون فيها كل الفعاليات الفردية مقتولة أو منفية — مثل هذا
القول يمثل رأياً متافيزيقياً او اجتماعياً ولكنه لا يعبر عن حقيقة تاريخية .

ونجد في تاريخ الحضارة الاغريقية فترة بدأت تنحدر فيها الآلهة
للقديمة ، آلهة هوميروس وهسيود ، فقد هوجمت الافكار العامة عن هذه
الآلهة بشدة وظهر مثال ديني جديد كونه الأفراد ، وخلق الشعراء والمفكرون
الكبار — اسخيلوس ويوربيدس واكرنفون وهرقليطس وأناكساجوراس —
مقاييس عقلية واخلاقية جديدة . واذا قيست الآلهة الهوميرية بهذه
المقاييس فقدت سلطانها ، فقد وضحت خصائصها الانسانية وأضحت عرضة
للنقد العنيف ، ومع ذلك فان نسبة الخصائص الانسانية الى الآلهة الاغريقية
لم يكن أمراً خالياً من اي قيمة ايجابية او مغزى ، فان اكتساب الآلهة
للصفات الانسانية كان خطوة لا معدى عنها في تطور الفكر الديني .
وما زال نجد في كثير من ضروب العبادات الاغريقية المحلية آثاراً محددة
من عبادة الحيوان ومن العقائد الطوطمية^(٣٠) . يقول جلبرت مري :

« يقع تطوّر الدين الاغريقي — على نحو طبيعي — في ثلاث مراحل وكل
منها هام تاريخياً ، الاولى عصر الجهل قبل ان يجيء زفس ليزعج عقول
الناس ، وهي مرحلة وجد الانثروبولوجيون والمستكشفون ما يوازيها في كل
ناحية من نواحي العالم هي مرحلة من بعض وجوها ذات طابع
اغريقي متميز ، ولكنها من وجوه اخرى نموذج لمراحل فكرية مشابهة في

٢٩ — انظر مالىنوسكي : « الجريمة والعادة في المجتمع المتوحش » (لندن ونيويورك ١٩٢٦)

٣٠ — انظر تفصيلات اخرى في جين الڤن هاريسون : « مقدمة لدراسة الدين الاغريقي » (كمبرج

١٩٠٣) الفصل الاول .

انحدار شأن
الآلهة في
تاريخ يونان

تطور الدين
اليوناني

انحاء العالم حتى ان المرء لينزع الى ان يعتبرها البداية الطبيعية لكل دين ،
او المادة الخام التي صيغ منها الدين (٣١) .

ثم يجيء بعد ذلك ما يسميه جلبرت مري « الفتح الأولي » وبعد
هذا الفتح أصبح الانسان يرى الطبيعة ومكانه فيها بمعنى جديد مختلف .
فقد تضعف الشعور العام بوحدة الحياة امام دافع جديد قوي هو فردية
الانسان ، ولم تعد ثمة قرابة طبيعية ، قرابة عصبية تربط الانسان بالنبات
والحيوان . فأصبح الانسان يرى في آفته الفردية شخصيته نفسها في ضوء
جديد . وهذا التطور واضح في ما حدث للرب الاعلى زفس الاولي من
تطور ، فقد كان إلهاً للطبيعة ، الهاً يعبد على قمم الجبال ويسيطر على
السحب والمطر والرعد ، لكنه انتحل بالتدريج شكلاً جديداً ، فأصبح لدى
اسخيلوس تعبيراً عن أعلى مثال اخلاقي ، أي أصبح حارس العدالة وحاميها .
يقول مري :

تضعف
الشعور
بوحدة الحياة

« ان الدين الهوميرسي خطوة في تحقيق الذات لدى يونان ... عندئذ
لم يكن الناس يعدّون العالم خالياً من أي سيطرة خارجية ولا كانوا يرونه
خاضعاً لهجمات الحيّات والثيران والوحوش والحجارة التي يرمي بها الرعد
- وكلها تتجسد قوة الطبيعة - وانما كانوا يرون العالم تحت سيطرة جهاز
منظم من حكام انسانيين عاقلين ومن آباء حكماء اسخياء ، كالانسان في
عقله وشكله ، الا انهم اعلى بدرجة لا يمكن وصفها » (٣٢) .

هل شعور
بالانسان
الاتكال
هو سبب هذا
التطور في
الدين

وفي هذا التطور في الفكر الديني نلاحظ بقطة قوة جديدة وفعالية
جديدة لدى العقل الانساني . وكثيراً ما اخبرنا الفلاسفة وعلماء

٣١ - جلبرت مري : « خمس مراحل من الدين الاغريقي » . محاضرات جامعة كولومبيا ،
(نيويورك ، مطبعة جامعة كولومبيا ١٩٣٠) ص : ١٦
٣٢ - المصدر نفسه : ٨٢ .

الانثروبولوجيا ان المصدر الاول الحق للدين هو شعور الانسان بالاتسكال .
ويرى شلايرماخر • ان الدين نشأ من « شعور بالاتسكال المطلق على
الاله » . وقد اقتبس فريزر هذه الفكرة في كتابه « الفصن الذهبي » .
يقول : « هكذا يبدأ الدين اعترافاً خفيفاً جزئياً بقوى تفوق الانسان ، ثم
يميل مع نمو المعرفة الى ان يعمق الاعتراف باتسكال مطلق كامل على الاله .
ويتخلى الانسان عن موقفه الحر ويختار موقفاً من ادنى ضروب الخنوع
امام القوى الغيبية الخفية » (٣٣) . ولكن ان كان هذا الوصف للدين
يحتوي اي قدر من الصدق فليس فيه الا نصف الحقيقة . فانك لا
تستطيع ان تقول « ان موقفاً من ادنى ضروب الخنوع » هو الدافع
الاصيل الحاسم في اي ميدان من ميادين الحضارة الانسانية . فثل هذا
الموقف السالب لا تنشأ عنه طاقة منتجة ، وبهذا الاعتبار يجب ان نعد
السحر خطوة هامة في تطور الوعي الانساني ، والايمان بالسحر من اقدم
التعبيرات عن بقطة الثقة الذاتية لدى الانسان ومن اقواها اثرأ . عندئذ لم
يعد الانسان يحس انه تحت رحمة القوى الطبيعية وما فوق الطبيعة بل
اخذ يلعب دوره ، اي اصبح ممثلاً في مشهد الطبيعة . وكل عمل سحري
مبني على اعتقاده ان الآثار الطبيعية تعتمد الى حد كبير على الاعمال
الانسانية ، وان حياة الطبيعة تعتمد على التوزيع الصحيح للقوى الانسانية
والفوق الانسانية وعلى التعاون فيما بينها ؛ والشعائر الصارمة الدقيقة تنظم
هذا التعاون . ولكل ميدان خاص قواعده السحرية الخاصة . فثمة قواعد
خاصة بالزراعة والصيد - صيد البر والبحر . ولدى العشائر المختلفة في
المجتمعات الطوطمية طقوس سحرية مختلفة تختص كل عشيرة بفتة منها

• [فردريك ارنست دانيال شلايرماخر : فيلسوف الماني ومن رجال اللاهوت ١٧٦٨-١٨٣٤] (المترجم)

٣٣ - فريزر : الفصن الذهبي ١ : ٧٨ .

وتعدها سرّاً لها . وكلما زاد أداؤها صعوبة وخطراً أصبحت اشد ضرورة . ولا يستعمل السحر لخدمة الغايات العملية لدى الانسان ، اي لمساعدته في الحصول على حاجاته اليومية ، وانما هو موجه الى اهداف اسمى والى تحقيق امور اهم وخطر . وقد وصف مالمينوسكي ميثولوجيا اهسالي جزائر زوربراند بميلانيزيا ، فأخبرنا اننا لا نجد سحراً او ميثولوجيا في كل الاور التي لا تحتاج جهوداً خاصة فذة ولا تحتاج صبراً او شجاعة ، وانما يوجد السحر المتطور تطوراً عالياً – وتقترن به الميثولوجيا – ان كان العمل خطراً ونتائجه غير محققة . فلا حاجة الى السحر مثلاً في الاعمال الاقتصادية الصغيرة كالصنائع والحرف والصيد وجمع الجذور وجني الثمار (١٣٤) .

ولا يلجأ البدائي الى الشعائر السحرية الا تحت وطأة نزعة عاطفية قوية ؛ لكن تأدية هذه الشعائر هو الذي يمنحه شعوراً جديداً بقواه – قوة ارادته وقدرته . ويكسب الانسان من السحر القدرة على التركيز الشديد لكل جهوده ، وهي جهود تكون مشتتة لا انسجام فيها في ظروف عادية ، ذلك ان فنية السحر ذاتها هي التي تتطلب منه هذا التركيز الحاد . وكل فن سحري يحتاج اعلى قدر من الانتباه ، واذا لم يؤدّ على حسب النظام الصحيح والقواعد الثابتة بارت نتائجه . وبهذا الاعتبار يمكن ان يسمى السحر اول مدرسة يجب ان ينجح فيها الرجل البدائي ؛ وحتى لو عجز السحر عن ان يؤدي الى الغايات العملية المطلوبة ، اذا عجز عن ان يلبي رغبات الانسان ، فانه مع ذلك يعلمه كيف يثق في قواه ، كيف يعتبر نفسه كائناً ليس في حاجة للخضوع الى قوى الطبيعة ، وانما هو قادر ، بقدرة طاقة روحية ، على ان ينظم تلك القوى ويخضعها .

وموضوع العلاقة بين السحر والدين من اكثر الموضوعات غموضاً

مدى العلاقة
بين السحر
والدين

وأشدها إثارة للجدل . وقد حاول علماء الانثروبولوجيا الفلاسفيون أن يحلوا هذه المسألة ، المرة تلو المرة . إلا أن نظرياتهم تباينت تبايناً واسعاً وكثيراً ما جاءت متعارضة متعارضاً فاضحاً . ومن الطبيعي أن يرغب الناس في حدٍ واضح يمكنهم من أن يتبعوا الخط الفاصل الحاسم بين السحر والدين ، فنحن مقتنعون ، من الوجهة النظرية أنهما لا يعينان شيئاً واحداً ، وننفر من أن ننسبهما إلى مصدر مشترك . إذ نرى الدين بمعبراً رمزياً عن أعلى مثلنا الأخلاقية ، وزر السحر مجموعة جافية من الخرافات . وقد يبدو لنا أن المعتقد الديني يصبح تصديقاً بالخرافات إذا أقررنا بوجود علاقة بينه وبين السحر . لكننا نقول من الناحية الأخرى إن طابع معلوماتنا الانثروبولوجية والانتوجرافية > وصف السلائل البشرية < يجعل الفصل بين هذين الميدانين أمراً غاية في الصعوبة . وقد أصبحت المحاولات المبذولة في هذا السبيل محطّ ريبة وتساؤل على مرّ الزمن . ويبدو ان الانثروبولوجيا الحديثة قد جعلت الاستمرار الثام بين السحر والدين إحدى قضاياها المسئلة (٣٥) . وقد كان فريزر من اول من حاولوا ان يبرهنوا بأن السحر والدين لا يمكن ان بدرجا تحت عنوان مشترك ، حتى من وجهة النظر الانثروبولوجية . وهو يرى انهما مختلفان تماماً في الاصل السيكولوجي ويهدفان الى غايات متعارضة ، وان اخفاق السحر وترديّه فتح الطريق امام الدين ، وكان لا بد للسحر من ان يتهدم حتى يتمكن الدين من ان يرتفع . « ولقد رأى الانسان انه عدوّ عللاً ما لم يكن عللاً وان جهوده ليعمل بواسطة تلك العلل الموهومة ، ضاعت سدى ؛ لقد بدّد كدّه المرهق ، وبغثر اصالته الغريبة دون

٣٥ - انظر مثلاً ر . ر . ماريت : « الايمان والرجاء والاحسان في الدين البدائي » ، محاضرات

جفورد (مكيلان ١٩٣٢) المحاضرة ٢ : ٢١ وما بعدها .

جدوى ، وكان لتعسه يمر حبالاً لم يعلق بها صيد . وفي بآسه من
السحر وجد الدين واستكشف معناه الصحيح . « وإذا كان الكون العظيم
قد استمر مريره دون عون منه > أي الانسان < ومن رفاقه واخوانه فما
ذلك الا لان هناك كائنات اخرى مثله ، وان كانت اشد قوة وبأساً ،
غير منظورة ، توجه العالم وجهته ، وتحدث الاحداث المختلفة التي كان
حتى عهدئذ يعتقد انها تعتمد على سحره » (٣٦) .

الرد صل
رأي فريزر

غير ان هذه التفرقة تبدو مصطنعة من وجهة النظر المنظمة ، ومن
حيث الحقائق الانثولوجية ، فليست لدينا شواهد تجريبية ابدأ بانه كان
هناك اولاً عصر سحرٍ تلاه وخلفه عصر دين (٣٧) ، بل ان التحليل
السيكولوجي الذي انبث عليه هذه التفرقة بين العصرين عرضة للشك ،
ذلك ان فريزر يعد السحر وليد فعالية نظرية او علمية ، اي نتيجة حب
الاستطلاع لدى الانسان ، وهذا الحب أثار الانسان لبحث في علل
الاشياء ، فلما عجز عن ان يستكشف العلل الصحيحة اضطر ان يكتفي
بالعلل الوهمية (٣٨) .

اما الدين من الناحية الاخرى فليست له غايات نظرية ، وإنما هو
تعبير عن 'مثل' عليا اخلاقية . غير ان كلا هذين الرأيين لا يمكن الاخذ
به إذا نظرنا الى حقائق الدين البدائي . فنذ البداية كان على الدين ان
يؤدي وظيفة نظرية وعلمية لانه يحتوي نظرة كونية واخرى انثروبولوجية ،
فهو يجيب على السؤال عن اصل العالم وعن اصل المجتمع الانساني .
ومن هذا الاصل يستمد واجبات الانسان وفروضه ، وهذان المظهران

٣٦ - فريزر : المصدر نفسه ، ١ : ٧٦ وما بعدها .

٣٧ - انظر نقد نظرية فريزر لدى ماريت : « عبثة الدين » : ٢٩ وما بعدها .

٣٨ - انظر في ما تقدم حديث فريزر عن السحر .

غير متميزين بقوة وإنما هما متضامان مختلطان معاً في ذلك الشعور الاساسي الذي حاولنا ان نسميه « الشعور بوحدة الحياة » . وها هنا نجد مصدراً مشتركاً للسحر والدين ، فالسحر ليس ضرباً من العلم — من العلم الزائف ، ولا هو مستمد من ذلك المبدأ الذي يسمى في السيكلوجيا الحديثة « القدرة الكلية للفكر » (٣٩) (Allmacht des Gedankens) . بل ان محض الرغبة في المعرفة ومحض الرغبة في تملك الطبيعة والسيطرة عليها لا يكفيان للتعليل لحقائق السحر . ويميز فريزر تمييزاً حاداً بين شكلين من السحر يسمى احدهما « السحر الحكائي » ويسمى الثاني « السحر التعاطفي » (٤٠) .

غير ان السحر كله « تعاطفي » في اصله ومغزاه ، لان الانسان لا يفكر في الاتصال بالطبيعة اتصالاً سحرياً ان لم يكن يعتقد ان هناك رابطة مشتركة تصل بين جميع الاشياء ، وان الفصل بين ذاته وبين الطبيعة ، والفصل بين مختلف انواع المواد في الطبيعة انما هو امر مصطنع لاحقيقي . وهذا الاعتقاد هو الذي سمي باللغة الفلسفية الرواقية « تعاطف الكل » وهو اصطلاح يفسر بدقة المعتقد الموجود في اساس كل الشعائر السحرية . والحق انه قد يبدو من الخطر والتعسف ان نطلق فكرة من الفلسفة الاغريقية على اكثر معتقدات الانسانية فطرية . ولكن الرواقيين الذين صاغوا هذه الفكرة « تعاطف الكل » لم يجاوزوا آراء الدين العام كثيراً . فهم قد حاولوا على اساس من مبدأ « الخواطر المشتركة » (notitiae communes) التي توجد في العالم كله في كل الازمنة — ان يوفقوا بين الفكر الفلسفي والاسطوري . وأقروا ان الفكر الفلسفي نفسه لا يحتوي الا بعض عناصر من الحقيقة ، ولم يترددوا في ان يستعملوا فكرة « تعاطف الكل » ليفسروا

السحر كله
تعاطفي

الرواقيون
وفكرة
« تعاطف
الكل »

٣٩ — انظر فرويد : الطولم والحرم (فيينا : ١٩٢٠) .

٤٠ — فريزر : المصدر نفسه ١ : ٩ .

المعتقدات العامة ويسوغوا لها وجودها . والحق ان المبدأ الرواقي الذي يقول بوجود روح سارية - اي نفس سارٍ خلال العالم يمنع كل الاشياء القوة التي تربط فيما بينها - ان هذا المبدأ يشبه الافكار البدائية مثل فكرة « المانا » عند البولنيزيين وفكرة « الاورندا » عند الايروكواز و«الواكان » لدى السيوكس و « المانيتو » لدى الالجونكيين^(٤١) .

نعم ان وضع التفسير الفلسفي على مستوى واحد مع التفسير الاسطوري السحري امرٌ سخيف مضاد للذوق ، ومع ذلك فانا نستطيع ان نجد للثنين جذراً واحداً ، اي طبقة عميقة من الشعور الديني . واذا شئنا ان ننفذ في هذه الطبقة فيجب الان نحاول انشاء نظرية عن السحر مبنية على مبادئ السيكولوجيا التجريبية ، وبخاصة مبدأ تداعي الخواطر والافكار^(٤٢) ، بل علينا ان نتقدم الى المشكلة من زاوية الشعائر السحرية ، وقد قدم مالمينووسكي وصفاً بالغ التأثير للأعياد القبلية عند مواطني جزائر التروبرياند وقال انها مصحوبة دائماً بالحكايات الاسطورية والطقوس السحرية . واثناء الفصل المقدس ، فصل الاحتفال بالحصاد ، يذكر الاشياخ جيل الشبان ان ارواح اسلافهم على اهبة العودة من العالم الادنى . ونجى الارواح

• - [ليس من السهل اعطاء تحديد حاسم لفكرة المانا او نظائرها عند الاقوام البدائية الاخرى ، وسيتحدث المؤلف بعد قليل عن هذه الفكرة . ويكفي ان اقول في هذا المقام ان الافكار عن المانا تطورت لدى الباحثين على مر الزمن ، فقد ربطت اولاً بالناحية السلبية للمحرمات ، ثم توسعت الفكرة فعدّها كوردنجتون بانها قوة روحية فوق الطبيعية ولكن هذا التحديد ايضاً غير جامع ، لتدخل الأمور الروحية والمادية في التصور البدائي ولذلك يمكن ان تنسب المانا الى اي شيء مادي وان لم يكن مركزاً لروح ، عل شرط ان يتميز ذلك الشيء بيزة ما ترفعه عن مستوى العادي] (المترجم) .

٤١ - اذا شئت وصفاً تفصيلياً لهذه الافكار وأهميتها فراجع : فلسفة الأشكال الرمزية ٢ : ٩٨ وما بعدها . [الترجمة الانجليزية ٢ : ٧٥ وما بعدها] .

٤٢ - هذه النظرية قدسها فريزر في « محاضرات في التاريخ المبكر للملكية » ص : ٥٢ وما يتلوها .

فتمكث بضعة اسابيع في القرى المقامة بين الاشجار وتجلس على منصّات عالية نصبت من اجلها وترقب الرقصات السحرية (٤٣) . ومثل هذه الشعيرة السحرية تعطينا انطباعاً محسوساً عن « السحر التعاطفي » بمعناه الصحيح وعن وظيفته الاجتماعية والدينية . فالناس الذين يحبون هذا الاحتفال اي الذين يؤدون الرقصات السحرية يندمجون فيها بينهم ويندمجون بكل الاشياء في الطبيعة . انهم لا يكونون معزولين وانما تحس بسرورهم الطبيعة كلها ويشاركونهم فيه اسلافهم — لقد اعطى الزمن والمسافة ، واضحى الماضي حاضراً وعاد العصر الذهبي لبني الانسان (٤٤) .

تعاطف الكل
اساس في
الدين

ولم يكن للدين من القوة ما يقدر به ، على ان يخفف هذه الغرائز الانسانية العميقة او يستأصلها ، ولم يكن ينزع الى ذلك . بل كان عليه ان يؤدي واجباً مختلفاً — ان يستغل هذه الغرائز وان يقودها في مسارب جديدة . والاعتقاد « بتعاطف الكل » من اثبت الاسس في الدين نفسه ، إلا ان التعاطف الديني من نوع مختلف عن التعاطف السحري والاسطوري لانه يفسح المجال لشعور جديد ، هو الشعور بالفردية . لكن يبدو انه يواجهنا هنا واحداً من المتناقضات الاساسية في الفكر الديني . اذ تبدو الفردية نفيّاً او على الاقل تحديداً لعمومية الشعور الذي يتطلبه الدين :

كيف تنطق
الفردية مع
المشاركة
المعاطفة

٤٣ — مالىنوسكي : المصدر نفسه : ١٤

٤٤ — يقول ماريت ان قبائل الارونتا في الصحراوات الوسطى باستراليا « يقيمون بوساطة شعائهم الدرامية نوعاً من alcheringa انتقلت من الزمن ويفيئون اليها من صباب الوضع الراهن لينتشروا انفسهم باتحادهم مع الكائنات العلوية وهي اجدادهم وانفسهم المثالية ، وهؤلاء الناس الذين يستحضرون في Alcheringa ليس لهم صفات اخرى تفردهم عن غيرهم . وتحاول الجوقة ان تشبع روحها الجماعية باهة الاسلاف ، اي بوعي النوع . اما « المانا » التي يشتركون فيها فانها قبلية » . انظر الايمان والرجاء والاحسان في الدين البدائي : ٣٦ [اما لفظة Alcheringa فانها تعني حرفياً « زمن الاحلام » وتعني Alcheri وحدها « الحلم » — انظر تفصيلات اخرى في موسوعة الدين والاخلاق]

« كل حدٍ فهو نفي » - : Omnis determinatio est negatio وهي تعني وجوداً متناهياً - وما دمنا لا نحطم حدود هذا الوجود فانا لا نستطيع أن نبلغ اللامتناهي . وهذه هي الصعوبة ، ذلك هو اللغز الذي كان على الفكر الديني ان يحله في تقدمه . ونستطيع أن نتتبع هذا التطور في اتجاه ثلاثي فنصفه بمحتوياته السيكولوجية والاجتماعية والأخلاقية ، ويتوجه تطور الوعي الفردي والاجتماعي والاخلاقي الى هذه النقطة نفسها ، اذ يدل على تمايز تطوري يؤدي في النهاية الى تكامل جديد . والافكار في الدين البدائي اغمض بكثير من افكارنا ومثلنا وابعدها عنها عن التحديد ، ففكرة « المانا » عند البولنيزيين كالافكار المشابهة لها في انحاء اخرى من العالم ، تظهر هذا الطابع الغامض المتغير فليس لها فردية : لا ذاتية ولا موضوعية . وانما هي تعد مادة مشتركة غامضة تتخلل الاشياء جميعاً ، وقد عرفها كودرنجتون - اول من وصف فكرة « المانا » - بانها « قوة او تأثير ، غير مادي ، تلحق بما فوق الطبيعة من وجه ، ولكنها تظهر نفسها في القوة المادية او في اي قوة يحوزها الانسان » (٤٥) . وقد تكون خاصية نفس او روح ، ولكنها ليست في ذاتها روحاً ، فهي ليست فكرة تمثل حلول الارواح في الاشياء < انيمية > وانما هي فكرة سابقة في الزمن لهذا المعتقد (٤٦) . وهي موجودة في كل الاشياء دون نظر الى طبيعتها الخاصة ومميزات الولادة فيها ، فالحجر الذي يجذب الانتباه بحجمه او تميز شكله يمتلئ بالمانا ويستطيع ان يبدي قوى سحرية (٤٧) . وليست هي وفقاً على موضوع خاص ، فالمانا لدى احد الناس قد تسرق

شاهد من
فكرة
« المانا »

٤٥ - ر . هـ . كودرنجتون : « الميلانيزيون » (اكسفورد ، مطبعة كلارندن ١٨٩١)

ص : ١١٨

٤٦ - انظر في هذه المشكلة ماريت « فكرة المانا » في « عبثة الدين » ص : ٩٩ وما بعدها .

٤٧ - كودرنجتون : المصدر نفسه : ١١٩

منه وتتحول الى مالك جديد . ولا نستطيع ان نميز فيها ملامح فردية او هوية شخصية . وقد كان من اولى واجبات الاديان الراقية واهمها ان تستكشف وتظهر مثل هذه العناصر الشخصية في المقدس والجليل والالهي . وفي سبيل ان يبلغ الفكر الديني هذه الغاية كان عليه ان يسير في طريق طويلة . ولم يستطع الانسان ان يمنح آلهته شكلاً فردياً محدداً قبل ان يكون لديه مبدءاً جديداً من التفرقة في وجوده الذاتي وفي حياته الاجتماعية . ولم يجد الانسان هذا المبدأ في الفكر الرمزي وانما وجده في عمله . والحقيقة ان قسمة العمل هي التي أوصلت الفكر الديني الى حقبة جديدة . وقبل ان تظهر الآلهة الشخصية بوقت طويل نزل نجد تلك الآلهة التي سميت آلهة وظيفية ، وهذه ليست الآلهة الشخصية في الدين الاغريقي او الالهة الاوليمية التي ذكرها هوميروس . ومن الناحية الاخرى لم تعد هذه الآلهة ذات غموض كالذي كان في الافكار الاسطورية البدائية انما هي كائنات محسوسة ، الا انها محسوسة بأعمالها لا في مظاهرها الشخصية او وجودها . ولذلك فليست لها اسماء اعلام مثل زفس وهيرا وابولون ، وانما لها اسماء نعتية تشخص وظيفتها الخاصة او فعاليتها . وفي كثير من الاحوال نجدها مرتبطة بمكان خاص ، فهي آلهة محلية لا عامة ، واذا شئنا ان نفهم الطابع الحقيقي لهذه الآلهة الوظيفية والدور الذي تلعبه في تطور الفكر الديني فيجب ان ننظر الى الدين الروماني ، ففيه وصلت التفرقة أعلى درجاتها ، فكل عمل في حياة المزارع الروماني ، مهما يتخصص ، معناه الديني المعين . كانت هناك فئة من الأرباب Di Indigites تهيمن على الحصاد وفئة اخرى تسيطر على أعمال السلف والتسميد ، وكان فيها ساطور واوكاطور واسترقلينوس (٤٨) . ولم

قسمة العمل
نقلت الدين
الى طور
جديد

إيجاد آلهة
وظيفية

أمثلة من
الدين الروماني

٤٨ - أنظر التفصيلات في « فلسفة الاشكال الرمزية » ٢ : ٢٤٦ وما بعدها . [والترجمة الانجليزية ٢ : ٢٠٢ وما بعدها] وهذه الاسماء التي ذكرها دلالات على مراحل الحث والحصاد والنقل والخزن فأوكاطور مثلاً يدل على شق الارض أثلاماً بالحرث (المترجم) .

يكن يتم أي عمل في المجال الزراعي كله الا بارشاد من الآلهة الوظيفية وحمايتها ، ولكل فئة منها شعائرها وطقوسها .

في هذا النظام الديني نرى كل الملامح النموذجية للعقل الروماني ، فهو عقل رزين عملي حيوي ذو قوة فائقة على التركيز . والحياة لدى الروماني حياة عمل ونشاط ؛ وكان لديه الموهبة الخاصة لتنظيم هذه الحياة النشطة ولترتيب جهودها وتوحيدها . ويوجد التعبير الديني عن هذا الميل في الآلهة الرومانية الوظيفية ، اذ عليها ان تنجز واجبات عملية محددة ، وهي ليست نتاج خيال او الهام ديني وانما هي تعد مسيطرة على فعاليات عملية ، فهي اذا صح القول آلهة ادارية اقتصمت فيما بينها مختلف ولايات الحياة الانسانية ، وليس لها ذوات محددة ؛ وانما تميز بوظيفتها ، وعلى اساس هذه الوظيفة تعتمد رفعتها الدينية .

آلهة الموقد
عند الرومان

وتختلف عن هذه في نوعها تلك الآلهة التي كانت تعبد في كل بيت روماني ، أعني آلهة النار في الموقد ، فهي لم تنب في منطقة خاصة محددة من الحياة العملية وانما تعكس أعمق المشاعر في الحياة العائلية الرومانية . وهي المركز المقدس للبيت الروماني ، وقد وجدت هذه الآلهة من الشعور بالتقوى نحو الاسلاف ، ولكنها ايضاً ليست ذات سياء فردية ، هي الآلهة الطيبة Di Manes التي يتصورونها بمعنى جماعي لا فردي . ولذلك لا نجد مفرداً لكلمة manes ، ولم تتخذ هذه الآلهة شكلاً شخصياً الا في دور متأخر أي عندما أصبح الأثر الاغريقي نافذاً مسيطراً . اما هذه الآلهة في حالها القديمة الأولى فانها مجموعة غير محدودة من الارواح تربطها معاً صلتها بالعائلة - وهي صلة مشتركة - وقد وصفت بانها قوى - تتصور في جماعات ولا تتصور افراداً . وقيل ايضاً : « ان القرون التالية ، وكانت مشبعة بالفلسفة الاغريقية مفعمة

بروح فردية لم تكن متوفرة ابدأ في الايام القديمة من تاريخ روما - ان تلك القرون منحت هذه القوى الشبحية المسكينة روحاً انسانية ، والقت عليها عقيدتها في الخلود . اما في روما ، فان فكرة العائلة - وهي فكرة اساسية في المبنى الاجتماعي للحياة الرومانية - هي التي انتصرت على القبر وانتحلت خلوداً عجز الفرد عن احرازه (٤٩).

الدين
الاغريقي

ويبدو ان الذي سيطر على الدين الاغريقي منذ ابعد العهود ، زعة من الفكر والشعور تختلف عن هذه التي سادت الدين الروماني . ها هنا نجد آثاراً محددة من عبادة الاسلاف (٥٠) . وقد احتفظ الادب الاغريقي الكلاسيكي بآثار عديدة منها ، فيصف اسخيلوس وصوفوكليس التقدّمات من سكب اللبن واكاليل الازهار وخصلات الشعر التي كان يقدمها ابناء اجامنون عند قبره . ولكن هذه الملامح القديمة بدأت تختفي بتأثير من القصائد الهوميرية ، وغطى عليها اتجاه جديد للفكر الاسطوري والديني وعبد الفن الاغريقي الطريق امام فكرة جديدة عن الآلهة ، قال هيرودوت : « ان هوميروس وهسيود منحنا الآلهة اليونانية اسماءها وصوراً اشكالها . وجاء فن النحت اليوناني فاتم العمل الذي بدأه الشعر ، فنحن قلما نتصور زفس الاولبي الا وهو متمثل في الشكل الذي صنعه فيدياس . وهكذا فان ما حرمه العقل الروماني النشط أداه العقل الاغريقي الفني التأملي . ولم تكن النزعة الاخلاقية هي التي خلقت الآلهة الهوميرية ، وقد كان الفلاسفة اليونان على حق حين تدمروا من شخصيات أولئك الآلهة ، فقال اكرنوفانس :

آلهة عهد
هوميرس

تشخيص
الآلهة

٤٩ - انظر ج. ب. كارتر في موسوعة الدين والأخلاق ١ : ٤٢٦

٥٠ - في هذه المسألة انظر اروين رود : « مذهب الأرواح والاعتقاد بالخلود لدى الاغريق »

(نيويورك - هاركورت ، پريس ١٩٢٥) .

[اكرنوفانس : فيلسوف اغريقي كتب قصائد ومقالات عدة وأسس مدرسة ايلياوية في صقلية .

كان يظن ان النجوم تنطفئ كل ليلة ثم يعود اليها ضوءها ثانية . وان القمر اكبر من الارض بثمانية عشرة مرة وانه مأهول بالسكان] (المترجم) .

« لقد نسب هوميروس وهسيود الى الآلهة كل الاعمال التي تعد شيئاً وعاراً بين الناس : السرقة والزنا والغدر » . ولكن هذه النقيصة نفسها في الآلهة الاغريقية الشخصية كانت قادرة على ان تقرب الفجوة بين الطبيعتين الانسانية والالهية . ونحن لا نجد في القصائد الهوميروسية حاجزاً يفصل بين هذين العالمين ، فالانسان يصور نفسه في آلهته ، بكل ما في ذاته من تنوع وتعدد اشكال ، بصور منحاه العقلي وطبعه بل وجبلته الغريزية . ولكنه لا يعكس على الآلهة الجانب العملي من طبيعته كما يفعل الروماني ، فالالهة الهوميروسية لا تمثل مثلاً اخلاقية ولكنها تعبر عن مثل فكرية متميزة . وليست الآلهة الهوميروسية آلهة وظيفية – لا اسماء لها – تهيم على احدى الفعاليات الانسانية ، وانما هي تهتم بالفرد وتولييه حبها . ولكل اله محبوبون اثيرون يرتاح اليهم ويودهم ويساعدتهم – ولكل الالهة كذلك – ولا يتم هذا كله على اساس من الارتياح الشخصي ، وانما يتم بفضل نوع من العلاقة العقلية تربط بين الاله والانسان . وكلا الفريقين من فائين وخالدين يتجسدان هبات وزعاعات عقلية خاصة لا مثلاً اخلاقية . وكثيراً ما نجد في القصائد الهوميروسية تعبيرات واضحة مميزة لهذا الشعور الديني الجديد . فحين يرجع اوديسيوس < عولس > الى اثاكا دون ان يعرف انه وصل بلده تظهر الربة اثيني له في شكل راع شاب وتسأله عن اسمه فينسج لها اوديسيوس ، الذي يرغب في ان لا يفشي حقيقة شخصه ، حكاية مليئة بالخدع والاكاذيب ، فتبسم الربة لدى سماع تلك القصة لانها تدرك ما حبته به من قدرة على الاختلاق وتقول :

« تحب حوالمى من جاز مداك في ضروب الخلداع ،

صورة من
الايادة

« [اثاكا : جزيرة في البحر الايوني ، كانت جزءاً من ملكة اوديسيوس (عولس) تعرف اليوم باسم Isola del compare] . (المترجم) .

اجل ، ولو كان من لقيك الها ، ايها الرجل الجريء ، الداهية
 في الرأي ، القرم الى المكر ، حتى في وطنك لا تكف عن
 الخدع والحكايات الملققة التي استقر حبها في سويدائك .
 ودع الحديث عن هذا فاننا كلينا حاذقان في الدهاء ، فأنت اسد
 الرجال رأياً وابلغهم لساناً ، وانا بين الارباب جميعاً عرفت بالحكمة
 والدهاء ، ... واذ كان الرأي في صدرك كذلك فاني لا استطيع
 ان ادعك في حزنك لانك رقيق الخطاب ماضي الفطنة حاسد
 الذكاء (٥١) .

لكن الالهي الذي نلقاه في الاديان الكبرى القائمة على التوحيد ذو
 مظهر مختلف عن هذا كله . فهذه الاديان وليدة القوى الاخلاقية
 وتتركز على نقطة واحدة هي مشكلة الخير والشر . ولا يوجد في دين
 زرادشت الا ذات عليا واحدة هي اهورا مزدا او « الرب الحكيم » ،
 ولا شيء يوجد دونه او وراءه او بعيدا عنه . هو الاول والاسمى
 والاكمل ، وهو الحاكم المطلق ، وفي هذا لا توجد فردية ولا تكثير للالهة .
 التي تمثل قوى طبيعية مختلفة او صفات عقلية مختلفة . وهكذا هوجت
 الميتولوجيا البدائية واندحرت امام قوة جديدة ، قوة اخلاقية خالصة .
 وفي الافكار الاولى عن المقدس ، عما هو فوق الطبيعي ، يكون مثل
 هذه القوة مجهولاً تماماً . فقد تستعمل « المانا » و « الواكان » و « الأورندا »
 للدلالة على الأغراض الخيرة او الشريرة — كلاهما لديها جائر ، وهي
 تعمل كما يقول كودرنجتون « في كل السبل والنواحي للخير او للشر » (٥٢) .

٥١ - الاوديسة ، الكتاب ١٣ البيت ٢٩١ وما بعده ترجمة أ. ت. مري (مكتبة لويب
 الكلاسيكية ، مطبعة جامعة هارفارد ، كمبردج ، ماسشوست ١٩٢٠) .
 ٥٢ - كودرنجتون : المصدر نفسه : ١١٨

انهزام
الموقف
الحيايى
في دين
زرادشت

الاديان
الاخلاقية
والطبيعة

وقد توصف المانا بأنها البعد الاول ، او البعد الوجودي ، من أبعاد ما هو فوق الطبيعي ، ولكن لا علاقة لها بالبعد الاخلاقي فيه . ففي المانا تكون مجالي الخير لدى ما فوق الطبيعي على نفس المستوى مع مجالات السوء والهدم (٥٣) . اما دين زرادشت فنذ بداية نشأته وهو يعارض أساساً هذا الموقف الحيايى في الاسطورة ، او الموقف الحيايى الجمالي الذي يتميز به شرك الاغريق . فذلك الدين لم يكن وليد خيال أسطوري او جمالي وانما كان تعبيراً عن ارادة اخلاقية شخصية عظيمة . حتى الطبيعة تتخذ فيه شكلاً جديداً لانها كلها تُنظرُ في مرآة الحياة الاخلاقية ولا يستطيع دين ان يفكر في قطع الرباط بين الانسان والطبيعة أو في حله . ولكن هذا الرباط يعقد ويربط على نحو جديد في الأديان الاخلاقية العظمى ، ولا تتحطم الرابطة التعاطفية التي وجدناها في السحر والميثولوجيا الأسطورية ولا تنكسر ، الا ان الاقتراب من الطبيعة يتم من الجانب العقلي لا من الجانب العاطفي ، في تلك الاديان . واذا كانت الطبيعة تحتوي عنصراً لهماً ظهر هذا العنصر في بساطة نظامها لا في غنى حياتها ، ولا تظل الطبيعة كما كانت في اديان الشرك الأم العظيمة الكريمة او الحضن الالهى الذي انبثقت منه الحياة كلها ، وانما تعتبر منطقة الشريعة والشرعية ، وبهذا المظهر وحده تثبت اصلها الالهى . وتوصف الطبيعة في دين زرادشت بفكرة « الآشا » ، والآشا هي حكمة الطبيعة التي تعكس حكمة خالقها الرب الحكيم اهورا مزدا . وهذا النظام العام الخالد الذي لا يعتوره الباطل يحكم العالم ويتحكم في الاحداث كلها ، كجرى الشمس والقمر والكواكب ونحو الحيوانات والنباتات واتجاه الريح والسحب ، وكل هذا مؤيد محفوظ بقوة « الخير الاعظم » لا بقوى مادية ، وهكذا اصبح العالم دراما اخلاقية

٥٣ - ماريت : فكرة المانا ، المصدر نفسه : ١١٢ وما بعدها .

كبرى يلعب فيها كل من الانسان والطبيعة دوره .

وحتى في مرحلة جد بدائية من الفكر الاسطوري نجد هذا الاعتقاد بان الانسان لا بدءاً من ان يتعاون مع الطبيعة وقواها الالهية او الشيطانية لكي يبلغ الغاية المرجوة ، فالطبيعة لا تمنحه عطاياها الا بعون فعّال من لدنه . هذه الفكرة نلتقيها في زرادشت ولكنها فيه تشير الى وجهة جديدة ، فقد حلّ المعنى الاخلاقي محلّ المعنى السحري وخلفه في موضعه . وبهذا تصبح حياة الانسان كلها كفاحاً لا ينقطع من اجل الاستقامة ، ويلعب مثلث الافكار الخيرة - الكلمات الخيرة - الأعمال الخيرة ، دوراً هاماً في هذا الكفاح . ولا يعود أحدٌ يبحث عن الالهي او يقترب منه بقوى سحرية وانما بقوة الاستقامة والصلاح . ومن الآن فصاعداً لن تعد اي خطوة بخطوها الانسان في حياته العملية - شيئاً تافهاً لا غاية له ، بالمعنى الديني والاخلاقي ، ولا احد يستطيع ان يقف محابداً في الصراع بين القوة الالهية والقوة الشيطانية ، بين أهورا مزدا وانجرامينو . وقد جاء في احد النصوص : « ان الروحين الاولين اللذين كشفا عن نفسيهما في الرؤيا فاذا هما توأمان ، هما الخير والشر ، وبين هذين الاثنين يحسن الحكماء الاختيار اما الجهلاء فلا » . ولكل عمل مهما يكن عادياً او ضيعاً قيمته الاخلاقية المحددة وهو مخضوب بلون اخلاقي خاص ، واما ان يكون نظاماً او فوضى ، صيانة أو تخريباً . والمرء الذي يفلح الارض او يروبها ويزرع شجرة او يقتل حيواناً خطراً يؤدي واجباً دينياً لأنه يبيىء ويضمن النصر النهائي لقوة الخير ، قوة الرب الحكيم ، على خصمه الشيطاني . وفي هذا كله نحس جهداً بطولياً للانسانية ، جهداً للتخلص من ضغط القوى السحرية وقسرها ، ومثالاً جديداً للحرية . اذ لا يصل الانسان هنا الى الاتصال بالالهي إلا عن طريق الحرية ، أي عن طريق الغزم الذاتي .

الطبيعة في
الدين البدائي
وفي دين
زرادشت

مبدأ
الاستقامة
في الدين
الاخلاقي

قيمة العمل
في الدين
الاخلاقي

وبهذا العزم يغدو الانسان حليف الإله .

الانسان حر
مختار في دين
زرادشت

وإن اختيار احد التجدين في الحياة منوط بالفرد نفسه ، فهو الحكم المطلق الذي يقرر مصير نفسه ، ولديه القوة والحرية ليختار بين الصدق والكذب ، والصلاح والطلاح ، والخير والشر ، وهو مسؤول عن هذا الاختيار الاخلاقي ، وبالتالي فهو مسؤول عن أعماله . فاذا قام بالاختيار الصحيح واعتنق الصلاح جنى ثمار ذلك جزاءً حسناً ، وإن اختار الطلاح فالمسؤولية هي مسؤوليته وستقوده ارادته الذاتية الى العقاب ... [وفي آخر الامر] سيكون زمان يصبح فيه في طرق كل فرد ان يعتنق الصلاح ويعمل صالحاً ويجعل كل العالم الانساني يتوجه الى « الآشا » .. كلهم .. لا بد من ان يسهموا في هذا العمل الكبير ، اما الصالحاء الذين يعيشون في عصور مختلفة وفي أمكنة متباعدة فانهم هم اعضاء جماعة الصالحين بقدر ما يحفزهم دافع واحد ويعملون من اجل غاية مشتركة » (٥٤) .

هذا هو الشكل من التعاطف الاخلاقي العام الذي اكتسب نصراً على الشعور البدائي بوحدة سحرية أو طبيعية للحياة .

ولما اقتربت الفلسفة الاغريقية من هذه المشكلة لم تكد تتجاوز عظمة هذه الأفكار الدينية ورفعتها ؛ فقد ظلت الفلسفة الاغريقية في العصور الهلنستية المتأخرة تحتفظ بدوافع دينية وأسطورية كثيرة ، فمن الافكار المركزية في الفلسفة الرواقية ان هناك عناية عامة (Pronoia) تهدي العالم الى هدفه وعلى الانسان هنا لكونه كائناً واعياً عاقلاً ، أن يعمل للحصول على هذه العناية . والعالم

التعاطف
المشترك في
الفلسفة
الاغريقية

٥٤ - م . ن . دالا : « تاريخ الزرادشتية » (نيويورك ، مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٣٨)
ص : ٥٢ وما بعدها .

مجتمع كبير للاله والناس urbs Dis hominibusque communis (٥٥) .
و فالعيش مع الآلهة (Suzen theois) يعني العمل معهم إذ ليس
الانسان متفجعاً وانما هو بمقياسه نفسه خالق نظام العالم ؛ والرجل الحكيم
كاهن للالهة وقسيس لهم (٥٦) . ها هنا ايضاً نجد فكرة « تعاطف الكل »
الا انها تفهم وتفسر بمعنى أخلاقي جديد .

أين هي طفرة
برجسون

ولم يكن في المستطاع بلوغ هذا كله في الفكر والشعور الديني الا بتطور
بطيء مستمر . فالانتقال من اشد الاشكال فطرية الى الاشكال العليا فالى
أعلى الاشكال لا يتم بطفرة فجائية . ولقد صرح برجسون أن الانسانية
بغير هذه الطفرة لم تكن لتستطيع أن تجد طريقها الى دين دينامي خالص ،
الى دين غير مؤسس على الضغط الاجتماعي والقسر بل قائم على الحرية .
إلا أن فكرته المتأفيفية عن « التطور الخالق » لا تؤيد هذه النظرة إلا
قليلاً . لولا الارواح الخلاقة العظيمة ، لولا الأنبياء الذين أحسوا أن قوة الله
أوحت اليهم وانهم مقدور^{٥٧} لهم أن يكشفوا عن إرادته ، لما وجد الدين
طريقه . ولكن حتى هذه القوى الفردية نفسها لم تستطع ان تغير طابعه
الاجتماعي الأسامي ، ولم تستطع ان تخلق ديناً جديداً من لا شيء . ولم
يكن المصلحون الدينيون العظام يعيشون في فراغ ، لم يكونوا منقطعين الى
الالهام والتجربة الدينية ، وإنما كانت تربطهم ببيئتهم الاجتماعية الف رابطة .
والانسانية لا تتمر من الواجب الأخلاقي الى الحرية الدينية بنوع من الثورة ،
حتى . برجسون يقر ان الروح التصوفية — التي بعدها روح الدين الحق —
كانت من الزاوية التاريخية استمراراً لما قبلها لا طفرة . ويكشف التصوف
لنا او قد يكشف لنا ، اذا شئنا حقيقة ، املاً عجبياً ولكننا لا نشاء ذلك

٥٥ — سنكا : « الى مرقيون في السلوان » ، ص : ١٨

٥٦ — مارقس اوريليوس : « الى نفسه » ، الكتاب : ٣ ، الفقرة : ٤٠

وفي اكثر الاحوال لا نستطيع ان نشاء ، وإنما نتهاوى تحت وطأته ، ولذلك يبقى لنا دين مختلط . وانا لنجد في التاريخ تحولات متداخلة بين شيئين هما في الحقيقة مختلفان في طبيعتهما اصلا ، حتى ان المرء لا يكاد يصدق انها يستحقان اسماً واحداً^(٥٧) . ويبقى هذان الشكلان من الدين دائماً متعادين في نظر الفيلسوف او المتأفزيقي ، فهو لا يستطيع ان يستمدهما من اصل واحد لانهما تعبيران عن قوتين مختلفتين اختلافاً كلياً ، واحدهما يقوم كله على الغريزة ، فغريزة الحياة هي التي خلقت وظيفة صنع الاساطير . اما ثانيهما وهو الدين فانه لا ينشأ من الغريزة او من العقل او الذكاء ، وإنما يحتاج قوة دافعة جديدة ، يحتاج نوعاً خاصاً من الحدس والالهام . و اذا شاء المرء ان يبلغ جوهر الدين ويفهم تاريخ الانسانية فعليه ان ينتقل حالا من الدين الخارجي الثابت الى الدين الداخلي الدينامي . اما الاول فقد وضع ليزيخ الاخطار التي قد يتعرض لها الانسان بسبب ذكائه ، فهو تحت العقلي ، ومن بعد حرر الانسان نفسه بجهد لم يكن من السهل بذله ، من حركته حول محوره الذاتي ، فغمس نفسه من جديد في تيار التطور ، دافعاً بهذا التيار للامام في الوقت نفسه ، وهنا وجد الدين الدينامي مصحوباً دون ريب بالفكرية العالية متميزاً منها - وكان الشكل الاول من الدين « تحت عقلي » وكان الشكل الثاني « فوق عقلي »^(٥٨) .

هذا الفصل الديالكتي الحاسم بين ثلاث قوى اساسية هي الغريزة والذكاء والحدس الصوفي لا يتمشى مع حقائق تاريخ الدين . حتى فكرة فريزر التي قال فيها ان الانسانية بدأت بعصر من السحر تبعه من بعد

مناقشة رأي
برجون

٥٧ - برجون ، المصدر نفسه : ٢٠١ وما بعدها

٥٨ - المصدر نفسه : ١٧٥ وما بعدها .

ونظرية
فرير

وعفى عليه عصر من الدين ، فكرة غير قائمة ، لأن السحر فقد ثبتته بعملية بطيئة جداً . وإذا نظرنا الى تاريخ المدنية الاوروبية وجدنا ان الاعتقاد في السحر لم يتزعزع بقوة حتى في أكثر المراحل تقدماً ، أي في مراحل حضارة بالغة التطور والارهاق . حتى الدين سمح لهذا المعتقد بالبقاء الى حد ما ، فقد منع بعض الاعمال السحرية وحرّمها ، ولكن كانت هناك منطقة من السحر « الابيض » ظلت تعتبر غير ضارة . وقد قدّم مفكرو عصر النهضة - يومبونازي وكردانو وكبانيلا وبرونو وجباتستا البورتاوي وبراكلسس - نظرياتهم الفلسفية العلمية حول فن السحر وكان جيوفاني بيكو الميراندولي ، وهو من أنبل المفكرين الدينيين في عصر النهضة واتقاهم مؤمناً بأن السحر والدين مرتبطان معاً بروابط لا تنفصم . فهو يقول . « ليس ثمة علم يؤكد العنصر الالهي في المسيح أقوى من السحر والتصوف » .

موقف متدين
عصر النهضة
من السحر

معنى التطور
الديني

وقد نستنتج من هذه الامثلة ما كان يعنيه التطور الديني حقاً . فهو لا يعني التحطيم الكامل للخصائص الاولى الأساسية في الفكر الاسطوري . واذ كان المصلحون الدينيون العظام يرغبون في ان يستمع الناس اليهم ويفهموا ما يقولون ، فقد كان من المحتوم عليهم ان يتكلموا بلغة الناس لا بلغة الله وحدها . الا ان الانبياء العظام في اسرائيل لم يعودوا يتكلمون الى شعوبهم فحسب ، فقد كان ربهم رب العدالة ، ولم تكن رسالته مقصورة على فئة خاصة . وقد بشر اولئك الانبياء بساء جديدة وارض جديدة . والجديد في هذا الدين هو التزعة الداخلية فيه ، أي معناه الاخلاقي ، لا محتواه . ومن اعظم المعجزات التي كان على كل الأديان الراقية ان تؤديها تطويرها لطابعها الجديد ، لتفسيرها الديني والاخلاقي للحياة ، من مادة جافية من الافكار البدائية ، أي من أغلظ انواع الخرافات .

ولعلّ خير مثل نوره على هذا التحول ، تطوّر فكرة الحرام : ثمة
مراحل عديدة في المدنية الانسانية لا نجد فيها افكاراً محددة عن قوى
إلهية ولا نجد فيها روحانية محددة — أي لا نجد نظرية عن الروح
الانسانية . ولكن يبدو انه ليس ثمة مجتمع ، مهما يكن بدائياً ، إلا وقد
طوّر لنفسه نظاماً من التحريم ، وفي أكثر الاحوال يكون هذا النظام
ذا مبنى شديد التعقيد . وفي جزائر البوليزيين التي اخذت منها كلمة
« تابو » — و ترجمناها بكلمة « حرام » — رمز هذه الكلمة الى كل
النظام الديني^(٥٩) . ونجد مجتمعات بدائية عديدة تكون الاساءة الوحيدة
فيها هي الخروج على « التابو » — او الوقوع في الحرام^(٦٠) . فالاصطلاح
في المراحل الاولى من المدنية الانسانية يشمل ميدان الدين والاخلاق كله .
وبهذا المعنى — نسب — كثير من مؤرخي الدين الى نظام التحريم قيمة كبيرة
جداً ، فأعلنوا انه على الرغم من نقائصه الواضحة أوّلُ بذرة وألزمها
في الحياة الحضارية الراقية ، بل قيل إنه مبدأ أوّلٍ *a priori* للفكر
الاخلاقي والديني ، ويصف جيفونز « التابو » — الحرام — بأنه نوع من
الأمر الحتمي ، وهو النوع الوحيد الذي كان يعرفه الانسان البدائي
ويصل اليه من صور « الطلب » . ويقول : إن الرأي بأن هناك بعضاً
من الاشياء « يجب ألا تُعمَلْ » إنما هو رأي شكلي محض لا محتوى له .
اما جوهر الحرام فهو انه ، دون لجوء الى التجربة ، يعلن ابتداءً ان بعض
الامور خطر . « وتلك الامور في الحقيقة لم تكن خطرة ، وكان الاعتقاد
بخطرها غير نابع من العقل ، لكن لو لم يوجد ذلك الاعتقاد لما كان
هناك اتجاه اخلاقي ، وبالتالي لم تكن مدنية ... كان الاعتقاد مغالطة .

٥٩ — راجع ماريت : « أيكون « التابو » سحراً سلبياً ؟ » في « حبة الدين » : ٥٤ .

٦٠ — انظر ف. ب. جيفونز : « مقدمة لتاريخ الدين » (لندن ، مثنوين ١٩٠٢) ص : ٧٠

ولكن تلك المغالطة كانت هي المعاذ الذي حى وصان فكرة كانت سببرعم ونحمل ثمراً غالباً - تلك هي فكرة الواجب الاجتماعي» (٦١) .

بلوغ فكرة
الواجب
الاجتماعي
- كيف ؟

ولكن كيف تطورت مثل تلك الفكرة من معتقد لا يحمل في ذاته ادنى علاقة بالقيم الاخلاقية ؟ كان الحرام بمعناه الاصلي الحرفي - فيما يبدو - يعني شيئاً مُعلّماً مشتهراً - شيئاً ليس على مستوى الاشياء العادية الدنيوية التي لا يصدر عنها اذى . كان محاطاً بجو من الخوف والخطر وكثيراً ما وصف هذا الخطر بأنه خطرٌ فوق الطبيعي ، ولكنه ليس اخلاقياً بأي حال . وإذا ميز من الاشياء الاخرى فهذا التمييز لا يعني فصلاً اخلاقياً ولا يتضمن حكماً اخلاقياً . فاذا ارتكب الانسان جرعة اصبغ «حراماً» ، ولكن هذا يصدق ايضاً على المرأة حين تضع حملها . فان «الدنس المعدي» يمتد الى كل مناطق الحياة . ولمسة من الإله خطرةٌ كلس الاشياء غير الطاهرة جسدياً . وبذلك يكون المقدس والممقوت على مستوى واحد . و «عدوى القداسة» تأتي بنفس النتائج التي يأتي بها «التلوث من النجاسة» . فن مس جثة اصبغ نجساً ولكن الطفل المولود حديثاً لا يمس . وكان بعض الشعوب يعد الاطفال ال يوم ولادتهم حراماً الى حد ان لا يوضعوا على الارض . والعدوى الاصلية قابلة للنقل ومن نتائج هذا المبدأ أنه لم يعد فيه حد لانتشار العدوى . ولقد قيل : «ان حراماً واحداً قد تسري عدواه في كل العالم» (٦٢) . وفي هذا النظام لا نلح ظلاً لاي مسئولية فردية ، فاذا اقترف الانسان جرماً لم يكن وحده «مشهوراً» معلماً وانما ايضاً عائلته وأصدقاؤه ، وكل

٦١ - المصدر نفسه : ٦١ ، اقتبس باذن من مثرين وشركاه ومن منفلي وصية ف. ب. جيفوتز .

اتساع مدلول
الحرام

٦٢ - في المادة الانثروبولوجية انظر فريزر : «النصن الالهي» ١ : ١٦٩ وما بعدها ، والقسم السادس بعنوان «السابقة» وانظر جيفوتز ، المصدر نفسه الفصل ٦ - ٨

قبيلته تحمل العلامة . كلهم يوسمون ، أي يشتركون في « وصمة » واحدة وتتفق شعائر التطهير مع هذه الفكرة فتتم النظافة بوسائل مادية وخارجية . وقد يزيل الماء الجاري وصمة الجريمة ، وأحياناً يحول الاثم الى حيوان ، الى « سائبة » او الى طير يذهب بالاثم ويطير به بعيداً (٦٣) .

وقد وجدت الاديان الراقية ان التغلب على هذا النظام من الحرمة البدائية امر بالغ الصعوبة ، ولكنها بعد محاولات عدة نجحت في تحقيق هذا الامر ، وقد احتاجت لذلك عملية مشابهة من الفصل والافراد كالتى حاولنا وصفها فيما سبق . وكانت اول خطوة ضرورية ايجاد خط يفصل بين المنطقتين : المنطقة المقدسة والاخرى النجسة او المشتومة .

ولا ريب في ان الاديان السامية كانت في اول ظهورها مؤسسة على نظام معقد من المحرمات . ويصرح روبرتسون سمث في أبحاثه عن دين الساميين بأن القواعد السامية الاولى للقداسة < الطهارة > والنجاسة لا يمكن تمييزها في أصلها عن المحرمات لدى المتوحشين ، حتى في تلك الأديان المؤسسة على أصفى دوافع خلقية لا تزال ثمة ملامح كثيرة تشير الى مرحلة مبكرة من الفكر الديني تؤخذ فيها الطهارة والنجاسة بالمعنى المادي . فثلاً يحتوي دين زرادشت اوامر مشددة ضد تلويث العناصر المادية . ويعتبر تلويث عنصر النار الطاهر بمسّ بجثة أو أي شيء آخر نجس خطيئة فاحشة مهلكة ، بل انه لجريمة ان يعيد امرؤ النار الى بيت مات فيه انسان ، خلال تسع ليال في الشتاء وشهر في الصيف (٦٤) . وكان من المستحيل حتى على دين أرقى ، ان يهمل هذه القواعد والشعائر

كيف تغلب
الاديان
الراقية على
هذا النظام

المحرمات
في الاديان
السامية

الطهارة
ضدها
في دين
زرادشت

٦٣ - انظر روبرتسون سمث من اجل تفصيلات أخرى ، المصدر نفسه الصليق «ج» ص ٢٧

وما بعدها .

٦٤ - انظر تفصيلات اخرى في دالا ، المصدر نفسه : ٥٥ ، ٢٢١ وما بعدها .

تغيير الدافع
وراء الحرام

التطهرية أو يعفي عليها . فالذي كان يمكن ان يتغير في تقدم الفكر الديني هو الدوافع وراء صور الحرام لا الحرام نفسه . وكانت هذه الدوافع في النظام الاصلي غير مناسبة ، ومن وراء منطقة اشياتنا العادية والمألوفة توجد منطقة اخرى مليئة بقوى منظورة واطار مجهولة ، وكل شيء ينتمي الى هذه المنطقة فهو "معلم" مميز ، والتميز هو الذي يمنحه علامته الخاصة لا وجهة التمييز ، فقد يكون حراماً لرفعته او لضعته ، بفضيلته او رذيلته ، بكأله او نقصه . والدين في مبادئه لا يحسم ان يرفض الحرام ، لأنه ان هاجم هذه المنطقة المقدسة فقد موطىء قدميه ، ولكنه يبدأ بادخال عنصر جديد . يقول روبرتسون سمث :

الدين لا
يرفض الحرام
نفسه

و لدى الساميين جميعاً قواعد للنجاسة واخرى للقداسة ، والحد بين الاثنين غامض في اغلب الاحيان ، وتتفق الاولى والثانية الى درجة مذهشة في تفصيلاتها مع المحرمات البدائية - هذه حقيقة لا تترك مجالاً للشك في أصل فكرة القداسة وعلاقتها القصوى . لكن الساميين يميزون بين المقدس والنجس - وهذه حقيقة اخرى تدل على تقدمهم على المستوى البدائي . كل المحرمات مستوحاة من رهبة ما فوق الطبيعي ولكن هناك فرقاً اخلاقياً عظيماً بين التحذيرات من هجوم قوى معادية غيبية والاحتياطات المؤسسة على احترام حق اله صديق ودود . أما الاولى فتلتحق بانحرافات السحرية وهي مؤسسة على الخوف ولذلك فانها تكون حاجزاً للتقدم وعرقلة للاستقلال الحر للطبيعة على يد الطاقة الانسانية والجد الانساني ، ولكن النواهي التي قضيت الرخص الانسانية بسبب احترام قوة معروفة صديق محالفة للانسان تحتوي في ذاتها - مهما تبد تفصيلاتها تافهة سخيفة - مبادئ نامية من التقدم والنظام الاخلاقي (٦٥) .

٦٥ - روبرتسون سمث ، المصدر نفسه : ١٤٣ وما بعدها .

التمييز بين
نوعين من
انتهاك
حرمة الدين

وكان من المهم لتطوير هذه المبادئ ان يقام تمييز حاد بين نوعين من انتهاك الشرع الديني احدهما ذاتي والآخر موضوعي . وهذه التفرقة مجهولة تماماً في النظام البدائي من التحريم فالذي يهيم ثمة هو العمل نفسه لا الدافع الى العمل . أما الخطر في صيرورة المرء «حراماً» فهو خطر مادي وهو شيء ليس في متناول قوانين الاخلاقية . وإذا كان العمل إرادياً أو غير ارادي فالنتيجة سواء ، ذلك لأن العدوى تنتقل تلقائياً ويمكن أن يقال في معنى الحرام إنه نوع من «لامساس» *Noli me tangere* فهو الذي لا يجوز لمسه ، ولا الاقتراب منه . أما النية في الاقتراب منه أو طريقة الدنو منه فلا يحسب حسابها . بل إن التحريم لا ينتقل باللمس فحسب وإنما ينتقل ايضاً بالسمع والبصر ، والنتائج هي هي سواء أنظرت الى المحرم أو رأيته عرضاً واتفاقاً . فان رآك شخص «محرم» أو كاهن أو ملك ، فذلك خطر مثل ان تراه وتنظر اليه .

« عملية التحريم آلية دائماً ، فالاتصال بالاشياء المحرمة ينتقل العدوى مثلما ان لمس الماء ينتقل بللاً ، ولمس التيار الكهربائي يبعث هزة كهربائية . أما نوايا الذي وقع في الحرام فلا أثر لها في عمل الحرام . فقد يمس وهو جاهل ، أو قد يمس لفائدة الشخص الملموس ، فيحرم ايضاً كما لو كانت دوافعه الى هذا سوء أدب أو كان يقوم بعمل عدائي . وحال المقدسين مثل الميكادو والرئيس البوليتيزي وارطيميس همينا لا تعدل شيئاً في ذلك العمل الآلي ، فاللمسة أو النظرة منهم مميتة للصديق مثلاً هي مميتة للعدو ، مهلكة للحياة النباتية . وأقل من ذلك شأننا أخلاقية الذي تجاوز

التحريم ، فالعقاب ينزل كالمنطق على الظالم والعاقل سواء » (٦٦) .

تغير معنى
الحرام في
الدين

ولكن ها هنا تبدأ تلك العملية البطيئة التي حاولنا ان نسمها باسم
» تغير المعنى « في الدين . ولو نظرنا الى تطور اليهودية لأحسننا كيف
ان تغير المعنى هذا كان كاملاً حاسماً . ففي الاسفار النبوية من العهد
القديم نجد اتجاهات جديدة كل الجدة من الفكر والشعور . ويصبح مثال
الطهارة يعني شيئاً مختلفاً عن كل الأفكار الاسطورية السابقة . لقد أصبح
من المستحيل ان نبحث عن الطهارة أو النجاسة في الاشياء المادية . حتى
الاعمال الانسانية نفسها لم تعد تقسم الى طاهرة وغير طاهرة . لم يبق إلا
طهارة واحدة ذات مغزى ورفعة دينيين وتلك هي » طهارة
القلب « .

الحرام يحدد
حالات الانسان
بين أمر ونهي

وبهذا التمييز الاول نبلغ تمييزاً ثانياً لا يقل عنه أهمية . لقد كان نظام
الحرام يفرض على الانسان فروضاً وواجبات لا حصر لها ، وكل تلك
الواجبات ذات طابع مشترك ، كلها سلبية ليس فيها أي مثال إيجابي :
تجنب هذه الاشياء ، امتنع عن عمل هذه الامور - نواهٍ ومحظورات لا
أوامر دينية واخلاقية ، ذلك لأن الخوف هو الذي يهيمن على نظام
الحرام ، والحرام يعرف كيف يمنع ولكنه لا يعرف كيف يهدي ، وهو
ينبه الى الخطر ولكنه لا يستطيع ان يثير في الانسان طاقة جديدة عملية
أو اخلاقية . وكلما تطور نظام الحرام أُنذر ذلك بتجميد حياة الانسان
في هود تام . فلا يستطيع ان يأكل ويشرب ، ان يقرأ او يمشي .
حتى التكلم يصبح مصدر ازعاج له ، لأنه في كل كلمة يكون مهدداً
بأخطار مجهولة . ففي بولينزيا لا يمنع المرء فحسب من ان يتلفظ باسم
رئيس او فقيه بل انه ممنوع ايضاً من ان يورد أي كلمات او مقاطع في

حديثه العادي يرد فيها ذلك الاسم .

وفي هذا المجال وجد الدين واجباً جديداً اثناء تطوره ، الا ان المشكلة التي نتمم عليه ان يواجهها كانت عسيرة شاقة وربما بدت من بعض النواحي غير قابلة للحل . ذلك ان نظام الحرام على نقائصه الواضحة كان هو النظام الوحيد لتحديد الواجبات الاجتماعية التي استكشفها الانسان فهو حجر الزاوية في كل النظام الاجتماعي . ولم يكن ثمة جانب من جوانب النظام الاجتماعي الا وهو محكوم مرتب بمحرمات معينة ، كالعلاقة بين الحاكمين والرعايا ، والحياة السياسية والحياة الجنسية وحياة الاسرة - كل هذه لم تكن لديها رابطة اقدس من رابطة التحريم ، وهذا نفسه يصدق على الحياة الاقتصادية كلها ، حتى الملكية نفسها على ما يبدو كانت في نشأتها الاولى نظاماً تحريمياً ، فكانت اول طريقة لامتلاك شيء او شخص ولاحتلال قطعة من الارض او لخطبة امرأة هي لإعلام كل منهم بوسم تحريمي . ولذلك كان من المستحيل على الدين ان يلغي هذا النظام المعقد من المحرمات ، لان الغاءه يعني فوضى شاملة ؛ ومع ذلك فان المعلمين الدينيين العظام وجدوا دافعاً جديداً قادوا به الحياة الانسانية كلها - من ثم - في وجهة جديدة ، فقد استكشفوا في انفسهم قوة ايجابية ، قوة من الالهام والطموح لا من النهي فحسب ، فحولوا الطاعة السلبية الى شعور ديني حمي . ثم ان نظام الحرام خطر على الانسان لانه قد يجعل حياته عبثاً يغدو في النهاية امراً غير محتمل ، ويجعل وجود الانسان كله ، اخلاقياً كان او مادياً ، مختنق الانفاس تحت وطأة هذا النظام . وها هنا يتدخل الدين : فكل الاديان الاخلاقية - دين انبياء اسرائيل والزرادشتية والمسيحية - قد وضعت لنفسها واجباً مشتركاً هو ان ترفع

تحويل الطاعة
السلبية الى
شعور ديني
يخفف من
وطأة الحرام

عن كاهل الانسانية عبء نظام التحريم وان تكشف - من الناحية الاخرى -
عن معنى اعمق للواجب الديني بحيث يكون هذا الواجب تعبيراً عن مثال
ايجابي جديد للحرية الانسانية لا أثراً للقهر والتضييق .

(٨)

اللغة

- ١ -

بين اللغة والأسطورة قرابة قريبة ، فعلاقتها في المراحل الاولى من الحضارة الانسانية جد وثيقة وتعاونها أمر واضح حتى ليستحيل أن نفرق احدهما عن الاخرى . غير انها فرعان متمايزان من جذر واحد . وحيثما الفينا الانسان وجدناه يملك القدرة على الكلام كما نجده تحت سيطرة من وظيفة خلق الاسطورة ، ومن ثم فان هذه الحال تغري الاثروبولوجيا الفلسفية بوضع هاتين الخاصيتين الانسانيتين تحت عنوان مشترك ، وقد تمت محاولات في هذا الصدد ، فطور ف . ماكس مللر نظرية ضريبة جعل فيها الاسطورة نتاجاً عرضياً للغة ، اذ اعتبر الاسطورة نوعاً من المرض في العقل الانساني ، تُطلبُ عليه في القدرة على الكلام ، ذلك ان اللغة بطبيعتها وجوهرها مجازية ، وحين تعجز عن ان تصف الاشياء بطريق مباشرة تنجح الى وسائل من الوصف غير مباشرة ، اي تنحو نحو مصطلحات غامضة مزدوجة المعنى . ويرى ماكس مللر ان الاسطورة

الصلة بين
اللغة
والاسطورة

رأي ماكس
مللر في هذه
المسألة

تستند في أصلها الى هذا الغموض الكامن في اللغة ، وانها في هذا الجو
الغامض وجدت دائماً غذاءها العقلي . يقول مللر : « ان مسألة الميثولوجيا
قد اصبحت في الحقيقة مسألة سيكولوجية كما اصبحت ايضاً مسألة تابعة
لعلم اللغة لان النفس الانسانية تصبح موضوعية من خلال اللغة على الاكثر .
وهذا يفسر لم تسميتُ الاسطورة "مرض" لغة بدلا من ان اسميها مرض
فكر ، ذلك لان اللغة والفكر لا يمكن فصلهما ... فرض اللغة هو اذن
مرض فكر ، ونحن حين ننسب الى الاله العليّ كل نوع من انواع الالهم
فتصوره مخدوعاً يخلبه الناس ، او غاضباً على زوجته واطفاله ، فذلك
برهان على مرض ، على حال فكرية غير عادية ، او بعبارة اوضح ،
على جنون حقيقي ... تلك حالة مرضية ميثولوجية ...

واللغة القديمة أداة يعسر استعمالها وبخاصة في الاغراض الدينية . ومن
المستحيل ان نعتبر في اللغة الانسانية عن الافكار المجردة إلا مجازاً .
وليس من المغالاة ان نقول ان معجم الاديان القديمة كله يتألف من
مجازات ... وها هنا مصدر يصدر عنه ضروب من سوء الفهم ابداً ،
وكثير من صور سوء الفهم هذا بقيت تحتفظ بأمكنتها في دين العالم القديم
وأساطيره^(١) .

مناقشة رأي
مللر

ولا يكاد أحد يقبل ان تعدّ فعالية انسانية أساسية محض شذوذ ،
أي نوعاً من مرض عقلي ، ولسنا بحاجة الى مثل هذه النظريات الغريبة
المتأبدة لكي نرى ان اللغة والاسطورة توأمان لدى العقل البدائي ، فكلاهما
قائمة على تجربة إنسانية عامة مبكرة ، وهي تجربة ذات طبيعة اجتماعية
اكثر مما هي مادية . وقبل ان يتعلم الطفل الكلام - بوقت طويل - يكشف

١ - ف . ماكس مللر : « اسهامات في علم الميثولوجيا » (لندن لونجمانز ، جرين
وشركاما ١٨٩٧) ١ : ٦٨ وما بعدها ، وكذلك « محاضرات في علم الدين » (نيويورك ،
ابناء تشارلس سكرينر ١٨٩٣) : ١١٨ وما بعدها .

له وسائل أبسط للاتصال بالآخرين . فصيحات التعب والألم والجوع والخوف والرعب التي نجدها في العالم العضوي تتخذ لدى الطفل شكلاً جديداً إذ لا تعود ردود فعل غريزية بسيطة ، لأنه أصبح يستعملها بطريقة أشد وعياً وإرادة . فاذا ترك الطفل وحده طلب حضور مربيته أو أمه بأصوات مستبانة ، وبأخذ يدرك ان طلبه هذا قد حقق نتيجة المرموقة . وينقل الرجل البدائي هذه التجربة الاجتماعية الأولية الى الطبيعة بكاملها . فالطبيعة والمجتمع لديه ليسا فحسب مرتبطين بروابط وثقى ، وإنما 'يكونان' كلاً متجانساً لا تمايز أجزاءه . ولا يوجد بين العالمين خط فاصل ، فالطبيعة نفسها ليست إلا مجتمعاً عظيماً - مجتمع الحياة . ومن هذه الوجهة نستطيع ان نفهم ، في سر ، فائدة الكلمة السحرية ووظيفتها . فالاعتقاد بالسكر قائم على إيمان عميق بوحدة الحياة^(٢) . ويؤمن العقل البدائي ان القوة الاجتماعية في الكلمة - بعد ان يمارسها في حالات عديدة - تصبح قوة طبيعية بل فوق الطبيعية . ويحسّ الانسان البدائي انه محاط بكل أنواع الاخطار المادية وغير المادية ، وهو لا يرجو ان يتغلب على تلك الاخطار بوسائل مادية . والعالم لديه ليس شيئاً ميتاً او أخرس بل هو يسمع ويفهم ، فاذا استطاع ان يستنجد قوى الطبيعة بطريق صحيحة لم تحجز عنه عونها . لا شيء يقاوم الكلمة السحرية : « فالسكر يستنزل القمر من عليائه »

الطبيعة
والمجتمع لدى
البدائي سيات

اللغة السحرية
وأثرها في
الطبيعة

Carmina vel coelo possunt deducere lunam

وحين بدأ الانسان يدرك أن هذه الثقة عبثٌ في غير محله - أي حين بدأ يدرك ان الطبيعة عنيدة لا لأنها تأبى ان تنجز مطالبه بل لأنها لا تفهم لغته - عندئذ كان هذا الكشف صدمةً له ، ولا بد . وعند هذه

اكتشاف
هجز اللغة
السحرية

النقطة كان عليه ان يواجه مشكلة جديدة كانت علامة تحول وأزمة في حياته العقلية والاخلاقية . ومنذ حينئذ وجد الانسان نفسه ، ولا بد ، في وحدة موحشة نهياً لمشاعر من الاستيحاش واليأس المطلقين . وما كان له ان يتغلب عليهما لولا انه طور قوة روحية جديدة سدت الطريق دون السحر ، وفتحت في الوقت نفسه طريقاً اخرى اشد تأملاً . لقد تلاشى لديه كل امل في اخضاع الطبيعة بالكلمة السحرية ، ونتيجة لذلك بدأ الانسان يرى العلاقة بين اللغة والحقيقة في ضوء مختلف . ذهبت الوظيفة السحرية للكلمة وحلت محلها وظيفتها السمانية . ولم تعد الكلمة محبوة بقوى غريبة ، ولم يعد لها اثر مادي او خارق ؛ اصبحت تعجز عن ان تغير طبيعة الاشياء ، وتعجز عن ان توجه ارادة الالهة او الشياطين . وهذا لا يعني انها اصبحت بغير معنى او بغير قوة ، انها ليست صوتاً هوائياً مرسلًا Flatus vocis وانما المظهر الحاسم لها هو مظهرها المنطقي لا المادي— هي مادياً عاجزة ولكنها ارتفعت منطقياً الى درجة اعلى بل الى اعلى درجة ، لأن « الكلمة » Logos قد اصبحت مبدأ العالم والمبدأ الاول في المعرفة الانسانية .

الكلمة

اصبحت

ذات وظيفة

سمانتية لا

سحرية

الاعتداء الى

قيمة

«اللوجوس»

اللوجوس

في فلسفة

هرقليطس

وقد تمت هذه النقلة في الفلسفة الاغريقية القديمة ، وبخاصة لدى هرقليطس الذي يعده أرسطوطاليس في كتابه « ما وراء الطبيعة » من « الفيزيولوجيين القدماء » ، لأن كل اهتمامه منصب على عالم الظواهر . فهو لا يؤمن بأن وراء عالم الظواهر ، أي عالم « الصيرورة » ، عالماً مثالياً أزلياً من « الأيسية » الخالصة < الوجود > غير أنه مقتنع بحقيقة التغير وحدها ، وإنما يبحث عن « مبدأ » التغير . ويعتقد هرقليطس أن هذا المبدأ لا يوجد في شيء مادي ، وأن السبيل لتفسير النظام الكوني هو عالم الانسان لا عالم المادة . وتحتل القدرة على الكلام مركزاً متوسطاً في

العالم الانساني ، ولذلك فعلينا أن نفهم معنى الكلام لكي نفهم « معنى »
العالم . وإذا اخفنا في سلوك هذه السيل - أي الاستعانة باللغة لا بالظواهر
الطبيعية - فاننا نخطئ الباب المؤدي الى الفلسفة . حتى في فكر هرقليطس
نفسه لا تمثل الكلمة « اللوجوس » ظاهرة انثروبولوجية وهي ليست محصورة
داخل الحدود الضيقة لعالمنا الانساني لأن فيها حقيقة كونية عامة ، ولكنها
يجب ان نفهم في وظيفتها السمانية والرمزية بدلا من ان نفهم في كونها قوة
سحرية . يقول هرقليطس : « لا تصنع الي ، بل اصنع » « للكلمة »
واعترف بأن الأشياء كلها شيء واحد .

هكذا انتقل الفكر الاغريقي القديم من فلسفة الطبيعة الى فلسفة اللغة .
غير انه واجه ، ثمة ، صعوبات جديدة خطيرة ، فليس هناك شيء محير
مثير للجدل أكثر من مشكلة « معنى المعنى »^(٣) ، وما يزال علماء اللغة
والسيكولوجيون والفلاسفة ، حتى في ايامنا هذه ، يذهبون مذاهب مختلفة
في هذا الموضوع . ولم تستطع الفلسفة القديمة ان تتمرس بهذه المشكلة
الدقيقة مباشرة في جميع وجوها ، وانما قدمت لنا حلاً تمهيدياً . وقد
بني هذا الحل على مبدأ كان مقبولا بعامه في الفكر الاغريقي القديم ،
وكان يبدو ثابتاً لا يتزعزع . وبيان ذلك أن كل المذاهب من فيزيولوجية
وديالكتية بدأت بافتراض أن لا تعليل لحقيقة المعرفة إلا بالتطابق التام بين
العارف والحقيقة المعروفة . وقد اتفقت المثالية والواقعية على الاعتراف
بحقيقة هذا المبدأ وان اختلفتا في تطبيقه . فقال بارمنيديس : اننا لا
نستطيع ان نفصل بين الوجود والفكر لأنهما شيء واحد . وفهم الفلاسفة
الطبيعويون هذا التطابق وفسروه بمعنى مادي صارم ، فقالوا اننا اذا حللنا

٣ - س . ك . أوجدن وإ . أ . رتشاردس : « معنى المعنى » (١٩٢٣ الطبعة الخامسة
نيويورك ١٩٣٨)

طبيعة الانسان وجدنا فيها مجموعة مرتبطة من العناصر كالتى نجدتها في العالم المادي ، فالعالم الأصغر < الانسان > مثال للعالم الأكبر ، وهذا يجعل الاول دليلاً الى معرفة الثاني . يقول امبذوقليس : « بالتراب نرى التراب ، وبالماء نرى الماء ، وبالهواء نبصر الهواء الشفاف ، وبالنار تأكل النار ، وبالحب نرى الحب ، وبالبعوض المكين نرى البعوض » (٤) .

فاذا قبلنا هذه النظرية العامة فإذا يكون « معنى المعنى » ؟ اولاً ، وقبل أي شيء آخر لا بد من ان يفسر المعنى من خلال الوجود < الأيس > ، لأن الوجود او الجوهر هو المقولة العامة التي تصل بين الحقيقة والواقع وتربطهما . ولا يمكن للكلمة ان « تعني » شيئاً إن لم يكن بين الاثنين تطابق ولو جزئياً على الأقل . ولا بد من ان تكون العلاقة بين الرمز والرموز اليه علاقة طبيعية ، لا فحسب علاقة تقليدية . وبدون هذه العلاقة الطبيعية لا تستطيع الكلمة في اللغة الانسانية ان تؤدي مهمتها إذ تصبح غير مفهومة . وإذا قبلنا هذا المفترض ، واصله مستمد من نظرية عامة في المعرفة لا من نظرية في اللغة ، واجهنا على التو الرأي الصوتي < اي الرأي الذي يرى ان الكلمات تقليد للأصوات الطبيعية > وهذا الرأي هو وحده الذي يستطيع - فيما يبدو - ان يزيل الفجوة القائمة بين الأسماء والأشياء . غير انا إذا حاولنا ان نقضي على تلك الفجوة اخفقتنا وازدادت الفجوة اتساعاً . وقد طور افلاطون هذا الرأي الصوتي بكل نتائجه لكي ينقضه ويرفضه ، فجعل سقراط في حوار « قراطيلس » يتقبل هذا الرأي بطريقته الساخرة ، ولكنه كان يرمي من قبوله إلى تحطيمه بما يحتويه من سخف كين ، وينتهي افلاطون بالنظرية القائمة على ان اللغة

تباشر الرأي
الصوتي في
اصل اللغة

٤ - امبذوقليس ، القطعة : ٣٣٥ أنظر جون بيرنت : « الفلسفة الاغريقية القديمة » (لندن وادنبره ، أ. و س. بلاك ١٨٩٢) الكتاب الثاني : ٣٣٢

محاكاة صوتية إلى سخرية وهزل . ومع ذلك بقيت الفكرة الصوتية هذه سائدة على مدى قرون عدة حتى انها في المؤلفات الحديثة لم تنطس إلا أنها ليست في الصورة الساذجة التي تمثلت في « قراطيلس » .

والاعتراض الواضح على هذه الفكرة هو اننا حين نحلل الكلمات في الكلام العادي نحقق في اكثر الأحوال دون استكشاف التشابه المزعوم بين الاصوات والاشياء . ويمكن ان نزيل هذه الصعوبة بالاشارة إلى أن اللغة الانسانية كانت منذ البداية عرضة للتغير والفساد ، ومن ثم لا نستطيع ان نرضى بحالتها الراهنة ، بل علينا ان نتبع مصطلحاتنا الى أصولها اذا شئنا ان نقف على الرابطة التي تربط بين تلك المصطلحات والمسميات ، أي علينا ان نردّ الكلمات المزينة الى اصلها المجرد ، ونستكشف الشكل الاصلي الحقيقي لكل مصطلح وعلى حسب هذا المبدأ أصبح علم الاشتقاق مدار فلسفة اللغة فضلاً عن أنه مشغلة علماء اللغة . واستعمل النحويون والفلاسفة الاغريق قواعد اشتقاقية لم يعلق بها أثر لشكوك نظرية او تاريخية . ولكن لم يظهر علم اشتقاق قائم على مبادئ علمية قبل النصف الاول من القرن التاسع عشر^(٥) ، فحتى هذا التاريخ كان كل شيء ممكناً وكان كل تفسير خلاف شاذ مقبولا . وكان إلى جانب قواعد الاشتقاق الايجابية قواعد أخرى سالبة من نوع « اشتقاق الشيء من ضده » *Lucus a non* *Lucendo* . وفيما كانت هذه الاتجاهات هي السائدة كانت تبدو نظرية العلاقة الطبيعية بين الاسماء والاشياء نظرية لها ما يسوغها ويكفل حمايتها . ولكن كانت ثمة اعتبارات عامة أخرى وقفت منذ البداية تكافح ضد هذه النظرية ، وتجلت على أشدها لدى السوفسطائيين اليونان الذين كانوا تلاميذ هرقليطس من بعض الوجوه ، حتى لقد ذهب افلاطون في حوار « ثياتيطس » الى حدّ ان يقول ان النظرية السوفسطائية في المعرفة لا تدعي أي نسبة الى الاصاله وقال : انها متفرعة عن نظرية هرقليطس في « تغير

السوفسطائيون
واللغة

٥ - أ. ف. بوت : « دراسات ايتمولوجية في اللغات الهندية الجرمانية » (١٨٣٣ وما بعدها)

الاشياء ، ناتجة عنها . إلا أن بين هرقليطس والسوفسطائيين فرقاً لا ينظمس ، فقد كان الاول يرى ان الكلمة « اللوجوس » مبدأ ميتافيزيقي كلي ، وان له حقيقة عامة وقواماً موضوعياً . ولكن السوفسطائيين لم يتقبلوا تلك « الكلمة الالهية » التي عدّها هرقليطس أصل الاشياء كلها ومبدأها الاول ، أي أصل النظام الكوني والاخلاقي . فالانثروبولوجيا ، لا المتافيزيقيا لديهم ، هي التي تلعب الدور الاول في نظرية اللغة . لقد أصبح الانسان مركز العالم أو حسب قولة بروتاجوراس « الانسان مقياس كل الاشياء — تلك التي وجدت بحكم انها موجودة ، وتلك التي لم توجد ، بحكم انها لم تكن » . اذن فان البحث عن أي تفسير للغة في عالم الأشياء المادية يعد عبثاً لا جدوى فيه ، ذلك أن السوفسطائيين وجدوا سبيلاً جديداً الى الكلام الانساني أبسط من ذي قبل ، وكانوا اول من عالج المشكلات اللغوية والنحوية بطريقة منظمة . ولكنهم لم يعنوا بتلك المشكلات بمعنى نظري فحسب لأن أي نظرية في اللغة لا بد من ان تؤدي واجبات أخرى أدعى وألزم ، عليها ان نعلمنا كيف نتكلم ونعمل في عالمنا الاجتماعي والسياسي الواقعي . وهكذا أصبحت اللغة في مدينة اثينا أثناء القرن الخامس أداة لتحقيق أغراض محددة محسوسة عملية فكانت هي أقوى سلاح في المعارك السياسية الكبرى يومئذ . وما كان يرجو شخص ان يلعب دوراً بارزاً ان لم يحسن تلك الأداة ، وكان من الاهمية البالغة استعمالها بالطرق الصحيحة وتحسينها وشحنها على الزمن . ومن أجل هذه الغاية خلق السوفسطائيون فرعاً جديداً من فروع المعرفة هو « فن الخطابة » — أو البلاغة — وأصبح هذا الفن ، لا النحو ولا الاشتقاق ، هو المحور الاول لاهتمامهم . وكان للخطابة في تعريفهم للحكمة « صوفيا » مقام مركزي ، وأصبحت كل المنازعات حول « صحة » المصطلحات والاسماء من نافلة

اللغة عند
السوفسطائيين
غاية نفعية

القول تافهة . فالاسماء لم توضع لتعبر عن طبيعة الاشياء وليست لها علاقات موضوعية ؛ ومهمتها الحقة ان تثير العواطف الانسانية لا ان تصف الاشياء ، ان توحى للناس بأداء بعض الاعمال لا ان تنقل اليهم آراء وأفكاراً . حتى هذا الحد نكون قد بلغنا فكرة ذات ثلاثة أوجه عن وظيفة اللغة وقيمتها : وجه اسطوري وثان متافيزيقي وثالث نفسي . وكلها جميعا تتجاوز الحد وتخطاه ، لأنها تعجز عن أن تلحظ واحداً من أوضح الملامح في اللغة وهو . أن المنظوقات الانسانية الأولية لا تشير الى أشياء مادية ولا هي محض إشارات تعسفية . ولا ينطبق عليها مصطلح « طبيعي » Physci أو « وضعي » Thesci on ، فهي « طبيعية » لا « مصطنعة » إلا أنها ليس لها أي علاقة بطبيعة الأشياء الخارجية . وهي لا تعتمد على العرف أي على الدارج والعادة وإنما جذورها أعمق بكثير ، وهي تعبيرات عفوية عن المشاعر الانسانية ، فهي نداءات وصرخات . وليس من قبيل المصادفة أن يكون الذي وضع هذه النظرية — أن اللغة نداءات وصيحات — عالم طبيعي هو أعظم عالم بين مفكري يونان ، ذلك هو ديموقريطس الذي كان أول من بسط الرأي بأن الكلام الانساني ابتداءً على شكل أصوات ذات طابع عاطفي فحسب ، ومن بعد اعتنق هذه النظرية أبيقور ولوقريطس استناداً على ما قاله ديموقريطس ، وكان لها أثر دائم في نظرية اللغة حتى إنها لتظهر في القرن الثامن عشر ، في شكل لا يكاد يختلف عن شكلها الاول ، لدى مفكرين مثل فيكو وروسو . ومن السهل ان نفهم الفوائد العظيمة لهذه النظرية من الزاوية العلمية إذ يبدو ، في هذا المقام ، أننا لم نعد بحاجة الى الاعتماد على محض التأمل ، بل لقد كشفنا عن حقائق موثقة ، وهذه الحقائق غير قاصرة على المنطقة الانسانية . ها هنا نستطيع أن نرد الكلام الانساني الى غريزة أساسية غرستها الطبيعة

صجز النظريات
الثلاث في
الغة وسببه

ظهور نظرية
ترى ان اصل
الغة نداءات
وصيحات

قيمة هذه
النظرية في
الربط بين
الانسان
والحيوان

في كل المخلوقات الحية . فالصبيحات العنيفة - صبيحات الخوف والغضب والألم أو الفرح - ليست خاصة بالإنسان مقصورة عليه ، وإنما نجدها في كل مكان في العالم الحيواني . ولم يكن أحب إلى العلماء من أن يتبعوا حقيقة الكلام الاجتماعية ويردوها إلى هذا السبب البيولوجي العام ، وإذا قبلنا رأي ذيموقريطس وتلامذته وخلفائه فعنى ذلك أن السماتيات لم تعد منطقة منفصلة بذاتها وإنما أصبحت فرعاً من علمي البيولوجيا والفيزيولوجيا .

ولم تستطع النظرية الصوتية هذه أن تبلغ دور النضج إلا حين أتبع لعلم البيولوجيا أن يجد لنفسه قاعدة علمية جديدة . إذ لم يكن يكفي أن نصل بين الكلام الإنساني وبعض الحقائق البيولوجية بل لا بد من أن نقيم تلك الصلة على أساس مبدأ عام . وقد قدمت نظرية التطور مثل هذا المبدأ ، فلما ظهر كتاب داروين رحب به علماء اللغة بحماسة بالغة كالتي أبدتها نحوه العلماء والفلاسفة . فتحول أوجست شليخر إلى مذهب داروين بعد أن كانت كتاباته الأولى تدل على أنه من مريدي هيجل وتلامذته^(٦) . نعم إن داروين عالج موضوعه من وجهة نظر العالم الطبيعي لا غير ، إلا أنه كان من الممكن تطبيق منهاجه العام على الظواهر اللغوية في سهولة ويسر . ويبدو أنه حتى في هذا الميدان اللغوي فتح مسلماً لم يكن معروفاً . وقد أظهر داروين في « التعبير عن العواطف لدى الإنسان والحيوانات » أن الأصوات والأعمال المعبرة إنما تخليها

٦ - انظر أوجست شليخر: « نظرية داروين وعلم اللغة » (فيبر ١٨٧٣) [قلت: كان شليخر في دور التأثير بهيجل يرى أن اللغة ذات مظهرين - مظهر الدلالة ومظهر العلاقة والأول هو المادة والثاني هو الصورة وأن هذين المظهرين متشاكلان على أتم حال في اللغة المتصرفة . غير أنه حين تحول إلى رأي داروين تخلى عن هذه الثنائية ورأى أن اتجاه الفكر يسير نحو الوحدة وأعلن أن ما ينطبق على الأجناس الحيوانية والنباتية ينطبق على اللغة وأن الملاحظة هي أساس المعرفة وأن كل ما سمي فلسفة لغة ولم يكن تجريبياً فهو مرحلة ملثاء] (المترجم) .

حاجات بيولوجية معينة وانها تستعمل حسب قواعد بيولوجية محددة .
فاذا تقدم الباحث الى اللغز القديم عن اصل اللغة ، من هذه
الزاوية ، استطاع ان يعالجه بطريقة علمية صارمة . وبهذا تعد اللغة
الانسانية هبةً طبيعية عامة ويبطل اعتبارها « دولة ضمن الدولة » .

ومهما يكن من امر فقد بقيت هناك صعوبة اساسية - ذلك ان خالقي
النظريات البيولوجية في اصل اللغة عجزوا عن « ان يروا الغابة حيث رأوا
الاشجار » . < أي ان يستدلوا بالاجزاء على الكل > : بدأوا مفترضين
ان السبيل السوي يؤدي من صيحات التعجب والنداء الى الكلام ، ولكن
هذه « قضية دَوْر » وليست حلا للسألة ، ليست حقيقة الكلام الانساني
هي التي تتطلب تفسيراً وانما مبنى ذلك الكلام ، وتحليل هذا المبنى يكشف
عن فرق اساسي بين اللغتين الموضوعية والعاطفية ، وكلتاهما ليستا على
مستوى واحد . وحتى لو امكنا ان نربط بينهما من حيث النشأة فان
انتقالنا من واحدة الى اخرى سيبقى دائماً - من الوجهة المنطقية - انتقالاً
من جنس الى جنس *metabasis eis allo genos* وحتى اليوم فيما احسب لم
تنجح أي نظرية بيولوجية في ان تغفل هذا الفرق المنطقي المتصل بالمبنى
اللغوي نفسه . وليست لدينا اي شواهد سيكولوجية تقول ان حيوانا ما
قد استطاع ان يتخطى الحد الفاصل بين اللغة الموضوعية واللغة العاطفية .
أما ما يسمى عادة « اللغة الحيوانية » فانه ذاتي دائماً يعبر عن مختلف
احوال المشاعر ولكنه لا يعين الاشياء ولا يصفها^(٧) ولا يوجد من
الناحية الاخرى شواهد تاريخية على ان الانسان ، حتى في ادنى مراحل
حضرته ، اكتفى باللغة العاطفية او بلغة الاشارات والايحاءات . واذا
شنا ان نتبع منهاجاً تجريبيّاً خالصاً فيجب ان نستبعد مثل هذا الافتراض

الذي يبدو في اقل صوره تقديرية ، مثيراً للشك ان لم يكن بعيداً عن الاحتمال .

والحق ان هذه النظريات حين توضع تحت الفحص الدقيق يصبح المبدأ الذي تقوم عليه - دائماً - محطاً للتساؤل . وبعد بضع خطوات في الدفاع عن هذه النظريات يصبح المدافعون عنها مضطرين ليقروا أو ليؤكدوا الفرق الذي شاءوا لدى النظرة الاولى ان ينكروه او يقللوا من شأنه . ومن اجل ان اوضح هذه الحقيقة سأختار مثلين محسوسين اولهما من ميدان اللغويات والثاني من المؤلفات السيكولوجية والفلسفية فأقول : ربما كان أوتو يسبرسن آخر عالم لغوي حديث ذي اهتمام ثاقب بالنظرية القديمة في اصل اللغة . ولم ينكر ان كل الحلول السابقة للمشكلة كانت غير كافية ، بل كان في الحق مؤمناً انه اكتشف منهجاً جديداً يرجي له التوفيق والنجاح . يقول يسبرسن :

« إن المنهج الذي استحسنه وانا أول من يستعمله دون تردد هو ان نتبع لغتنا الحديثة عوداً في الزمن ، بقدر ما يسمح به التاريخ وتقره المواد التي لدينا ... فاذا توصلنا من هذه العملية أخيراً الى اصوات منطوقة ، هذا وصفها ، حتى لا يمكن ان نسميها لغة حقيقية وانما شيئاً سابقاً للغة - حيثئذ تكون المشكلة قد حلت . ذلك ان التحول شيء يمكن فهمه ، اما الخلق من لا شيء فلا يمكن للفهم الانساني ان يتصوره » . وهذا التحول تم ، حسب هذه النظرية ، عندما أصبحت المنطوقات الانسانية تُستعملُ أسماء ، وكانت في اول أمرها صيحات عاطفية او عبارات موسيقية . أي أن ما كان في الاصل خليطاً من أصوات لا معنى لها أصبح فجأة بهذه الطريقة أداة للفكر . فثلاً تغيرت مجموعة من الأصوات كانت تُغنى في نغمة معينة وتستخدم أنشودة للانتصار على عدو

هُزَمَ أو دُزِحَ - تغيرت فاذا بها اسمٌ عَلِمَ على تلك الحادثة المعينة او لذلك الشخص الذي دَبَحَ العدو . وهذا التطور قد يخطو خطوة أخرى بتحول مجازي في التعبير فيدل على مواقف مشابهة^(٨) . ولكن « هذا التحول المجازي » هو الذي يحوي كل المشكلة ، في الحقيقة . فان هذا التحول يعني ان المنظومات الصوتية التي كانت حتى عهدئذ صيحات ، أو دقات عفوية من العواطف القوية ، قد أصبحت تؤدي وظيفة جديدة كل الجدة ، إذ أصبحت رموزاً تنقل معاني محددة . وقد اقتبس يسبرسن نفسه ملاحظة لبنفي (Benfey) يقول فيها : إن بين صيحة التعجب والكلمة فجوة واسعة جداً حتى لتمكننا من القول بأن صيحة التعجب نفي^١ للغة ، لأن صيحات التعجب لا تستعمل إلا اذا كان مستعملها لا يستطيع الكلام أو لا يريد ان يتكلم . ويسبرسن نفسه يقول ان اللغة نشأت حين انتصر نقل المعاني على صيحات التعجب . وهذه الخطوة نفسها لا نجد لها تعليلاً في النظرية المتقدمة ، وانما هي مفترضة افتراضاً .

مثل من
جرايس
دي لاجونا

ومثل هذا النقد يصدق على الفكرة التي طوّرتها جرايس دي لاجونا في كتابها « الكلام - وظيفته وتطوره » . ففي هذا الكتاب نجد صورة تفصيلية محكمة للمشكلة ، حذفت منها الافكار الخيالية التي نجدها أحياناً لدى يسبرسن . ووصفت دي لاجونا الانتقال من الصيحة الى الكلام بأنه عملية من التدرج في بلوغ الموضوعية ، وهذا يتم حين تتنوع النعوت البدائية المتصلة بحال أو موقف ما ؛ وفي الوقت نفسه تتميز من الملامح الملحوظة في تلك الحال أو ذلك الموقف ، عندئذ « تبرز الموضوعات أو الاشياء وتُندرك أكثر

٨ - بسط يسبرسن هذه النظرية اولاً في كتابه « التقدم في اللغة » (لندن ١٨٩٤) وانظر ايضاً كتابه « اللغة ، طبيعتها وتطورها وأصلها » (لندن ونيويورك ١٩٢٢) ص : ٤١٨ ، ٤٣٧ وما بعدها .

مما يُحَسِّس ، وفي الوقت نفسه يتخذ هذا البروز المتزايد شكلاً منظماً...
 وأخيراً يظهر النظام الموضوعي للواقع ويصبح العالم معروفاً على حقيقته^(٩).
 وأقول : إن هذا التجسم المتزايد في الحال الموضوعية ، وهذا التنظيم التالي ،
 هما في الحقيقة أول واجب وأهم في اللغة الانسانية ، ولكنني أخفقت في أن
 ألحظ كيف تعلل النظرية التي ترى أصل اللغة صيحات - كيف تعلل
 لحدوث هذه الخطوة الحاسمة . وفي هذا الرأي الذي أوردته
 دي لاجونا لسنا نجد ما يملأ الفجوة بين صيحات التعجب والأسماء ، بل
 إن تلك الفجوة لتظل بكامل اتساعها . إن المؤلفين الذين مسألوا إلى
 الاعتقاد بأن الكلام قد تطور من حالة صيحات التعجب ، انقادوا بعد
 كل ذلك إلى النتيجة التي تقول إن الفرق بين الصيحات والأسماء أعظم
 وأوضح من التماثل بينهما . تلك حقيقة فذة عن أولئك المؤلفين ومنهم
 - مثلاً - جاردنر الذي يبدأ مقررأ أن بين اللغة الانسانية والحيوانية
 « تجانساً أساسياً » ، فإذا تقدم بنظرياته بضع خطوات أقر أن بين منطوقات
 الحيوانات والكلام الانساني فرقاً حيوياً يغطي على ما بينهما من تجانس أساسي^(١٠).
 فالتشابه البادي إنما هو في الحقيقة رابطة مادية لا تنفي التباين الوظيفي
 الصوري وإنما تثبته وتؤكداه .

- ٢ -

تراءت مسألة أصل اللغة في سحر خلاب لعيني العقل الانساني على مدى
 الأزمان . ومنذ أن بدأ فكر الانسان يرسل شيئاً من الأنوار أخذه العجب

٩ - جراس دي لاجونا : « الكلام : وظيفته وتطوره » (نيوهافن ، مطبعة جامعة ييل ١٩٢٧)
 ص : ٢٦٠ وما بعدها

١٠ - ألان هـ. جاردنر : « نظرية الكلام واللغة » (اكسفورد ١٩٣٢) ص : ١١٨ وما بعدها .

استمرار
البحث في
أصل اللغة

الفوضى
في معالجة
المشكلات
اللغوية

من هذه المسألة . ويحدثنا كثير من الحكايات الأسطورية كيف تعلم
الانسان الكلام من الاله نفسه أو بعون من معلم ملهم سايوي . ومن
السهل أن نفهم هذا الاهتمام بأصل اللغة إن نحن تقبلنا المقدمات الأولى
للفكر الاسطوري . فالأسطورة لا تعرف طريقة أخرى للتوضيح سوى
أن تعود إلى الماضي البعيد ، وأن تستمد صورة الحال الراهنة في العالم
المادي والانساني من هذه المرحلة الأولية للأشياء . ومن المدهش
المتناقض ان تكون هذه النزعة ما تزال سائدة أيضاً في الفكر الفلسفي .
الا ان مسألة التصنيف والتقسيم هنا ظلت على مدى عدة قرون
مغمورة بمسألة النشوء والتطور . وكان من المعتقد ان حل المشكلة المتعلقة
بالنشوء يعني حل كل المشكلات الاخرى تبعاً لذلك . ولكن هذا
الفرض لم يكن يجد مسوغاً من ناحية فلسفة المعرفة ؛ فقد علمتنا نظرية
المعرفة أننا يجب ان نضع دائماً خطأ قوياً فاصلاً بين مشكلات
النشأة ومشكلات التفريع والتصنيف . أما الخلط بين هذين النوعين من
المشكلات فانه خطر مضلل . كيف نسبت هذه القاعدة المنهجية عند
معالجة المشكلات اللغوية ، وقد تأملت اصولها في الفروع الاخرى من
المعرفة ؟ حقاً انه لمن الأهمية بمكان عظيم ان تكون لدينا الشواهد التاريخية
الكاملة عن اللغة ... أي أن نقدر على ان نجيب على سؤال من يسأل :
هل لغات العالم كلها منحدره من أصل مشترك او من اصول متباينة ،
وان نقدر على ان نتبع تطور التعبيرات الفردية والتأذج اللغوية خطوة إثر
خطوة . ولكن هذا كله لا يكفي لحل المشكلات الاساسية المتعلقة بفلسفة
اللغة . لأننا لا نقنع في الفلسفة بتغير الاشياء أو بالترتيب التاريخي للاحداث
بل علينا هنا ان نتقبل ، على نحو ما ، تعريف افلاطون للمعرفة الفلسفية -
وهو قوله إنها معرفة «أيسية» < وجود > لا معرفة «صيرورة» .

ومن المحقق ان ليس للغة وجود خارج الزمن أو وراء حدوده ، فهي ليست تلحق بعالم الافكار المجردة ، بل إن التغير ، من الناحية الصوتية والقياسية والسمانتية ، عنصر أساسي فيها . ومع ذلك فان دراسة كل هذه الظواهر لا تكفي لكي تجعلنا نفهم الوظيفة العامة للغة . اننا لنعتمد في تحليل كل شكل رمزي على المعلومات التاريخية ، ولا نستطيع الاجابة بطريقة تجريدية خالصة عن سؤال من يسأل : ما هي الاسطورة والدين والفن واللغة ؟ ومن الناحية الأخرى نرانا حين ندرس الدين والفن واللغة نلتقي دائماً بمشكلات بنائية عامة تنتمي إلى فرع آخر من المعرفة ، ولا بد من معالجة تلك المشكلات منفصلة إذ لا يمكن معالجتها ولا حلها بالبحوث التاريخية وحدها .

اتخاذ التاريخ
طريقاً لدرس
الكلام

وكان الرأي ما يزال في القرن السادس عشر سائداً متقبلاً بأن التاريخ هو السبيل الوحيد المؤدي إلى دراسة علمية للكلام الانساني . وكان الاساتذة الاكفاء الذين حققوا أعظم النتائج في الميدان اللغوي اناساً يسيطر عليهم الاهتمام بالتاريخ الى حدّ يضعف لديهم من أية نزعة فكرية أخرى . من هؤلاء يعقوب جريم الذي كان اول من وضع النحو المقارن للغات الجرمانية ، كما ان اللذين وضعوا النحو المقارن للغات الهندية الأوروبية هما بوب وبوت ، وكل عملها أ. شليخر وكارل بروجمان وب . دلبرك .

هرمان بول
والتاريخ
اللغوي

واول من أثار مسألة التاريخ اللغوي هو هرمان بول فقد كان على يقين من أن البحث التاريخي وحده لا يستطيع أن يحل كل مشكلات الكلام الانساني ، فأصرّ على ان المعرفة التاريخية تتطلب دائماً تكملة أو صلة منظمة ، وقال إن لكل فرع من فروع المعرفة التاريخية علماً مشابهاً يعالج الاحوال العامة التي تتطور فيها المواد التاريخية ، كما يعالج الاستفسارات

عن تلك العوامل التي تظل ثابتة اثناء تغيرات الظواهر الانسانية كلها^(١١) .
غير ان القرن التاسع عشر لم يكن فحسب قرناً تاريخياً بل كان أيضاً
سيكولوجياً ، ولذلك كان من الطبيعي أن يقال : ان من شاء قواعد التاريخ
اللغوي ، فليبحث عنها في ميدان علم النفس ؛ وكان هذان العلمان هما موئل
الدراسات اللغوية ، يقول ليونارد بلومفيلد :

« عالج هرمان بول واكثر معاصريه اللغات الهندية الأوروبية
فقط وأبوا أن يشتغلوا في لغات يجهلون تاريخها ، مثلما اغفلوا
المشكلات الوصفية . وقد جال هذا التحديد بينهم وبين معرفة
نماذج أخرى من المبنى التحوي ، كانت تستطيع ان تفتح أعينهم
على أن الملامح الأساسية لنحو اللغات الهندية الأوروبية ليست
بأي حال ملامح عامة للكلام الانساني كله .. والى جانب هذا
التيار الكبير من البحث التاريخي كان هناك تيار صغير سريع من
الدراسات اللغوية العامة .. فقد أخذ بعض الدارسين يبصرون
بوضوح متزايد العلاقة الطبيعية بين الدراسات الوصفية والتاريخية ،
ووضّح اختلاط هذين التيارين من الدراسة ، - أعني التيار
التاريخي المقارن والفلسفي الوصفي - بعض المبادئ التي لم تكن
ظاهرة لمن قصرُوا البحث في اللغات الهندية الأوروبية في القرن
التاسع عشر .. وأسست كل الدراسات التاريخية للغة على المقارنة
بين مجموعتين أو أكثر من المعلومات الوصفية . وكان نصيب تلك
الدراسات من الدقة والكمال بمقدار ما تسمح به تلك المعلومات ،
وليس المرء بحاجة الى المعرفة التاريخية ، أياً كانت ، في وصف

١١ - هرمان بول: « مبادئ تاريخ اللغة » (هاله ١٨٨٠) الفصل الاول ، والترجمة الانكليزية
بقلم ه. أ. سترونج (نيويورك ، مكجيلان ١٨٨٩) .

اللغة ، بل الحق أن من يسمح لهذه المعرفة أن تؤثر في وصفه
فإنما يشوه معلوماته حتماً ؛ لا بد من أن يكون الوصف الذي
نضعه منتصفاً إن كنا نريد أن نتخذ منه أساساً ركيناً للعمل
المقارن (١٢) .

ووجد هذا المبدأ المنهجي أول تعبير عنه ، وربما قلنا أقدم تعبير ،
في مؤلفات عالم لغوي ومفكر فلسفي عظيم ، ذلك هو فلهم فون هبولت .
الذي خطا أول خطوة نحو تصنيف لغات العالم وردّها الى نماذج اساسية
معينة . ولم يستطع من أجل هذه الغاية أن يكتفي بالمناهج التاريخية
وحدها لأن اللغات التي درسها لم تعد مقصورة على النماذج الهندية
الأوروبية ، فقد كان اهتمامه شاملاً يحيط بميدان الظواهر اللغوية كله ،
فقدم أول وصف تحليلي للغات الامريكيين الأصليين مفيداً من المادة الغنية
التي عاد بها أخوه الكسندر فون هبولت من رحلاته الاستكشافية في
القارة الأمريكية . وقد كتب ف . فون هبولت في الجزء الثاني من مؤلفه
العظيم أوّل نحو مقارن للغات الاندونيسية والميلانيزية (١٣) ؛ ولم يكن
لديه أي معلومات تاريخية لكتابة ذلك النحو لان تاريخ تلك اللغات كان
مجهولاً تماماً . وكان على هبولت أن يمارس المشكلة من زاوية جديدة
وأن يمهّد الطريق أمام نفسه .

١٢ - بلومفيلد : « اللغة » (نيويورك ، هولت وشركاء ١٩٣٣) ص : ١٧ وما بعدها .
« [راجع فصلاً عن هبولت في فلسفة الاشكال الرمزية للمؤلف نفسه ١ : ١٥٥ - ١٦٣
من الترجمة الانجليزية ، وقد استخلص المؤلف ثلاث نقاط تدور حولها فلسفة هبولت في اللغة وهي
ان اللغة تمثل ناحية ذاتية وفكرة موضوعية وتتركب من مادة وصورة] (المترجم) .
١٣ - برلين (١٨٣٦ - ١٨٣٩) ، انظر « مجموعة مؤلفات هبولت » (أكاديمية برلين)
الجزء السابع ، القسم الاول .

غير ان مناهجه بقيت تجريبية ، ليس إلا ، إذ كانت مؤسسة على
محض المشاهدة ، دون أدنى تأمل . إلا أن هبولت لم يقنع بوصف
الحقائق واحدة إثر واحدة ، وإنما استمد من حقائقه استنتاجات عامة ذات
شمول كثير . فقرر ان من المستحيل على الباحث ان يكسب بصرأ نافذاً
في طبيعة الكلام الانساني ووظيفته إن كان يظن انه مجموعة من « الكلمات » .
فالفارق الحقيقي بين اللغات ليس فرقاً في الاصوات والحروف وإنما هو
فرق في « مجالي النظر الكونية » (Weltansichten) . فاللغة ليست مجموعة
آلية من المصطلحات ، واذا فسختها الى كلمات ومصطلحات فمعنى
ذلك اننا نجزئها ونبتل نظامها ونفككها . ومثل هذه الفكرة ضار بأي
دراسة تتناول الظواهر اللغوية ، إن لم يكن خطراً عليها . ويؤكد هبولت
أن الكلمات والقواعد التي تكون اللغة ، حسبما يجري في خواطرنأ عادة ،
لا وجود لها في الحقيقة إلا في الكلام المترابط ، فاذا اعتبرنا تلك الكلمات
والقواعد وحدات منفصلة فما ذلك إلا « نتاج ميت لتحليلاتنا العلمية
المتسرة » . يجب ان نعتبر اللغة « طاقة » لا « شغل » ، إرجأ <
ليست اللغة شيئاً جاهزاً وإنما هي عملية مستمرة ، هي « شغل » يكرره
العقل الانساني ابدأ مستخدماً الأصوات المنطوقة ليعبر عن الفكر^(١٤) .

وكان ما كتبه هبولت خطوة بارزة في الفكر اللغوي ، بل كان أزيد
من ذلك لأنه كان فاتحة عصر جديد في تاريخ فلسفة اللغة . ولم يكن
هبولت دارساً متخصصاً في ظواهر لغوية معينة ولا كان متافيزيقياً مثل
شلنج وهيجل . وإنما سار على المنهج « النقدي » الذي وضعه كانت
دون أن ينهمك في التفكير في جوهر اللغة او اصلها . وهو لا يذكر

١٤ - هبولت : المصدر نفسه : ٤٦ وما بعدها . وقد قدمت تحليلاً تفصيلياً لنظرية هبولت في
كتابي « فلسفة الاشكال الرمزية » ١ : ٩٨ وما بعدها . [وانظر التعليق السابق رقم : ١٢] .

مشكلة اصل اللغة أبدأ في كتابه ، وانما عُني فيه بمشكلات المبنى . واليوم قد اصبح العلماء يجمعون على ان تلك المشكلات لا تُحل عن طريق المناهج التاريخية وحدها ، وهم من مختلف المذاهب وفي شتى الميادين متفقون بالاجماع على القول بان علم اللغة التاريخي لم يجعل من علم اللغة الوصفي حشواً زائداً لأن الاول يجب ان يُؤسس دائماً على وصف مراحل التطور في اللغة — وصف المراحل التي نستطيع ان نبليها مباشرة (١٥) .

تطور علم اللغة
مشبه لتطور
سائر العلوم

ومن الحقائق الفذة الهامة من زاوية التاريخ العام للأفكار أن علم اللغة ، في هذا المجال ، قد تعرّض لنفس التغير الذي تعرضت له سائر فروع المعرفة . أي أن الوضعية القديمة قد خلفها مبدأ جديد قد نسميه « البنائية » . ذلك هو ما حدث في العلوم كعلم الطبيعيات القديمة ، فقد كان علماء الطبيعيات يعتقدون أننا من أجل الكشف عن قوانين عامة للحركة يجب أن نبدأ دائماً بدراسة حركات « النقط المادية » . وبنى الجرانج « الميكانيكا التحليلية » على هذا المبدأ ، ثم جاء فردي وماكسويل فاكشفوا قوانين المجال الكهربى المغناطيسى فأتجهت تلك القوانين الى نتيجة مضادة للسابقة ، إذ اتضح أن المجال الكهربى المغناطيسى لا يمكن ان يجرأ إلى نقاط مفردة . ولم يعد الالكترتون يعتبر وحدة مستقلة ذات وجود قائم بنفسه ، وإنما عُرف بأنه نقطة حد في المجال كله ، وهكذا نشأ نوع جديد من الطبيعيات $\langle \text{field - physics} \rangle$ ابتعد في وجوه كثيرة عن الفكرة السابقة في الميكانيكا القديمة .

ونجد في البيولوجيا أيضاً تطوراً مشابهاً ، ذلك أن النظريات

١٥ - انظر مثلاً يهرسن : « فلسفة النحو » (نيويورك ، هولت وشركاه ١٩٢٤) ص :

٣٠ وما بعدها .

« الهولستية » . الجديدة التي سادت منذ أوائل القرن العشرين قد عادت إلى التعريف الارسطوطاليسي القديم للكائن العضوي ، فأكدت أن « الكل سابق للجزء » في العالم العضوي . ولا تنكر هذه النظريات حقائق التطور إلا أنها لم تعد تستطيع أن تفسرها بنفس المعنى الذي كان يراه داروين أو الداروينيون المخلصون^(١٦) . وأما السيكولوجيا فإنها ، إلا قليلاً ، تبعت طريقة هيوم ، خلال القرن التاسع عشر ، أي كانت ترى أن الطريقة الوحيدة لتعليل الظواهر النفسية هي ردها إلى عناصرها الأولى ، وأن الحقائق المركبة ليست إلا تجمعاً من حقائق حسية بسيطة . وقد انتقد المذهب الجشطالتي الحديث هذه الفكرة وقضى عليها وبذلك عبّد الطريق أمام نوع جديد من السيكولوجيا « البنائية » .

فاذا انتحل علم اللغات هذا المنهج نفسه وزاد من تركيزه على المشكلات البنائية ، فهذا لا يعني طبعاً أن الآراء السابقة قد فقدت شيئاً في جانب الأهمية والاثارة ، ولكن الابحاث اللغوية بدلاً من أن تسير في خط مستقيم وتخصر اهتمامها في الترتيب الزمني لظواهر الكلام ، اتخذت خطأً يبضي الشكل ذا نقطتين مركزيتين مختلفتين . وأوغل بعض اللغويين إلى حد أن قالوا : إن جمع الآراء الوصفية والتاريخية خطأً من الناحية المنهجية ، (وكان الجمع بين تلك الآراء علامة مميزة لعلم اللغات خلال القرن التاسع عشر) حتى إن فرديناند دي سوسير صرّح في محاضراته بأننا لا بد أن نتخلى عن فكرة « النحو التاريخي » . لأن النحو التاريخي في رأيه فكرة مولدة تحتوي عنصرين متباعين لا يمكن جعلهما في مقام واحد أو دمجهما

زيادة
التركيز على
المشكلات
البنائية

دي سوسير
وقسمه اللغة
في قسمين

• [يعني بالنظريات الهولستية تلك النظريات التي ترى أننا في مختلف ميادين المعرفة لا نستطيع معرفة الأجزاء إلا من خلال معرفة الكل] . (المترجم)

١٦ - انظر ح . ب . س . هالدين : « أسباب التطور » (نيويورك ولندن ١٩٣٢) .

في كل "عضوي". ويرى سوسير ان دراسة الكلام الانساني ليست موضوع علم واحد، وإنما هي موضوع علمين، وفي مثل هذه الدراسة علينا أن نميز بين محورين مختلفين: «محور الآنية» و«محور التعاقب». والأول منهما هو الذي ينتمي اليه النحو بطبيعته وجوهره. وقد خطّ دي سوسير خطاً فاصلاً بين «اللغة» و«الكلمة»: فاللغة عامة كلية، أما عملية الكلام فإنها فردية جزئية من حيث انها عملية مؤقتة، لأن لكل فرد طريقته في التكلم، لكننا في التحليل العلمي للغة لا نعبر الفروق الفردية اهتماماً، وإنما ندرس حقيقة اجتماعية تتبع قواعد عامة - قواعد مستقلة تماماً عن الفرد المتكلم. ولا تستطيع اللغة دون هذه القواعد أن تؤدي واجبها الأول أي لا يمكن استعمالها وسيلة للاتصال بين كل الأفراد في المجتمع المتكلم. أما علم اللغة «الآني» فإنه يعالج العلاقة البنائية الثابتة في أي آن. وأما علم اللغة «التعاقبي» فإنه يعالج كيف تتعين الظواهر وتتطور خلال الأزمنة المتعاقبة (١٧).

ويمكن درس الوحدة البنائية الاساسية للغة واختبارها بطريقتين، لأن هذه الوحدة تظهر في جانبين: جانب المادة وجانب الصورة، وتعلن عن نفسها في نظامها الصوتي لا في نظام الصور النحوية فحسب. وتعتمد شخصية اللغة على هذين العاملين، إلا ان المشكلات البنائية في علم التغيرات الصوتية phonology اكتشفت متأخرة بالنسبة لمشكلات علم تركيب الجمل وعلم بنية الكلمات <المورفولوجيا>. ومن الواضح الذي لا يعتوره شك أن لأشكال الكلام نظاماً وثباتاً. وقد أصبح تصنيف تلك الاشكال وردها الى قواعد محددة من أولى واجبات النحو العلمي. وقد بلغت

المشكلات
البنائية في
الفونولوجيا

١٧ - انظر محاضرات فرديناند دي سوسير، نشرت بعد وفاته، بعنوان «اتجاه علم اللغة العام» (١٩١٥، والطبعة الثانية باريس ١٩٢٢).

مناهج هذه الدراسة درجة عالية من الكمال في دور جدّ مبكر . وما يزال علماء اللغة المحدثون يشيرون الى نحو السنسكريتية الذي وضعه بانيني في تاريخ يقع بين عامي ٣٥٠ ، ٢٥٠ ق.م . ، ويرون فيه معلماً من اعظم معالم الذكاء الانساني ، ويؤكدون انه لم توصف لغة اخرى بهذا النحو من الكمال كما وصفت السنسكريتية . وقام نخاعة يونان بتحليل دقيق لاقسام الكلام التي وجدوها في اللغة الاغريقية واهتموا بكل انواع الامور التركيبية والأسلوبية . ولم يكن الوجه الماديّ للمشكلة معروفا وظلت اهميته غير مدركة حتى أوائل القرن التاسع عشر . عندئذ قامت المحاولات الاولى لمعالجة ظواهر التغير الصوتي بطريقة علمية . وبدأ علم اللغات التاريخية بالبحث عن مشابه صوتية موحدة ، وفي سنة ١٨١٨ أبان ر . ك . راسك أن بين الكلمات في اللغات الألمانية والكلمات في اللغات الهندية الأوروبية الأخرى علاقات صورية منتظمة في شؤون الصوت .

وقدّم يعقوب جريم في نحو اللغة الألمانية عرضاً منظماً للشابه في الاحرف الصامتة بين اللغات الألمانية وسائر اللغات الهندية الأوروبية . وكانت هذه الملاحظات الاولى هي أساس علم اللغة الحديث والنحو المقارن . وكان الحب الرومنطقي للماضي هو النبع الأول العميق الذي استمد منه جريم إلهامه . وهذه الروح الرومنطيقية نفسها هي التي قادت فريدريك شليجل الى استكشاف لغة الهند وحكمتها (١٨) . وتوجه الاهتمام بالدراسات اللغوية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بقوة دوافع فكرية أخرى ، فأخذ التفسير الماديّ يسود تلك الفترة ، وظهر من ندعوهم : « النحويون الجدد » ، وكان جل همهم ان يثبتوا أن مناهج علم اللغات تقف على مستوى واحد مع مناهج العلوم الطبيعية . واذا شاء علم اللغات أن يعتز

ظهور
التفسير
المادي على
يد النحويين
الجدد

علماً مضبوطاً فانه لا يستطيع ان يَقْنَعَ بقواعد تجريبية غامضة تصف أحداثاً تاريخية بأعيانها . ولا بد له من ان يستكشف قوانين تشابه في صورتها المنطقية القوانين العامة في الطبيعة . وبما يثبت وجود هذه القوانين تلك الظواهر من التغيرات الصوتية . وقد أنكر « النحويون الجدد » ان هناك تغيراً صوتياً تتباعد أجزاؤه في الزمن بل قالوا إن كل تغير صوتي ، يتبع قواعد سديدة لا تتلهم واذن فان واجب علم اللغة ان يتبع - عوداً - كل ظواهر الكلام الانساني حتى يبلغ هذه الطبقات الأساسية ، أي القوانين الصوتية ، وهي قوانين ضرورية لا تسمح بأي شذوذ (١٩) .

مرحلة اخرى
من التطور في
الاتجاه البنائي

وقد تطور الاتجاه البنائي الحديث في مؤلفات تروبتزكوي وفي أعمال الحلقة اللغوية في براغ . فعولجت المشكلة على أيدي هؤلاء جميعاً من زاوية مختلفة . ولم يفقد هذا الاتجاه أمله في ان يعثر على « ضرورة » في ظواهر الكلام الانساني ، بل لعله أكد هذه الضرورة . ولكن الاتجاه البنائي كان لا بد له من أن يعيد تعريف فكرة الضرورة ، ويفهمها في معنى غائي لا في معنى عِلِّيٍّ فحسب . اللغة نظام لا محض مجموعة من الأصوات والكلمات . ومن ناحية أخرى لا يمكن وصف نظامها التقسيمي التفريعي بمصطلحات العلية المادية أو التاريخية ، فلكل مصطلح من المصطلحات مبناه الخاص به من الناحيتين الصورية والمادية . وإذا فحطنا فونيات اللغات المختلفة > أي أصغر وحداتها < وجدنا نماذج متباينة لا يمكن حشدها تحت خطة موحدة صارمة . وتبرز اللغات المختلفة باختيارها لهذه الفونيات خصائصها الذاتية المميزة . ومع ذلك فانه من المستطاع دائماً أن

(١٩) طور هذا المنهج هـ. اسثوف وك. بروجمان في « أبحاث مورفولوجية » (ليبزج ١٨٧٨)
وانظر تفصيل ذلك في برومفيلد ، المصدر نفسه ، الفصول : ١ ، ٢٠ ، ٢٦

نظهر علاقة صارمة بين فونيات لغة ما ، وهذه العلاقة نسبية لا مطلقة ، هي علاقة فرضية لا يقينية ، أي لا نستطيع أن نستنتجها ابتداء *a priori* من قواعد منطقية عامة ، وإنما علينا أن نعتمد فيها على معلوماتنا التجريبية. ولكن حتى هذه المعلومات نفسها تتمتع بتطابق داخلي . وحالما نجد معلومات أساسية فتحن في موقف يمكننا من أن نستمد منها معلومات أخرى تتصل بها دون تغير . يقول ف. برونديل - وهو يحاول أن يكون نهجاً لهذا الاتجاه البنائي الجديد - : « إن كان لنا أن ندرس أحوال المبنى اللغوي فيجب أن نميز في الأجهزة الفونولوجية والمورفولوجية ما هو ممكن مما هو مستحيل وما هو محتمل مما هو ضروري » (٢٠).

وإذا قبلنا هذه النظرة فلا بد من أن ندرس كل شيء في اللغة ، حتى الأساس المادي للكلام الإنساني ، حتى الظواهر الصوتية نفسها ، بطريقة جديدة ومن وجهة مختلفة . وفي الحق لن نعود قادرين على أن نقر بأن هناك أساساً مادياً فقط . إذ التمييز بين الصورة والمادة قد دلّ على أنه امر مصطنع غير ملائم . لأن الكلام وحدة لا تنقسم ولا يمكن قسمتها في هذين العاملين المستقلين المتباعين وهما الصورة والمادة . وفي هذا المبدأ عينه يقع الفرق بين علم التغيرات الصوتية الحديثة وبين النماذج القديمة من علم الاصوات (*Phonetics*) . فالذي ندرسه في علم التغيرات الصوتية هو أصوات متميزة لا أصوات مادية ، وعلم اللغات لا يهتم بطبيعة

(٢٠) ف. برونديل : « التركيب والتنوع في النظام المورفولوجي » نشر في *Scientia* (أغسطس ١٩٣٥) ص: ١١٩ . وإذا شئت تفصيلات من مشكلات الاتجاه البنائي الحديث ومناهجه فانظر البحوث التي نشرت في « أعمال الحلقة اللغوية في براغ » (١٩٢٩ وما بعدها) وخاصة بحث العالم ه. ف. بوس « مجالات الاتجاه البنائي » (١٩٢٩) ص: ٧١ وما بعدها . وقد قدم رومسان جا كوبيسون وصفاً عاماً لتاريخ هذا الاتجاه في « المدرسة اللغوية في براغ » ونشر في *La cultura* (السنة : ١٢) ص : ٦٣٣ وما بعدها .

الاصوات وانما يهتم بوظيفتها السمائية . وقد كانت المذاهب الوضعية في القرن التاسع عشر ترى أن علم الاصوات والسمائيات يحتاجان دراسة منفصلة قائمة على مناهج مختلفة . فكانت اصوات الكلام تعتبر ظواهر مادية يمكن ان توصف ، بل لا بد من ان توصف ، بمصطلح الطبيعيات والفيزيولوجيا . وكان النحويون الجدد يرون من الزاوية المنهجية العامة ان مثل هذه الفكرة ضروري ، فضلاً عن أنها الفكرة الوحيدة المفهومة ، لان فكرتهم الاساسية - وهي الفكرة التي تقول ان القوانين الصوتية لا تسمح بشذوذ - كانت مؤسسة على افتراض ان التغير الصوتي يتم مستقلاً عن عوامل غير صوتية . وبما أن التغير الصوتي ليس إلا تغيراً في عادة النطق فقد ظنوا أنه لا بد من أن يؤثر في الفونيم في كل حال بقطع النظر عن طبيعة أي شكل لغوي معين يرد فيه الفونيم . غير أن هذه الثنائية اختفت من علم اللغات الحديث ، فلم يعد علم الأصوات ميداناً منفصلاً بل أصبح جزءاً أساسياً من السمائيات ذاتها . ذلك لأن الفونيم وحدة معنى لا وحدة مادية . وقد عرف بأنه أصغر وحدة لمظهر صوتي واضح ، وبين المظاهر الصوتية لأي منطوق توجد مظاهر هامة متميزة لأنها تستعمل لتعبير عن فروق المعنى بينما هناك مظاهر أخرى غير واضحة . فتغيير درجة الصوت في اللغة الصينية ، من أهم الوسائل لتغيير معاني الكلمات بينما لا يكون لهذا التغيير في الدرجة أدنى أهمية في لغات أخرى^(٢١) . وهناك كثرة لا تحصى من الأصوات المادية الممكنة ، وكل لغة تختار منها عدداً محدوداً من الاصوات تتخذها فونيات لها . إلا أن الاختيار لا يتم عفواً واتفاقاً ، لان الفونيات

اثر الفونيات
في استقلال
اللفظة

٢١ - في اسرة اللغات الهندية الاوروبية لا اعرف واحدة سوى اللغة السويدية يكون فيها تغيير الدرجة الصوتية ذا وظيفة سمائية محددة . ففي بعض الكلمات السويدية قد يتغير المعنى تغيراً تاماً إذا خرج الصوت حاداً أو بطيئاً .

تكون كلاً متلائماً ، ولذلك يمكن إرجاعها إلى نماذج عامة - نماذج صوتية معينة^(٢٢) ، وهذه النماذج الصوتية من أثبت الملامح اللغوية وأسطعها . ويؤكد ساير أن كل لغة تنزع الى ان تحتفظ بأنموذجها الفونيمي سليماً ، فيقول : « سنمزو التوافقات والتخالفات الكبرى في الصورة اللغوية ، أي في الانموذج الصوتي والمورفولوجيا الى انسياق اللغة ذاتياً لا الى التأثير المحير الذي تحدته مظاهر منبثة متوزعة ، تتجمع حيناً على هذا النحو وحيناً على ذاك . ولعلّ اللغة من أشد الظواهر الاجتماعية استقلالاً ذاتياً ، وأكثر تلك الظواهر مقاومة بكل ثقلها . ومن السهل ان نقتلها ، لكن ليس من السهل ان نجزيء صورتها الفردية ونفككها »^(٢٣) .

ما هي هذه « الصورة الفردية » للغة ؟ سؤال من الصعب ان نجيب عليه ، لأنه كلما واجهنا وقعنا في ورطة منطقية إذ علينا ان نتحاشى طرفين ، أي حلين جذريين غير كافيين ، من بعض الوجوه . واذا كان القول بأن لكل لغة صورتها الفردية يعني بأنه لا حاجة الى البحث عن ملامح مشتركة في الكلام الانساني فعلياً ان نقر بان محض التفكير في فلسفة لغة انما هو قلعة نشاد في الفضاء ؛ ولكن الشيء الذي يلحقه الاعتراض من زاوية النظر التجريبية ليس هو وجود هذه الملامح بقدر ما هو وضعها وتقريرها بوضوح .

هل لكل لغة
صورة فردية
مستقلة ؟

٢٢ - انظر تفصيلات لدى برومفيلد ، المصدر نفسه ، وبخاصة الفصلين الخامس والسادس .

٢٣ - ساير : « اللغة » : ٢٢٠ . انظر في الفرق بين علم التغيرات الصوتية وعلم الاصوات مقالاً لترويتزكي في Journal de psychologie (باريس ١٩٣٣) المجلد : ٣٠ . ويرى هذا العالم ان مهمة علم الاصوات دراسة العوامل المادية في اصوات الكلام الانساني أي ذبذبات الهواء التي تنتج أصواتاً مختلفة أو حركات تبهث اصواتاً من المتكلم . أما علم التغيرات الصوتية فانه يدرس الفونيات بدلا من دراسة الاصوات المادية أي يدرس العناصر التي تؤلف المعنى اللغوي . وفي هذا العلم يكون الصوت هو الرمز المادي للفونيم ، اما الفونيم فانه لا مادي لأن المعنى لا يوصف بمصطلح الفيزيا أو الفيزيولوجيا .

وقد كان مصطلح « لوجوس » في الفلسفة الاغريقية يوحى دائماً بفكرة التماثل الاساسي بين عمل الكلام وعمل الفكر ، ويؤيد هذه الفكرة . وكان فلاسفة يونان يعتقدون ان النحو والمنطق فرعان مختلفان من فروع المعرفة تماثل المادة فيهما . حتى المناطق المحدثون الذين ابتعدت بهم نظمهم الفكرية عن المنطق الارسطوطاليسي القديم لا يزالون يرون هذا الرأي نفسه . من هؤلاء جون ستيوارت مل وموجد « المنطق الاستقرائي » فانه يؤكد ان النحو هو الجزء الاولي من المنطق ، لانه بدء تحليل عملية التفكير ، ويرى مل ان سباديء النحو وقواعده هي الوسائل التي بها تصبح صور اللغة مماثلة لصور الفكر الكلية العامة . ولم يكتف مل بهذا القول بل زعم ان القسم من أقسام الكلام - وهو نظام مستخرج من النحو الاغريقي واللاتيني - يتمتع بصحة عامة موضوعية . وكان مل يعتقد ان التفرقات بين مختلف اقسام الكلمة ، بين احوال الاسم وتصرفات الفعل وازمته ووظائف المشتقات ، كلها تفرقات في الفكر لا في الكلمات فحسب وقد قال : « ان تركيب كل جملة درس في المنطق »^(٢٤). الا ان تقدم البحث اللغوي جعل هذا الموقف لا يجد له مؤيداً مع الزمن ، فقد أدرك الباحثون - بوجه عام - ان نظام أقسام الكلام ليس ذا طابع ثابت موحد ، وانما يختلف بين لغة واخرى . ولاحظوا زيادة على ذلك ان هناك ملامح كثيرة لتلك اللغات التي اشتقت من اللاتينية لا يمكن ان يعبر عنها بما في النحو اللاتيني من مصطلحات ومقولات . وكثيراً ما أكد دارسو الفرنسية ان النحو الفرنسي كان يمكنه ان يتخذ له شكلاً آخر لو لم يكتبه تلامذة ارسطوطاليس . ورأوا ان تطبيق مميزات النحو اللاتيني على الانجليزية

رأي مل في
العلاقة بين
المنطق
والنحو

ظواهر
الفردية في
المتغيرات
من لغة واحدة

٢٤ - الفقرة التالية تعتمد على مقال لي بنوان « تأثير اللغة في تطور الفكر العلمي » نشر بمجلة

الفلسفة ٣٩ عدد ١٢ (يونيه ١٩٤٢) : ٣٠٩ - ٣٢٧

أو الفرنسية قد أنتج عدة أخطاء خطيرة ، وأنه كان عقبة كؤوداً أمام وصف الظواهر اللغوية وصفاً عادلاً منصفاً (٢٥) . وكثير من المميزات النحوية التي نظنها أساسية ضرورية تفقد قيمتها ، أو على الأقل تصبح محطاً للشك ، إذا نحن اخترنا لغات لا تنتمي إلى الاسرة الهندية الاوروبية . وهكذا تجلّى أن وجوب وجود نظام محدد متفرد من أقسام الكلام يعتبر مكوناً ضرورياً من مكونات الكلام العقلي والفكري - تجلّى أن ذلك كان وهماً خادعاً (٢٦) .

وهذا كله لا يثبت أننا يجب أن نطرح الفكرة القديمة ، فكرة إيجاد نحو عام مؤسس على مبادئ عقلية ، ولكن علينا أن نعيد تعريف هذه الفكرة ونشكلها على وجه جديد . أما أن تمتطّ كل اللغات لكي تلائم جهازاً مفصلاً على قدرها من أقسام الكلام فتلك محاولة ضائعة وقد غلا كثير من اللغويين المحدثين فحذرونا من استعمال هذا المصطلح نفسه « نحو عام » ظانين أنه يمثل صنفاً لا مثلاً علياً (٢٧) . ولكن هذه النزعة الغالية لم تشمل كل الدارسين في هذا الميدان ، بل لقد بذلت محاولات جادة لتأييد وجود نحو فلسفي والدفاع عنه ، وقد كتب أوتو يسبرسن كتاباً خصّصه لفلسفة النحو ، وحاول أن يبرهن فيه على أن هناك بعض المقولات المستقلة عن الحقائق العارضة في اللغات القائمة ، وأنها توجد إلى جانب المقولات التركيبية التي تعتمد على مبنى كل لغة حسبما وجدت في الواقع - أو توجد فوقها أو من ورائها ؛ وأن تلك المقولات المستقلة كليةً من حيث أنها تنطبق على اللغات جميعاً ، وقد اقترح يسبرسن

هل يمكن وضع نحو عام

هل هناك مقولات كلية تنطبق على جميع اللغات

٢٥ - انظر ف . برونو : « الفكر واللغة » (باريس ١٩٢٢) .

٢٦ - انظر تفصيلات أخرى عند برومفيلد ، المصدر نفسه : ٦ وما بعدها ؛ وسابير ، المصدر نفسه : ١٢٤ وما بعدها .

٢٧ - انظر مثلاً فندريه : « اللغة » (باريس ١٩٢٢) : ١٩٣ .

أن تسمى تلك المقولات « تصوّرية » Notional ، وعد من واجب النحوي في كل حال أن يبحث العلاقة بين هذه المقولات التصورية والمقولات المتصلة بتركيب الجمل . وقد عبّر علماء آخرون عن هذا الرأي نفسه ومنهم هيلمستف وبروندل (٢٨) . ويرى سابير أن كل لغة تحتوي مقولات معينة ضرورية لا غنى عنها إلى جانب مقولات أخرى ذات طابع عارض (٢٩) ، إذن فإن فكرة نحو فلسفي أو عام لم يوهن منها ، بأي حال ، تقدّم البحث اللغوي وإن كنا لم نعد نرجو تحقيق هذا النحو بالطرق البسيطة التي كانت تستعمل في المحاولات السابقة . وعلى الكلام الانساني أن ينجز مهمة اجتماعية تعتمد على ظروف اجتماعية معينة لدى الهيئة الاجتماعية المتكلمة ، وأن لا يكتفي بانجاز مهمة منطقية شاملة ، ومن ثم لا نستطيع أن نتوقع تماثلاً « حذو النعل بالنعل » بين الصور النحوية والمنطقية ؛ ذلك أن التحليل التجريبي أو الوصفي للصور النحوية يزاوّل مهمة أخرى ويقود إلى نتائج أخرى غير ذلك التحليل البنائي الذي قدمه كارناب — مثلاً — في مؤلف له عنوانه : « التركيب المنطقي للغة » .

— ٣ —

من أجل ان نجد قبساً يهدي خطانا في التيه المعقد المحير ، تيه الكلام الانساني ، فقد نتقدم الى المسألة من وجهين ، ونحاول ان نجد نظاماً منطقياً وتفريعياً أو نظاماً تاريخياً ونشوتياً . وفي الحال الثانية نحاول ان

٢٨ — انظر هيلمستف : « قواعد النحو العام » (كوبنهاجن ١٩٢٨) ، وبروندل « صنوف الكلمات » « Ordklassarne » (كوبنهاجن ١٩٢٨) .
٢٩ — سابير ، المصدر نفسه : ١٢٤ وما بعدها .

تنتبع الاصطلاحات المفردة والنماذج اللغوية المتنوعة الى ان نصل بها الى مرحلة بسيطة لم يقبلور شكلها . وكثيراً ما مارس مثل هذه المحاولات لغويو القرن التاسع عشر عندما شاع الرأي بأن الكلام الانساني مرّ ، قبل ان يبلغ صورته الراهنة ، في حال لم تكن فيها صوراً محددة صرفية أو مورفولوجية . أي ان اللغات في البداية كانت تتألف من عناصر بسيطة ، من جذور أحادية المقطع . وقد رحبت الرومنطيقية بهذا الرأي ، فبسط ١. ف. شليجل نظرية ذهب فيها الى ان اللغة تطورت عن حال سابقة غير منظمة غير متبلورة ، ومن هذه الحال مرت على الترتيب بمراحل أعلى - هي : مرحلة العزل ومرحلة التلاصق ومرحلة التصريف . ويرى شليجل ان اللغات المتصرفة هي آخر خطوة في هذا التطور ، وانها في الحقيقة لغات عضوية ، إلا أن التحليل الوصفي النفاذ حطّم الشواهد التي تنبني عليها مثل هذه النظريات في أكثر الاحوال . فقد كانت اللغة الصينية تتخذ مثلاً على اللغة المؤلفة من أصول أحادية المقاطع ، ولكن البحث دلّ على أنه من المحتمل ان هذه اللغة قد مرّت قبل مرحلة العزل الحالية بمرحلة تصريفية (٣٠) . ونحن لا نعرف لغة خالية من عناصر صورية او بنائية ، وإن كان التعبير عن العلاقات الصورية كالفرق بين الفاعل والمفعول وبين الصفة والخبر يختلف اختلافاً بعيداً بين لغة واخرى . وبدون الصورة تظهر اللغة وكأنها تركيب تاريخي بشير الشك والتساؤل بل تظهر وكأنها تناقض في المصطلحات . وليست لغات الشعوب غير المتمدينة غير صورية بأي حال ، بل على العكس من ذلك تبدي تلك اللغات في أكثر الاحوال مبنى معقداً . وقد صرح أ. ميه وهو عالم لغوي حديث

الغة تطورت
من جذور
ذات مقطع
واحد

ضع النظرية
الرومنطيقية

رأي ميه في
الغة البدائية
يرد على فكرة
التطور من
جذر أحادي

٣٠ - انظر ب. كارلجرون « اللغة الصينية الاولى لغة تصريفية » في Journal asiatique

يملك معرفة شاملة بلغات العالم - صرح أنه ليس ثمة تعبير معروف بـصور لنا أدنى فكرة عما كانت عليه اللغة البدائية ، وأن كل صور الكلام الانساني كاملة بمقدار ما توفق في التعبير عن المشاعر والافكار الانسانية ، على نحو واضح مناسب . فما يسمى لغات بدائية مناسب تمام المناسبة لأحوال المدنية البدائية وللبل العام لدى العقل البدائي ، مثلما أن لغاتنا مناسبة لغايات حضارتنا المرفهة الراقية . فثلاً في لغات البانتو يتبع كل اسم فئة معينة ، وكل فئة معينة تتميز بقطع قبلي* (Prefix) ، ولا تظهر هذه المقاطع القبليّة في الأسماء وحدها بل تعاد حسب نظام معقد من التوافقات والتطابقات في كل الأجزاء الأخرى التي تشير الى الاسم في تلك الجملة (٣١) .

وان تنوع التعبيرات المفردة وتكثر النماذج اللغوية ليظهران في ضوء مختلف يعتمد على الزاوية التي ينظر اليها منها : أ تكون زاوية فلسفية او علمية . فالعالم اللغوي ينتهج بهذا التنوع فيغوص في محيط الكلام الانساني دون ان يرجو بلوغ أعماقه الحققة . غير ان الفلسفة تمشت في اتجاه معاكس على مدى العصور كلها فأكد ليبنتز اننا لن نجد علماً عاماً إن نحن لم نجد خصائص عامة . ويسير المنطق الرمزي الحديث في هذا الاتجاه نفسه ، ولكن هب ان هذه المهمة قد أنجزت على وجهها فما تزال المشكلة نفسها تواجه فلسفة الحضارة الانسانية . في تحليلنا للحضارة الانسانية علينا ان نتقبل الحقائق في شكلها المحسوس ، أي بكل ما فيها من اختلاف وتباعد ، وها هنا تواجه فلسفة اللغة نفس الورطة المنطقية التي ظهرت في دراسة كل صورة رمزية . واعلى واجب لدى هذه الصور جميعاً ، بل واجبها الاوحد ، هو ان توحد بني الانسان . ولكن لا أحد فيها يحاول تحقيق هذه الوحدة دون ان يفرق بين الناس ويشتت شملهم في الوقت نفسه . فما كان يرمي الى ان يكفل

٣١ - انظر تقصيلات أخرى في س . مينهوف ه مخطط عام من النحر المقارن للغات البانتو ؛

(برلين ١٩٠٦) .

التنوع في
اللسنة يهيج
العالم اللغوي

التنوع يتطلب
من الفيلسوف
ايجاد
خصائص
عامة

تناقض عمل
اللسنة مع
غايتها
الفلسفية

اللفة في هذا
التناقض
كالدين

انسجام الحضارة يصبح مبعث أعمق ضروب المنازعة والشقاق . وهذا هو
التناقض الكبير ، هذا هو دياكتيك الحياة الدينية^(٣٢) ، وهو نفس
الدياكتيك الذي يظهر في الكلام الانساني . فبغير الكلام لا نكون لبني
الانسان هيئة اجتماعية ولكن اكبر عقبة في سبيل تجمع تلك الهيئة هو كثرة
ضروب الكلام . ويرفض كل من الاسطورة والدين ان يعتبر هذا التنوع
حقيقة ضرورية لا يستطاع تحاشيها ، فينسبونها إلى خطأ او إثم وقع فيه
الانسان لا إلى نظام الانسان الاصلي وطبيعة الاشياء . وفي كثير من صور
الميثولوجيا نجد قصصاً مشبهة لقصة برج بابل التي ذكرت في التوراة .
وحتى في الأعصر الحديثة ظل الانسان دائماً يحزن حيناً عميقاً الى ذلك
العصر الذهبي الذي كان للانسانية فيه لغة موحدة ، فهو ينظر الى حاله
البداية وكأنما ينظر الى فردوس مفقود . وذلك الحلم القديم بإيجاد لغة
آدم *Lingua Adamica* * ، لغة أسلاف الانسان ، لغة لم تكن تتألف فحسب
من اشارات عرفية بل كانت تعبر عن طبيعة الاشياء وعن سر جوهرها -
ذلك الحلم لم يتلاشَ حتى في عالم الفلسفة وظلت مشكلة « لغة آدم » محط
البحث الجاد لدى المفكرين الفلسفيين والمتصوفة في القرن السابع عشر^(٣٣) .
غير ان الوحدة الحقة للغة ، إن تكن ثمة وحدة حقة ، لا يمكن ان
تكون وحدة جوهرية مادية وإنما تكون وحدة وظيفية ، فكل هذه الوحدة

حين
الانسان الى
لغة موحدة

وحدة اللفة
الحقة وظيفية

٣٢ - انظر ما قاله كبير كجورد في الفصل السابع من هذا الكتاب .

* [تعبير قديم للمتصوفة استعمله يعقوب بويه Boehme . J. ومنه استعاره ليبنتز] (المترجم) .

٣٣ - انظر مثلاً ليبنتز : « مقالات جديدة في الانتباه الانساني » الكتاب الثالث ، الفصل الثاني . [يعطي ليبنتز لغة شمولاً اضافياً بحيث تصبح وظيفتها المنطقية والمتافيزيقية مراًية الاطراف ، واذا وصل الانسان حد التعبير عن كل فكرة بسيطة بإشارة وعن كل مجموعة معقدة بضميمة من الاشارات فانه واصل ولا بد لغة عامة كلية هي لغة آدم - فهذه اللغة في رأي ليبنتز هي الهدف النهائي حين لا تعود الكلمة حجاباً للمعنى بل تصبح شاهداً على وحدة العقل] (المترجم) .

لا يفترض مقدماً هوية مادية أو صورية ، فقد تمثل لغتان مختلفتان طرفين متباعدين من حيث نظامهما الصوتي ونظام أقسام الكلام فيها ، وهذا لا يمنعهما من أداء الوظيفة نفسها في حياة الجماعة المتكلمة . فالشيء الهام هنا ليس تنوع الوسائل وإنما لياقة تلك الوسائل لتحقيق الغاية وتطابقها معها . وربما ظننا ان هذه الغاية المشتركة قد يتم بلوغها على نحو أكمل في انموذج آخر ، حتى هبولت الذي كان يكره أن يسوق أحكاماً عن قيمة التعبيرات الخاصة كان يعد اللغات المتصرفية هي الصورة الوحيدة التي تتمتع بالثبات والتماثل وتتبع قواعد صارمة^(٣٤) . ويحذرنا اللغويون المحدثون من هذه الاحكام ، ويقولون لنا إنه ليس لدينا مقياس مشترك واحد لنقدر به قيمة التماذج اللغوية ، فاذا قارنا التماذج تبدى لنا ان أحدها يمتاز على الثاني بفوائد عديدة ، ولكن التحليل الدقيق يقنعنا - عادة - بأن ما نسميه نقائص في بعض التماذج يعوّضه ويوازيه فضائل وحسنات أخرى فيه . ويقول ساير إن شئنا أن ندرس اللغة فعلينا أن نزيل عن عقولنا خدعة القيم الأثيرة ونعود انفسنا النظر الى اللغة الانجليزية والهوتنتوتية بنفس القدر من الحياد القادر الراغب في آن^(٣٥) .

ولو كانت مهمة الكلام الانساني ان يحكي نظام الاشياء الجاهز المعدّ لما قدر لنا ان نحقق ذلك الحياد ؛ وإذن لم نستطع ان نتجنب الحكم على إحدى الصورتين المنسوختين عن أصل واحد ، بأنها خير من الأخرى ؛ وإذن لقلنا إن إحداهما أقرب الى الأصل من اختها أو أن الثانية أبعد عن الأصل من الأولى ، ولكن إن كنا ننسب الى الكلام وظيفة منتجة ببناء أكثر مما ننسب اليه وظيفة تقليد وحكاية فان حكمنا يختلف . وفي هذه الحال لا تكون الأهمية البارزة « لشغل » اللغة وإنما تكون « لطاقتها » .

٣٤ - هبولت ، المصدر نفسه ، الكتاب السابع ، القسم ٢ : ١٦٢ .

٣٥ - ساير ، المصدر نفسه : ١٣٠ .

هل تضافرت
اللغات في
تحقيق هذه
الغاية

ولقياس هذه الطاقة يجب على المرء أن يدرس العملية اللغوية نفسها بدلاً من أن يحلل نتائجها وثمرتها ونتائجها النهائية .

وعلماء النفس مجمعون على التأكيد بأن معرفتنا لتطور العقل الانساني نظل "آلية متخاذلة غير كافية إن لم يكن لدينا بصر نافذ بالطبيعة الحقّة للكلام الانساني . وما يزال هناك قسط غير يسير من اللبس حول مناهج سيكولوجية الكلام . وسواء أدرسنا الظواهر في مختبر سيكولوجي أو صوتي ، أو اعتمدنا على مناهج استبطانية فحسب ، فإن الانطباع الذي نستمدّه في كل حال لا يتغير وهو أن هذه الظواهر سريعة التغير والزوال حتى إنها لتعني كل الجهود المبذولة لاستنباطها واستبقائها . مم يتألف إذن ذلك الفرق الأساسي بين الموقف العقلي الذي نعزوه إلى مخلوق لا يتكلم - وقد يكون انساناً قبل بلوغه دور التكلم أو حيواناً - وبين ذلك الاطار العقلي الذي يميز يافعاً راشداً أحكم لغة الأم إحكاماً تاماً ؟

سيكولوجية
الكلام

من أغرب ما هنالك أن الاجابة على هذا السؤال تكون سهلة ميسورة إن نحن استعنا بالأمثلة الشاذة في تطور الكلام . وقد وضحت دراستنا لحالي هيلين كيلر ولورا بردجمان (٣٦) كيف أن بشائر الفهم لرمزية الكلام اقترنت بثورة حقيقية في حياة الطفل . ومن هذه النقطة فصاعداً اتخذت حياته الشخصية والعقلية شكلاً جديداً كلّ الجدة . ويمكن ان نصف هذا التغير - على نحو مقارب - بقولنا إن الطفل يمر من حال ذاتية الى حال موضوعية ، من محض موقف عاطفي الى موقف نظري . وقد يلحظ هذا التغير نفسه في حياة كل طفل سويّ وإن تمّ على نحو أقل إثارة للدهشة والاستغراب . ويدرك الطفل بوضوح مغزى الأداة الجديدة في تطوّره العقلي ، فهو لا يكفي بأن يعلم بطريقة تلقينية محض وإنما يشارك

الامثلة الشاذة
لأبواب الموقف
السيكولوجي

مشاركة فعالة في عملية الكلام - وهي عملية من التدرج نحو الموضوعية .
وقد أخبرنا أساتذة هيلين كلر ولورا بردجان كيف استمرت الطفلتان
تسألان بلهفة وطمأ عن الأسماء الخاصة للأشياء في بيئتهما حالما فهمتا
استعمال الاسماء (٣٧) . وهذا أيضاً مظهر عام في التطور الطبيعي للكلام .
يقول د . ر . ميجور : « أحرز الطفل هوساً ليدور يسمي الأشياء
كأنما يعلم الآخرين بأسمائهم أو ليوجه انتباهنا إلى الأشياء التي كان
يتفحصها ، فكان ينظر إلى هَنَّةٍ ما أو يشير إليها بأصبعه أو يضع يده
عليها وينطق باسمها ثم ينظر الى رفاقه » (٣٨) .

حال الطفل
ودلائه
السيكولوجية

ولا يمكن فهم مثل هذا الموقف لولا أن للاسم - في نمو الطفل العقلي -
وظيفة يؤديها هي في غاية من الأهمية . ولو كان للطفل وهو يتعلم الكلام
أن لا يتعلم إلا مجموعة ما من الالفاظ ، لو كان عليه فحسب أن يطبع
في عقله وذاكرته مجموعة كبيرة من الأصوات المصطنعة المتعسفة ، لكان
ذلك كله عملية آلية لا غير . ولو كان ما سينجزه الطفل يتم بمعزل عن
حاجات بيولوجية حقيقية لديه لكان انجازه لذلك شاقاً مضنياً ، ولتطلب
ذلك منه جهداً كبيراً واعياً لا يبذله إلا على مضض .

فهذا « الجوع الى الأسماء » - وهو يظهر في مرحلة معينة من العمر
لدى كل طفل سوي - وقد وصفه كل دارسي سيكولوجية الأطفال - هذا
الجوع نفسه يُثبتُ عكس ذلك ، فهو يذكرنا باننا في هذا المقام نواجه
مشكلة مختلفة ، ذلك أن الطفل حين يتعلم أن يسمي الأشياء لا يضيف
فحسب قائمة من الاشارات المصطنعة الى معرفته السابقة عن الأشياء

٣٧ - انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب .

٣٨ - دافيد . ر . ميجور : « الخطوات الأولى في النمو العقلي » (نيويورك ، سكيلان ١٩٠٦)
ص : ٣٢١ وما بعدها .

التجريبية الجاهزة ، وإنما هو يتعلم أن يكون فكراً عن تلك الأشياء أي
يسوي الأمر بينه وبين العالم الموضوعي ، < عالم الأشياء > . ومن ثم
يقف الطفل على أرض صعبة ، وتأخذ إدراكاته الغامضة الملتبسة المتغيرة
ومشاعره المبهمة تتخذ لها شكلاً جديداً . ويمكن ان يقال إنها تبدأ تتبلور
حول اسم يقدو مركزاً لفكره أو بؤرة له .

ولولا عون الاسم لكان كل تقدم في عملية التدرج الموضوعي في خطر
من ان يضيع ثانية في اللحظة التالية ، وقد نشبه الأسماء الأولى التي يعيها
الطفل ويستمعها بالعصا التي تعين الأعمى على ان يتلمس طريقه ، ونصبح
اللغة - من حيث هي كل - باباً يفضي به الى عالم جديد ، وكل تقدم
في هذا المجال يفتح أمامه منظوراً جديداً ويوسع من تجاربه المحسوسة ويجعلها
ثروة وفيرة . فالشوق والحاسة الى التكلم لا ينشآن من محض رغبة لتعلم
الأسماء أو استعمالها وإنما يدلان على رغبة في ملك زمام العالم الموضوعي
والانتصار عليه (٤٠) .

ونحن حين نتعلم لغة اجنبية نستطيع ان نخضع أنفسنا لتجربة مشبهة
لتجربة الطفل . ثمة لا يكفي ان نحرز معجماً جديداً او ان نعرف أنفسنا
بجهاز مجرد من القواعد النحوية ، كل ذلك ضروري ولكنه الخطوة الأولى
وأقل الخطوتين اهمية ، واهم منها ان نتعلم التفكير باللغة الجديدة وإلا بقيت
جهودنا عقيمة لا تثمر . وكثيراً ما نجد ان تحقيق هذا المطلب أمر غاية
في الصعوبة ، وكثيراً ما أثار اللغويون والسيكولوجيون هذا السؤال : كيف
يتمكن الطفل بجهوده من ان ينجز مهمة لا يستطيع ان ينجزها اليافع

تجربتنا
حين نتعلم
لغة اجنبية

مقارنة
بين الطفل
والراشد في
اتقان اللغة

٤٠ - نجد تفصيلاً لهذه المشكلة في مقال لكاي-يرر بعنوان « اللغة وبناء عالم الموضوعات » ،

نشر في Journal de psychologie السنة : ٢٠ (١٩٢٢) ص : ١٨ - ٤٤ .

الراشد بالطريقة نفسها وبالقدر نفسه من الاتقان ؟ وربما استطعنا الاجابة على هذا السؤال بالعودة الى تحليلنا المتقدم . في مرحلة متأخرة راقية من حياتنا الواعية لا نستطيع أبداً ان نعيد العملية التي قادتنا اول مرة الى الدخول في عالم الكلام الانساني ، ذلك ان هذه العملية معنى مختلفاً في نضارة الطفولة وخفتها ومرونتها . ولا تكمن الصعوبة في تعلم لغة جديدة بمقدار ما تكن في نسيان لغة قديمة ، وهذا مظهر من التناقض في الحقيقة . فنحن قد فقدنا الحال العقلية التي كانت لدى الطفل حين تقدم أول مرة من فكرة العالم الموضوعي . اما اليافع فان للعالم الموضوعي لديه شكلاً محدداً نتيجة لفعالية الكلام ، وهي فعالية قد شكلت فعالياتنا الاخرى جميعاً ، واتحدت - من ثم - مدركاتنا ومحدوساتنا وأفكارنا مع مصطلحات لغتنا - لغة الأم - وأشكال الكلام فيها . واذن نحتاج جهوداً جبارة لكي نحلّ الرابطة التي تصل بين الكلمات والأشياء . ومع هذا فان علينا حين نشرح في تعلم لغة جديدة ان نبذل مثل هذه الجهود وان نفصل بين ذينك العنصرين . فاذا تغلب المرء على هذه الصعوبة خطا خطوة هامة جديدة في تعلم لغة ما . وحين نتغلغل في « روح » لغة اجنبية يترأى لنا دائماً اننا ندخل عالماً جديداً ، عالماً له مبناه الفكري الخاص به ، وهذا يشبه رحلة استكشاف في بلاد غريبة . أما الكسب العظيم الذي نناله من هذه الرحلة فهو ان ننظر الى لغتنا ، لغة الأم في ضوء جديد . يقول جوته : « إن من لا يعرف لغات اجنبية لا يعرف شيئاً من لغته » (٤١) . وما دمنا لا نعرف لغة اجنبية فنحن ، بمعنى من المعاني ، نجعل لغتنا لأننا نعجز عن أن نرى مبناها المحدد وملاحمها الفارقة . وتدلنا المقارنة بين لغات مختلفة على انه ليسب ثمة مترادفات . فاذا كانت هناك

مصطلحات متشابهة في لغتين فانها قلما تشير الى نفس الأشياء أو الاعمال وانما هي مجالات مختلفة متداخلة وتعطينا آراء متعددة الألوان ومنظورات متنوعة من تجربتنا .

ويتضح هذا بخاصة ان نحن اعتبرنا مناهج التصنيف التي تستخدم في لغات مختلفة وخصوصاً في تلك اللغات التي تتباعد صورها ونماذجها اللغوية ، فالتصنيف مظهر من أهم مظاهر الكلام الانساني بل ان التسمية نفسها لتعتمد على عملية من التصنيف ؛ فاذا سمينا شيئاً أو فعلاً فقد ادرجناه تحت فئة من فئات الافكار . لو كان هذا الادراج مما تقرره دائماً طبيعة الاشياء لكان فذاً واحداً . الا ان الاسماء التي ترد في الكلام الانساني ليست تلزم هذه الحال ، ولم تُصنَّغ لتشير الى اشياء مادية ، الى كيانات مستقلة تقوم بذاتها ، وانما تتحكم فيها الرغبات والاعراض الانسانية . وهذه الرغبات والاعراض متحولة غير ثابتة ؛ ثم ان التصنيفات التي نجدها في الكلام الانساني لم تحدث اتفاقاً وانما هي مؤسسة على عناصر ثابتة تحدث وتكرر في تجربتنا الحسية ، ولولا تكررها لما كان لافكارنا اللغوية مستند أو مقام . الا ان وصل المعلومات الحسية او فصلها يعتمد على الاختيار الحر لشكل من الاسناد ، وليست ثمة خطة صارمة مهياة بحيث تعطي لتقسيماتها وتفرعاتها شكلاً محدداً ، دفعة واحدة . حتى في لغات وثيقة التقارب متفقة في المبنى العام لا نجد اسماء متماثلة . وقد بين هوبولت كيف ان اللفظتين اللتين يسمى بهما القمر في الاغريقية واللاتينية لا يعبران — وان اشارا الى شيء واحد — عن فكرة واحدة او مقصد واحد . فالاغريق يسمون القمر « مين » ، < mén > ليدلوا بهذه التسمية على القمر في حساب الزمن . اما الاسم اللاتيني « لونا » < luna, luc-na > فانه يدل على اللألاء والمعان . هكذا اذن فرز كل فريق مظهراً من

مناهج
التصنيف في
اللغات
المختلفة
ودلالاتها على
استقلال كل
لفظ بدلالته

لفظة قرني
الاجريقية
واللاتينية

مظاهر الشيء - مخالفاً للآخر - وركز فيه اهتمامه ، ولكن عملية التركيز والتكثيف نفسها واحدة في الحالتين . اما الاسم فانه لا يدعي تحديداً لطبيعة المسمى ، اذ لا يراد له ان يجلو لنا حقيقة الشيء . ووظيفة الاسم مقصورة دائماً على تأكيد جانب خاص من الشيء المسمى . وهذا القصر او التحديد هو وحده الذي تعتمد عليه قيمة الاسم ، وليس من وظيفة الاسم ان يشير على نحو جامع شامل الى موقف محسوس ، وانما حسبه ان يفرد مظهراً واحداً ويتعلق به . وقراره لهذا المظهر عمل ايجابي لا سالب . لانا في عملية التسمية نختار من بين الكثرة المبعثرة من معلوماتنا الحسية مراكز معينة ثابتة من الادراك الحسي . وليست هذه المراكز كتلك التي في الفكر المنطقي او العلمي . اذ يجب ان لا تقاس مصطلحات الكلام العادي بالمقاييس عينها التي نتخذها في التعبير عن الفكر العلمية . فالالفاظ في الكلام العادي تحمل دائماً نوعاً من الغموض اذا هي قيست بالمصطلح العلمي . وكلها دون استثناء غير واضحة المعالم والحدود بحيث لا تتحمل التحليل المنطقي . لكن على الرغم من هذه النقيصة الكامنة التي لا يمكن تلافيها تمثل كلماتنا اليومية وأسمائنا معالم وصوى في الطريق المؤدية الى الفكر العلمية . ففي هذه الكلمات نتلقى اول نظرة موضوعية نظرية عن العالم ، ومثل هذه النظرة لا تعطى فحسب ، وانما هي نتيجة جهد عقلي بناء لا يمكنه ان يبلغ غايته دون عون مستمر من اللغة . وهذه الغاية لا تبلغ في وقت واحد . فان الصعود الى المستويات العليا من التجريد ، الى الاسماء والافكار العامة الشاملة ، مهمة صعبة شاقة . ويهيئ لنا تحليل اللغة مادة غنية لدراسة طابع العمليات العقلية التي تؤدي في النهاية لتحقيق هذه المهمة . فالكلام الانساني يتطور من مرحلة حسية نسبياً الى مرحلة أكثر تجريداً ، والاسماء الاولى لدينا أسماء محسوسة تقرر

وظيفة الاسم

الكلمات معالم
في الطريق
الى الافكار
العلمية

تطور الكلام
من مرحلة
حسية الى
تجريدية

اسماء الجمل
في العربية

الجزئيات
لها مسميات
معدة في
اللغات
البداية

نفسها بفهم حقائق أو أفعال خاصة . وكل الظلال التي نجدها في تجربتنا المحسوسة توصف بدقة وتفصيل ولكنها لا تندرج تحت جنس مشترك . لقد كتب هامر - برجشتال بحثاً عدّ فيه أسماء الجمل في اللغة العربية ، فوجد عدداً يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف < ٥٧٤٤ > من الكلمات التي تصف الجمل ، ولكن ليس فيها ما يقدم لنا فكرة بيولوجية عامة . وكلها تعابير عن تفاصيل حسية تتعلق بشكل الجمل وحجمه ولونه وسنّه ومشيته (٤٢) . ولكن هذه التقسيمات ما تزال بعيدة عن أي تصنيف علمي أو تقريبي إلاّ أنها نخدم أغراضاً أخرى . ونجد في كثير من لغات القبائل الأصلية بأمريكا تنوعاً مذهشاً من المصطلحات تدور حول فعل واحد كأن تدل مثلاً على المشي أو الضرب . والعلاقة بين هذه المصطلحات واحدها والآخر علاقة تجاوز أكثر من كونها علاقة تبعية . فالكلمة التي تدل على ضربة بقبضة اليد ليست هي نفسها الكلمة التي تدل على ضربة براحة اليد ، ونحتاج الضربة بسلاح الى اسم مختلف عن الضرب بالسوط أو القضيب (٤٣) . في البرازيل الوسطى قبيلة هندية تسمى البكيري تتكلم لغة بهذا الاسم . وقد قصّ كارل فون دن شتاين من انبائها أنها تضع لكل فصيلة من البيغاوات والنخيل اسماً بينما لا يوجد فيها اسم لنوع البيغاء أو نوع النخيل . ويقول : « ان البكيري يتعلقون كثيراً بالخواطر الجزئية العديدة حتى أنهم لا يهتمون بالخصائص العامة . لقد ازدهمت من حولهم مادة وفيرة حتى كادوا يختنقون في حومتها ولا يفيدون منها اقتصادياً ، لديهم

٤٢ - انظر هامر - برجشتال ، أكاديمية فيينا ، الصف الفلسفي التاريخي ، الجزء السادس والسابع (١٨٤٥ وما بعدها) [وانظر ايضاً فلسفة الاشكال الرمزية للمؤلف : ١ : ٢٩٠ الترجمة الانجليزية] .

٤٣ - انظر تفصيلات أخرى في « فلسفة الاشكال الرمزية » ١ : ٢٥٧ وما بعدها . [والترجمة الانجليزية ١ : ٢٨٨ وما بعدها] .

وحدة صغيرة من العملة - ان صحّ القول - وهم جد أثرياء بها لا فقراء^(٤٤) . والحق انه لا يوجد مقياس موحد يدلّ على غنى التعبير المُعطى أو فقره ، فكل تصنيف انما توجهه وتعليه حاجات خاصة ؛ ومن الواضح ان هذه الحاجات تختلف حسب الظروف المختلفة في الحياة الانسانية الاجتماعية والحضارية . وبالضرورة يسود الاهتمام بالمظاهر الفردية والمحسوسة للأشياء في المدنية البدائية ، لان الكلام الانساني دائماً يتلاءم ويتناسب مع اشكال معينة من الحياة الانسانية . فالاهتمام بالكليات غير ممكن وغير ضروري لدى قبيلة هندية ، واهم من ذلك لديها تمييز الاشياء بخصائص منظورة محسوسة فذلك حسبها . وفي لغات كثيرة لا يعامل الشيء المستدير بنفس الطريقة التي يعامل بها المربع او المستطيل لأن كل واحد من هذه الاشكال ينتمي الى « جنس » مخالف ويميز جنسه بوسائل لغوية خاصة كاستعمال المقاطع « القبلية » Prefixes . ونجد في لغات القبائل الامريكية الاصلية ، كالاجونكيانية مثلاً ، بعض الاشياء تنتمي الى جنس الاحياء وبعضها الى جنس الجمادات . ومن السهل ان نفهم هذا وان نفهم لم كان هذا التمييز من وجهة نظر العقل البدائي ذا قيمة خاصة واهمية حيوية . وهو في الحق فرق متميز لافلت للنظر باكثر من الفرق الذي تعبر عنه فئات الاسماء في المنطق المجرد . ويمكن ان ندرس الانتقال البطيء من الاسماء المحسوسة الى المجردة في تسمية صفات الاشياء ، ففي كثير من اللغات نجد وفرة من اسماء الالوان حتى ان كل لون أو ظلّ يحمل اسماً خاصاً ، بينما هذه الاسماء العامة : ازرق اخضر احمر وما اشبه ، غير موجودة . وتختلف اسماء الالوان حسب طبيعة الاشياء فقد تستعمل كلمة للون الداكن مثلاً وانت تتحدث عن الصوف او عن الازر ، وتستعمل كلمة اخرى

٤٤ - كارل فون دن شتاين : « بين البدائيين في البرازيل الوسطى » : ٨١

للدكنة وانت تتحدث عن الخيل او الماشية ، وكلمة ثالثة وانت تتحدث عن
شعر الانسان والحيوانات الاخرى^(٤٥). وهذا ينطبق ايضاً على صنف العدد ،
اذ تستعمل بعض اللغات صوراً مختلفة من الاعداد للدلالة على فئات مختلفة
من الاشياء^(٤٦). ولذلك يبدو الصعود للافكار والمقولات الكلية بطيئاً جداً
في تطور الكلام الانساني ، ولكن كل تقدم جديد في هذا الاتجاه يؤدي الى
نظرة اشمل ، الى عرض وتنظيم لعالم مدركاتنا الحسية ، خيراً من ذي قبل .

٤٥ - انظر الامثلة التي قدمها يسبرسن في « اللغة » : ٤٢٩

٤٦ - انظر « فلسفة الاشكال الرمزية » ١ : ١٨٨ وما بعدها [في لغات جزائر فيجي مثلاً
تختلف الكلمة الدالة على العدد باختلاف الشيء . نفسة فكلمة « عشرة » او « مائة » تختلف باختلاف
المعدود ان كان من جوز الهند او من القوارب او من السمك . . . الخ انظر الكتاب نفسه ،
الترجمة الانجليزية ١ : ٢٣٣ وما بعدها] (المترجم) .

الفنّ

- ١ -

رد الفن
الى المعرفة
النظرية او
الاخلاق

الجمال من أوضح الظواهر الانسانية المعروفة ، فيما يبدو ، اذ لم يبهمه
جو سرّي أو سرّ خفي . ولذلك ظل طابعه وطبيعته لا يتطلبان لتوضيحهما
نظريات متافيزيقية معقدة . فالجمال جزء أساسي من التجربة الانسانية ،
محسوس لا تخطئه العين . ومع ذلك كله بقيت ظاهرة الجمال في تاريخ
الفكر الفلسفي - دائماً - من اعظم المتناقضات ، وظلت فلسفة الجمال
حتى عهد كانت محاولة لارجاع تجربتنا الجمالية الى مبدأ غريب ، ولاخضاع
الفن الى حكم غريب ، وكان كانت في « بحث تحليلي في الحكم » أول من
قدم برهاناً واضحاً مقنعاً على استقلال الفن ذاتياً . اما كل الاتجاهات
السابقة فقد كانت تنفّش عن مبدأ للفن داخل نطاق المعرفة النظرية أو
الحياة الاخلاقية . فاذا عدّ الفن وليد فعالية نظرية أصبح من الضروري
أن تحلل القواعد المنطقية التي تنسجم معها تلك الفعالية . ولكن
المنطق نفسه في هذه الحال لم يعد كلاً متجانساً ، وكان لا بد من

قسمته في أقسام منفصلة مستقلة نسبياً ، وكان لا بد من ان يميز منطق الخيال عن منطق الفكر العقلي والعلمي . وفي سنة ١٧٥٠ قام الكسندر بومجارتن . في كتابه « علم الجمال » بأول محاولة شاملة منظمة لانشاء منطق للخيال ، وبرهنت تلك المحاولة على انها من بعض وجوهها حاسمة بالغة القيمة إلا انها لم تستطع ان تكفل للفن قيمة ذاتية حقيقية ، ولم يستطع منطق الخيال ان يحرز مكانة رفيعة كالتى أحرزها منطق الفكر الخالص . وظلّ الناس يعتقدون انه ان كانت هناك نظرية للفن ، فلا يمكن ان تكون الا تحليلاً لجزء حسيّ « سفلي » من أجزاء المعرفة الانسانية . هذا هو الموقف من الناحية النظرية ؛ أما من الناحية الأخلاقية فقد كان من الممكن ان يعدّ الفن علماً على الحقيقة الاخلاقية اذ اعتبر تعبيراً تمثيلاً يخفي في صورته الحسية معنى اخلاقياً . ولكن في كلتا الحالتين النظرية والاخلاقية لم يحرز الفن قيمة مستقلة في ذاته ، وعدّ في سلم المعرفة الانسانية مرحلة تمهيدية أو وسيلة ثانوية ملحقّة تومىء الى غاية أسمى .

ويتجلى في فلسفة الفن نفسُ الصراع بين زرتين متعاديتين كالتين شهدناهما في فلسفة اللغة ؛ وليس هذا محض اتفاق تاريخي وانما يرجع الى قسمة اساسية واحدة في تفسير الحقيقة ، وبيان ذلك ان الفن واللغة يتأرجحان دائماً بين قطبين متقابلين : قطب موضوعي وقطب ذاتي ، ولا تستطيع نظرية في اللغة او الفن ان تغفل عن احد هذين القطبين او تطمسه ، الا ان الميل قد ينزع الى هذا القطب حيناً وإلى ذاك القطب حيناً آخر .

• [الكسندر بومجارتن (١٧١٤ - ١٧٦٢) مؤسس علم الجمال على اركان « الصدق والجمال والخير » وهو يعرف الجمال بأنه نظام بين الاجزاء في علاقاتها المتبادلة وفي علاقة كل جزء منها بالكل . وهو يرى أن أروع صور الجمال تتجسد في الطبيعة] (المترجم) .

وفي الحال الاولى تندرج اللغة والفن تحت عنوان مشترك هو مبدأ
المحاكاة ، فتكون وظيفتهما الاولى حكاية . اما اللغة فستستمد اصلها من
محاكاة الاصوات ، واما الفن فيحاكي الاشياء الخارجية . والمحاكاة غريزة
اساسية ، حقيقة لا تتحول في الطبيعة الانسانية ، يقول ارسطوطاليس :
والمحاكاة غريزية في الانسان منذ طفولته . ويميزه عن الحيوانات الاخرى
انه من بينها اكثرها تقليداً وانه بهذه الغريزة يتلقى معارفه الاولى .
والمحاكاة مصدر لا ينضب للذة ، والدليل على ذلك اننا قد نرى اشياء
تؤلنا رؤيتها ومع ذلك نسر حين نراها محكية حكاية صادقة في الفن ، كما هي
الحال حين نبصر صور جثث الموتى واحط الحيوانات . ويصف
ارسطوطاليس هذه اللذة بانها لذة نظرية وليست تجربة جمالية على التعيين .
ويقول : « التعليم اعظم لذة طبيعية ، وهي ليست مقصورة على الفلاسفة
بل هي حظ مشاع بين الناس جميعاً ، مع فرق واحد فقط وهو : ان
الجمهور يأخذ نصيبه منها بطريقة عابرة بجملة . وسبب اللذة التي يجدها
المرء من صورة ما انه برؤيته لها يتعلم فيستدل فيقع على معاني الاشياء ،
اي ان الانسان فيها مثلاً كيت وكيت »^(١) . ويبدو لأول نظرة ان
هذا المبدأ ينطبق على الفنون الحكائية الممثلة فحسب الا انه قد ينسحب
على جميع الصور الفنية الاخرى كالموسيقى ، فانها اصبحت صورة للاشياء .
حتى موسيقى الشبابة او الرقص ليستا الا نوعين من المحاكاة ، لأن عازف
الشبابة او الراقص يحاكيان بالايقاع شخصيات الناس كما يحاكيان ما
يعملون وما يعانون^(٢) . وقد تأثر تاريخ النظرية الشعرية كله بقولة هوراس :

١ - ارسطوطاليس : كتاب الشعر ٤ : ١٤٤٨ ب ، ٥ - ١٧ وفي ترجمة بايووتر (ا كسفورد
١٩٠٩) ص : ٨ - ١١ [وقد اعتدت في الترجمة العربية على ترجمتي لكتاب الشعر : ص ٢٦ -
٢٧ ط . دار الفكر العربي ، مصر سنة ١٩٥٠] . (المترجم)
٢ - المصدر نفسه ١ : ١٤٤٧ أ : ٢٦ وترجمة بايووتر : ٢ - ٥ [والترجمة العربية : ١٩]

« الشعر كالرسم » ut pictura poesis وبقولة سيمونيدس : « التصوير شعر صامت ، والشعر رسم ناطق » وأنّ الفرق بين الشعر والرسم فرق في الطريقة والوسيلة ولكنه ليس فرقاً في وظيفة المحاكاة .

وعليّنا ان نلاحظ ان أشد نظريات المحاكاة أصالة لم تقصد لتحصر العمل الفني في نطاق التكرير الآلي للواقع . وكان عليها جميعاً ان تسمح الى حد ما بوجود القوة الخالقة لدى الفنان ، ولم يكن من السهل التوفيق بين هذين المطلبين : ان كانت المحاكاة هي الغاية الحقة للفن فن الواضح ان التلقائية ، أي القوة المنتجة لدى الفنان ، عامل مزعج لا عامل بناء لأنها ترور أوجه الأشياء بدلاً من ان تصفها في طبيعتها الصحيحة . ولم تستطع النظريات الكلاسيكية عن المحاكاة ان تنكر هذا الازعاج الذي تثيره ذاتية الفنان . ولكنها رأت ان في الامكان حصرها في حدودها الصحيحة واخضاعها لقواعد عامة . ومن ثم لم يكن في المستطاع الاحتفاظ بمبدأ « الفن يحاكي الطبيعة » بمعنى صارم متطرف ، لأن الطبيعة نفسها غير معصومة عن الخطأ وكثيراً ما تتحقق في ان تبلغ غاياتها . وفي مثل هذه الحال على الفن ان يسرع لمساعدة الطبيعة ، وحققنا ان نقول : ليصحها ويكملها :

كيف توفق
بين المحاكاة
وقوة
الخلق الفني

إلا ان الطبيعة تشوّه — وهي في هذا تشبه الصانع ،
الذي يمضي في عمله ،

محفظاً بمهارته ، وان كانت ترتعش منه الاصابع (٣) .

واذا كان « كل الجمال حقاً » فليس بالضرورة ان يكون كل الحق جمالاً . ولبلوغ أعلى درجات الجمال لا بدّ من الانحراف عن الطبيعة مثلاً

٣ — دانتى : الفردوس ١٣ / ٥ / ٧٦ والترجمة الانجليزية بقلم ملغل بست اندرسن « الكوميديا الالهية » (شركة الكتاب العالمي ١٩٢١) ص : ٣٥٧

الى أي مدى
يمكن الإتيان
عن الطبيعة

انه لا بد من إعادة الطبيعة . اما كيف نعين هذا المقياس ، أي هذه النسبة الصحيحة لذلك الانحراف ، فقد أصبح من اولى المهمات في نظرية الفن . لقد قرر ارسطوطاليس ان المستحيل المقنع مفضل من أجل أغراض الشعر على الممكن غير المقنع .. فاذا اعترض ناقد على زيوكسيس بانه يرسم الاشخاص على غير ما يمكن ان يكونوا في الواقع ، فالجواب الصحيح على هذا انه من الافضل لهم ان يكونوا كذلك لأن الفنان يجب ان يحسن في مثاله (٤) .

موقف
الكلاسيكيين
المحدثين من
المحاكاة

اما الكلاسيكيون المحدثون ابتداء من ايطاليي القرن السادس عشر حتى الأب باتو في مؤلفه « الفنون الجليلة ترجع الى مبدأ واحد » (١٧٤٧) فقد فارقوا مبدأ المحاكاة ، وقالوا ان الفن لا ينقل الطبيعة على نحو عام ودون تمييز وانما ينقل « الطبيعة الجليلة » . ولكن ان كانت المحاكاة غاية حقيقية للفن فان فكرة نقل « الطبيعة الجليلة » مثيرة للتساؤل : كيف نحسن في المثال دون ان نغير من شكله ؟ كيف نسمو على واقعية الاشياء دون ان نتجاوز قوانين الحقيقة والصدق ؟ من وجهة نظر هذه النظرية لا يمكن ان يكون الشعر والفن بعامة إلا زوراً مقبولاً .

المقبة الكبرى
في طريق
المحاكاة

ويبدو ان النظرية العامة للمحاكاة ظلت راسخة ثابتة تتحدى كل هجوم حتى النصف الاول من القرن الثامن عشر . ولكن حتى في رسالة باتو - ولعله آخر نصير متحمس لتلك النظرية (٥) - نحس بشيء من القلق إزاء صحتها الكلية العامة . وكان العاثر في طريق هذه النظرية دائماً هو ظاهرة الشعر الغنائي . أما الحجج التي أراد بها باتو أن يدخل

٤ - أرسطوطاليس ، المصدر نفسه : ٢٥ / ١٤٦١ ب وترجمة بايروت : ٨٦ - ٨٧

٥ - بل إن نظرية المحاكاة ظلت تلعب دوراً هاماً في القرن التاسع عشر ، فقد سندها تين ودافع عنها في كتابه : « فلسفة الفن » .

الشعر الغنائي في نطاق الفن الحكائي فانها حجج ضعيفة غير مقنعة .
 وفجأة انجرفت تلك الحجج الواهية أمام قوة جديدة ، في الحقيقة . ولع
 اسم روسو في هذا الصدد ، وكان اسمه حتى في ميدان الجماليات يمثل
 نقطة تحول حاسم في التاريخ العام للأفكار ، فقد رفض نظرية الفن
 التقليدية التي آمن بها الكلاسيكيون القدماء والمحدثون ، ورأى الفن فيضاً
 للعواطف والمشاعر لا وصفاً أو إعادة للعالم التجريبي . وكانت « اليوزا
 الجديدة » قوة ثورية جديدة ، وأضحى لزماً على النظرية الحكائية التي
 بسطت سيطرتها على مدى قرون أن تفسح المجال لفكرة جديدة ومثال
 جديد — مثال « الفن المشخص » . ومن هذه النقطة نستطيع أن نتبع
 انتصار مبدأ جديد في الأدب الأوروبي كله ؛ وحذا هيردر وجوته في
 ألمانيا حذو روسو ، وأصبح على نظرية الجمال كلها أن تنتحل لها شكلاً
 جديداً . فالجمال بالمعنى التقليدي للكلمة ليس هو الهدف الوحيد للفن بأي
 حال وإنما هو في الحقيقة مظهر ثانوي فرعي . ولذلك حذر جوته
 القارئ بقوله في مقال له بعنوان : « في فن العارة الألمانية » .

روسو ثورة
على المحاكاة

الفن
المشخص أو
التميزي

رأي جوته

« لا تدع سوء الفهم يحول بيننا . لا تدع ذلك المبدأ المائع
 الذي وضعه تجار الجمال المحدثون يبعثك أرق من أن تستطيع
 الاستمتاع بالخشونة المتميزة ، كي لا تعجز مشاعرك الموهنة في
 النهاية عن أن تتحمل شيئاً سوى النعومة السخيفة . إنهم يحاولون
 أن يميلوا بك لتؤمن أن الفنون الجميلة نشأت من ميلنا المزعوم إلى
 تجميل العالم من حولنا . هذا باطل ... »

الفن قوة مشكلة قبل أن يكون جميلاً ، منذ أمد بعيد ،
 وحين يكون كذلك يكون فناً صحيحاً عظيماً ، أصبح وأعظم من
 الفن الجميل نفسه ، لأن في الإنسان طبيعة مشكلة تظهر نفسها في

فعالية ما حين يكون وجوده مكفولاً ... وهكذا يعيد المتوحش تشكيل ريشاته وجسمه بلسات غريبة وأشكال رهيبة وألوان جافية . ومع أن هذا التصوير يتألف من أشد الأشكال شذوذاً فان أجزاءه ، دون نسب في الشكل ، تتفق معاً ، لأن شعور فردٍ هو الذي خلق منها كلاً مشخصاً .

هذا الفن المشخص هو الفن الوحيد الصحيح وعندما يؤثر فيما حوله من شعور داخلي مفردٍ منفردٍ أصيل مستقل ، غير مكثرث بكل ما هو غريب عنه ، بل جاهلاً به ، عندئذ يكون هو الكل ، هو الحي سواء أتولد من الوحشية الجافية ام من الاحساس المثقف المتحضر^(٦) .

ما الفن
المشخص ؟

على يدي روسو وجوته بدأ عهد جديد من عهود النظرية الجمالية . إذ انتصر الفن المشخص نصراً حاسماً على الفن الحكائي . ولكن يجب علينا ان نتجنب التفسير المتحيز لهذا الفن ان كنا نريد ان نفهمه بمعناه الصحيح ، إذ ليس يكفي ان ننص مؤكدين الجانب العاطفي وحده في العمل الفني . حقاً ان كل فن مشخص أو معتبر فانه « فيض تلقائي لمشاعر قوية » ، ولكن إن قبلنا هذا التعريف — من وردزورث — دون تحفظ لم نغير شيئاً سوى العلامة ولم نحدث تغييراً حاسماً في المعنى . إذ يبقى الفن في هذه الحالة إعادة ونقلًا ولكن بدلا من ان يصبح إعادة ونقلًا للأشياء والموضوعات المادية يصبح نقلًا لحياتنا الداخلية ، لمشاعرنا وعواطفنا . وإذا قسنا الأمر على اللغة مرة أخرى قلنا إننا في هذه الحال استبدلنا

تعريف
وردزورث

٦ — جوته : « في فن العماره الألماني » : مؤلفاته ١٤٨/٣٧ والترجمة الانجليزية بقلم برنارد بوزانكيه بمنوان : « ثلاث محاضرات في علم الجمال » (لندن ، مكملان ١٩٢٣) : ١١٤ وما بعدها .

نظرية الصيحات التعجبية في الفن بنظرية المحاكاة الصوتية . لكن ليس هذا هو المعنى الذي أراده جوته حين استعمل مصطلح « الفن المشخص » ، فان العبارة التي اقتبسناها منه كتبت سنة ١٧٧٣ وهو في ريعان شبابه ، في حقبة « العاصفة والتوتر » (شتورم اند درنج) ولكنه لم يكن ليهمل القطب الموضوعي في شعره في أي فترة من فترات حياته . الفن حقاً معبر ولكنه لا يستطيع ان يكون معبراً إلا ان كان مشكلاً . وهذه العملية التشكيلية تم في جهاز حسي معين . يقول جوته :

لا بد من ان
يكون الفن
تشكلياً

« حالمًا يتخلص هذا الاله الانساني من الهم والخوف ، وهو خلاق في السكينة ، يتلمس من حوله مادة ينفخ فيها من روحه » . غير ان بعض أصحاب النظريات الجمالية ينسون هذا العامل المادي أو يقللون من شأنه في كثير من النظريات الجمالية الحديثة وبخاصة نظريات كروتشه وتلامذته واتباعه . ذلك ان كروتشه مهم بحقيقة التعبير فحسب لا في الطريقة التي يتم بها ، وهو يرى أن الطريقة شيء دخيل سواء بالنسبة لشخصية العمل الفني أو لقيمه . والشيء الوحيد الذي يهمه هو حدس الفنان لا تجسد هذا الحدس في مادة معينة ، أي يرى للمادة أهمية جمالية ، ففلسفة كروتشه هي فلسفة الروح ، تلح على الطابع الروحي الخالص للعمل الفني ؛ ولكن الطاقة الروحية كلها في نظريته محتواة مبذولة في تكوين الحدس وحده . وحين تم هذه العملية يتحقق الخلق الفني . اما ما يبيح بعد ذلك فما هو إلا إعادة خارجية لضرورة لنقل الحدس ولكنها لا معنى لها بالنظر لجوهر الحدس ، غير ان الألوان والأبيات والايقاعات والكلمات لدى الرسام العظيم والموسيقار العظيم والشاعر العظيم ليست فحسب جزءاً من جهازه « التقني » وإنما هي لحظات ضرورية من عملية الخلق نفسها .

حدود
العاطفة
في الفن

وهذا يصدق على الفنون المعبرة - نصاً - كما يصدق على الفنون الممثلة ، حتى في الشعر الغنائي لا تكون العاطفة هي المظهر الوحيد الحاسم .
حقاً إن كبار الشعراء الغنائيين مزودون باعق العواطف ، وأن الفنان الذي لم يرزق مشاعر قوية لا يستطيع أن ينتج إلا فناً ضحلاً سخيلاً ؛ ولكننا لا نستطيع ان نستنتج من هذه الحقيقة أن وظيفة الشعر الغنائي والفن بعامة هي قدرة الفنان على « ان ينفث ما في صدره من مشاعر » .
يقول ر . ج . كولنجوود : « إن ما يحاول الفنان أن يعمل هو ان يعبر عن عاطفة معطاة ، ومحض التعبير عنها ، والاجادة في التعبير عنها سواء ... كل نبرة وكل لعاءة يقوم بها أحدنا عمل فني » (١٧) .

رأي
كولنجوود
يفضل المبنى
البنائي

ها هنا قد اغفلت تماماً كل العملية البنائية التي هي ضرورة لازمة لانتاج العمل الفني وتأمله . كل لعاءة عمل فني بمقدار ما تكون كل صيحة تعجب عملاً كلامياً . وكلتا الاعماء والصيحة تفقران إلى مظهر اسامي لا غنى عنه ؛ هما ردأ فعل غريزيان لا اراديان ، وليس فيهما تلقائية حقيقية . ولكن اللحظة الغائية ضرورية في التعبير اللغوي والفني .
وفي كل عمل كلامي وفي كل خلق فني نجد مبنى غائياً . « يمثل » الممثل دوره في الرواية وكل نبرة على حدة جزء من الكل البنائي المتماثل .
فنبرة الصوت وايقاع الكلمات والتنظيم في صوته وتعبيرات وجهه وأوضاع جسمه كلها تتجه نحو غاية واحدة - هي تجسد الشخصية الانسانية .
وهذا كله ليس « تعبيراً » فحسب وإنما هو ايضاً تمثيل وتفسير . ولا يخلو من هذه النزعة العامة في الفن اي نوع فني حتى القصيدة الغنائية .
فالشاعر الغنائي ليس امراً يتعلل باظهار مشاعره ، فان سيطرة العاطفة

الغائية أساس
في التعبير

٧ - ر . ج . كولنجوود : « مبادئ الفن » (اكسفورد ، مطبعة كلارندن ١٩٣٨) ص :

وحدها « سنتمالية » لا فن . والفنان الذي ينهمك في متعته أو في تمزج « بهجة الحزن » لا في تأمل الأشكال وخلقها يصبح امرأاً منخوب النفس « سنتمالياً » . ولذلك نكاد لا نغزو الى الفن الغنائي شخصية ذاتية أكثر مما نغزوه منها الى الاشكال الفنية الاخرى ، ذلك أن الفن الغنائي يحوي نفس النوع من التجسد ونفس المساق من اتخاذ الموقف الموضوعي . كتب مالارميه يقول : « الشعر لا يكتب بالافكار وإنما يكتب بالكلمات » ، أي انه يكتب بالصور والاصوات والايقاعات وهي جميعاً تنضوي في كل لا يتجزأ تماماً كما هي الحال في الشعر المسرحي والنقل المسرحي ، وفي كل قصيدة غنائية عظيمة تلقى هذه الوحدة المحسوسة المتماكة .

والفن كسائر الاشكال الرمزية ليس نسخاً حرفياً لحقيقة جاهزة معطاة وإنما هو احدى الطرق المؤدية الى نظرة موضوعية للأشياء والحياة الانسانية . وليس هو حكاية للحقيقة الواقعية بل كشف لها . حقاً إننا لا نكتشف الطبيعة من خلال الفن بنفس المعنى الذي يعنيه العالم الطبيعي حين يستعمل كلمة « طبيعة » . اللغة والعلم هما العمليتان اللتان تؤكد بهما أفكارنا عن العالم الخارجي ونعنيها . وعلينا ان نصنف مدركات حواسنا ونضعها تحت أفكار وقواعد عامة لكي نتمتعها معنى موضوعياً . مثل هذا التصنيف نتيجة جهد دائم لبلوغ التبسيط . ويتضمن العمل الفني بالطريقة نفسها مثل هذا العمل من التركيز والتكثيف . ولما اراد أرسطوطاليس ان يصف الفرق الحقيقي بين الشعر والتاريخ أكد هذه العملية التركيبية فقال ان الرواية تقدم لنا عملاً واحداً ، وهو كل كامل في ذاته ، فيه ما في المخلوق الحي من وحدة عضوية ، أما المؤرخ فانه لا يعالج عملاً واحداً وإنما يعالج فترة واحدة وكل ما وقع اثناءها لشخص او اشخاص منها تكن

الفن تكثيف
وتجسيد

من هذا الوجه يمكن ان يوصف الجمال والحق بالقاعدة الكلاسيكية القائلة إنهما « وحدة في متعدد » ولكن بين الحالين فرقاً في الصورة . أما اللغة والعلم فهما اختزال للواقع ، وأما الفن فانه تكثيف للواقع . واللغة والعلم يعتمدان على عملية واحدة من التجريد ، أما الفن فانه عملية مستمرة من التجسيد . وفي الوصف العلمي لشيء معطى نبدأ بعدد كبير من الملاحظ تبدو لأول وهلة مجموعة مفككة من الحقائق المتفرقة . لكن كلما تقدمنا خطوات وجدنا ان تلك الظواهر تتخذ شكلاً وتصبح كلاً منظماً . والعلم يبحث عن خصيصة مركزية للشيء المعطى يمكنه ان يشتق منها خصائصه الاخرى واحدة إثر واحدة . فاذا عرف الكيميائي العدد الذري لعنصر ما وقع على المفتاح الذي يمكنه من النفاذ في مبنى ذلك العنصر وتركيبه . ومن هذا العدد يستنتج كل الخصائص المميزة لذلك العنصر . إلا ان الفن لا يتقبل هذا النوع من التبسيط الفكري والتعميم الاستنتاجي . انه لا يبحث عن خصائص الاشياء وعللها وانما يقدم لنا حدىاً لصورة الاشياء . وليس هذا تكراراً لشيء نعرفه بل هو كشف حقيقي أصيل ، فالفنان مستكشف لصور الطبيعة مثلاً ان العالم مستكشف للحقائق والقوانين الطبيعية . وقد كان عظماء الفنانين في كل زمن يدركون هذه المهمة الخاصة والهبة المختصة بالفن ، فقد تحدث ليوناردو دافنشي عن غاية الرسم والنحت بقوله إن « الرؤية معرفة » Saper vedere ، فهو يرى ان الرسام والمثال هما المعلمان العظيمان في دنيا العالم المنظور لأن التنبيه للصور الخالصة للأشياء ليس هبة غريزية ، هبة من الطبيعة بأي حال . فقد نرى بالباصرة شيئاً ما آلاف المرات دون ان نكون قد رأينا صورته . ونبلس حيرة إذا سئلنا أن نصف

الرؤية في
الفن حدى
وكشف

٨ - أرسطو طاليس ، المصدر نفسه ٢٣ / ١٤٥٩ / ١٧ - ٢٩ وترجمة بايوتز : ٧٠ - ٧٣ [والترجمة العربية ٢٦ - ٤٤]

شكله ومبناه النظري الخالص لا صفاته المادية وتأثيره . الفن هو الذي يحقق ذلك لأننا به نعيش في دنيا من الصور الخالصة بأكثر مما نفعل في دنيا تحليل الأشياء الحسية وتعرفها أو دراسة آثارها .

ولا نقبل قوله كانت في الرياضيات « إنها مفخرة العقل الانساني » إلا من الزاوية النظرية فحسب . ففي سبيل انتصار التفكير العلمي علينا أن ندفع ثمننا عالياً لأن العلم يعني التجريد ، والتجريد « إفقار » للواقع ، إذ تصبح صور الأشياء كما تصفها الافكار العلمية ، قواعد ومعادلات بالتدريج . وهذه القواعد والمعادلات ذات بساطة مدهشة ، فقد يبدو ان قاعدة واحدة مثل قانون نيوتن في الجاذبية تحوي كل مبنى عالما المادي ونفسه ، حتى ليظهر لنا أن تجريداتنا العلمية لا تضع يدها على الحقائق الواقعة فحسب وإنما تستوفيها وتستغرقها ، ولكننا حالماً نقرب من ميدان الفن يتجلى ان هذا وهم خادع . لأن وجوه الأشياء تفوت الحصر وتختلف فيما بينها من لحظة الى اخرى . وكل محاولة تبذل لفهمها من خلال قاعدة بسيطة تذهب سدى . ولقد تصدق قوله هرقليطس : « ان الشمس جديدة كل نهار » - تصدق على شمس الفنان إن لم تصدق على شمس العالم . وحين يصف العالم مجموعة من الأشياء بشخصها بمجموعة من الأعداد ، أي بقيمتها المادية والكميائية الثابتة . اما الفن فان موادّه مختلفة عن هذا ، فضلاً عن انه يهدف الى غاية اخرى . فاذا قلنا ان فنانين يرسمان منظرأ طبيعياً « واحداً » كان وصفنا لتجربتنا الجمالية ناقصاً لأن الفن يرى ان هذا المنظر لا يكون واحداً ، وان هذا الزعم وهم خادع ، إذ لا نستطيع ان نقول ان ما يراه احد الفنانين هو نفس ما يراه الثاني ، لأن الفنان لا يصور أو ينسخ الشيء المرئي التجريبي - أي بنقل منظرأ طبيعياً بما فيه من تلال وجبال وجداول وأنهار - ولكن يقدم لنا ملامح

العلم تجريد
والفن تكبير

تكثر الفن
باختلاف
الرؤية لدى
كل فرد فنان

داخلية مفردة آنية لذلك المنظر ، فهو يريد ان يعبر عن جو الأشياء ،
عن تراوح الأنوار والظلال ، فالمنظر الطبيعي في وقت الأصيل مختلف عما
هو عليه في الهاجرة او في يوم ماطر او يوم مشمس . فادراكنا الجمالي
يعرض تنوعاً أكثر من الادراك الحسي العادي وينتمي الى نظام أكثر
تعقيداً . آية ذلك اننا في الادراك الحسي نكتفي باستيعاب الملامح
المشتركة الثابتة للأشياء المحيطة بنا ، اما الادراك الجمالي فانه اغنى على
نحو لا يقبل المقارنة ، فهو مفعم بإمكانات لا تحصى ، تبقى غير مدركة
في التجربة الحسية العادية . وتصبح هذه الامكانيات حقائق في عمل الفنان
اذ يكشف عنها الحجاب وتتخذ شكلاً محدداً . وهذا الكشف عن الوجوه
التي لا تحصر في الأشياء من مميزات الفن ومن اعماقها سحراً وفتنة .

مثل ذكره
رختر

يقص علينا الرسام لودفيج رختر في مذكراته كيف انه كان ذات يوم
في تيفولي ، في ايام الشباب ، مع ثلاثة من اصدقائه واتفقوا معاً على ان
يشرعوا في تصوير منظر طبيعي واحد . وصمموا جميعاً على ان لا ينحرفوا عن
نقل الطبيعة حرفياً ، وان يخرجوا ما رأوه مضبوطاً قدر الامكان ومع ذلك
فقد كانت النتيجة ظهور اربع صور مختلفة كل الاختلاف ، وبين احداها
والأخرى من الفرق ما بين شخصية رسام وآخر . واستنتج لودفيج من
هذه التجربة انه ليس هناك مرثي موضوعي وان الشكل واللون يدركان
دائماً حسب المزاج الفردي لدى كل فنان^(٩) . حتى اشد انصار الطبيعة
المتشددة المتزمتة تحمساً لم يستطيعوا ان يتجاهلوا هذا العامل او ينكروه .
فعرّف اميل زولا العمل الفني بأنه : « زاوية من الطبيعة ترى حسب انحراف
المزاج » ، اما كلمة « مزاج » المذكورة هنا فلا تعني فحسب جبلة أو
خصيصة فردية . فنحن حين نستغرق في حذر عمل فني عظيم لا نحس

٩ - اقتبست هذا الخبر من كتاب « مبادئ تاريخ الفن » لهرش فلفن .

بالفصل بين العالمين الذاتي والموضوعي ، اي لا نعيش في الواقع العادي^{١٠} للاشياء المادية ، ولا نعيش تماماً في منطقة فردية ولكننا نقع على دنيا جديدة وراء هاتين المنطقتين ، دنيا الاشكال التصويرية والموسيقية والشعرية ، ولهذا الاشكال كلفة حقيقية . ويميز كانت بشدة بين ما يسميه « كلية جمالية » و « صحة موضوعية » ننتمي الى احكامنا المنطقية والعلمية^(١١) .

ويقرر اننا في احكامنا الجمالية لا نهتم بالشيء في ذاته وانما نهتم بالتأمل الخالص له . والكلية الجمالية تعني ان محمول الجمال غير مقصور على فرد بعينه ، وانما يمتد في كل ميدان الناس المنوط بهم الحكم . ولو كان العمل الفني نزوة فنان فرداً او انطلاقة غضبه لما كان له هذه التوصيلية القدرة العامة . ولا يخترع خيال الفنان صور الاشياء معتسفاً . وانما يرينا هذه الصور في اشكالها الحقة ويجعلها مرئية مدركة . يختار الفنان وجهاً من وجوه الواقع ، ولكن عملية الاختيار هذه هي في الوقت نفسه عملية اخراج موضوعي . فاذا دخلنا في مجاله اجبرنا على ان نرى العالم بعينه ويبدو كأننا لم نكن نرى العالم تحت هذا الضوء الخالص من قبل . ومع هذا فنحن مقتنعون ان هذا الضوء ليس ومضة عابرة بل قد اصبح بفضل الفن باقياً دائماً . وحالما ينكشف لنا الواقع على هذا النحو الخالص نظل نزاه في هذا الشكل .

ولذلك فليس من السهل ان نتبين فرقاً جاداً بين الفنون الذاتية والموضوعية ، اي الفنون المعبرة والحكاكية . انت لا تستطيع ان تقول ان عملاً فنياً مثل افريز البارثون ، او قطعة جنتاثرية لباخ او « هيكل

توضيح
الصلة بين
اللائية
والموضوعية
في الفن

١٠- يسمى كانت النوع الاول Gemeingültigkeit والثاني Allgemeingültigkeit وهو يتميز بيز على الترجمة الدقيقة . ولاستيضاح هذين النوعين انظر ه . و . كاسيرر « تعليق على كتاب بحث تحليلي في الحكم لكانت » (لندن : ١٩٢٨) ص : ١٩٠ وما بعدها

سستين ، لميخائيل انجيلو او قصيدة لليوباردي» او سوناتة لبيتهوفن او قصة لدستوفسكى — لا تستطيع ان تقول ان هذه كلها فن حكائي وان تلك كلها فن تعبيرى . ولكن كلها رمزية بمعنى جديد عميق . كذلك فان اعمال الشعراء الغنائيين العظام مثل جوته او هلرلن ، مثل وردزورث او شلنج ، لا تقدم لنا شذرات مبعثرة مفككة من حياة الشاعر ، وهي ليست انبعاثات عابرة من المشاعر العاطفية وانما تكشف عن وحدة واستمرار عميقين . ولا يعلننا الكتاب التراجيديون والكوميديون العظام بمنظر مجزأة من مشهد الحياة . نعم اذا اخذت هذه المناظر وحدها بدت ظلالاً مترنحة . ولكن فجأة نأخذ في ابصار ما خلفها ونستنظر حقيقة جديدة . فالشاعر التراجيدي او الكوميدي يكشف من خلال الشخصيات والاعمال رأيه في الحياة الانسانية ، من حيث هي كل ، في عظمتها وضعفها ، في رفعتها وسخفها ، يقول جوته : « الفن لا يأخذ على عاتقه منافسة الطبيعة في اناسعها وعمقها وانما يقف على سطح الظواهر الطبيعية ولكن له عمقه وقوته فهو يبلور اعلى اللحظات في تلك الظواهر بادراكه فيها طابع الشرعية وكمال التناسب المنسجم وذرورة الجمال ورفعة المغزى وسموق العاطفة » (١١) .

علاقة الفن
بالطبيعة في
رأي جوته

الفن حدس
يفسر الواقع
بالصور

هذا الاستبقاء ، لأعلى لحظات الظواهر ، ليس محاكاة للأشياء المادية ولا هو فيض دافق من عاطفة قوية . وإنما هو تفسير للواقع — تفسير بالحدس لا بالافكار ، بالصور الحسية لا بالفكر .

لا اخلاقية
الفن عند
افلاطون
وتولستوي

ومنذ أفلاطون حتى تولستوي كان الفن يتهم بأنه يثير عواطفنا فيزعزع النظام والانسجام في حياتنا الاخلاقية . وقد ذهب افلاطون الى ان الخيال

• [جاكومو ليوباردي ١٧٩٨ — ١٨٣٧ شاعر إيطالي] (المترجم)

١١ — جوته : ملاحظ على ترجمة مقال دييرو « مقال في الرسام » — « مؤلفاته » ٤٥ : ٢٦٠

مناقشة هذا
الرأي

الشعري يروتي تجارب الشهوة والغضب والرغبة والألم فينا فيمكنها من النمو بدلاً من أن يظمئها ويخيلها تجف (١٢). أما تولستوي فإنه رأى في الفن مصدراً للعدوى وقال : « علامة الفن ليست العدوى بل إن درجة العدوى هي المقياس الوحيد لجودة الفن » . والخلل في هذه النظرية واضح إذ أن تولستوي يطمس لحظة أساسية في الفن ، هي لحظة الصورة . فالتجربة الجمالية — تجربة التأمل — حال عقلية مختلفة عن برود أحكامنا النظرية ورزانة أحكامنا الاخلاقية ، لانها مفعمة بأشد طاقات العاطفة حيوية ، إلا أن العاطفة هنا قد استحال في طبيعتها وفي معناها ، لقد عرف وردزورث الشعر بأنه « عاطفة تُستذكر في هدوء » الا ان الهدوء الذي نحسه في الشعر العظيم ليس هدوء استذكار ، فالعواطف التي يثيرها الشاعر لا تنتمي الى ماض بعيد ، انها « هنا » ، حية آنية مباشرة ، ونحن نعي كل قوتها ، الا انها قوة تذهب في وجهة جديدة ، وهي تُرى بأكثر مما تُحسُّ توأ . ولا تبقى عواطفنا قوى مظلمة يعز اختراقها بل تصبح شفافة واضحة . ان شيكسبير لا يقدم لنا أبداً نظرية جمالية ولا يتأمل في طبيعة الفن ولكن وردت لديه عبارة واحدة تحدث فيها عن شخصية الفن المسرحي ووظيفته فأكد هذه النقطة خير تأكيد ، يقول هاملت : « الغاية من التمثيل في الماضي والحاضر — كانت وما تزال — ان نحمل المرأة أمام وجه الطبيعة لنرى الفضيلة قسبتها ونحتقر صورتها وزري العصر نفسه والزمن كله شكله ووقعه » . لكن صورة العاطفة ليست هي العاطفة نفسها ، فالشاعر الذي يمثل عاطفة لا يعدينا بتلك العاطفة . واذا شهدنا

رأي
شيكسبير في
وظيفة الفن
المسرحي

١٢ — أفلاطون : الجمهورية ٦٠٦ د (ترجمة جويت) .

« انظر كتاب « ما الفن » لتولستوي ، الترجمة الانجليزية : ٢٢٨ (مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٣٨) ، يقول : كلما كانت العدى اقوى كان الفن احسن ، وتعتمد درجة العدى على ثلاثة شروط : ١ — على فردية الشعور المنقول ٢ — على الوضوح ٣ — على اخلاص الفنان [المترجم]

رواية لشيكسبير لم يُعَدِّنا طموح مكبث وظلم رتشارد الثالث وغيرها عظيم ، اننا لا نقع تحت رحمة هذه المشاعر وانما ننظر خلالها وننقل في لب طبيعتها وجوهرها . ومن هذه الوجهة تتفق نظرية شيكسبير في الفن المسرحي — ان كان له مثل هذه النظرية — تمام الاتفاق مع فكرة الرسامين والنحاتين العظام في عصر النهضة عن الفنون الجميلة . وهاهنا نؤمن بان كلمة ليوناردو دافنشي « الرؤية معرفة » هي ارفع هبة لدى الفنان . اما الرسامون العظماء فيروننا صور الاشياء الخارجية ، واما الروائيون الكبار فيروننا صور حياتنا الداخلية . ويكشف الفن المسرحي اتساعاً وعمقاً جديدين للحياة وينقل وعياً بالامور الانسانية والمقدرات الانسانية والعظمة والبؤس الانسانيين ، بحيث يظهر وجودنا العادي اذا قورن بها فقيراً تافهاً . وكل منا يشعر على نحو غامض عاتم بالمقدرات الكمية اللامحدودة في الحياة وهي قدرات تنتظر اللحظة التي تُتَبَّه فيها وتوقظ من سباتها لكي تدخل في ضوء الوعي الواضح الغامر . اذن ليست درجة العدوى مقياساً لجودة الفن بل المقياس هو درجة الاضاءة والاشعاع .

تفسيرنا
الحديث
لنظرية
التطهير
الارسطو
طاليسية

ان تقبلنا هذه النظرية استطعنا ان نحز فهماً أجود لمشكلة نلقاها اول ما نلقى في نظرية ارسطوطاليس عن التطهير < الكاثاريسيس > . ولا نود هنا ان ندخل في كل الصعوبات التي يثيرها هذا المصطلح أو في الجهود العديدة التي بذلها الشراح ليزيلوا تلك الصعوبات (١٣) .

ويبدو ان الرأي الواضح المقبول بعامة اليوم هو ان ما سماه ارسطوطاليس تطهيراً لا يعني تنقية وتصفية وتغييراً لطابع المشاعر نفسها

١٣ — انظر التفصيلات في : يعقوب برنيس « بحثان في النظرية الارسطوطاليسية في الدراما » (برلين ١٨٨٠) ، وانجرام بايوتز : « ارسطوطاليس في فن الشعر » (اكسفورد ١٩٠٩) ص : ١٥٢ وما بعدها [وقد استعرض س. ه. بوتشر الآراء في « التطهير » في الفصل السادس من كتابه « نظرية ارسطوطاليس في الشعر والفنون الجميلة » ؛ مكملان وشركاه ، لندن ونيويورك ١٨٩٥]

وصفتها وانما يعني تغييراً في النفس الانسانية . فالنفس تحصل من الشعر التراجيدي على موقف جديد تجاه عواطفها ، فهي تجرب عاطفتي الشفقة والخوف ، ولكنها تفيء الى حال من الراحة والطمأنينة بدلا من ان تنزعج او تضطرب ، وهذا يبدو ضرباً من التناقض لاول نظرة . لأن الذي يعده ارسطو طاليس نتيجة للأساسة هو تركيب مكون من لحظتين تدفع احدهما الاخرى في واقع الحياة ، أي في تجربتنا العملية . وكأنما اشد حدة تبلغها حياتنا العاطفية تمنحنا في الوقت نفسه معنى من الهدوء والسكينة ، فنحن نعيش خلال عواطفنا كلها ونحسُّ بارتفاعها وبتوترها الشديد ، الا اننا حين نجتاز عتبة الفن نخلف وراءنا الضغط الشديد ، اي وطأة عواطفنا . الشاعر المسرحي مالمك زمام عواطفه لا عبدها وهو يستطيع ان ينقل هذه القدرة الى المشاهدين ، ونحن في روايته لا نتطوح وراء عواطفنا . فالحرية الجمالية ليست هي غيبة العواطف ، ليست هي الجود الروائي ، وانما هي عكس ذلك تماماً ؛ انها تعني ان عواطفنا تبلغ اغنى قوتها وفي هذه القوة نفسها تتغير صورتها ، وعندئذ لا نعيش في حقائق الاشياء الوقتية وانما في عالم من صور حسية خالصة ، وفي هذا العالم يجري على عواطفنا كلها نوع من الاستحالة يصيب جوهرها وشخصيتها ، فتخلص العواطف نفسها من عبثها المادي ونحس بشكلها وحياتها ولا نحسّ بباطلها . فهدوء العمل الفني هدوء دينامي لا ثابت - وهذا عجيب لانه متناقض في ظاهره - . الفن يمنحنا عواطف النفس الانسانية بكل عمقها وتنوعها اما الصورة والمقياس والايقاع لهذه العواطف فانها لا يمكن ان تقارن بحال مفردة من حالات العاطفة . فالذي نحسُّ به في الفن ليس صفة عاطفية بسيطة او مفردة ، وانما العملية الدينامية للحياة - اي التأرجح المستمر بين قطبين متقابلين ، بين الفرح والحزن والرجاء والخوف والامل واليأس . فاعطاء

صورة جمالية لمواطننا معناه تحويلها الى حالة حرة نشيطة . اي ان قوة العاطفة في عمل الفنان قد اصبحت قوة تشكيلية .

وقد يعترض معترض فيقول ان هذا كله ينطبق على الفنان لكنه لا ينطبق علينا نحن المشاهدين والسامعين . الا ان مثل هذا الاعتراض يتضمن سوء فهم للعملية الفنية ، وهي كالعلمية الكلامية ، ثنائية دياكتية . حتى المشاهد نفسه لا يلعب فيها دوراً سلباً ، ونحن لا نستطيع ان نفهم عملاً فنياً دون ان نعيد العملية الخالقة التي تم بها ايجاد العمل الفني وزكبتها من جديد — الى حد ما — . وبطبيعة هذه العملية تتحول العواطف نفسها اعمالاً . ولو كان علينا ان نعاني في الواقع كل تلك العواطف التي نعيشها بعد ان نشهد رواية « اوديب » لصوفوكليس او « الملك لير » لشيكسبير لما كدنا ننجو من أثر الصدمة والارق . ولكن الفن يحول كل تلك الآلام والهياجات وكل ضروب الجور والمفطعات الى وسيلة لتحرير الذات ، وبذلك يعطينا حرية داخلية لا نبلغها بطرق اخرى .

فاذا حاولنا ان نميز العمل الفني بمظهر عاطفي خاص عجزنا حتماً عن ان ننصفه في الحكم . واذا كان ما يحاول الفن ان يعبر عنه هو عملية حياتنا الداخلية الدينامية ، لا حالة خاصة فحسب ، فأى تمييز له باحدى الصفات لا يعدو ان يكون شيئاً فاتراً سطحياً . يجب ان يقدم لنا الفن دائماً حركة لا محض عاطفة . حتى التمييز بين الفن التراجيدي والكوميدي اصطلاحى لا ضروري ، يتصل بالمحتوى والدوافع ولا يتصل بصورة الفن وجوهره . وقديماً أنكر افلاطون وجود هذه الحدود المصطنعة التقليدية فقدّم سقراط في آخر كتابه « المأدبة » منهكاً في حديث مع أجاثون الشاعر التراجيدي وارسطوفان الشاعر الكوميدي . واضطر سقراط الشاعرين الى الاقرار بأن

هل هذا ينطبق
على الفنان
دون المشاهد

التراجيديا
والكوميديا
سيان في
الجوهر

التراجيدي الحق هو الكوميدي الحق والعكس^(١٤). ثم علق على هذه العبارة في « فيلبس » ، فقال في ذلك الحوار : اننا نجرب دائماً في الملهاة والمأساة على السواء شعوراً مزيجاً من اللذة والألم وبهذا يتبع الشاعر قواعد الطبيعة نفسها اذ يصوّر « كوميدي الحياة وتراجيدية الحياة كلها »^(١٥). وفي كل قصيدة عظيمة - في مسرحيات شيكسبير والكوميديا الالهية لدانتى وفاوست لجوته - نمر في الحقيقة خلال جميع درجات العواطف الانسانية .

واذا كنا نعجز عن ان نملك الظلال المرفهة في درجات الشعور المختلفة ، اذا كنا نعجز عن ان نتبع التنوعات المستمرة في ايقاعها ونغمتها ، واذا كانت لا تحركنا التغيرات الدينامية المفاجئة فاننا لا نستطيع ان نفهم القصيدة او نحسها . وقد نتحدث عن المزاج الفردي للفنان الا ان العمل الفني ليس له مزاج خاص ولا نستطيع ان ندرجه تحت وصف نفسي معروف . فاذا قلنا ان موسيقى موتسارت مرحة او صافية وان موسيقى بيتهوفن وقور او حزينة او رائعة فذلك قد يفضح فينا ذوقاً غير نفاذ . كذلك تكون التفرقة بين المأساة والملهاة أمراً غير وارد . هل « دون جوفاني » لموتسارت مأساة او أوبرا مجونية ؟ سؤال يكاد لا يستحق جواباً . ثم ان معزوفة بيتهوفن المؤسسة على « ترنيمه الى الفرح » لشيللر تعبر عن اعلى درجات السرور . ولكن حين ننصت اليها لا ننسى لحظة الثبرات الحزينة في السيمفونية التاسعة . كل هذه المقارنات يجب ان تكون شاهدة لدينا وان نحسها بكامل قوتها . فهي تحتشد في تجربتنا الجمالية في كل لا يتجزأ ، ويكون الذي نسمعه هو كل درجات العواطف الانسانية من ادنى نغمة الى اعلاها ، اي نسمع حركة كيائنا كله وذبذباته . واعظم الكوميديين

من الخطأ إدراج الفن تحت وصف نفسي

الكوميديا وطريقتها في التطهير

١٤ - افلاطون: « المأدبة » : ٢٢٣ (ترجمة جويت)

١٥ - فيلبس : ٤٨ وما بعدها (ترجمة جويت)

انفسهم لا يستطيعون باي حال ان يقدموا لنا جمالاً « هيناً » ، وكثيراً ما تكون مؤلفاتهم مليئة باعظم مرارة . هذا ارسطوفان من أشد نقاد الطبيعة الانسانية حدة وتجهماً ، وذاك مولير لم يبلغ من العظمة في ملهاة ما بلغه في « كاره البشر » او في « طرطوف » . ومع ذلك فان حرارة الكاتب الكوميدي العظيم ليست مرارة الهجاء او قسوة الاخلاقي . فهي لا تؤدي الى حكم اخلاقي يدين الحياة الانسانية لأن لدى الفن الكوميدي اعظم قسط من تلك الخاصية التي تتوفر في كل فن - اعني « الرؤيا التعاطفية » - وبفضل هذه الخاصية يستطيع الفن الكوميدي ان يتقبل الحياة الانسانية بكل نقائصها وضروب ضعفها ، بكل حماقاتها ورذائلها . بل ان الفن الكوميدي العظيم كان دائماً نوعاً من الثناء على الحق ، وفي المنظار الكوميدي تتخذ الأشياء جميعاً لها وجوهاً جديدة . وربما لم نكن اقرب الى عالمنا الانساني منا حين نقرأ مؤلفات كبار الكوميديين مثل « دون كيكوتي » لثرفانتس و « ترسترام شاندي » لستيرن و « أوراق بكويك » لديكنز ، إذ نصبح نلاحظ أدق التفاصيل ، ونرى هذا العالم كله في ضيقه وصغره وبلادته ، فنعيش في هذا العالم دون ان نكون مسجونين فيه - ذلك هو الطابع العام للتطهير الكوميدي ، فيه تبدأ الأشياء تفقد وزنها المادي ويتحلل الازدراء الى الضحك ، والضحك تحرر وانطلاق .

تفسير معنى
الاحساس
بالجمال

ويبدو ان معظم النظريات الجمالية تقرر بأن الجمال ليس خاصية مباشرة للأشياء وانه يحوي بالضرورة علاقة تصله بالعقل الانساني . وقد كتب هيوم مقالاً بعنوان في « مقياس الذوق » صرح فيه ان « الجمال ليس صفة في الأشياء ذاتها وانما هو موجود في العقل الذي يتأمله » . إلا ان هذه القول غامضة ، فاذا فهمنا كلمة « عقل » بالمعنى الذي يريده هيوم

واعتبرنا النفس مجموعة من الانطباعات لا غير ، كان من العسير علينا ان نجد في تلك المجموعة ذلك « المحمول » الذي نسميه جمالاً . ولا يجد الجمال بأنه « محسّس » وانما يجد بمصطلح فعالية العقل ، أي فعالية وظيفة الإدراك ، وبالاتجاه المميز لهذه الوظيفة . الجمال لا يتألف من محسوسات سالبة وانما هو طريقة أو عملية من جعل الشيء محسوساً . الا ان هذه العملية ليست ذاتية فحسب بل هي على العكس شرط من شروط حدسنا للعالم الموضوعي . والعين الفنية ليست عيناً سالبة تتلقى انطباعات الأشياء وتسجلها . هي عين بانية ، وبالأعمال البنائية وحدها نستطيع ان نستكشف جمال الأشياء الطبيعية . والإحساس بالجمال معناه القابلية لتلقي الحياة الدينامية للصور ، ولا تدرك هذه الحياة إلا بعملية دينامية مشابهة فنياً .

رأي بأن
الفنان
يستخلص
الجمال من
الطبيعة

ويقيناً لقد أدى هذا الاستقطاب في مختلف النظريات الجمالية — والاستقطاب كما رأينا شرط كامن في الجمال — الى تفسيرات متعارضة على طرفي نقيض . فيرى البرخت ديرر أن الهبة الحقة لدى الفنان هي « استنباط » الجمال من الطبيعة « لأن الفن مغروس ثابت في الطبيعة ، ومن استطاع ان ينزعه منها فقد حازه »^(١٦) . ونجد في الطرف الثاني نظريات روحية تنكر أي صلة بين جمال الفن وما يسمى جمال الطبيعة . وترى ان جمال الطبيعة أمر مجازي . ومن اصحاب هذا الرأي كروتشه الذي يعتقد ان التحدث عن جمال نهر أو شجرة محض استعمال بلاغي ، فهو يرى ان الطبيعة بليدة حين تقارن بالفن ، خرساء الا إن أنطقها الانسان . وربما فهم هذا التناقض بين هذين الرأيين ، اذا ميزنا بقوة بين جمال عضوي وجمال جمالي ، فهناك ضروب عدة من الجمال الطبيعي ليس لها طابع جمالي ،

كروتشه
ينكر جمال
الطبيعة

١٦ - أنظر ولیم . م . كرونوي : « بقايا ادبية من كتابات البرخت ديرر » (١٨٨٩)

التمييز بين
جمال عضوي
وجمال جمالي

فالجمال العضوي في المنظر الطبيعي ليس هو نفس الجمال الجمالي الذي نحسّه في رسوم كبار الرسامين للمناظر الطبيعية ، حتى نحن - المشاهدين - نكون على وعي كامل بهذا الفرق ، فقد أمشي خلال منظر طبيعي وأحسّ بهجتها وذكاء أريجها ، ولكنني قد أمرت في تغير مفاجيء ، في موقف عقلي . عندئذ أرى المنظر بعين الفنان ، وأخذ في تكوين صورة له . وعندئذ أدخل في دنيا جديدة - دنيا « الصور الحية » لا دنيا الأشياء الحية . ثمة لا أبقى في الواقع القريب للأشياء وأنا أعيش في إيقاع الصور المسافية ، في انسجام الألوان وتقاييسها ، في توازن الأنوار والظلال . والتجربة الجمالية تتكوّن من مثل هذا الاستغراق في المظهر الدينامي للصور .

- ٢ -

الفن صام
مستقل

يمكن ان نردّ كل ضروب الجدل بين المذاهب الجمالية المختلفة الى مسألة واحدة . على كل هذه المذاهب ان تقرّ بأن الفن « عالم فكري » مستقل . حتى أشد المدافعين عن واقعية صارمة من الذين يريدون ان يقصروا الفن على وظيفة المحاكاة وحدها أذنوا بتدخل قوة الخيال الفني . إلا ان المذاهب المختلفة تخالفت كثيراً حول تقدير هذه القوة : فأما المذهب الكلاسيكي من قديم ومحدث ، فانه لم يشجع حرية الخيال ، وأصحاب هذا المذهب يرون ان الخيال هبة عظيمة للفنان إلا انها محط للتساؤل . ولم يفكر بوالو - من الزاوية النفسية - ان هبة الخيال لا يستغني عنها كل شاعر حقيقي الشاعرية ، ولكنه يرى ان الشاعر ان انغمس في انطلاقات هذا

الكلاسيكيون
والخيال

الدافع الطبيعي وهذه القوة الغريزية فانه لن يبلغ الكمال . لا بد من ان ينضبط الخيال الانساني بقوة العقل ويقاد بها ويخضع لقواعدها . حتى حين ينحرف الشاعر عن الطبيعة عليه ان يحترم قوانين العقل وان تحصره هذه القوانين في نطاق المحتمل . وقد حددت الكلاسيكية الفرنسية هذا النطاق تحديداً موضوعياً حين جعلت الوجدتين المسرحيتين - وحدتي الزمن والمسافة - حقيقة مادية تقاس بالمقاييس الطولية او بالساعة .

الرومنطيقية
والخيال

ثم جاءت النظرية الرومنطيقية في الفن وحملت معها فكرة مختلفة تماماً في طابع الخيال الشعري ووظيفته . وليست هذه النظرية من وضع ما يسمونه « المدرسة الرومنطيقية » الالمانية فقد وضعت قبل ظهور المدرسة الالمانية ولعبت دوراً حاسماً في كل من الاديين الفرنسي والانجليزي في القرن الثامن عشر . ونجد أوجز تعبير واحسنه عن هذه النظرية لدى ادورد يونج في كتابه « خواطر في الانشاء الاصيل » (١٧٥٩) ، يقول يونج : « ان ريشة الكاتب الاصيل كعصا < الساحرة > ارميدا تنبض في الباب القفر ربيعاً زاهراً » . ومنذ عهدئذ تلاشت الآراء الكلاسيكية في المحتمل ، وخلفها نقيضها ، وأصبح العجيب والمعجز هما الموضوعين الوحيدين اللذين يحسنان مجالاً للتصوير الشعري الصحيح . ونستطيع ان نتتبع ظهور هذا المثال الجديد في القرن الثامن عشر خطوة إثر خطوة . ويستشهد الناقدان السويسريان بودمر وبرايتنجر بشعر ملتون ليسوغا « للعجيب في الشعر » (١٧) . ويرجع العجيب تدريجاً بالمحتمل ويكشف من شمس في مجال الموضوع الشعري . ويبدو ان النظرية الجديدة متجسدة في مآثر الشعراء العظام حتى ان شيكسبير نفسه وضحها في وصفه لخيال الشاعر ، حين قال :

تصوير
ادورد يونج
لنظرية
الرومنطيقية

المجال
الوحيد للفن
هو العجيب
والمعجز

ثلاثة مؤيدون بالخيال :

المجنون والمحـب والشاعر ؛

أحدهم يرى من الشياطين ما لا تسعه جهنم -

ذاك هو المجنون ؛ أما المحب وهو صنوه في لوثته ،

فانه يرى جمال هيلين إذا ما رمقت عيناه وجهاً أسمرًا .

ومقلـة الشاعر ، وهي في حالة مس^١ من خبل ،

تجوب في لمحتها بين السماء والارض ، بين الارض والسما

ولما كان الخيال يجسد صور الاشياء المجهولة

فان ريشة الشاعر نحوّتها الى أشكال -

ونتمح الموهوم والمعدوم مستقرًا وسمّة^(١٨) .

إلا ان الفكرة الرومنطيقية في الشعر لم تجد لها سنداً قوياً في شيكسبير ؛

واذا كنا بحاجة الى أن نثبت ان عالم الفنان ليس فحسب دنيا « اوهام »

لم نجد شاهداً على ذلك خيراً من شيكسبير ، فالنور الذي يرى فيه الطبيعة

والحياة الانسانية ليس « نوراً واهماً اعتدى اليه الوهم » . وهناك شكل

آخر من الخيال يتصل به الشعر اتصالاً وثيقاً فيما يبدو ، ذلك هو

الاسطورة ، ولما قام فيكو بمحاولته الأولى لـيخلق « منطقاً للخيال » عاد

الى عالم الاسطورة ، فتحدث عن ثلاثة عصور مختلفة : عصر الآلهة

وعصر الابطال وعصر الانسان ؛ وقال : إننا يجب ان نفتش في العصرين

الاولين عن الاصل الصحيح للشعر ، ذلك ان الانسانية لم تستطع ان

تبدأ بأفكار مجردة او بلغة عقلية ، وكان عليها ان تمرّ خلال عصر من

اللغة الرمزية في الاسطورة والشعر . ولم تكن الامم الاولى تفكر بالافكار

وإنما كانت تفكر بالصور الشعرية ، وتحدث اساطير وتكتب خطأ

هيروغليفاً . ويبدو ان الشاعر وصانع الاسطورة يعيشان في عالم واحد ،

١٨ - حلم منتصف ليلة صيف : الفصل الخامس ، المشهد الأول .

فلسفهما موهبة اساسية واحدة هي القدرة على التشخيص ، ولا يستطيعان ان يتأملا شيئاً دون ان يمنحاه حياة داخلية وشكلاً إنسانياً . ويتلفت الشاعر الحديث كثيراً الى هذين العصرين الغيبين ، عصر الالهية والبطولة ، كما يتلفت الى فردوس مفقود ؛ وقد عبر شيللر في قصيدته « آلهة يونان » عن هذا الشعور فتنبى لو انه استعاد عصور شعراء الاغريق الذين كانوا يرون الاسطورة قوة حيوية لا مجازاً تمثيلاً خاوياً . ويحن الشاعر الى عصر الشعر الذهبي يوم كانت الاشياء كلها مفعمة بالآلهة وكانت كل تلة مسكناً لاحدى عرائس الهضاب ، وكل شجرة موطناً لحورية من حور الغاب .

الاسطورة لا
تموت وهي
نبع الخيال
لا ينضب

لكن هذه الشكوى التي تخالج الشاعر الحديث تقوم على غير أساس . لأن من أعظم مزايا الفن انه لا يفقد هذا « العصر الالاهي » أبداً ولا يحف نبع الخيال الخالق لأنه بما لا ينضب ولا ينضب . وتظهر عملية الخيال في كل عصر ولدى كل فنان عظيم في صور جديدة مؤيدة بقوى جديدة ؛ ونحن نحس بهذا البعث والتجدد على أقوى صوره لدى الشعراء الغنائيين ، فهم لا يمسون شيئاً الا ويفعمونه بحياتهم الداخلية الذاتية ؛ وقد وصف وردزورث هذه الهبة وقال إنها قوة كامنة في شعره :

لكل صورة في الأرض ، كل صخرة وزهرة وثمره ،
بل للحصى المنتثر في قوارع الطرق ،
قدّمتُ نسمة الحياة ؛ رأيتها تشعر
أو وصلتها بمظهر من الشعور :
تملأ الوجود كله بنبضة الحياة ،
وكل ما رأته انطوى على معنى كمين (١٩) .

التجسيد هو
الأمر الأول
لا يتم
الحياة في
الموجودات

ولكن هذه القوى المبتدعة وهذه القدرة على بث الحياة في الموجودات لا تبعد بنا كثيراً عن مدخل الفن . إذ ليس يكفي أن يحس الشاعر « بالمعنى الكمين » للأشياء وحياتها الخلقية ، وإنما عليه أن يكسب مشاعره وجوداً خارجياً . وتظهر أعلى قوة وأبرزها لدى قوة الخيال الفني في هذه المرحلة الثانية ، مرحلة الوجود الخارجي . والوجود الخارجي معناه تجسيد منظور أو محسوس ، لا أعني فحسب في الصورة المادية من صلصال وبروز ورخام وإنما في الصور الحسية ، في الإيقاعات ، في التماذج اللونية ، في الخطوط والرسوم ، في أشكال البلاستيك . أما الذي يؤثر فينا من العمل الفني فهو البناء أي التوازن والنظام في تلك الأشكال . ولكل فن تعبيره الخاص المميز الذي لا تخطئه العين ولا تستطيع تبديله بغيره . وقد نصل بين ضروب التعبيرات الفنية ، كأن نلحّن القصيدة الغنائية أو نخرج فكرتها بالرسم ، ولكننا لا نستطيع أن نترجم فناً إلى فن ، ولكل تعبير منها وظيفته الخاصة التي يؤديها في « معمارية » الفن .

يقول أدولف هلدبراند :

« إن مشكلات الشكل الناشئة عن المبنى المعماري هي المشكلات الصحيحة في الفن وإن لم تقدمها الطبيعة لنا مباشرة يبدأ بيد . فنحن نحصل على مادة من الطبيعة من طريق دراستنا لها دراسة مباشرة ثم نحول هذه المادة إلى وحدة فنية عن طريق العملية المعمارية ؛ فإذا تحدثنا عن مظهر المحاكاة في الفن فأنما نشير إلى المادة التي لم تتطور بعد على ذلك النحو . وبوساطة هذا التطور المعماري ينتقل النحت والرسم من منطقة الطبيعة إلى منطقة الفن الصحيح » (٢٠) .

٢٠ - أدولف هلدبراند : « مشكلات الصورة في الرسم والنحت » ومنه ترجمة إنجليزية قام بها ماكس ماير وز. م. أوجدن (نيويورك ، شركة ج. ا. ستشرث ١٩٠٧) ص : ١٢

وهذا التطور المعماري موجود في الشعر أيضاً ولولاه لفقد الابتداع الشعري أو التقليد قوته . وإذن لبقيت أهوال « الجحيم » التي صورها دانتني أهوالاً لا يخف وقعها ، وبقيت مفارح « فردوسه » أضغاث أحلام لو لم يشكلها سحر كلمات دانتني وأوزانه في شكل جديد .

ولقد أكد أرسطوطاليس جانب ابتكار عقدة المأساة في نظريته عن التراجيديا : فهو يقول ان للتراجيديا ستة عناصر ضرورية وهي الموضوع والشخصية والعبارة والفكر والمشهد والنغم الموسيقي ... واهم هذه الاجزاء جميعاً ترابط الحوادث او العقدة لأن المأساة في اساسها محاكاة للأعمال وللحياة لا للناس . والمأساة لا تحاكي عملاً من أجل ان تصور الشخصيات ولكنها بمحاكاتها للعمل تتضمن محاكاة للشخصيات ... ولا تقوم للمأساة قائمة بغير العمل ولكن قد توجد هناك مأساة لا شخصية فيها (٢١) . وقد اختارت الكلاسيكية الفرنسية هذه النظرية الارسطوطاليسية وأكدها . فإلح كورنيل في مقدمات رواياته على هذه النقطة ويتحدث بنجلاء عن روايته التراجيدية « هراقليوس » لأن العقدة فيها كانت معقدة جداً حتى انها احتاجت جهداً فكرياً خاصاً لفهمها واستجلاء معناها . ومن الواضح ان هذا النوع من الجهد الفكري والمتعة الفكرية عنصر غير ضروري في العملية الفنية . فاستمتعنا بالعقد المسرحية في روايات شيكسبير أي تتبعنا « لترايط الأحداث » في قصة عطيل ومكبث ولير - بلذة وشغف - لا يعني بالضرورة اننا نفهم فن شيكسبير التراجيدي او نشعر به . وبغير لغة شيكسبير ، بغير قوة عباراته الدرامية ، يظل هذا كله شيئاً غير مؤثر . ولا يمكن فصل قرينة القصيدة عن شكلها ، أي عن الوزن والنغم والايقاع ،

ابتكار العقدة
في المأساة
اهم مظاهرها
عند أرسطو

٢١ - أرسطوطاليس، المصدر نفسه : ٦ / ١٤٥٠ : ٧ - ٢٥ وترجمة بايوتر : ١٨ - ١٩

[والترجمة العربية المذكورة قبلا ص : ٣٦] .

فهذه العناصر الشكلية ليست محض وسائل خارجية أو « تقنية » تعيد نقل حدس معطى وإنما هي جزء اساسي من الحدس الفني نفسه .

وصل الشعر
بالفلسفة لدى
الرومنطيين

ووصلت نظرية الخيال الشعري في الفكر الرومنطقي ذروتها . فلم يعد الخيال فعالية إنسانية خاصة تبني عالم الفن الانساني وإنما أصبحت ذات قيمة متافيزيقية كلية عامة ، أصبح الخيال هو السبيل الوحيد للحقيقة الواقعية ، وقد بنى فخته مثاليته على هذه الفكرة من « الخيال المنشج » ، وصرّح شلنج في « نظام المثالية الجوهرية » أن الفن ذروة الفلسفة — عند أعتاب الحكمة الفلسفية نطل نعيش في الطبيعة ، في الأخلاقية ، في التاريخ ، وإذا وصلنا الفن بلغنا حرم الفلسفة نفسه . وقد عبّر الأدباء الرومنطيون عن أنفسهم بهذه الروح شعراً ونثراً وأصبحت التفرقة بين الشعر والفلسفة شيئاً ضحلاً سطحياً . ويرى فردريك شليجل أن أعلى واجب للشاعر الحديث هو أن يجهد وراء شكل شعري جديد يسميه « الشعر الجوهرى » وسوى هذا الشكل لا يستطيع أي نوع شعري آخر أن يقدم لنا جوهر الروح الشعرية أي « شعر الشعر » (٢٢) .

وأضحت أعلى غاية لدى المفكرين الرومنطيين هي وسم الشعر بالفلسفة ووسم الفلسفة بالشعر . وأضحوا يرون القصيدة صحيحة ممثلة للكون كله ، عملاً فنياً يظل أبداً يكمل نفسه وليس صنع فنان فرد . ومن ثم كانت أعمق غرائب الفنون جميعاً تنتسب الى الشعر (٢٣) . قال نوفالس : « الشعر كل ما كان حقيقياً على نحو مطلق أصيل ، تلك هي نواة فلسفتي . وكلما كان الشيء أشد حظاً من الشعر كان أعظم نصيباً من الحق » (٢٤) .

٢٢ — انظر شليجل : « قطع أثينية » : ٢٣٨ في « التاج الثري في عهد الشباب » نشر ج . ميور (الطبعة الثانية ، فينا ، ١٩٠٦) ٢ : ٢٤٢ .

٢٣ — شليجل : « محاضرة في الشعر » (١٨٠٠) ، المصدر نفسه ٢ : ٣٦٤

٢٤ — نوفالس ، نشر ج . ميور ٣ : ٢ ، وانظر أ . فلتسل : « الرومنطيقية الالمانية » ترجمة انجليزية قامت بها إلما . لسكي (نيويورك ١٩٣٢) ص : ٢٨

وبهذه الفكرة اعتلى الشعر والفن درجة ومكانة لم تكن لهما من قبل فأصبحا « قانوناً جديداً » لاستكشاف غنى العالم وعمقه . ومع ذلك فان هذا الثناء المفرط المفتون على الخيال الشعري كان فيه نواحٍ من القصور . فقد قدّم الرومنطيقيون نضحية خطيرة من أجل ان يبلغوا غايتهم المتافيزيقية إذ صرّحوا ان اللامحدود هو الموضوع الصحيح للفن ، بل هو الموضوع الوحيد . واعتبروا الجميل رمزاً يمثل اللامحدود ، ولا يكون فناً ، في رأي فردريك شليجل ، إلا من كان له دينه الخاص ، أي من كان ذا فكرة أصيلة في اللامحدود^(٢٥) . ولكن في مثل هذا الحال ما مصير عالمنا المحدود ، عالم التجربة الحسية ؟ من الواضح ان هذا لا يدعي النسبة الى الجمال وهو ما هو . اذن فهناك عالمان متضادان ، عالم الشاعر والفنان وعالمنا العادي السخيف الذي يفتقر الى الجمال الشعري كله . وهذا النوع من الثنائية مظهر اساسي في كل النظريات الرومنطيقية عن الفن . ولما شرع جوته ينشر كتابه « ايام دراسة فلهم مايستر » رحب به النقاد الرومنطيقيون الاولون بتعبيرات مسرفة في الحماسة ، فرأى نوفالس في جوته « تجسد الروح الشعرية على ظهر الارض » ، ولكن ما ان مضت الفصول الاولى واخذت شخصية مجنون Mignon الرومانطيقية وشخصية عازف القيثارة تحتجبان لتظهر محلهما شخصيات اكثر واقعية واحداث غير شعرية الطابع حتى بدأ نوفالس يشعر بحجة امل . فلم يقتنع بان ينقض حكمه الاول بل تهادى الى حد ان يتهم جوته بانه خائن لقضية الشعر . واصبح « فلهم مايستر يعتبر نقداً ساخراً - « ضرباً من « كانديده » ضد الشعر » . لقد اعتقد هؤلاء الرومنطيقيون ان الشعر اذا احتجب العجيب عنه فقد مفزاه ومسوغ وجوده ، وان الشعر لا

نشوء الثنائية
في النظرية
الرومنطيقية
(المحدود
واللامحدود)

يزدهر في عالمنا العاديّ التافه : ان المعجز والمدهش والغريب هي الموضوعات الوحيدة التي تتقبل المعالجة الشعرية الحقة .

صلة الطبيعيين
بالخيال

هذه الفكرة عن الشعر تبيان لحده وصفته لكنها ليست خبراً موثقاً عن عملية الخلق الفني . ومن الغريب ان الواقعيين العظام في القرن التاسع عشر كانوا من هذه الناحية أنفذ نظراً في العملية الفنية من خصومهم الرومنطيقين ، فقد آثروا انجهاً طبيعياً ثورياً متطرفاً . ولكن هذه الطبيعية هي التي ادت الى فكرة أعمق في الشكل الفني ، على وجه الدقة . فقد أنكر الطبيعيون الاشكال الخالصة التي آمنت بها المذاهب المثالية وركزوا اهتمامهم في المظهر المادي للاشياء ، ويفضل هذا التركيز المحض استطاعوا ان يتغلبوا على الثنائية التقليدية بين المنطقتين الشعرية والنثرية . فقال هؤلاء الواقعيون ان طبيعة العمل الفني لا تعتمد على عظم المادة او صغرها . ليس ثمة موضوع إلا وهو صالح لأن تتناوله الطاقة التشكيلية الفنية ، ومن أعظم انتصارات الفن ان يجعلنا نرى الاشياء المبتذلة العادية في شكلها الحقيقي وفي ضوءها الصحيح . هذا بلزك قد غاص في اتفه ملامح الكوميديا الانسانية ، وذاك فلوبير قام بتحليلات عميقة لأدنى الشخصيات . وفي بعض قصص اميل زولا نستكشف أوصافاً دقيقة لتركيب دودة او مخزن او منجم فحم ، ولم يسقط من تلك الاوصاف دقائق صغيرة مهما يكن شأنها تافهاً . ومع ذلك فانا حين نتغلغل خلال مؤلفات هؤلاء الواقعيين جميعاً نجد فيهم قوة خيال عظيمة ليست اقل شأناً من قوة الخيال عند الرومنطيقين . غير ان من نقائص النظريات الطبيعية في الفن انها لم تستطع ان تقر علناً بوجود تلك القوة . ذلك ان الطبيعيين في محاولاتهم ان ينقضوا الافكار الرومنطيقية عن الشعر الجوهري المثالي عادوا الى التعريف القديم الذي كان يحدّ الفن بانه محاكاة للطبيعة ، وبهذا العمل اخطأوا النقطة الرئيسية

لأنهم عجزوا عن ان يدركوا الطابع الرمزي للفن . وقد بدا لهم انهم إن اقروا بهذا التشخيص للفن فانهم لن يسلموا من النظريات الرومنظيقية المتافيزيقية . الفن في الحقيقة رمزية ، الا أن رمزية الفن يجب ان تفهم بمعنى داخلي ذاتي لا بمعنى مثالي استعلائي . وقد قال شلنج : الجمال « تقديم اللامحدود في اطار محدود » . وليس موضوع الفن هو « اللامحدود المتافيزيقي » الذي ارتآه شلنج ولا « المطلق » الذي تصوره هيجل ، بل يجب ان نفقش عنه في بعض العناصر البنائية الاساسية من تجربتنا الحسية - في الاسطر والرسوم وفي الصور المهارية والموسيقية . وهذه العناصر شاهدة لا تغيب بارثة من كل غيبية وخفاء ، واضحة في جلاء ، مريئة مسموعة ملموسة . وبهذا المعنى لم يتردد جوته في ان يقول : « ان الفن لا يدعي انه يرينا العمق المتافيزيقي للاشياء وانما يستمسك بسطح الظواهر الطبيعية . ولكن هذا السطح لا يمنح نفسه في سر . ونحن لا نراه قبل ان نستكشفه في اعمال الفنانين الكبار . وليس هذا الاستكشاف مقصوراً على ميدان خاص بل ان الفن ليستطيع ان يعانق منطقة التجربة الانسانية كلها ويشملها جميعاً الى الحد الذي تستطيع فيه اللغة الانسانية ان تعبر عن كل الاشياء رفيعة ودانيها . ولا شيء يُنفى من ميدان الفن - بطبيعته وجوهره - سواء اكان ذلك الشيء من العالم المادي او الاخلاقي او كان عملاً طبيعياً او انسانياً ، لان لاشيء يستعصي على العملية الفنية الاخلاقة التشكيلية . يقول يكون في « القانون الجديد » : « كل ما هو اساسي فهو رفيع واذن فالعلم رفيع » (٢٦) ؛ وهذه المقولة تنطبق على الفن مثلما تنطبق على العلم .

النظريات
السيكولوجية
في الفن

للنظريات السيكولوجية في الفن ميزة واضحة محسوسة على جميع النظريات
المتنافيضة ، فهي غير مضطرة الى ان تقدم نظرية عامة في الجمال ، بل تحدد
نفسها في دائرة ضيقة لانها لا تهتم الا بحقيقة الجمال وتحليل وصفي لتلك
الحقيقة . واول واجب من واجبات التحليل السيكولوجي هو ان يعين فئة
الظواهر التي تنتمي اليها تجربتنا الجمالية . وهذه المشكلة لا نجر الى أي
صعوبة فلا أحد يقدر ان ينكر ان الفن يمنحنا ارفع متعة بل لعلها أدم
متعة تستطيعها الطبيعة الانسانية وأقواها . وحالما نختار هذه الطريقة
السيكولوجية يبدو أن سرّ الفن يفتح ، اذ ليس هناك ما هو اقل غيبية
من اللذة والالم . فن السخف ان نقف عند هاتين الظاهرتين متسائلين
متشككين ، وهما ظاهرتان في الحياة عامة لا في الحياة الانسانية خاصة ،
هاهنا نجد موضعاً صلباً ثابتاً نقف عليه فاذا وفقنا في ربط تجربتنا الجمالية
بهذه النقطة تبدد كل شك حول طابع الجمال والفن .

نظرية اللذة

ويبدو ان البساطة المطلقة في هذا الحل هي التي نحببها لنا ، ولكن كل
نظريات اللذة الجمالية ، من الناحية الاخرى ، تنطوي على نقائص ما فيها
من صفات . فهي تبدأ بتقرير حقيقة بسيطة واضحة لا تنكر ، وبعد
الخطوات القليلة الاولى تعجز دون غرضها وتتوقف فجأة . اللذة حقيقة
مباشرة من حقائق تجربتنا ولكنها حين تعتبر مبدءاً سيكولوجياً يصبح
معناها غامضاً مبهماً حتى النهاية ، اذ يمتد المصطلح ليشمل ميداناً واسعاً
وينبسط على ظواهر مختلفة غير متجانسة ؛ ومن المغري دائماً ان تأتي بمصطلح
عام واسع يشمل أشد الاستدلالات تباعداً . ولكننا ان استسلمنا لهذا الاغراء

أدركنا خطرُ فقدانِ القدرة على رؤية الفروق المميزة الهامة . وقد كانت نظريات اللذة ، الاخلاقية منها والجمالية ، عرضة دائماً لاغفال هذه الفروق عينها . ويؤكد كانت هذه النقطة في ملحوظة هامة في كتابه « بحث تحليلي في العقل العملي » . يقول كانت : « ان كان تعميم إرادتنا يعتمد على الشعور بكون ما نتوقه من أي علة مرضياً أو غير مُرضٍ لم يهتمنا بأي نوع من الأفكار تأثرنا ، فكلها لدينا سواء . والشيء الوحيد الذي يهتمنا في القيام باختيارنا هو الى أي حد يكون ذلك الرضى كبيراً والى كم يبقى وهل الحصول عليه يكون سهلاً وكم مرة يستعاد .

» ومثلما أن المرء يحتاج الى المال يستوي لديه ان يكون الذهب مما استخرج من مناجم الجبل أو مما صفتي من الرمل ، ما دام هذا الذهب محتفظاً بقيمته في كل مكان ؛ كذلك المرء الذي لا يعنيه من الحياة إلا الاستمتاع بها فانه لا يسأل : أهذه الافكار وليدة الفهم أو الحواس ، وانما يكفيه ان يتساءل : كم من المتعة تمنحه تلك الافكار لأطول مدة ، وما مقدار ما ستمنحه من متعة » (٢٧) .

واذا كانت اللذة هي المقام المشترك فان الذي يهتم منها هو الدرجة لا النوع ؛ كل اللذائذ – مهما يكن نوعها – تقف على مستوى واحد ؛ ويمكن ردها جميعاً الى اصل سيكولوجي وبيولوجي مشترك .

ووجدت نظرية اللذة الجمالية أوضح تعبير عنها في فلسفة سانتيانا ، فهو يرى ان الجمال لذة تعد صفة للاشياء اي هو « لذة في وضع موضوعي » . لكن هذه « مسألة دور » . اذ كيف تكون اللذة – وهي اشد حالات العقل ذاتية – في وضع موضوعي ؟ يقول سانتيانا : العلم « استجابة

سانتيانا
ونظرية اللذة

٢٧ – « بحث تحليلي في العقل العملي » ترجمة ت . ك . ابوت (الطبعة السادسة ، نيويورك ،

لونغمانز وجرين وشركاؤهما ١٩٢٧) ص : ١١٠

للرغبة في الخبر وفيه نسأل عن الحقيقة كلها ولا شيء سوى الحقيقة .
والفن استجابة للرغبة في التسلية ... وتدخل الحقيقة فيه بمقدار ما يخدم
هذه الغاية « ٢٨ » . ولكن ان كانت هذه هي غاية الفن فنحن مجبرون
على القول بان الفن في اعلى منجزاته يعجز عن ان يبلغ غايته الصحيحة .
اذ « الرغبة في التسلية » يمكن ان تتحقق بوسيلة احسن وأقل كلفة . وإذا
حسبنا ان الفنانين العظام عملوا لأجل هذا الغرض ، اذا حسبنا ان ميخائيل
انجلو بنى كاتدرائية القديس بطرس وان دانتى او ملتون كتبوا قصائدهما من
أجل التسلية كنّا نحسب جواز المستحيل . ولا ريب في ان هؤلاء الفنانين
كانوا يؤيدون قوله ارسطوطاليس : « حين يجهد المرء نفسه ويعمل من
اجل التسلية فذلك فيما يبدو سخف ونقص في الاحلام » « ٢٩ » . واذا كان
الفن استمتاعاً فانه ليس استمتاعاً بالاشياء ، وانما هو استمتاع بالصور
والاشكال . والمتعة بالصور مختلفة تماماً عن المتعة بالاشياء او بانطباعات
الحس . لا يمكن ان تنطبع الصور في افكارنا وحسب ، بل لا بد من ان
نستعيدنا لنحس بها . في جميع النظريات الجمالية اللذة قديمها وحديثها
نقص مشترك ، وهو انها تقدم لنا نظرية سيكولوجية في اللذة الجمالية ثم
تعجز هذه النظرية عجزاً كاملاً عن ان تبين العلة في حقيقة الخلق الجمالي
وهي حقيقة اساسية . فنحن في الحياة الجمالية نمارس تحولاً أساسياً ، اذ
لا تعود اللذة عندئذ اثرأ بل تصبح وظيفة ، لان عين الفنان ليست عيناً
تتأثر بالانطباعات الحسية فتستجيب لها او تعيد تكوينها ، وفعاليتها ليست
مقصورة على تلقي الاشياء الخارجية وتسجيلها او على جمع الانطباعات
بطرق جديدة تحكمية . وليس يميز الرسام العظيم او الموسيقي العظيم انهما

٢٨ - « الاحساس بالجمال » (نيويورك ، ابناء تشارلس سكرنر ١٨٩٦) ص : ٢٢

٢٩ - ارسطوطاليس : « الاعلاق الى نيقوماخس » ١٧٧٦ ب : ٣٣

ذوا احساس مرهف نحو الالوان والاصوات ؛ وانما الذي يميز احدهما قدرته على ان يستخلص من مادته الثابتة حياة دينامية من الصور والاشكال، وبهذا المعنى وحده لا غير يمكن ان يقال ان اللذة التي نجدها في الفن تتخذ لها وضعاً موضوعياً . لذلك فاننا حين نعرف الجمال بأنه « لذة في وضع موضوعي » فان هذا التعريف يضع المشكلة في قبضة مقفلة . لان اخراج الشيء الى حيز الموضوعية عملية بناء دائماً . والعالم المادي - عالم الصفات والاشياء الدائمة - ليس مجموعة من المعلومات الحسية ، كما ان عالم الفن ليس مجموعة من المشاعر والعواطف . فالاول يعتمد على اعمال تخرج بها الاشياء الى حيز الموضوعية - الموضوعية التي تتم بالافكار والمركبات العلمية . والثاني يعتمد على اعمال تشكيلية من نوع آخر ، اي اعمال من التأمل .

نظريات
اخرى ترد
على نظرية
اللذة

وهناك نظريات حديثة اخرى تعارض هذه المحاولات التي ترمي لتحديد المفهوم الفني باللذة ، وهي عرضة ايضاً لما يوجه الى نظريات اللذة الجمالية من اعتراض . اذ انها ايضاً تحاول ان تفسر العمل الفني بربطه الى ظواهر اخرى معروفة مشهورة . وتقع هذه الظواهر على مستوى مختلف تماماً لانها حالات عقلية سالبة لا موجبة ؛ وقد نجد بين الفئتين بعض المشابه ولكننا لا نستطيع ان نردهما الى اصل مشترك ، متافيزيقي او سيكولوجي .

اخضاع
الفن للمنطق

والدافع المشترك او المظهر العام في هذه النظريات هو كفاحتها ضد النظريات الفنية ذات الطابع العقلي والفكري ، فالكلاسيكية الفرنسية حولت العمل الفني ، بمعنى من المعاني ، الى مشكلة حسابية تحلّ بنوع من قاعدة النسبية الثلاثية . وكان ظهور رد الفعل ضد هذه الفكرة امراً ضرورياً مفيداً معاً . الا ان النقاد الرومنطقيين الاول ، وبخاصة الرومنطقيين الالمان ذهبوا تَوّاً الى الطرف المقابل ، فصرحوا بأن الفكرة التجريدية التي

رد
الرومنطقيين

جاءت بها مدرسة التجريبيين (enlightenment) سخرية بالفن ، وبأننا لا نستطيع ان نفهم العمل باخضاعه للقواعد المنطقية ، وان كتاباً في « البويطيقا » لا يستطيع ان يعلننا كيف نكتب قصيدة جيدة ، لأن الفن ينشأ من مصادر اخرى أبعد وأعمق . وقالوا : اذا شئنا ان نستكشف هذه المصادر فعلينا ان ننسى مقاييسنا العامة الدارجة وان نغوص في خفايا حياتنا اللاواعية . ما الفنان الا نوع من الماسشي في نومه وعليه ان يستمر في مشيه دون تدخل أو تحكم من أية فعالية واعية . فاذا ايقظتَه فقد حطمت قوته . يقول فردريك شليجل : « بداية كل شعر أن يلغي قوانين العقل المتقدمة وأساليبه وان يغوص بنا مرة اخرى في فوضى الاوهام الفتانة ، في الفوضى الاصلية للطبيعة الانسانية » (٣٠) . الفن حلم يقظة نستسلم له إرادياً .

وقد تركت هذه الفكرة الرومنطيقية نفسها اثرأ على الافكار المتافيزيقية رأي برجسون المعاصرة . فقد قدم برجسون نظرية في الجمال اراد بها ان تكون آخر برهان شامل على مبادئه المتافيزيقية العامة ، وهو يرى انه لا شيء كالعقل الفني يوضح الثنائية الاساسية المكونة من حدس وعقل كما يوضح التناقض بين حديثها . اما ما نسميه حقيقة عقلية او علمية فذلك شيء سطحي عرفي . ولا معاذ لنا من هذا العالم الضحل العرفي الا الفن ، فانه يعود بنا الى منابع الحقيقة نفسها . فان كانت الحقيقة « تطوراً خالفاً » فيجب علينا ان نبحث عن شواهد القوة الخالقة الحياتية وعن تمثلها نفسه في القوة الخالقة الفنية . وهذه الفكرة تبدو لاول نظرة فلسفة جمال دينامية او فعالية ، ولكن الحدس عند برجسون ليس مبدأ موجباً فعلاً ، وانما هو نحو من

٣٠ - من شاء نماذج أخرى من هذه النظريات الرومنطيقية المبكرة ونقداً لها فليراجع كتاب ايرفنج بايت « اللاوكون الجديد » ، الفصل الرابع .

ال تلقى لا من التلقائية . وهو يصف الحدس الجمالي بأنه قابلية سلبية لا صورة موجبة . يقول برجسون :

« غاية الفن ان يُنمّ فينا القوى النشيطة او قوى المقاومة في شخصيتنا ، وهكذا يبلغ بنا حالة من الاستجابة الكاملة لنحقق فيها الفكرة الموحى بها الينا ونتعاطف مع الشعور المعبر عنه ثمة . وسنجد في عملية الفن صورة مرهفة - والى حد ما مصبوغة بالروحانية - من العمليات التي نستعملها في العادة لنحقق حالة من حالات التنويم المغناطيسي ، الا انها على نحو أضعف ... ان الشعور بالجميل ليس شعوراً معيناً ... وكل شعور نجربه ينتحل طابعاً جمالياً على شرط أن يكون مما أوحى الينا به لا مما نشأ عن علة ... ولذلك فان في تطور الشعور الجمالي مراحل متميزة مثلما هي الحال في التنويم » (٣١) .

مهما يكن من شيء فان تجربتنا للجمال ليست من نوع التنويم . ففي التنويم قد توحى لانسان بأعمال معينة او قد ترغمه على عاطفة ما . ولكن الجمال في معناه الاصيل المحدّد ، لا يُفرض على عقولنا بهذه الطريقة . واذا شاء المرء ان يحس به فلا بد له من ان يتعاون والفنان . ليس عليه فحسب ان يتعاطف ومشاعر الفنان بل عليه ان يدخل في نطاق فعاليته الخالقة . واذا نجح الفنان في أن ينمّ القوى اليقظة في شخصيتنا فقد شلّ فينا احساسنا بالجمال . ولا يمكن بهذه الطريقة ادراك الجمال او الوعي بدينامية الصور ، لان الجمال يعتمد على احساسات من نوع خاص وعلى حكم وتأمّل .

٣١ - « مقال في الخواطر الآتية من الضمير » والترجمة الانجليزية بقلم ر.ل. بوجسون بعنوان « الزمن وحرية الارادة » (لندن مكميلان ١٩١٢) ص : ١٤ وما بعدها .

وقد كان من اعظم ما اسهم به شافتسبري في نظرية الفن الخاحه على هذه النقطة . ولقد قدّم في كتابه « الأخلاقيون » مقالاً في التجربة الجمالية بعيد التأثير - وهي تجربة اعتبرها امتيازاً موقوفاً على الطبيعة الانسانية - يقول شافتسبري :

« وانت لا تنكر الجمال على الحقل البري* او على هذه الأزهار التي تنمو من حولنا على هذه الزراعي* الخضر . ومع ذلك فهما تكن هذه الصور الطبيعية جميلة ، مهما يكن في العشب اللامع أو الطحلب الفضي والسعر المزهري والوردة البرية والياخمين البري* من جمال فلبس جمالها الذي يغري القطعان المجاورة ويبهج الغزلان السائمة والجديان ، ويبسط الفرحة التي نحسها في القطعان وهي ترعى . ليست « الصورة » هي التي تسر وانما ما دون الصورة . انما الطعام يغري والجوع يثير الاضطراب ... اما « الصورة » فلا تستطيع ان تكون ذات قوة حقيقية حيث لا يستطاع تأملها او الحكم عليها او اختبارها ، أي حيث تظل فحسب رمزاً عابراً عارضاً على ما أثار الاحساس . اذن ان كانت الحيوانات البرية عاجزة عن معرفة الجمال والتمتع به لأنها كذلك حيوانات بريّة وليس لديها إلا قوة الحس ... - فتلك هي نصيبها - فان مما يتبع ذلك ان الانسان نفسه لا يستطيع بالحس وحده ان يتصور الجمال أو يستمتع به ... غير انه يستمتع بالجمال كله في الواقع ، وهذا يتم عن طريق أنبل من طريق الحس ، يتم بعون من أنبل عنصر فيه ، بعونٍ من فكره وعقله » (٣٢) .

٣٢ - شافتسبري : « الأخلاقيون » القسم : ٢ ، الجزء : ٣ وانظر ايضاً « ميزات » (١٧١٤)

٢ : ٤٢٤ وما بعدها .

إن ثناء شافيتشري على الفكر والعقل بعيد كل البعد عن عقلانية المذهب التجريبي (Enlightenment) ، وهذا الكلام الحاسي الذي يقوله في الجمل الطبيعي والقوة الخالقة اللامحدودة في الطبيعة كان مظهرأ جديداً كل الجدة في التاريخ الفكري في القرن الثامن عشر . وبهذا المعنى كان من أول أنصار الرومنطيقية . إلا أن رومنطيقته كانت من نوع أفلاطوني، لان نظريته في الصورة الجالبة فكرة افلاطونية وبفضلها استطاع أن يردّ على الاتجاه الحسيّ لدى التجريبيين الانجليز ، ويقف ضده (٣٣) .

نظرية نيتشه

والاعتراض الذي يوجه ضد متافيزقيات برجسون يصدق ايضاً على نظرية نيتشه السيكولوجية ، فقد تحدى نيتشه في إحدى مقالاته الاولى وعنوانها : « مولد المأساة من روح الموسيقى » - تحدّى افكار الكلاسيكيين الكبار ابناء القرن الثامن عشر فقال : ليس المثل الاعلى الذي رسمه فنكلمان هو الذي نجده في الفن الاغريقي ، وعبثاً نبحت لدى اسخيلوس وصوفوكليس ويوريديس عما أسماه « البساطة النبيلة والعظمة الهادئة » . إنما عظمة المأساة الاغريقية في عمق العواطف العنيفة وشدة توزها . لقد كانت المأساة الاغريقية وليدة مذهب ديونيسيوس ، وكانت قوتها عريضة عنيفة إلا ان الصخب المعربد في اعياد ديونيسيوس لم يكن يستطيع وحده ان ينتج الدراما اليونانية ، فجاءت قوة ابولو لتوازن قوة ديونيسيوس . وهذا الاستقطاب الاساسي هو جوهر كل اثر في عظيم - الفن العظيم في كل عصر نشأ من التداخل بين قوتين متعارضتين : من دافع مسرف النشوة ومن حال حُلُميّة . هما حالتان : حال من الرؤيا وحال من الغيبوبة النشوى . وكلتا الحالتين تطلق كلّ نوع من القوى الفنية المعتقلة

٣٣ - فمة حديث مفصل عن مكساةة شافيتشري في فلسفة القرن الثامن عشر كتبه كاميرر في كتابه : « اليقظة الانلاطونية في انجلترا ومدرسة كيمبردج » (ليبرج ١٩٣٢) الفصل السادس .

في داخلنا ، وكل واحدة منها تختص باطلاق نوع من القوى . اما الحلم فيقدم لنا قوة الرؤيا والربط والشعر . وتقدم لنا الغيبوبة النشوى قوة المواقف العظيمة والمواقف واللاغنية والرقص^(٣٤) . وفي هذه النظرية المتعلقة بالاصل السيكولوجي للفن اختفى مظهر من اهم مظاهر الفن لان الالهام الفني ليس غيبوبة نشوان ، والخيال الفني ليس حلماً أو هلاساً . وكل عمل فني عظيم يتميز بوحدة بنائية عميقة ، ولا نستطيع ان نعلل لهذه الوحدة بأن زردّاها إلى حالتين مختلفتين مبعثرتين مضطربتين كحال الحلم وحال الغيبوبة ، اي لا نستطيع ان نصنع كلاً بنائياً متكاملًا من عناصر لم تبلور اشكالها .

النظريات
التي ترى الفن
نوعاً من اللهو

وثمة نظريات أخرى من نوع مختلف عن ما تقدم تحاول ان توضح طبيعة الفن وذلك بان زرده إلى وظيفة اللهو واللعب . ولا يستطيع المرء ان يتهم هذه النظريات بانها تغفل الفعالية الحرة لدى الانسان او تقلل من شأنها لأن اللعب نفسه وظيفة حية غير محصورة داخل حدود الشيء التجريبي المعطى . غير ان اللذة التي نستمدّها من اللعب لذّة غير غائبة أبداً . ولذلك يبدو ان ليست هناك خاصية من خواص العمل الفني او حالة من حالاته غير متوفرة في فعالية اللعب . وفي الحق ان معظم معتنقي نظرية اللعب هذه يؤكدون لنا انهم لا يستطيعون ان يجدوا فرقاً بين الوظيفتين^(٣٥) . وقد صرحوا ان ليس في الفن ميزة واحدة الا وهي تنطبق على العاب الوهم ، ولا خاصية في هذه الألعاب الا وهي موجودة في الفن . الا ان الحجج التي يحتاج بها اصحاب هذه الفكرة كلها سائلة . نعم اننا حين ننظر الى الفن واللعب من الزاوية السيكولوجية نجد

٣٤ - انظر نيته: «إرادة القوة» الترجمة الانجليزية من صنع أ. م. لودفيشي (لندن ١٩١٠)

ص : ٢٤٠

٣٥ - انظر مثلاً كوزراد لانجه « جوهر الفن » (برلين ١٩٠١) في مجلدين .

بينهما مشابه قريبة . كلاهما غير نفعي وغير موجه الى غاية عملية . في اللعب نترك وراءنا ظهرياً - كما في الفن - كل حاجاتنا العملية المباشرة لكي نمنح عالمنا شكلاً جديداً . ولكن هذه المقايسة بينهما لا تكفي لتثبت انهما صنوان متطابقان متماثلان . إذ يظل الخيال الفني متميزاً بمحده عن ذلك النوع من الخيال الذي يواكب فعالية اللعب لدينا . في اللعب نعالج صوراً مموهة قد تغدو مؤثرة حيوية حتى لنخالها حقائق ، ولكننا اذا عرفنا الفن بأنه مجموعة من هذه الصور المموهة فذلك يدل على فكرة واهية تافهة لدينا عن شخصيته ومهمته . وأما ما نسميه « المظهر الجمالي » فانه ظاهرة لا نجدها في تجربتنا لألعاب الوهم . اللعب يقدم لنا صوراً واهية خادعة ، والفن يقدم لنا نوعاً جديداً من الحقيقة ، حقيقة الاشكال الخالصة لا الاشياء التجريبية .

وفيما تقدم من تحليلنا الجمالي ميزنا بين ثلاثة أنواع مختلفة من الخيال : قوة الابتكار وقوة التشخيص وقوة ايجاد صور حسية خالصة . ونجد القوتين الاوليين في لعب الطفل ولكننا لا نجد الثالثة ، اذ يلعب الطفل بالاشياء ويلعب الفنان بالاشكال ، بالاسطر والرسوم والايقاعات والنغمات . ونحن نعجب ، اذا رأينا طفلاً يلعب ، بسهولة التحول وسرعته ، فهو يؤدي اعظم الواجبات بأقل الوسائل ، وتتحول قطعة الخشب بين يديه الى كائن حي ، ومع ذلك فان هذا التحول يعين استحالة تصيب الاشياء نفسها - أي يتحول الشيء الى شيء آخر ، ولكن استحالة الشيء الى شكل او صورة لا تتم . وما نفعل شيئاً في اللعب اكثر من ان نعيد ترتيب المواد وتوزيعها بحواستنا . اما الفن فانه بنائي خلاق بمعنى أعمق . والطفل في أثناء اللعب لا يعيش في نفس عالم الحقائق التجريبية الجافية الذي يعيش فيه القتي الراشد . فعالم الطفل أشد تحولا وحركة ، ولكن الطفل وهو

ثلاث قوى
من الخيال
اثنان منها
تظهران في
اللعب

يلعب لا يصنع شيئاً سوى ان يستبدل بالاشياء الواقعية في بيئته اشياء اخرى ممكنة . إلا ان مثل هذا الاستبدال لا يميز الفعالية الفنية الاصلية إذ ان ما يتطلبه الفن أقسى وأشدّ ، فالفنان يحطّم مادة الاشياء الصلبة في بوتقة خياله وتكون نتيجة هذه العمليات استكشاف عالم جديد من الصور والاشكال الشعرية والموسيقية والتصويرية والنحتية . نعم ان كثيراً من الاعمال الفنية الظاهرة لا تحقق هذا المطلب ولكن من واجب الحكم الجمالي او الذوق الفني أن يميز العمل الفني الاصيل من تلك المنتجات الزائفة التي لا تعدوا ان تكون لعباً وعبثاً ، أو تكون ، في خير احوالها ، « استجابة للرغبة في التسلية » .

ويقودنا التحليل الدقيق للأصل السيكولوجي والنتائج السيكولوجية في كل من اللعب والفن الى نتيجة واحدة : اللعب يهيئ لنا تصرفاً وتنشيطاً ولكنه يخدم غايات اخرى مختلفة ، فللعب قيمة بيولوجية عامة بمقدار ما يكون إرهافاً بضروب النشاط المقبلة ، وكثيراً ما بين الدارسون ان لعب الطفل ذو قيمة تربوية إعدادية . فالولد الذي يلعب لعبة حربية والبنات التي تهتم دميتهما كلاهما يحقق استعداداً وتربية تهيئ لواجبات اخرى أهم وأدخل في باب الجهد . لكن وظيفة الفن الجميل لا تعلق بهذه الطريقة ، إذ ليس فيها هو او إعداد ؛ وقد وجد بعض الجمالين المحدثين ان من الضروري التفرقة بشدة بين نموذجين من الجمال احدهما جمال الفن « العظيم » والثاني الجمال « الهين » (٣٦) . وإذا التزمنا الدقة الصارمة قلنا إن الجمال في العمل الفني لا يكون « هيناً » . فان الاستمتاع بالفن لا يتولد من عملية استرخاء وليونة متمطية وانما يتولد من تكثيف كل طاقاتنا . اما التسلية التصريفية التي نجدها في اللعب فهي نقيض تلك الزعة التي تعد

الغاية في
الفن مختلفة
عن الغاية
في اللعب

٣٦ - انظر برنارد بوزانكيه : « ثلاث محاضرات في علم الجمال » ، و سر . الكسندر « الجمال وأشكال أخرى من القيم » .

ضرورة لازمة للتأمل والحكم الجمالين . يتطلب الفن تركيزاً كاملاً ،
وحالما نحقق في التركيز ونطلق العقال لمشاعرنا اللذية وهواجسنا محتجب
عن أعيننا العمل الفني .

تطور
النظرية
المتصلة
باللعب

تطورت نظرية الفن الموصولة باللعب في اتجاهين مختلفين متباعدين ،
فمثلوها البارزون في تاريخ الجماليات هم شيلر وداروين وسبنسر ولكن
من العسير اليوم ان نجد همزة وصل بين آراء شيلر والنظريات البيولوجية
الحديثة في الفن ، فهاتان الفئتان من الآراء لا يمكن التوفيق بينهما في
اتجاههما العام فضلاً عن انهما متباعدتان ، ذلك ان شيلر يفهم مصطلح
« لعب » ويفسره بمعنى مختلف عن كل النظريات التالية ، فنظريته مثالية
استعلائية ، اما نظريات داروين وسبنسر فانها بيولوجية طبيعية . ولقد
اعتبر داروين وسبنسر كلاهما من اللعب والجمال ظاهرة طبيعية عامة ، اما
شيلر فوصلها بعالم الحرية . وبما انه يأخذ بثنائية كانت فان الحرية لديه
لا تعني ما تعنيه الطبيعة بل هي ، على العكس ، تمثل القطب المقابل . والحرية
والجمال ينتميان إلى العالم المدرك لا الى عالم الظواهر . وفي جميع الصور
الطبيعية من نظرية الفن الموصولة باللعب « درس » اللعب عند الحيوانات
جنباً إلى جنب مع اللعب عند الانسان ؛ إلا ان شيلر لم يتقبل مثل هذه
النظرة لانه لم يكن يرى اللعب فعالية عضوية عامة بل فعالية انسانية
خاصة . « الانسان وحده يلهو ويلعب حين يكون إنساناً بكل ما في الكلمة
من معنى ولا يكون إنساناً على نحو كامل إلا حين يلعب » (٣٧) .

رأي شيلر

اما الحديث عن المقايسة ، دع عنك المطابقة ، بين لعب الانسان
ولعب الحيوان أو - في النطاق الانساني - بين لعب الفن وما يسمى

٣٧ - شيلر : « رسائل في التنقيف الجمالي لبني الانسان » (٧٩٥) الرسالة : ١٥ والترجمة
الانجليزية « مقالات جمالية وفلسفية » (لندن ، جورج بل وابناؤه ١٩١٦) ص : ٧١ .

ألعاب الوهم فانه شيء غريب لا تعترف به نظرية شيللر ، وربما تبدت له هذه المقايسة سوء ادراك في الأساس .

لماذا اختار
شيللر هذا
الاتجاه

وإذا اخذنا بعين الاعتبار المستند التاريخي الذي اتكأت عليه نظرية شيللر فهمنا وجهة نظره بسهولة . إنه لم يتردد في أن يربط العالم « المثالي » للفن بلعب الطفل ، لأن عالم الطفل في ذهنه قد لقي عملية من التسامي والتثبث بالمثالية ، إذ كان شيللر يتكلم كلام تلميذ لروسو معجب به ، وكان يرى حياة الطفل في ضوء جديد وضعها فيه ذلك الفيلسوف الفرنسي ؛ يؤكد شيللر بأن « في لعب الطفل معنى عميقاً » ، وقد نقر بهذه الفكرة ولكننا مع ذلك نقول إنها لا تنفي أن « معنى » اللعب مختلف عن معنى الجمال . ويعرف شيللر نفسه الجمال بأنه « صورة حيّة » ويرى ان الوعي بالصور الحية أول خطوة ضرورية تؤدي الى تجربة الحرية ، ويعتقد ان التأمل الجمالي او التفكير اول نزعة متحررة للانسان نحو الكون . « وبيننا نقبض الرغبة تواءاً على الشيء المرغوب فيه يبعده التأمل الى مسافة ما ويجعله ملكاً له وذلك بأن ينجيهِ من جشع العاطفة » (٣٨) . وهذه النزعة « التحررية » ، هذه النزعة الواعية التأملية ، هي التي لا تتوفر في لعب الطفل ، على وجه الدقة ، وهي التي تخط حداً بين اللعب والفن .

اختلاف
اندارسين في
صلة الفن
بالتجربة
الواقعية

ثم إن « هذا الإبعاد الى مسافة ما » الذي يقول شيللر إنه اشد مظاهر العمل الفني ضرورة وتميزاً قد برهن دائماً على أنه عقبة أمام النظرية الجمالية . وقد قيل في الاعتراض عليه : إن كان هذا صحيحاً فان الفن لا يعود ، في الواقع ، شيئاً إنسانياً لانه فقد كل صلة له بالحياة الانسانية . إن المدافعين عن مبدأ « الفن للفن » لم يفرقوا من هذا الاعتراض بل على العكس من ذلك تحدوه علناً ، فقالوا إن أعلى

فضيلة وميزة للفن انه يحطم كل الجسور التي تربطه بالواقع المؤلف المبتذل ، وقالوا : يجب ان يبقى الفن سراً لا يبلغه الهمج الهامج . ويقول ستيفان مالارميه : « يجب أن تكون القصيدة لخزاً للسوقة الرعاع وموسيقى خاصة للمريدين » (٣٩) . وكتب اورتيجا بي جاسيه كتاباً تنبأ فيه بخلو الفن من التواحي المتصلة بالانسان ودافع فيه عن هذه الفكرة . وهو يرى ان الفن سيبلغ ذات يوم حداً ينعدم فيه العنصر الانساني منه (٤٠) . وأيد نقاد آخرون فكرة مناقضة لهذه الفكرة على خط مستقيم ، فقال ل . أ . رنشاردس :

« حين ننظر الى صورة او نقرأ قصيدة او نصفي الى موسيقى لا نفعل شيئاً مابيناً تماماً لما نفعله ونحن ذاهبون الى بهو التصاوير او لما فعلناه حين لبسنا ملابسنا صباحاً . نعم إن الطريقة التي تأدت بها التجربة الى انفسنا مختلفة كما ان التجربة نفسها أكثر تعقيداً ، واذا وفقنا فيها فانها تكون أكثر وحدة . غير ان فعاليتنا فيها ليست في اساسها من نوع مخالف أبداً » (٤١) .

إلا ان هذه الخوصومة النظرية ليست تناقضاً حقيقياً . إن كان الجمال على حد تعريف شيللر « صورة حية » فانها توحد العنصرين المتعارضين هنا في طبيعتها وجوهرها . ومن المؤكد ان العيش في دنيا الصور والعيش في دنيا الاشياء - اي في المواد التجريبية من حوانا - ليساً أمراً واحداً . ثم ان صور الفن من الناحية الاخرى ليست صوراً فارغة وانما تؤدي واجباً

٣٩ - مقتبسة من كتاب كاثرين جلبرت : « دراسات في علم الجمال الحديث » (تشابل هل

١٩٢٧) ص : ١٨ .

٤٠ - اورتيجا بي جاسيه « سلب العنصر الانساني من الفن » (مدريد ١٩٢٥) .

٤١ - ل . أ . رنشاردس : « مبادئ النقد الادبي » (نيويورك ، هاركورت وبريس ١٩٢٥)

ص : ١٦ - ١٧

محددًا في بناء التجربة الانسانية وتنظيمها . فالعيش في دنيا الصور لا يدل على الروغان من وقائع الحياة بل يمثل التحقق من طاقة تعد من أرفع طاقات الحياة نفسها . ونحن لا نستطيع ان نسمي الفن « خارج الانساني » او « فوق الانساني » دون ان نغفل مظهرًا من اهم مظاهره ، أعني قوته البنائية في تكوين عالمنا الانساني .

مقايمة الفن
بالتنويم
والحلم
والنشوة -
باطلة

وكذلك تخطئ النقطة الرئيسية كل النظريات الجمالية التي تحاول ان تعزل للفن بمقاييس تستمدّها من المناطق المشوشة غير المتكاملة في التجربة الانسانية - اعني التنويم والحلم والنشوة . أن لدى الشاعر الغنائي العظيم قدرة ليضع شكلاً محدداً لاشد مشاعرنا غموضاً . وهذا غير ممكن إلا لان عمله ذو نظام واضح ومنطوق سبين ، وان كان يعالج موضوعاً يستعصي على العقلانية والابانة في ظاهر الحال . وفي اشد الاعمال الفنية شططاً واسرافاً لا نجد « فوضى الاوهام الفتانة » ولا « الفوضى الاصلية للطبيعة » فهذا التعريف الذي حدّه به الفنّ الادباء الرومنطيقيون^(٤٢) تناقض في المصطلح . لكل عمل فني مبنى حديسي ، وهذا يعني طابعاً من العقلانية . ويجب ان نحسّ بان كل عنصر بمفرده جزء من كل شامل . فاذا غيرنا في القصيدة الغنائية كلمة من الكلمات او نبرة او ايقاعاً ألمّ بنا خطر تحطيم النغمة الخاصة للقصيدة وسحرها . نعم ان الفن غير مقيد الى عقلانية الاشياء والاحداث ، وقد يحطم كلّ قوانين الاحتمال التي صرح الجاليلون الكلاسيكيون بأنها القوانين الدستورية للفن . وقد يقدم لنا رؤيا تافهة بشعة ومع ذلك فانه يحتفظ بعقلانية خاصة به - عقلانية الصورة . وبهذه الطريقة قد نفسر قولاً لجوته يبدو للنظرة الاولى متناقضاً وذلك هو : « الفن طبيعة ثانية ، خفيّ الاسرار أيضاً ولكنه سهل » على الفهم لانه

يستمد أصله من الفهم (٤٣) .

العلم يقدم لنا تنظيماً في الأفكار ، والاخلاق ' تمنحنا تنظيماً في الاعمال ،
والفن يعطينا تنظيماً في تبين المظاهر المرئية والملموسة والمسموعة ، وقد
كانت النظرية الجمالية بطيئة في إدراك هذه الفروق الاساسية وتبينها
بوضوح ، ولكننا لو حللنا التجربة المباشرة للعمل الفني بدلاً من ان نبحث
عن نظرية جمال متافيزيقية لما اخطأنا الهدف ؛ قد نعرف الفن بأنه لغة
رمزية ، ولكن هذا يدعنا في نطاق « الجنس » المشترك لا في الفرق
« النوعي » ؛ ويبدو أن الاهتمام بالجنس المشترك هو السائد في علم الجمال
الحديث الى حد ان يحمل الفرق النوعي ويطمسه ، ويصرّ كروتشه على
ان بين اللغة والفن تطابقاً كاملاً فضلاً عما بينهما من علاقة وثيقة .
فالتمييز بين هاتين الفعالتين فيما يراه ضربٌ من التعسف . ويرى كروتشه
ان من يدرس علم اللغة العام يدرس مشكلات جمالية ، والعكس صحيح .
إلا ان ثمة فرقاً لا تخطئه العين بين رموز الفن والمصطلحات اللغوية في
الكلام العادي او الكتابة ، فهاتان الفعالتان لا تتفقان لا في الطابع ولا
في الغرض ، أي لا تستعملان نفس الوسائل ولا تهدفان الى غاية واحدة .
كلاهما تمثيل للأشياء والاعمال ، لا محض محاكاة لها . ولكن التمثيل
الآتي عن طريق الصور الحسية يختلف اختلافاً بعيداً عن التمثيل القولي او
الفكري . ولو عالج الرسام او الشاعر رسم منظر طبيعي او وصفه ، ثم
فعل ذلك جغرافي وجيولوجي لما كان بين العاملين في الحالتين أدنى شركة .
اذ تختلف طريقة الوصف والدافع فيها لدى العالم عما لدى الفنان في العمل
الفني ؛ فالجغرافي قد ينقل المنظر بطريقة البلاستيك او قد يرسمه بألوان

الفرق بين العلم
والأخلاق
والفن

الفن واللغة
في نظر
كروتشه

الفرق بين
عمل الفنان
وعمل العالم

٤٣ - « حكم وتأملات » نشر ماكس هيكري (منشورات جمعية جوتة) ٢١ (١٩٠٧)

غنية حية ، ولكن ما يريد ان ينقله هو الحقيقة التجريبية للمنظر لا الرؤيا المتصورة . ومن اجل هذه الغاية يقارن شكله بأشكال أخرى ، وعليه ان يجد ملامحه المميزة بالملاحظة والاستقراء . ويخطط الجيولوجي خطوة اخرى في هذا المجال التجريبي إذ لا يقنع بتسجيل الحقائق المادية وانما يحاول ان يقع على أصل هذه الحقائق ، فيميز الطبقات التي انبنى منها التراب ويلحظ الفروق الزمنية المتعاقبة ويعود الى القوانين العلمية العامة التي أوصلت الارض الى شكلها الحالي . وهذه العلاقات التجريبية وهذه المقارنات بين صنوف الحقائق، وهذا البحث كله في العلاقات العلمية - كل هذه امور لا وجود لها لدى الفنان . قد تنقسم أفكارنا التجريبية على نحو مقارب في قسمين بحسب علاقتها بالنواحي العملية او النظرية من شؤوننا . وأحد القسمين معني " باستعمال الاشياء وبتلبية هذا السؤال : « لأجل أي شيء هذا ؟ » والثاني معني بعزل الاشياء وبالسؤال : « من أية علة ؟ » . فاذا دخلنا منطقة الفن وجب علينا ان ننسى هذين السؤالين ، إذ نكتشف فجأة صور الاشياء وراء وجودها وطبيعتها وخصائصها التجريبية . وهذه الصور ليست عناصر ثابتة وانما تبرز نظاماً متنقلاً يكشف لنا عن أفق جديد من آفاق الطبيعة . حتى أشد المعجبين بالفن تحدثوا عنه كأنما هو محض زخرف او زينة للحياة ، ولكن هذا يقلل من شأن قيمته ومغزاه ودوره الحقيقي في الحضارة الانسانية . ان ثنوية الحقيقة دائماً تثير الريب حول قيمتها ، ولذلك فانا لا نستطيع ان ندرك المعنى الحق والوظيفة الحقة للفن إلا حين نرى الفن انجاساً خاصاً او توجيهاً جديداً لأفكارنا وأخيلتنا ومشاعرنا . فقنا النحت والرسم يجعلاننا نرى العالم المحسوس بكل ما فيه من غنى وتنوع . نرى ماذا كنا نعرف من الظلال العديدة في أوجه الاشياء لولا آثار النحاتين والرسامين ؟ كذلك الشعر - كشاف حياتنا الذاتية -

اذ ان الشاعر ، غنائياً كان او قصاصاً او مسرحياً ، هو الذي يبرز الى النور تلك القوى اللامحدودة التي لا نملك عنها إلا فكرة غامضة غائمة . مثل هذا الفن ليس نسخة مزورة او فصلة من حياتنا الداخلية ، وانما هو عرض أصيل لها .

زيادة بيان
في الفرق بين
الفن والعلم

وما دمنا نعيش في عالم الانطباعات الحسية وحده فاننا لا نتجاوز سطح الحقيقة ، اما التمرس بالأعماق فيطلب دائماً جهداً تقدمه طاقاتنا النشطة البناءة . ولكن بما ان هذه الطاقات لا تتحرك في اتجاه واحد ولا تتجه الى نفس الهدف فانها لا تستطيع ان تقدم لنا وجهاً واحداً من الحقيقة . هناك عمقان : عمق فكري وعمق بصري خالص ، والاول يبلغه العلم والثاني يبلغه الفن ، والاول يعيننا في فهم علل الأشياء والثاني في رؤية صورها . وفي العلم نحاول ان نتبع الظواهر عوداً الى عللها الاولى وإلى القوانين والمبادئ العامة . وفي الفن ننهمك في مظهرها القريب ونستمع بهذا المظهر الى ابعد حد بكل ما فيه من غنى وتنوع ، ولا نهتم بوحدة القوانين وانما بتكثر ضروب الحدس وتنوعها . حتى الفن قد يوصف بأنه معرفة ، ولكنها معرفة من نوع خاص معين . وقد نوافق جميعاً على ملحوظة شافنسبري بأن « كل الجمال حق وصدق » ولكن حقيقة الجمال لا توجد في الوصف او التفسير النظري للأشياء وإنما تكون في « الرؤيا المتعاطفة » للأشياء^(٤٤) . وتتوازي هاتان النظرتان الى الصدق والحقيقة ولكنهما لا تعارضان او تتناقضان . وليس من الممكن ان يصطدم العلم

٤٤ - انظر دي وت هـ . باركر : « مبادئ علم الجمال » : ٣٩ : « الصلق العلمي هو الامانة في وصف المواد الخارجية للتجربة ، والصلق الفني رؤيا تعاطفية اي ترتيب التجربة نفسها في وضوح » . وقد بين الاستاذ ف . س . ك . نورثروب الفرق بين التجربة العلمية والجمالية حديثاً في مقال مليء بالفائدة نشر بمجلة Furioso ٤/١ : ٧١ وما بعدها .

بالفن او يتناقضا لأن كلاّ منهما يدور في فلك مستقل عن الآخر .
والتفسير العلمي القائم على الافكار لا يعيق التفسير الحلمي الذي يقوم
عليه الفن ، وإنما لكل منهما مجاله ولكل منهما زاويته . لقد علمتنا سيكولوجيا
الادراك الحسي أننا اذا لم نستعمل كلتا العينين ، إذا لم يكن لدينا ازدواج
في النظر ، فانا لا نستطيع ان نعي البعد الثالث للمسافة . كذلك عمق التجربة
الانسانية يعتمد على أننا نستطيع ان نغير طرق الرؤية اي نستطيع ان نستغل
نظراتنا إلى الحقيقة بتبادل . « ان رؤية صور الاشياء » ليست اقل اهمية
وضروية من « معرفة علل الاشياء » . في التجربة العادية نصل بين الظواهر
حسب مقولة العلية او الكلية ، فعلى قدر اهتمامنا بالعلل النظرية او المعلومات
العملية للاشياء نعدها عللاً او وسائط . وهكذا يحتجب عنا مظهرها
القريب المباشر حتى لا نعود نراها وجهاً لوجه . اما الفن فانه من الناحية
الأخرى يعلمنا ان نستنظر الاشياء لا ان نستغلها او نثير الافكار حولها .
الفن يعطينا صورة للحقيقة الواقعة أغنى وأشد حيوية وأكثر ألواناً كما
يمنحنا بصرأ نافذاً في مبناها الصوري . وما يميز طبيعة الانسان انه لا
يسلك سبيلاً واحداً معيناً مرسوماً الى الحقيقة بل يستطيع ان يختار وجهة
نظره وينتقل من واحد من وجوه الاشياء الى وجه آخر .

التاريخ

انهيار النظرية
الكلاسيكية
في الانسان

بعد كل ما صدر في تاريخ الفلسفة من تعريفات متنوعة متباعدة لطبيعة الانسان ، مال الفلاسفة المحدثون - في أغلب الأحيان - إلى القول بأن المسألة نفسها مضللة متناقضة من بعض الوجوه . يقول اورتيجا يي جاسيه : إننا نعاني في عالمنا الحديث انهيار النظرية الكلاسيكية الاغريقية المتصلة بالوجود < بالأيس > ومن ثم نشهد انهيار النظرية الكلاسيكية في الانسان :

اورتيجا يي
جاسيه يوضح
هذا الرأي

« الطبيعة شيء ، بل شيء عظيم ، مؤلف من عدة أشياء صغيرة ، ومهما تكن الفروق بين الأشياء فان لها مظهراً واحداً مشتركاً هو أن هذه الاشياء في حالة الاليسية ، أي ذات وجود . وهذا لا يعني فحسب أنها حادثة ، أنها موجودة أمام أنظارنا ، وإنما يعني أيضاً أنها ذات مبنى وتركيب محددٍ مُعْطَى .. أي قد نقول إن لها « طبيعة » . وواجب العلم الطبيعي أن يتغلغل وراء الظواهر المتغيرة حتى يبلغ هذه الطبيعة الثابتة أو ذلك المبنى الثابت المحدد . ونحن اليوم نعلم أن كل عجائب العلم الطبيعي

— وهي معين لا ينتضب نظرياً — ستظل دائماً تقف مبلسة امام حقيقة الحياة الانسانية الغريبة . لم ذلك ؟ إن كانت الاشياء كلها قد أفضت بقسم كبير من أسرارها إلى العلم المادي فلم يقف هذا السرّ وحده أمامها مغلقاً ؟ تفسير ذلك لا بد من أن يتعمق الامر من جذوره ، ولعلّ هذا التفسير هو : أن الانسان ليس شيئاً وأنه من الزور أن نتحدث عن طبيعة انسانية وأن الانسان لا طبيعة له — لعله هذا هو التفسير في أقلّ صورهِ ... الحياة الانسانية ليست شيئاً ... ليس لها طبيعة وإذن فعلياً أن نوطن النفوس على أن نتصوّرها من خلال المصطلحات والمقولات والافكار التي تختلف — جذرياً — عما يبصّرنا بظواهر المادة .

لقد كان منطقنا حتى اليوم منطقَ حدوث ، مؤسساً على الافكار الرئيسية في الفكر الايليائي ولكنتا لا نرجو من طريق هذه الافكار أن نفهم الطابع المميز للانسان . لقد كان المذهب الايليائي صيغاً لحياة الانسان بصيغة عقلية في اسمها . وقد حان الوقت لنخرج من هذه الحلقة السحرية ؛ « وإذا شئنا ان نتحدث عن وجود الانسان فيجب ان 'نوجد' مبدأ وجود « لا ايليائي » كما طوّروا آخرون هندسة لا اقليدسية . حان الوقت لتلك البذرة التي غرسها هرقليطس ان تعطي اكلها . وما دمتا قد تعلمنا كيف نتحرر من الاتجاه الفكري فنحن على وعي بالتحرر من الاتجاه الطبيعي . « ليس للانسان طبيعة ... إنما له تاريخ » (١) .

ان الصراع بين الوجود < اي الأيسية > والضرورة وهو ما نتحدث عنه افلاطون في « ثياطيطس » وعدّه الموضوع الرئيسي في الفكر الفلسفي

١ — اورتيجا يي جاسيه : « التاريخ فيما هو نظام » في كتابه الفلسفة والتاريخ ، مقالات قدمت لارنست كاسيرره ، ص : ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٣ .

اليوناني - إن ذلك الصراع لا يحلّ بالانتقال من عالم الطبيعة الى عالم التاريخ . ومنذ ان ظهر « بحث تحليلي في العقل العملي » لكانت اصبحنا نعد ثنائية الوجود والضرورة ثنائية منطقية اكثر منها ثنائية ميتافيزيقية ، ولم نعد نتحدث عن عالم تغير مطلق في مواجهة عالم ثبات مطلق ، ولا نعتبر الجوهر والتغير منطقتين مختلفتين من الوجود وانما نعتبرهما مقولتين اي حالتين وفرضيتين في معرفتنا التجريبية . وهاتان المقولتان مبدآن كليان غير مقصورين على مواد بأعيانها من المعرفة ، ولذلك فيجب ان نتوقع حضورها في كل أشكال التجربة الانسانية . وفي الحق ان عالم التاريخ نفسه لا يُفهم او يُفسّر من خلال التغير لأن هذا العالم يحتوي على عنصر جوهري هو عنصر الوجود وإن لم يكن هو عين الوجود الذي نلقاه في العالم المادّي ؛ وبدون هذا العنصر نكاد لا نستطيع ان نتحدث عن التاريخ من حيث هو نظام كما فعل اورتيجا يبي جاسيه . لان النظام دائماً يفترض - مقدماً - مبنى صنوّاً له على الاقل ، ان لم نقل طبيعة صنوّاً له . وهذا المبنى المطابق - وهو توافق صورة لا مادة - مما اكده المؤرخون العظام دائماً . فقد أخبرونا ان للانسان تاريخاً لأن له طبيعة ؛ كذلك كان حكم مؤرخي عصر النهضة ، مثلاً على مكيافلي ، وأكّد كثير من المؤرخين المحدثين هذه النظرة ؛ فقد أمّلوا ان يستكشفوا الملامح الثابتة من الطبيعة الانسانية خلف التغير الزمني ووراء الكثرة الكاثرة من ظواهر الحياة الانسانية . فعرّف يعقوب بركهارت واجب المؤرخ في كتابه « افكار في تاريخ العالم » بأنه محاولة لتحديد العناصر الثابتة المتكررة النموذجية لأن مثل هذه العناصر تستطيع ان تثير صدى مدوياً في عقولنا ومشاعرنا (٢) .

٢ - يعقوب بركهارت : « افكار في تاريخ العالم » نشره يعقوب اويري (برلين وشتتجارت ١٩٠٥) ص : ٤٤ ، وترجمه الى الانجليزية جيس هيمتنجزيكوفز بعنوان « القوة والحرية - افكار في التاريخ » (نيويورك ، كتب بانثيون ١٩٤٣) ص : ٨٢ .

اما ما نسميه « الوعي التاريخي » فانه نتاج متأخر من نتاجات
المدنية الانسانية ، وليس له وجود قبل عصر كبار المؤرخين
اليونان ، بل حتى المفكرون الاغريق أنفسهم لم يكونوا يستطيعون ان
يقدموا تحليلاً فلسفياً للشكل المعين من الفكر التاريخي ، ولم يظهر مثل
هذا التحليل حتى في القرن الثامن عشر . وتبلغ فكرة التاريخ دور نضجها
اولاً لدى فيكو وهردر . ولما أدرك الانسان مشكلة الزمن اول ما أدرك ،
ولما لم يعد محصوراً في دائرة ضيقة من رغبته وحاجاته القريبة ، ولما بدأ
يبحث عن أصل الاشياء - عندئذ وجد أصلاً اسطورياً ولم يجد أصلاً
تاريخياً ، واضطر ان يعكس العالم - أعني العالم المادي - والعالم الاجتماعي -
على الماضي الاسطوري لكي يتمكن من فهمه . ففي الاسطورة نجد
المحاولات الاولى لتبين الترتيب الزمني للأشياء والاحداث ، أي لايحاد
علم كوني وعلم انساب للأمة والناس . ولكن هذا العلم الكوني وعلم النسب
لا بدلان على تمييز تاريخي بالمعنى الصحيح ، إذ ما يزال الماضي والحاضر
والمستقبل مرتبطة معاً ، وهي تكون جميعاً وحدة لا تميز بين اجزائها وكلاً
لا انفصام بين مفرداته . وليس للزمن الاسطوري مبنى محدد وإنما هو
« زمن ازلي » . لان الاسطورة ترى ان الماضي لم ينته بل ما يزال
مستمراً . وحين يشرع الانسان في فك الشبكة المعقدة التي يتألف منها
الخيال الاسطوري يحس انه انتقل إلى عالم جديد ويبدأ في تكوين فكرة
جديدة عن الحقيقة .

ونستطيع ان نتبع مراحل هذه العملية ، مرحلة إثر مرحلة ، إذا نحن
درسنا تطور الفكر التاريخي الاغريقي بين هيرودوت وثوقيديس . فالثاني
منهما اول مفكر رأى تاريخ عصره ووصفه وظهر الى الماضي بعقل واضح

ناقد ، وكان يحس ان هذه الخطوة التي يقوم بها خطوة جديدة حاسمة في آن . وهو مقتنع بأن التمييز الواضح بين الفكر الاسطوري والتاريخي ، بين الخرافة والحقيقة ، هو المظهر المميز الذي سيمنع كتابه « كسبا ابدياً » (٣) . وقد أحس بمثل هذا مؤرخون آخرون كبار ، منهم رانكه الذي يحدثنا في ترجمة ذاتية موجزة كيف أحس ، اول مرة أنه - مؤرخاً - ذو رسالة . فقد كان في شبابه مفتوناً بروايات ولتر سكوت التاريخية الرومنطيقية ، فكان يقرأها بتعاطف حيّ إلا انه كان يستاء منها في بعض المواطن . وقد صدمه ان يجد وصف الصراع بين لويس الحادي عشر وشارل الجسور مناقضاً رديئاً للحقائق التاريخية ، يقول :

رانكه
والوحي
التاريخي

« درست كومين • والوثائق المعاصرة المرفقة بكتب هذا المؤلف ، واقتنعت بأن لويس الحادي عشر وشارل الجسور حسبما وصفهما سكوت في قصة « كوينتن دروارد » لم يكن لهما وجود . وبهذه المقارنة تبين لي ان الشواهد التاريخية أجهل وأمتع ، على أي حال ، من كل القصص الرومنطيقية . فتحولت عن هذه القصص وعزمت على ان أتجنب كل اختراع واختلاق في مؤلفاتي وان أتمسك بالحقائق » (٤) .

فاذا عرفنا الصديق التاريخي بأنه « مطابقةٌ للحقائق » adaequatio res et intellectus فان هذا ليس حلاً للمشكلة مقنعاً ، لأنه قضية

ما الحقيقة
التاريخية ؟

٣ - ثوقيديدس : الحرب البلوونيزية ٢٢:١

• [يعني التاريخ الذي كتبه فيليب دي كومين : Philippe de Commines وهذا النص من رسالة كتبها رانكه الى اخيه] . (المترجم)

٤ - رانكه : « مقالات موجزة عن حياتي الذاتية » منشورة في مؤلفاته الكاملة ، تحقيق
أ . صوف ٥٣ : ٦١ (نوفمبر ١٨٨٥)

دور « لا حل » . نعم إن التاريخ يجب ان يبدأ بالحقائق ، وهذه الحقائق ستكون غاية لا بداية فحسب ، ذلك هو ألف المعرفة التاريخية وباؤها ولا أحد ينكر هذه الحقيقة ، ولكن ما الحقيقة التاريخية ؟ كل صدق حقيقي يتضمن صدقاً نظرياً ^(٥) . فاذا تحدثنا عن الحقائق لم نشر فحسب الى المعلومات الحسية وإنما نفكر في حقائق تجريبية ، أعني موضوعية . وهذه الموضوعية ليست معطاة وإنما تتضمن دائماً عملاً وسياقاً معقداً من الحكم . واذا شئنا ان نعرف الفرق بين الحقائق العلمية - حقائق الطبيعيات وحقائق البيولوجيا وحقائق التاريخ - فيجب علينا إذن أن نبدأ بتحليل الاحكام ، اي ان ندرس طرق المعرفة التي تجعل هذه الحقائق في متناولنا .

ما الذي يوجد فرقاً بين الحقيقة المادية والحقيقة التاريخية ؟ كلتاها تعتبر جزءاً من الواقع التجريبي ، وإلى كليهما ننسب صدقاً موضوعياً ، ولكننا حين نريد أن نعين طبيعة الصدق نسير في طريقتين مختلفتين . أما الحقيقة المادية فنعيها بالمشاهدة والتجربة . وهذه العملية من الاخراج إلى حيز الموضوعية تبلغ غايتها إن نحن نجحنا في وصف الظواهر المعطاة في لغة رياضية ، أي في لغة الأعداد . فكل ظاهرة لا يستطيع وصفها أو ردها إلى عملية قياسية لا تكون جزءاً من عالمنا المادي . يقول ماكس بلانك في تعريف وظيفة الفيزيا : إن على العالم الفيزيائي أن يقيس كل الأشياء التي يمكن قياسها وأن يجعل ما لا ينقاس قابلاً للقياس . وليست كل الاشياء والعمليات المادية قابلة للقياس توتاً ومباشرة ؛ ففي كثير من الحالات ، إن لم نقل في اكثرها ، نعتمد على طرق غير مباشرة من الوزن والقياس . لكن الحقائق المادية مرتبطة دائماً بقوانين عليية إلى ظواهر

الفرق بين
الحقيقة
المادية
والتاريخية

أخرى يمكن مشاهدتها وقياسها مباشرة . وإذا كان عالم الطبيعيات في شك من نتائج إحدى التجارب فإنه يستطيع أن يعيدها ويصححها ، إذ يجد موادّه جاهزة لديه في كل حين ، مستعدةً لكي تجيب على أسئلته .

الا ان حال المؤرخ مختلفة عن ذلك ، لأن حقائقه تنتمي الى الماضي وقد ذهب الماضي بغير رجعة ، ونحن لا نستطيع ان نعيد بناء ذلك الماضي ولا ان نوقظ فيه حياة جديدة ، بمعنى ماديّ موضوعي . وكل ما نستطيعه هو ان « نستذكره » - أي نمنحه وجوداً مثالياً جديداً .

فالبناء المثالي - من جديد - ، لا المشاهدة التجريبية ، هو الخطوة الأولى في معرفتنا التاريخية . وكلّ ما نسميه حقيقة علمية يكون دائماً جواباً على سؤال علمي كونه وأعدائه من قبل . ولكن الى اي شيء يستطيع المؤرخ ان يتوجه بهذا السؤال ؟ انه لا يستطيع ان يواجه الاحداث نفسها ، ولا يستطيع ان يدخل في أشكال حياة سابقة ، وليس لديه إلا سبيل غير مباشر يؤدي الى مادته . عليه ان يرجع الى مصادره .

الا ان هذه المصادر ليست أموراً مادية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة . كلها تعني لحظة جديدة معينة . نعم ان المؤرخ كالعالم الطبيعي يعيش في عالم مادي ، ولكن ما يجده عند بدئه البحث ليس عالماً من الاشياء المادية ، وانما يجد عالماً رمزياً - او عالم رموز - وعليه أولاً ان يقرأ هذه الرموز . وكل حقيقة تاريخية ، مهما تبدت بسيطة ، فلا يمكن ان تُعَيَّن او تفهم إلا بتحليل أولّي للرموز . فالمواد الأولى المباشرة في المعرفة التاريخية وثائق وآثار لا اشياء وحوادث . ولا نستطيع ان نقع على المعلومات التاريخية الحقة - أي على أحداث الماضي وناسه - الا بوساطة وتدخل من هذه المعلومات الرمزية .

مثل محسوس
لتوضيح
معنى الحقيقة
التاريخية

وقبل أن أدخل في مناقشة عامة للمشكلة أود ان أوضح هذه النقطة

بمثل محسوس معين : قبل خسة وعشرين عاماً وجدت بمصر بردية مصرية تحت أنقاض أحد البيوت . وكانت تحتوي على كتابات عدة تبدو وكأنها ملاحظات محام او كاتب عقود تدور حول عمله - أي صور من شهادات وعقود شرعية وما أشبه . إلى هذا الحد كانت البردية هذه تنتمي الى العالم المادي ، ولم تكن ذات أهمية تاريخية أو لم يكن لها وجود تاريخي - ان صحّ القول - . ثم استكشف نص آخر تحت الاول ، وبعد فحص دقيق تبين أنه بقايا من هزليات أربع ، كانت مجهولة حتى ذلك الحين ، من تأليف ميناندر . عندئذ تغيرت طبيعة ذلك النص وتغيرت قيمته تماماً . اذ لم تعد البردية « قطعة » من مادة « بل أصبحت وثيقة تاريخية ذات قيمة وأهمية عظيمة ، لأن فيها شاهداً على مرحلة هامة في تطور الادب اليوناني ، الا ان هذه الاهمية لم تكن واضحة على التو ، اذ كان من الضروري اخضاع النص لكل ضروب الاختبارات النقدية والتحليل اللغوي والقيلولوجي والادبي والجمالي الدقيق . وبعد هذه العملية المعقدة لم يعد هذا النص شيئاً بل أصبح حافلاً بالمعنى ، أصبح رمزاً ، وقدم هذا الرمز استطلاعاً جديداً في الحضارة اليونانية ، أي في الحياة والشعر اليونانيين (٦) .

خطأ المنهج
في البحث عن
الفرق بين
التاريخ
والمعلم

كل هذا يبدو واضحاً لا تخطئه العين . ولكن من الغريب ان هذا المميز الأساسي للمعرفة التاريخية قد أغفل في أكثر المباحثات الحديثة عن المنهج التاريخي والصدق التاريخي . إذ ذهب أكثر الكتاب لبحث عن الفرق بين التاريخ والعلم في منطق التاريخ لا في موضوعه ومادته ، وقد جهلوا الجهد كله لينشئوا منطقاً جديداً للتاريخ ، إلا ان هذه المحاولات باءت

٦ - انظر تفاصيل هذا الكشف في جوستاف ليغير « قطع من مخطوطة ميناندر كشفت ونشرت » (القاهرة - مطبوعات المعهد الفرنسي للآثار ١٩٠٧) .

بالاخفاق ، لأن المنطق ، بعد كل هذا ، شيء بسيط موحد . فهو واحد لان الحقيقة واحدة . ويرتبط المؤرخ وهو يفنئ عن الحقيقة ، بالقواعد الصورية التي يرتبط بها العالم ، فهو يخضع لنفس قوانين الفكر العامة كعالم الفيزيا والبيولوجيا في طرق تفكيره وجدله وفي استقراءاته وفي بحثه عن العلل . ونحن لا نستطيع ان نفصل بين مختلف ميادين المعرفة مادمتنا في نطاق هذه الفعاليات النظرية الأساسية . وعلينا فيما يتصل بهذه المشكلة ان نوافق على قول ديكارت :

« العلوم كلها معاً تماثل الحكمة الانسانية التي نظل دائماً واحدة لا تتغير ، مهما نطبقها على موضوعات مختلفة ، وهي لا تتأثر باختلاف الموضوعات نفسها ، مثلاً ان ضوء الشمس لا يتعدد بتعدد الاشياء التي يضيئها » (٧) .

ليس مهماً ان تكون موضوعات المعرفة الانسانية غير متجانسة ، أما صور المعرفة نفسها فان فيها دائماً وحدة داخلية وتجانساً منطقياً . وليس يتمايز الفكران التاريخي والعلمي بصورتها المنطقية ، وانما يتمايزان بمادتهما وشؤونهما الموضوعية . واذا شئنا ان نصف هذا التمايز لم يكفنا ان نقول : ان العالم يتعلق بالموضوعات الراهنة بينما يمارس المؤرخ الموضوعات الماضية . فقل هذا القول مضلل ، لأن العالم قد يبحث ، كالمؤرخ ، في الاصول البعيدة للاشياء ، ومثل هذه المحاولة قد قام به كانت ، ففي سنة ١٧٧٥ طورَ نظرية فلكية أصبحت تاريخاً كلياً للعالم المادي . اذ استغل المنهج الجليد في الفيزيا ، أعني منهج نيوتن ، لحل مشكلة تاريخية . وبعمله هذا

التمايز بين
التاريخ
والعلم قائم
في المادة

٧ — ديكارت : « قواعد لتوجيه العقيدة » الاول من كتبه حسبما نشرها شارل آدم وبول تري (باريس ١٨٩٧) ١٠ : ٣٦٠ الترجمة الانجليزية صنع اليزابيث س . هالدنوج . ر. ت .
روم « مؤلفات ديكارت الفلسفية » (مطبعة جامعة كيبردج ١٩١١) ١ : ١

طَوَّرَ الفرضية السديمية التي حاول ان يصف بها كيف تطور النظام الكوني
الراهن من حالة مادية غير متمايزة غير منظمة . وقد كانت هذه المشكلة مشكلة
من التاريخ الطبيعي الا أنها لم تكن تاريخياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ذلك ان
التاريخ لا يحاول ان يكشف عن حال سابقة للعالم المادي وانما يحاول ان يكشف
عن مرحلة سابقة من مراحل الحياة الانسانية والحضارة . ومن أجل ان يحلّ
هذه المشكلة قد يستغل المناهج العلمية ، ولكنه لا يستطيع أن يقيد نفسه
بالمعلومات التي يحصلها بهذه المناهج . ليست هناك مادة خارجة عن قوانين
الطبيعة ، وليس للمواد التاريخية حقيقة منفصلة مستقلة ذاتياً وانما هي متضمنة
في المواد الطبيعية . إلا أنها تنتمي ، على الرغم من كينونتها ثمة ، إلى
"بعد" أعلى - إن صحّ التعبير - . وان ما نسميه الحسّ التاريخي لا
يغير شكل الأشياء ولا يعثر فيها على صفة جديدة ، وانما يمنع الأشياء
والاحداث عمقاً جديداً . وحين يريد العالم ان يرجع الى الماضي لا يستخدم
فِكْراً أو مقولات سوى ما يستمدّه من ملاحظاته للحاضر ، فيصل بين الحاضر
والماضي بتتبعه عوداً سلسلة العلل والمعلولات ، فيدُرْس في الحاضر الآثارَ
المادية التي خلفها الماضي . ذلك هو المنهج الذي تستعمله الجيولوجيا
والبالتولوجيا < علم الاحافير النباتية والحيوانية > . وعلى التاريخ ايضاً
أن يبدأ بتلك الآثار لأنه لا يستطيع دونها أن يخطو خطوة واحدة .
وليس هذا إلا واجباً ابتدائياً أولاً ، اذ يضيف التاريخ الى هذا البناء
الواقعي التجريبي بناءً رمزياً . ذلك أن على المؤرخ أن يتعلم كيف يقرأ
ويُفسر وثائقه وعادياته باعتبار انها رسائل حية من الماضي ، رسائل تخاطبنا
بلغتها الخاصة لا باعتبار أنها بقايا ميتة من ذلك الماضي . ولا يكون
المحتوى الرمزي في هذه الرسائل ملحوظاً على التوّ ، وعلى العالم اللغوي
والفيلولوجي والمؤرخ أن يعملوها تنطق وأن يعملونها تفهم لغتها ، وفي هذه

المهمة الخاصة ، في هذه المنطقة نفسها لا في المبنى المنطقي للفكر التاريخي ، يوجد التمايز الأساسي بين أعمال المؤرخ وأعمال الجيولوجي والبالنتولوجي . وإذا عجز المؤرخ عن أن يفك معنى اللغة الرمزية في آثاره بقي التاريخ كتاباً مغلقاً محتوماً . فالمؤرخ ، من بعض الوجوه ، أقرب الى العالم اللغوي منه الى عالم الطبيعة . الا أنه لا يدرس لغات البشر المحكية والمكتوبة وانما يحاول أن يتغلغل في معنى التعبيرات الرمزية المختلفة جميعاً ؛ وهو لا يجد نصوصه في الكتب والحوليات والمذكرات فحسب وانما عليه ان يقرأ المكتوبات الهيروغليفية والاسفينية وينظر الى الالوان على اللوحات ، والى التماثيل الرخامية والبرونزية ، والى الكاتدرائيات والهياكل والنقود والجواهر . غير انه لا يعبر هذه الاشياء جميعاً بنظر المغرم بجمع العاديات الذي يجب ان يحوز كنوز العصور الماضية ويحفظها . انما المؤرخ يبحث عن وَضْعِ رُوحٍ عَصْرٍِ مَضَى في صورة مادية . فهو يقع على تلك الروح نفسها في الشرائع والنظم ، في البراءات ووثائق الحقوق ، في النظم الاجتماعية السياسية ، في الشعائر والمراسيم الدينية . والمؤرخ الحق يرى في هذه كلها صورة حية لا حقيقة محنطة وما التاريخ الا محاولة لدمج هذه (الاشلاء) - هذه الاعضاء المبعثرة من الماضي - وتركيبها في شكل جديد .

قيمة هيردر
في تطور
الفكرة
التاريخية

وقد كان هيردر ، بين المؤسسين المحدثين لفلسفة التاريخ ، ذا بصيرة نافذة قوي في هذا الجانب من العملية التاريخية ، فؤلقاته تقدم لنا بحثاً للماضي لا محض مجموعة منه . ولم يكن هيردر مؤرخاً بالمعنى الصحيح ، اذ لم يخلف لنا مؤلفاً تاريخياً عظيماً ، ولا تقارن منجزاته الفلسفية نفسها مع ما حققه هيجل . ومع ذلك فقد كان رائد مثال جديد للصدق التاريخي . ولولاه لما تمكن رانكه او هيجل من تأدية ما أدباه . كانت لدى هيردر قوة " شخصية " على إحياء الماضي ، على منع كل القطع والبقايا

المتصلة بالحياة الاخلاقية والدينية والحضارية لدى الانسان فصاحة^٨ ولسناً . وكان هذا المظهر من عمل هيردر هو الذي أوقد الحماسة في نفس جوته . حتى لقد قال في احدى رسائله انه لم يجد في الاوصاف التاريخية التي كتبها هيردر « قشراً وحشفاً من الكائنات الانسانية وان الذي أثار اعجابه العميق بهيردر هو طريقة هيردر في الجرف والعزل ، لا فحسب عزله الذهب من القمامة بل توجيهه القمامة نفسها لتتمخض عن نبتة حية » (٨) .

هذه « الولادة » الثانية للماضي هي التي تميز المؤرخ العظيم ، وقد أطلق فردريك شليجل على المؤرخ العظيم اسم « النبي » الاسترجاعي^٩ ، لأن في عمله نبوءة للماضي أي كشفاً لغيبه الخبايا . التاريخ لا يتنبأ بالاحداث المقبلة وكل ما يستطيعه هو ان يفسر الماضي ، الا ان الحياة الانسانية نظام عضوي تتضمن فيه كل العناصر بعضها بعضاً ويفسر بعضها بعضاً ، واذن فان فهماً جديداً للماضي يمنحنا في الوقت نفسه استشرافاً جديداً للمستقبل ، وهذا بدوره يغدو حافزاً في الحياة الفكرية والاجتماعية . ومن أجل هذا الازدواج في النظر الى العالم - استرجاعاً واستشرافاً - كان على المؤرخ ان يختار نقطة انطلاقه . ولا يجد هذه النقطة الا في عصره ، فهو لا يستطيع ان يتجاوز ظروف تجربته الراهنة ، فالمعرفة التاريخية جواب على أسئلة محددة ، جواب لا بد من أن يقدمه الماضي ، الا ان الامثلة نفسها يضعها وعيها الحاضر ،

• [كان جوته قبل ان يطلع على كتب هيردر يعتقد ان التاريخ كومة من القمامة وأنه في خير احواله حديث من حاكم ومحكوم ، فلما تلقى تلك الكتب وقرأها أخذ يرى في التاريخ رواية الانسانية نفسها وكتب على الأثر رسالة فياضة بالحماسة الى هيردر] . (المترجم)

٨ - « رسالة جوته الى هيردر » ، مايو ١٧٧٥ في « مجموعة مؤلفاته الكاملة » (طبعة فيبر) ٢ : ٢٦٢ .

٩ - « قطع أثنية » : ٨٠ المصدر نفسه ٢ : ٢١٥

أي اهتماماتنا الفكرية الحاضرة وحاجتنا الاخلاقية والاجتماعية الراهنة .
وليس ثمة من ينكر هذا الربط بين الحاضر والماضي ، الا أننا قد
نستمد منه استنتاجات مختلفة حول يقين المعرفة التاريخية وقيمتها . وقد
كان كروتشه ، في الفلسفة المعاصرة ، أكبر نصير لأشدّ وجوه « النزعة
التاريخية » تطرفاً ، اذ كان يرى التاريخ هو الحقيقة كلها لا منطقة محددة
من مناطق الحقيقة . وفكرته قائمة على ان التاريخ كله هو التاريخ المعاصر ،
وهي فكرة تؤدي الى التماثل التام بين الفلسفة والتاريخ ، وأنّ فوق منطقة
التاريخ الانساني ومن ورائها لا توجد منطقة وجود <أيس> ولا يوجد
موضوع يتخذ الفكر الفلسفي مادة له^(١٠) . وقد ذهب نيتشه الى نتيجة مضادة :
أكد أيضاً اننا « لا نستطيع ان نفسير الماضي الا بأرفع ما في الحاضر »
الا ان هذا التأكيد كان نقطة انطلاق جاوزها الى شنّ هجوم عنيف على
قيمة التاريخ . فتحدى نيتشه في « أفكار في غير أوانها » - وهي أولى
كتابات كفيلسوف وناقد للحضارة الحديثة - تحدّي ما يسمى « الحسن
التاريخي » في عصرنا ، وحاول ان يبرهن على ان الحسن التاريخي خطر
كبير في الحياة الحضارية وليس ميزة وفضيلة فيها . انه مرض نقاسيه ،
وليس للتاريخ من معنى سوى ان يكون خادماً للحياة والعمل ، فاذا
اغتصب الخادم السلطة ، اذا جعل من نفسه سيداً لنا ، فإنه يعيق طاقات
الحياة . وبافراط التاريخ أصبحت حياتنا كسيحة منحطة لأنه يعيق الدافع
القوي الى أعمال جديدة ويشل العاملين ، ذلك أن أكثرنا لا يستطيع

موقف نيتشه

١٠ - انظر في هذه المشكلة جيرو كالجيرو : « في ما يسمى التماثل بين التاريخ والفلسفة » في
« الفلسفة والتاريخ ، مقالات قدمت لارنست كاسير » ص ٣٥-٥٢

• [ان هذا الهجوم لا يمثل موقف نيتشه الى النهاية ، وانما يمثل فترة تأثر فيها بشوبنهاور ،
ولم يكن نيتشه ثائراً على التاريخ نفسه بل كان ثائراً على النزعة التاريخية الحديثة وعلى مغاللتها] .
(المترجم)

ان يعمل إلا اذا نسي . هذا وان الحسن التاريخي الجامع اذا اندفع الى نهايته المنطقية اقتلع جذور المستقبل^(١١) . ولكن هذا الحكم يعتمد على فصل مصطنع أقامه نيتشه بين حياة العمل وحياة الفكر . ولما قام بهذا الهجوم كان ما يزال تلميذاً مريداً لثوبنهاور ، وكان بحسب الحياة معرض إرادة عمياء . وكان يرى أن العمى شرط لضمان الحياة الحية النشطة ، أما الفكر والوعي فانهما يضادان النشاط والحياة ، فاذا رفضنا هذا الفرض الاول انهارت نتائج نيتشه ، ومن المحقق ان وعينا بالماضي يجب ان لا يضعف قوانا الفعالة أو يرميها بالكساح ؛ واذا استعملناه على الوجه الصحيح متحنا حرة في ريادة الحاضر وقوى مسئوليتنا نحو المستقبل . ان الانسان لا يستطيع ان يشكل صورة المستقبل دون ان يكون واعياً بظروفه الحاضرة وبمحدود ماضيه . ومصادق هذا الأمر قول ليبنتز : « يتراجع المرء كي يثب عاليا » ، ولقد صاغ هرقليطس هذه الحكمة للعالم المادي حين قال : « الصعود والتزول كلاهما شيء واحد »^(١٢) . وانا لنستطيع أن نطبق هذه الحكمة من بعض الوجوه على العالم التاريخي ، فان وعينا التاريخي « وحدة متضادات » اذ يربط بين قطبين زمنيين متقابلين ويمنحنا بذلك شعورنا باستمرار الحضارة الانسانية .

وهذه الوحدة وذلك الاستمرار يتضحان على وجه الخصوص في ميدان حضارتنا الفكرية ، أي في تاريخ الرياضيات أو العلم أو الفلسفة . ولا يستطيع احد ان يحاول ابدأ كتابة تاريخ للرياضيات أو الفلسفة دون ان يكون لديه بصر نافذ واضح في المشكلات المتصلة بالتفريع والتقسيم في

١١ - نيتشه : « الآثار الايجابية والسلبية لدراسة التاريخ في الثقافة » متضمن في « افكار في غير اوانها » (١٨٧٤) القسم الثالث ، والترجمة الانجليزية ، ترجمة اعداد اوسكار ليفي ، المجلد : ٢
١٢ - القطعة : ٦٠ في Diels من « قطع للفلاسفة الذين عاشوا قبل سقراط » ١ : ١٦٤

هذين العليين . ولقد تكون حقائق الماضي الفلسفي ومبادئ المفكرين العظام ونظمهم بغير معنى اذا ظلت دون تفسير ، وهذه العملية من التفسير لا تتوقف ابداً توقفاً كاملاً . فكلما بلغنا مركزاً جديداً وطريقاً جديداً من النظر في افكارنا أصبح لزماً علينا ان نراجع احكامنا . ولعلنا لا نجد مثلاً على ذلك أبين وأكثر فائدة في هذا المقام من التغير الذي اصاب صورة سقراط . لدينا من سقراط صورتان : احدهما من صنع اكرتفون والأخرى من صنع أفلاطون ، ولدينا سقراط الرواقي والشاك والمتصوف والعقلاني والرومنطقي . وكل هذه الملامح غير متشابهة الا انها ليست مجانية للصدق ، فكل واحد منها يقدم لنا مظهراً جديداً ، أي وجهاً مميزاً ، من وجوه سقراط التاريخي وسحته الفكرية وسياه الأخلاقية . أما افلاطون فرأى فيه الديالكتي العظيم والمعلم الأخلاقي الكبير ، وأما مونتين فرأى فيه الفيلسوف المتسامح الباريء من التزم الذي يعترف بجهله ؛ وأكد فردريك شليجل والمفكرون الرومنطقيون جانب السخرية السقراطية . كذلك نستطيع ان نتتبع نفس هذا التطور في حال افلاطون ، اذ لدينا افلاطون المتصوف ، أي افلاطون المدرسة الافلاطونية الحديثة ، ولدينا افلاطون المسيحي كما تصوّره اوغسطين ومارسيليو فيكينو ، وافلاطون العقلاني كما تمثله موسى مندلزون ، وقبل بضع حقب طالعنا افلاطون الكاثي . وقد نبتم لكل هذه التفسيرات المختلفة ولكن فيها جانباً موجباً بالاضافة الى الجانب السالب . وكل منها قد اسهم في فهم مؤلفات افلاطون وتقويمها تقويماً منظماً ، وأكد كل منها مظهراً معيناً موجوداً في تلك المؤلفات ، ولكن لم يكن اظهاره ممكناً الا بعملية فكرية معقدة . وقد بينت كانت هذه الحقيقة حين تحدث عن افلاطون في كتابه « بحث تحليلي في الفكر الخالص » فقال : « ليس من المستغرب ان نجد ،

إذا نحن قارنا الأفكار التي عبر عنها المؤلف في موضوعه ، بأننا قد فهمناه خيراً مما فهم نفسه ، وبما أنه لم يعين فكرته تعييناً كافياً فربما تكلم أو فكر أحياناً على نحو مضاد لمقصده^(١٣) . وبدلنا تاريخ الفلسفة بوضوح على أن التجديد الكامل للفكرة نادراً ما يكون من عمل صاحبها الذي جاء بها أولاً ، لأن الفكرة الفلسفية مشكلة لا حل لمشكلة - ولا يمكن أن يفهم المغزى الكامل لتلك المشكلة ما دامت مكونة في حالها الأولى . ولا بد من أن تستعلن وتتخلّى عن اكتنائها لكي تفهم في معناها الصحيح ، وهذا الانتقال من الاكتنان إلى الاستعلان إنما يتم في المستقبل .

التاريخ
السياسي
يحتاج إعادة
النظر كغيره
من أنواع
التاريخ

وقد يقول معترض أن هذه العملية المستمرة من التفسير وإعادة التفسير إنما هي ضرورية جقاً في تاريخ الأفكار ، إلا أن هذه الضرورة تبطل حين نصل التاريخ « الحقيقي » ، تاريخ الإنسان والأعمال الإنسانية ، ففي هذا المجال نمارس حقائق صلبة واضحة ملموسة وليس علينا أكثر من أن نربطها بعضها ببعض لكي نعرفها . ولكنني لا أرى ذلك بل أرى أن التاريخ السياسي نفسه لا يشذ عن القاعدة المنهجية العامة ، بل إن هذا التاريخ نفسه يحتاج تفسيراً وإعادة تفسير . وما يصدق على تفسير شخصية مفكر عظيم وعلى مؤلفاته الفلسفية يصدق أيضاً على الأحكام المتصلة بشخصية سياسية عظيمة . لقد كتب فردريك جوندولف كتاباً كاملاً ، لا عن قيصر نفسه ، بل عن تاريخ شهرة قيصر وعن التفسيرات المختلفة لشخصيته ورسائله السياسية من أقدم العصور حتى عصرنا^(١٤) . حتى في حياتنا الاجتماعية والسياسية لا تثبت بعض النزعات والميول قوتها الكاملة إلا في

١٣ - كانت : « بحث تحليلي في الفكر الخالص » (الطبعة الثانية) ص : ٣٧٠ ، وترجمة نورمان

كوب سميث (لندن ، مكميلان ١٩٢٩) ص : ٣١٠

١٤ - فردريك جوندولف : « قيصر ، تاريخ شهرته » (برلين ١٩٢٤) .

مرحلة متأخرة نسبياً . فيصبح مثال سياسي أو منهاج اجتماعي مستعلناً صريحاً بعد ان كان يحسب مكنوناً متضمناً ، خلال مرحلة متأخرة من التطور . كتب س . ل . موريسون في تاريخه للولايات المتحدة يقول :

« ان كثيراً من الافكار عن الامريكي الاصلي قد تلقى أصلها في الوطن الام ، لقد ظلت هذه الافكار في إنجلترا تعيش خلال قرون بالرغم من الالتواء بها أو مقاومتها على يد ملوك آل تيودور وارشتراطية حزب الاحرار (Whigs) . اما في امريكا فوجدت فرصة للتطور الحر ، وهكذا نجد أهواء انجليزية قديمة قوية مستقرة في وثائق الحقوق الامريكية ، ونظماً دَرسَتْ في إنجلترا قد بقيت مع تغيير طفيف في الولايات الامريكية حتى منتصف القرن التاسع عشر . لقد كان من نصيب الولايات المتحدة - على نحو لاشعوري - ان تصرح بما ظلّ مستكناً في الدساتير البريطانية زمناً طويلاً ، وتبرهن على قيمة المبادئ التي نسيت في إنجلترا في عهد جورج الثالث » (١٥) .

ليست الحقائق المجردة هي التي تهمن في التاريخ السياسي ذلك لأننا نرغب في أن نفهم اصحاب الاعمال لا الأعمال وحدها . ويعتمد حكمنا على اتجاه الاحداث السياسية على فكرتنا عن الناس الذين انغمسوا فيها ، فاذا رأينا أولئك الأفراد في ضوء جديد لزمنا ان نغير افكارنا عن تلك الاحداث . ولكن النظر التاريخي الصحيح لا يتأتى لنا دون استمرار في اعادة النظر . فمثلاً : يختلف كتاب فريرو : « عظمة روما وانحطاطها » في كثير من النقاط الهامة عن وصف مومسن للفترة نفسها ، ويعزى هذا الاختلاف - لحد كبير - الى ان كلا المؤلفين قد كوّن عن شيشرون

اختلاف
النظر
باختلاف
المجالات
المدرسة

١٥ - س . ل . موريسون « تاريخ اكسفورد للولايات المتحدة » (اكسفورد ، مطبعة كلarendون (١٩٢٧) ١ : ٣٩ والتي تليها .

فكرة مختلفة عن فكرة الآخر . وإذا شاء المرء أن يكون حكماً عادلاً حول شيشرون لم يكفه فحسب أن يعرف كل الأحداث التي جرت أيام أن كان قنصلاً ، والدور الذي لعبه في فضح مؤامرة كاتلاين ، أو الدور الذي قام به في الحروب الأهلية والفتن بين بومبي وقيصر . كل هذه الأمور تظل محط شك وغموض ما دمت لا أعرف الرجل ، أي ما دمت لا أفهم شخصيته وخلقه . ومن أجل هذه الغاية أحتاج تفسيراً رمزياً ، عليّ أن أدرس رسائله لابننسه تلبيا وأصدقائه الأذنين لا أن أكتفي بقراءة خطبه وكتاباتة الفلسفية ؛ عليّ أن أحس بسحر أسلوبه الشخصي ونقائصه ؛ وعندما آخذ هذه الشواهد والقرائن جميعاً ، عندئذ فحسب ، أستطيع أن أتوصل الى صورة صحيحة لشيشرون ولدوره في الحياة السياسية بروما . وعلى المؤرخ أن يؤدي دائماً هذه المهمة الصعبة الا اذا بقي سارداً للأحداث والا اذا رضي لنفسه أن يسوق الحوادث حسب ترتيبها الزمني ؛ على المؤرخ أن يستنبط الوحدة وراء الأقوال العديدة - المتناقضة غالباً - التي تنسب الى شخصية تاريخية .

مثل على
إعادة التفسير
مقتبس من
فريرو

وأحب من أجل توضيح هذه النقطة أن اقتبس مثلاً آخر متميزاً من كتاب فريرو ، وليكن هذا المثل متصلاً بمعركة اكتيوم وهي من أهم الأحداث في التاريخ الروماني لانها الحادثة التي قررت مصير روما وقررت - تلواً ذلك - مصير العالم . تذهب الرواية الشائعة الى ان أنطونيو خسر المعركة لأن كليوبطرة التي فزعت ويشت حوالت وجهه مركبها وهربت . فقرر انطونيو ان يلحق بها تاركاً عسكره وأصدقاءه من اجلها . فان كانت هذه الرواية التقليدية صحيحة فان علينا ان نؤمن على قولة بسكال المشهورة ، أي علينا ان نقرر بأنه لو كان أنف

كليوبطرة أقصر قليلاً اذن لتغير وجه الارض كله^(١٦) . غير ان فريرو يقرأ النص التاريخي على نحو مختلف ، فيصرح ان قصة الحب بين انطونيو وكليوبطرة خرافة ، وينبئنا ان انطونيو لم يتزوج كليوبطرة لانه كان مولهاً بحبها . بل انه كان - على العكس من ذلك - يدأب في سبيل خطة سياسية عظيمة :

« كان انطونيو يريد مصر لا شخص الملكة الجميلة ، فأراد من ذلك الزواج ان ينشئ محبة رومانية في وادي النيل ، وان يتمكن من استغلال كنوز مملكة البطالة للاتفاق على الحملة الفارسية . فتزوجه في الاسرة المالكة كان يمكنه من ان يضمن لنفسه كل فوائد التملك المشر دون ان يتورط في الاخطاء الناشئة عن ضم مصر . فصمم على تنفيذ هذه الحيلة التي ربما خطرت لقيصر ... ان قصة الحب بين انطونيو وكليوبطرة لتخفي ، على الاقل في اولها ، معاهدة سياسية ؛ بهذا الزواج ارادت كليوبطرة ان تثبت سلطانها المتأرجح ، واراد انطونيو ان يضع وادي النيل تحت حماية الرومان ... ان التاريخ الواقعي لكل من انطونيو وكليوبطرة من اشد قصص الكفاح المليء بالمأساة لانه كفاح مزق الامبراطورية الرومانية طوال اربعة قرون حتى خربها في النهاية ، وذلك هو الكفاح بين الشرق والغرب ... وفي ضوء هذه الاعتبارات يتضح سلوك انطونيو . فالزواج في انطاكية وهو الذي اراد به ان يضع

١٦ - بسكال : « افكار » نشر لوساندر ص : ١٩٦

« هي حلت على ملكة بارثيا ، وكان البارثيون قد هاجموا آسيا الصغرى وسوريا فقام انطونيو بفرض ملكتهم سنة ٣٦ ق. م . ولم يحرز نصراً واضطر الى التراجع ، ثم اعاد الكرة سنة ٣٣ . وما يجدر تقريره ان انطونيو بعد الحملة الاولى وقع تحت تأثير كليوبطرة أو فكر في استغلال موارد مصر كما يقول فريرو » (المترجم)

مصر تحت الحماية الرومانية هو العمل السياسي الحاسم الذي أوحى بنقل عاصمة دولته نحو الشرق .. » (١٧).

فاذا قبلنا هذا التفسير لشخصيتي انطونيو وكليوباترة ظهرت لنا الاحداث الفردية ، بل معركة اكتيوم نفسها ، في ضوء جديد مختلف . ويصرح فريرو ان هرب انطونيو من المعركة لم يكن منبعثاً عن الخوف ، بأية حال ، ولا كان عملاً من اعمال الحب العاطفي الاعمى ، بل كان عملاً سياسياً اطال فيه التفكير بعناية قبل ان يقدم عليه :

« جهدت كليوباترة وهي امرأة طمّاحة قوية الارادة واثقة من نفسها ، جهدت بما فيها من عناد وثقة وحدة لكي تقنع عضو الحكومة الثلاثية * بالهجوم على مصر من جهة البحر . ويبدو ان انطونيو فكر عند بداية تموز (يولييه) في التخلي عن الحرب وفي العودة الى مصر ، وكان من المستحيل عليه ان يصرح عن نيته بترك ايطاليا لأوكتافيان ، وبهجره لقضية الجمهورية ، وبخيانته الشيوخ الرومانيين الذين غادروا ايطاليا من اجله . وتفتق ذكاء كليوباترة عن خطة أخرى : لا بد من خوض معركة بحرية لتغطية التراجع ، فيرسل قسم من الجيش على ظهر الاسطول ، وترسل فرق اخرى لحماية أهم المراكز في اليونان ، ويجب ان يبحر الاسطول وهو منظم كانه يخوض معركة ، وعليه ان يهجم إذا

١٧ - جوليلمو فريرو : « التاريخ والأسطورة حول أنطونيو وكليوباترة » في « شخصيات التاريخ الروماني وأحداثه من تيمس إلى فيرون » (نيويورك ، أبناء ج . ب . بتنام ١٩٠٩) ص : ٢٩ - ٦٨ .

* [هي ما يسمى في التاريخ الروماني Triumvirate وكان اعضاؤها هم ليديس وانطونيو واوكتافيان ، وهي الحكومة الثلاثية الثانية] . (المترجم)

تقدم الاعداء ، وبعدئذ يمكن الاجار الى مصر » (١٨) .

لست اقدم ها هنا رأياً حول صحة هذا التفسير او عدمه . إنما الذي أود ان اوضحه بهذا المثل هو الطريقة العامة في التفسير التاريخي للاحداث السياسية . في الطبيعيات تفسر الحقائق حين تنجح في ترتيبها في نظام متسلسل ثلاثي : نظام المسافة ونظام الزمن ونظام العلة والمعلول . عندئذ تتعين تماماً ، وهذا هو التعيين الذي نعينه حين نتحدث عن صدق الحقائق الطبيعية او عن واقعيتها . غير ان العناصر الموضوعية في الحقائق التاريخية وتنتمي الى نظام مختلف اعلى من هذا . ها هنا أيضاً علينا ان نعين مكان الاحداث وزمانها ولكننا حين نبلغ البحث عن عللها فثمة نواجه مشكلة جديدة . فان عرفنا الحقائق حسب ترتيبها التاريخي كان لا بد لنا من خطة تاريخية عامة او هيكل عام للتاريخ لكننا لا نحتاج ان تكون لدينا حياة التاريخ الواقعية . ان فهم الحياة الانسانية هو الموضوع العام والغاية القصوى للمعرفة التاريخية ، ففي التاريخ تعتبر كل أعمال الانسان وكل منجزاته رواسب لحياته ، ونحن نريد ان نعيدها الى الحال الاصلية ، نريد ان نفهم الحياة التي منها تحصلت تلك الرواسب وان نحس بها .

ومن هذا الوجه لا يكون الفكر التاريخي إعادة ايجاد للعملية التاريخية الواقعية بل هو عكس لها . فنحن نجد في وثائقنا وآثارنا التاريخية حياة ماضية قد اتخذت لها صورة معينة . ولا يستطيع الانسان ان يحيا حياته دون جهود مستمرة للتعبير عنها . وطرق هذا التعبير متنوعة لا نحصى عدداً ، ولكنها جميعاً شواهد على نزعة واحدة اساسية < هي الرغبة في الخلود > . لقد

التاريخ
اعادة عكسية
لواقع

الرغبة في
الخلود اساس
التاريخ
والخسارة

١٨ - فريرو : « عظمة روما وانحطاطها » (ميلان ١٩٠٧) ٣ : ٥٠٢ - ٥٣٩ والترجمة الانجليزية بقلم ج. تشيتور « عظمة روما وانحطاطها » (نيويورك ، ابناء ج. ب. بتنام ١٩٠٨) ٤ : ٩٥ وما بعدها .

عرف افلاطون الحب في نظريته عنه بأنه رغبة في الخلود . في الحب يحاول المرء ان يحطم قيود وجوده الفردي القائي ، وقد يشبع هذه الغريزة الاساسية باحد طريقين :

« أما أولئك الذين امتلأوا بالميل الجسدي فانهم يطلبون النساء وينجبون الأطفال - ذلك هو طابع حبهم ، يأملون في ان تحفظ لهم ذريتهم ذكراهم وتمنحهم البركة والخلود ... وأما الذين استقوت نفوسهم فانهم يحملون ما يصلح للنفس ان تعمله ونحوه »^(١٩) .

الثورة على الموت

ومن ثم يمكن أن يقال إن الحضارة نتاج هذا الحب الافلاطوني ووليدته . حتى إننا لنجد هذه الثورة الجامحة على حقيقة الموت في أشد مراحل المدنية الانسانية بدائية ، وفي الفكر الاسطوري^(٢٠) . وتتخذ هذه الثورة شكلاً جديداً في الطبقات الحضارية العليا أعني في الدين والفن والتاريخ والفلسفة ، إذ يشرع الانسان يستكشف في نفسه قوة جديدة يتحدى بها قوة الزمن ، فينطلق من تيار التغير محاولاً ان يتخذ الحياة الانسانية ويجعلها أبدية . للخلود بنيت الاهرام فيما ييسدو ، ويتحدث الفنانون عن اعمالهم ويتصورونها أعمالاً خالدة لا يدركها الفناء ويؤمنون انهم رفعوا بها نصباً لا يحطمه مرّ السنين العديدة وكرّ العصور المديدة . ولا يصحّ معتقدهم هذا إلا بشرط : حتى تثبت أعمال الانسان بالبقاء لا بد من ان تظل تتجدد ابدأ وتستعاد ، وهذا فرق ما بينها وبين الأشياء المادية ، فالشيء المادي يبقى في جاله الراهنة من الوجود بوساطة قصوره الذاتي المادي ، ويحتفظ بطبيعته نفسها ما دامت لا تغيرها أو لا

طلب الخلود في مختلف الأنماط الحضارية

١٩ - افلاطون : « المأدبة » : ٢٠٨-٢٠٩ ، وترجمة جويت ١ : ٥٧٩ والتي تليها .

٢٠ - انظر ما تقدم في الفصل السابع .

قوة التذكر
التاريخي
هامة في
التخيل

تخطمها قوى خارجية ، أما الاعمال الانسانية فانها 'معمورة' من زاوية مختلفة — إنها عرضة للتغير والبلل بالمعنى العقلي فضلاً عن المعنى المادي . وهب ان وجودها استمر فانها معرضة لفقد معناها ، ذلك ان حقيقتها رمزية لا مادية ، ومثل هذه الحقيقة لا تكف عن الحاجة الى تفسير متجدد . وهاهنا تبدأ مهمة التاريخ الكبرى لان فكر المؤرخ ذو علاقة بمواده مختلفة عن علاقة الفيزيائي او الطبيعي بمواده . فالاشياء تحتفظ بوجودها مستقلة عن عمل العالم الطبيعي ، أما الاشياء التاريخية فانها لا تحرز وجودها الصحيح الا ان ظلت 'تتذكر' — ويجب أن يظل عمل التذكر هذا مستمراً غير منقطع .

وعلى المؤرخ ان يحفظ موده ، ان يبقيها لها السلامة ، لا بأن يلاحظها ويرقبها فحسب ، كما يفعل عالم الطبيعة ، لان أمل المؤرخ في ان يحتفظ لها بوجودها الطبيعي قد يفسد عليه في اي لحظة ، فالتار التي شبت في مكتبة الاسكندرية التهمت ما لا يحصى من الوثائق القيمة وبذلك ضاعت الى الابد ، ولكن المآثر الباقية نفسها قد تذوي تدريجاً ان لم 'يبقيها فن' المؤرخ حية' باستمرار . ومن اجل ان نملك عالم الحضارة علينا ان نعيد الاستيلاء عليه دائماً بقوة التذكر التاريخي ، وهذا تركيب فكري اي عمل بنائي . وفي هذا البناء المتجدد يتجه العقل الانساني في اتجاه مضاد للعملية الاصلية > عملية الانشاء الاول والايجاد < ، فكل اعمال الحضارة تستمد اصلها من التوطيد والتثبيت ، ولم يكن الانسان يستطيع ان يوصل افكاره ومشاعره وبالتالي لم يكن يستطيع العيش في عالم اجتماعي لو لم تكن لديه قدرة على اخراج افكاره الى حيز موضوعي اي منحها شكلاً موطداً ثابتاً . ووراء هذه الاشكال القائمة الثابتة ، وراء هذه الاعمال المخططة من الحضارة الانسانية ، يستكشف التاريخ الدوافع الدينامية الاصلية .

وانها لهبةٌ لدى المؤرخين العظماء انهم يردون كلَّ الحقائق الى دوافعها ، كلَّ الثمرات الى عمليات ، كلَّ الاشياء او النظم الثابتة الى الطاقات الخالقة فيها . فيقدم لنا المؤرخون السياسيون حياة مليئة بالشهوات والعواطف ، والصراع العنيف بين الاحزاب السياسية ، والتطاحن والحروب بين مختلف الشعوب .

اتجاه
مومسن في
فهم وظيفة
التاريخ

وليس كل هذا بضروري ليمنع المؤلفَ التاريخي طابعه ووزنه الدينامي . عندما كتب مومسن « التاريخ الروماني » تحدث حديث مؤرخ سياسي كبير ، بنغمة جديدة حديثة ، فقال في احدى رسائله : « اردت ان ازل الاقدمين من المرتبة الخلالبة التي يقفون عليها الى عالم الواقع وهذا هو الذي جعل « الفصل » يصبح « عمدة » ، ربما أكون قد جاوزت الحد في ذلك غير أن غرضي كان سليماً رصيناً » (٢١) .

ويبدو أن مومسن فكر في كتبه المتأخرة وكتبها باملوب مختلف تماماً ، ومع ذلك فانها لم تفقد صبغتها الدرامية . وقد يبدو من التناقض ان ننسب هذه الصبغة الى مؤلفات تعالج اشد الموضوعات جفافاً كتاريخ العملة مثلاً او القانون الروماني العام . غير ان الروح فيها جميعاً واحدة ، فان كتاب مومسن « قانون الدولة الرومانية » ليس محض جمع وتنسيق للقوانين الدستورية وانما تمتلئ تلك القوانين بالحياة ونحس وراءها بالقوى الكبيرة التي كانت لازمة لبناء تلك القوانين ، نحس بالقوى الفكرية والاخلاقية العظيمة التي كانت تستطيع - هي لا غيرها - انتاج ذلك الجهاز من القانون الروماني ، أي الهبة التي كانت لدى الروح الرومانية في التنظيم

٢١ - مومسن في رسالة الى هنزن ، مقتبسة من ج. ب. جوش في كتابه « التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر » (لندن ، لونجهانز وجرين وشركاهم ١٩١٣ ، طبعة جديدة ١٩٣٥) ص : ٤٥٧

والترتيب والامر . وفي هذا نفسه اراد مومسن ان يرينا العالم الروماني في مرآة القانون الروماني ، فقد قال : « ما دام التشريع يغفل الدولة والشعب ، وما دام التاريخ والفيلولوجيا يغفلان القانون فكلا الفريقين يدق على باب العالم الروماني فلا يؤذن له » .

اذا فهمنا مهمة التاريخ على هذا النحو فان كثيراً من المشكلات التي كان الباحثون يناقشونها بشغف في الحقب الماضية ووجدوا لها أجوبة مختلفة متباعدة يمكن ان تحمل دون صعوبة . وكثيراً ما حاول الفلاسفة المحدثون ان يبنوا منطقاً خاصاً للتاريخ فحدثونا ان العلم الطبيعي قائم على منطق الكليات والتاريخ قائم على منطق الافراد . وصرح فندلباند ان أحكام العلم الطبيعي قانونية وان أحكام التاريخ رمزية (٢٢) . اما الاول فيقدم لنا قوانين عامة ، واما الثاني فيصف حقائق خاصة . وقد أصبح هذا التمييز أساساً لنظرية ريكرت كلها في المعرفة التاريخية فقال : « الواقع التجريبي يصبح طبيعة اذا نحن اعتبرناه من حيث العموم الكلي » ، ويصبح تاريخياً اذا اعتبرناه من حيث الخصوص الجزئي (٢٣) .

هل يقوم
منطق التاريخ
على الجزئيات

ولكن ليس من الممكن ان تفصل اللحظتين : الكلية والجزئية ، بهذه الطريقة التجريدية المصطنعة ، لان الحكم دائماً يمثل وحدة مركبة من هاتين اللحظتين ، ويحتوي عنصراً من الكلية العمومية وعنصراً من الجزئية الخصوصية ، ولا يتعارض هذان العنصران فيما بينهما وانما الواحد منهما مشمول في الثاني وكلاهما يتداخلان ، ثم ان « الكلية » ليست مصطلحاً

خطر الفصل
بين الكلي
والجزئي

٢٢ - فندلباند : « التاريخ والعلم » بحث نشر في Präludien (الطبعة الخامسة ، توبنجن ١٩١٥) المجلد الثاني .

٢٣ - ريكرت : « عملية تكوين الافكار العلمية وحدودها » (توبنجن ١٩٠٢) ص : ٢٥٥

يعين مجالاً خاصاً من مجالات الفكر وانما هي تعبير عن طبيعة الفكر ووظيفته نفسها ، لان الفكر دائماً كلي . ثم ان وصف الحقائق الجزئية - من ناحية أخرى - أي وصف « المكانية » و « الآنية » ليس امتيازاً للتاريخ بأي حال . كثيراً ما ادى الظن بتفرد الاحداث التاريخية الى ان تفردا هو الصبغة المميزة للتاريخ من العلم ، ولكن هذا المعيار لا يكفي ، فالجولوجي الذي يقدم لنا وصفاً مختلف حالات الارض في فترات جيولوجية مختلفة يقدم لنا احداثاً محسوسة متفردة . وهذه الاحداث لا يمكن ان تتكرر ، اي لن تعاد على النحو نفسه مرة أخرى . ومن هذه الناحية يفرق وصف الجولوجي عن وصف مؤرخ مثل جريجوروفوس - مثلاً - يحدثنا بقصة روما في القرون الوسطى . الا ان المؤرخ لا يقدم لنا محض سلسلة من الاحداث حسب ترتيبها الزمني . اذ ليست تلك الاحداث في نظره الا قشرة يبحث وراءها عن الحياة الانسانية والحضارية - حياة الاعمال والרגائب والاسئلة والاجوبة والتعقيدات والحلول . ولا يستطيع المؤرخ ان يخترع لهذا كله لغة جديدة ومنطقاً جديداً ، ولا يستطيع ان يفكر او ان يتكلم دون ان يستعمل اصطلاحات عامة . الا انه يدرج في افكاره وكلماته مشاعره الداخلية ، وبذلك يمنحها صوتاً جديداً ولوناً جديداً - هو لون حياة شخصية .

وتبدأ الورطة المنطقية الأساسية في الفكر التاريخي عند هذه النقطة على وجه التدقيق . لا ريب في ان ما يميز المؤرخ العظيم هو عمق تجربته الشخصية وكثافتها وغناها وتنوعها ، والا ظل عمله بلا حياة او لون ؛ ولكن كيف نرجو ان نبليغ الوضع الموضوعي الأقصى في المعرفة التاريخية ؟ كيف نجد صدق الأشياء والاحداث ؟ أليس قولنا « صدقاً شخصياً »

ورطة
التاريخ -
كيف تنفذ
من الذات
الى وضع
موضوعي

يحمل التناقض ؟ لقد عبر رانكه مرة عن رغبته في ان يبيد ذاته ليكون
مرآة صافية للأشياء ، ليرى الاحداث كما حدثت في الواقع . لكن من
الواضح ان هذا القول المتناقض انما قصد ان يكون مشكلة لا حلاً .
فان المؤرخ اذا وفق في طمس حياته الذاتية لم يستطع ان يحقق موضوعية
عليها ؛ واذن لحرم نفسه من أداة الفكر التاريخي كله . لأنني حين أطفئ
نور تجربتي الشخصية لا استطيع ان أرى تجربة الآخرين ولا ان أحكم
عليها . واذا لم يكن لدى المرء تجربة ذاتية غنية في ميدان الفن لم يستطع
ان يكتب تاريخاً للفن ، ولا يستطيع ان يقدم لنا تاريخاً للفلسفة الا امرؤ
ذو فكر منظم ؛ واذن فان التعارض الظاهري بين موضوعية الصدق
التاريخي وذاتية المؤرخ يجب ان يحل بطريقة مختلفة .

ولعل خير حل موجود في مؤلفات رانكه لا في قوله ، اذ نجد لديه
تفسيراً صحيحاً لما تعنيه الموضوعية التاريخية ولما لا تعنيه في الواقع . ولما ان
نشر رانكه كتاباته الاولى لم يكن مثله الاعلى في الصدق التاريخي مفهوماً
بعامة لدى معاصريه . فتعرضت مؤلفاته لهجمات عنيفة ، حتى لقد عنّفه
مؤرخ مشهور وهو هنريش فون ليو « لتحاشيه الهباب للآراء الشخصية » (٢٤) ،
وباحتقارٍ وصف كتابات رانكه بانها رسم على الخزف وانها تمتنع السيدات
« والهواة » . اما اليوم فان مثل هذا الحكم يبدو سخيفاً مضحكاً فضلاً
عن انه جائر ظالم . ومع ذلك ردّده نقادٌ جاءوا من بعد وبخاصة
مؤرخو المدرسة البروسية مثل هنريش فون تراينشكه الذي تدمر من
موضوعية رانكه الميتة « تلك الموضوعية التي لا تدل الى اي جانب يميل
قلب الكاتب » . واحياناً شبه خصوم رانكه موقفه واسلوبه ، في نغمات
ساخرة ، بموقف « الهولات » Sphinxes في القسم الثاني من « فاوست » :

مؤلفات
رانكه
مثل عمل
الموضوعية

هجمات عنيفة
على طريقة
رانكه

لدى الاهرام وقفنا نعاين مصرع الانسان
ونبصر بعد عهد السلم ويل الحرب والظوفان
فلم تطرف لنا عين ولم ترعرش هناك بلدان (٢٥)

عمق الطابع
الذاتي في
مؤلفات
رانكه

ومثل هذا التهمك الجارح غاية في السطحية ، فلا احد يدرس كتابات رانكه الا ويدرك عمق حياته الشخصية وعمق مشاعره الدينية ، وهذه المشاعر تشمل كل مؤلفاته التاريخية . الا ان زعته الدينية كانت من السعة بحيث تشمل ميدان الحياة الدينية كله ، وقبل ان يقدم على وصف « الاصلاح الديني » كان قد انتهى من كتابه « تاريخ البابوات » . وكان الطابع الخاص لاحساسه الديني هو الذي حال بينه وبين معالجة المسائل الدينية بروح المتهوس او بروح المتعلل المعتلر . كان يعتقد ان التاريخ صراع دائم بين الأفكار السياسية والدينية ، ولذلك درس كل الفرق والاحزاب وكل الممثلين في هذه الرواية التاريخية ليرى هذا الصراع في ضوء صحيح . وكان تعاطف رانكه وهو تعاطف المؤرخ الحق ، من نوع فذ . فهو لا يوحى بالصدقة او الموالاة وانما هو تعاطف يتسع للاصدقاء والاعداء . وقد يشبه هذا الشكل من التعاطف بما لدى الشعراء العظماء . فثلاً لا يعطف يوريديس على ميديا ، ولا يعطف شيكسبير على زوجة مكبث او على رتشارد الثالث . ومع ذلك فانهما يفهمان شخصياتهم ويدخلان في عواطفهم ودوافعهم . ان القولة المشهورة « من عرف كل شيء غفر كل شيء » لا تصدق على اعمال الفنانين العظام ولا على مؤلفات المؤرخين العظام ، لان تعاطفهم لا يشمل حكماً اخلاقياً اي لا يشمل استحساناً او استهجاناً لاعمال باعياها . نعم ان للمؤرخ الحرية

تعاطف
رانكه هو
تعاطف
المرحي مع
شخصياته
المختلف

المطلقة في أن يصدر حكماً ولكنه قبل ان يفعل ذلك يشبع رغبته في الفهم والتفسير .

لقد صاغ شلر هذه العبارة : « تاريخ العالم حكمٌ على العالم » وهي
قولة ردد صداها هيجل وجعلها مفتاحاً لفلسفة التاريخ لديه . قال هيجل :
« إن انصباء الاحوال والعقول الخاصة وأعمالها هي الديالكتيك
الظواهرى » لمحدودية هذه العقول التي ينشأ منها العقل الكلي أعني
عقل العالم – وهو عقل لا محدود – . هذا العقل يحسن استغلال
حقه فيها ، وحقه أعلى الحقوق . وهو في التاريخ الكلي حكم على
العالم . وتاريخ العالم حكم على العالم لأنه يحتوي في كليته المستقلة
ذاتياً كلَّ الصور والهيئات الخاصة – مثل العائلة والمجتمع المدني
والشعب – مردودة الى حال الكمال أي الى أعضاء أدنى منه
ولكنها أعضاء عضوية . ان من واجب الروح ان توجد كلَّ
هذه الهيئات والصور » (٢٦) .

حتى رانكه ، وهو ينكر آراء هيجل الأساسية ، يستطيع ان يوافقه
على هذا الرأي ، ولكنه كان يرى رسالة المؤرخ على نحو أقلّ جرأة
وجسارة ، كان يرى أن على المؤرخ في المحكمة الكبرى لتاريخ العالم ان
يعد الحكم لا ان ينطق به ، وهذا بعيد عن موقف اللامبالاة الاخلاقية ،
بل هو على العكس شعور بارفع مسؤولية اخلاقية ، كان رانكه يعتقد أن
المؤرخ ليس نائباً عاماً يمثل الاتهام ولا هو يضطلع بالدفاع عن المتهم فاذا
تحدث بلسان القاضي كان قاضياً معلماً . عليه ان يجمع كل الوثائق في

٢٦ – هيجل : « فلسفة القانون ١ – الباب : ٣٤٠ وما بعده . والترجمة الانجليزية للجلتين
الاخيرتين بقلم ج . ماكبرايد ستيرت في « علم الاخلاق عند هيجل – مختارات مترجمة من كتابه
فلسفة القانون » (بوسطن ، جن وشركاء ١٨٩٣) ص : ٣٠٧

تاريخ العالم
حكم على
العالم ، حكمه
يصدرها
هيجل
ورانكه

القضية ليقدمها الى المحكمة العليا أي الى تاريخ العالم ، فاذا أخفق في هذه المهمة ، اذا تملكه التحيز الحزبي او البغض فألغى وثيقة واحدة أو زورها كان قد أهمل واجبه الأسمى .

وهذه النظرة الاخلاقية الى الواجب ، الى رفعة المؤرخ ومسؤوليته ، من حسنات رانكه الكبرى ، وهي التي منحت كتابه أفقاً عظيماً طلقاً رحيباً ، ذلك ان تعاطفه الكلي كان يستطيع ان يطوي كل العصور وكل الاقوام تحت جناحه (٢٧) ، وكان في مقدوره ان يكتب تاريخ البابوات وتاريخ الاصلاح الديني وتاريخ فرنسا وتاريخ انجلترا ويؤلف في العثمانيين وفي الملكية الاسبانية بروح متساوية من الانصاف ودون تحيز قومي . ولديه تمثل الشعوب اللاتينية والتيونونية والاغريقتى والرومان والعصور الوسطى والدول القومية الحديثة نظاماً عضويًا واحداً متجانساً . وقد قيض له كل تأليف جديد ان يوسع من أفقه التاريخي وان يمنحه مجلى حراً واسعاً طلقاً .

اغلال
خصوم
رانكه
بواجب
المؤرخ

وقد حاول كثير من خصوم رانكه الذين ليس لهم مثل ما له من روح طليقة حيادية ان يلجأوا الى القول بالضرورة ، فزعموا ان من المستحيل على احد ان يكتب مؤلفاً في التاريخ السياسي دون ان تكون لديه عواطف سياسية وتحيز قومي . حتى إن ترايتشكه ممثل المدرسة البروسية أبى ان يدرس المادة الموجودة في المحفوظات غير البروسية ، خشية أن تؤثر مثل هذه الدراسة في حكمه المنحاز الى السياسة البروسية (٢٨) . ومثل

٢٧ - أثناء البناء والتفريط لشخصية رانكه ومؤلفاته يذكر الفرد دوف « عمومية تعاطفه » ،

أنظر : « مقالات مختارات » (١٨٩٨) ص ١١٢ وما بعدها .

٢٨ - أنظر أدورد فويتز : « تاريخ علم التاريخ الحديث » (الطبعة الثالثة ، ميونيخ وبرلين ١٩٣٦)

ص : ٥٤٣ .

هذه النزعة قد تفهم وتغضر في صحفي حزبي او داعية سياسي ، أما في المؤرخ فانها تمثل انخراط المعرفة التاريخية وافلاسها . ويمكن ان نقارن هذه النزعة بما كان لدى خصوم جاليليو من ضيق عقلي حين أبوا ان ينظروا في المجهر ويقتنعوا بصديق اكتشافات جاليليو في الفلك ، لانهم لم يشاءوا ان يعكروا على انفسهم ايمانهم الكمين بالعلم الارسطوطاليسي . ويمكن ان نضع في وجه هذه الفكرة عن التاريخ كلمات يعقوب بركهارت حيث قال :
 « وراء المدح الاعمى لوطنتنا مفروض علينا ، نحن المواطنين ، واجب باهظ هو ان نعلم انفسنا لكي نفهم بني الانسان الذين يمثل لديهم الصديق والاقتراب من شئون الروح "مثل الخير الاسمي" ، ومن تلك المعرفة نستمد واجبنا كمواطنين وان لم تكن فطرية فينا . من الحق والعدل أن تنهار كل الحدود في دنيا الفكر » (٢٩) .

بركهارت
 يبر من هذا
 الواجب

يقول شلر في رسائله الجمالية هناك « فن عاطفة » ولكن ليس هناك ابدأ « فن عاطفي » (٣٠) . وهذه النظرة الى العواطف تنطبق ايضاً على التاريخ . فالمؤرخ الذي يجهل عالم العواطف ، أي عالم الطموح السياسي والتعصب الديني والصراع الاقتصادي والاجتماعي ، يعطينا تجريداً جافاً للاحداث التاريخية ، ولكنه ان كانت به ادنى نسبة الى الصديق والحق فانه لا يستطيع ان يمكث في هذا العالم . عليه أن يعطي لهذه المادة من العواطف صورة نظرية ، وهذه الصورة ، كالحال في صورة العمل الفني ، ليست نتاجاً للعاطفة ولا فرعاً منها . التاريخ تاريخ عواطف ولكن ان حاول التاريخ ان يصبح عاطفياً بطل ان يكون تاريخاً . على المؤرخ ان لا يعرض المحبة والغضب والنفقة التي يصفها لان تعاطفه فكري خيالي لا عاطفي . اما

صلة التاريخ
 بالعواطف

٢٩ - يعقوب بركهارت : المصدر نفسه ص : ١١ والترجمة الانجليزية : ٨٩

٣٠ - رسائل جمالية وفلسفية ، الرسالة : ٢٢

الاسلوب الشخصي الذي نحسه في كل سطر من سطور المؤرخ العظيم فانه ليس اسلوباً عاطفياً او خطائياً . وقد يكون للاسلوب الخطائي حسنات عدة ، قد يحرك القارئ ويمتعه ، الا انه يخطيء الهدف لانه لا يستطيع ان يقودنا الى حدس والى حكم طليق منصف على الاشياء والاحداث .

واذا تذكرنا هذا الطابع للمعرفة التاريخية سهل علينا ان نميز الموضوعية التاريخية من الموضوعية التي يفتحها العلم الطبيعي . لقد وصف ماكس بلانك وهو عالم طبيعي عظيم كل " عملية الفكر العلمي بانها جهد مستمر لنزع كل " العناصر " الانثروبولوجية ، وإقصائها . اي علينا ان ننسى الانسان لندرس الطبيعة ولنستكشف القوانين الطبيعية ونصوغها^(٣١) . وما يزال العنصر الانثروبوفورمي في تطور الفكر العلمي يضطر الى التراجع للمؤخرة تدريجاً الى ان يختفي في النهاية من المبنى الكامل المثالي للطبيعات .

اما التاريخ فيمضي في اتجاه مختلف ؛ انه لا يستطيع ان يعيش ويتنفس الا في العالم الانساني فهو كالفن واللغة انثروبوفورمي في اساسه ، فاذا طمست معالمه الانسانية حطمت فيه شخصيته وطبيعته الخاصتين به . الا ان الانثروبوفورمية في الفكر التاريخي ليست قصوراً او عقبة في طريق صدقه الموضوعي ، لأن التاريخ ليس معرفة الحقائق والاحداث الخارجية ، وانما هو صورة من المعرفة الذاتية . واذا اردت ان اعرف نفسي لم استطع ان احاول الابعاد عنها ، أي لأتجاوز مدى خيالي - ان صح القول - بل عليّ أن اختار السبيل المضاد . ففي التاريخ يعود الانسان دوماً الى نفسه فيحاول ان يجمع كل تجربته الماضية ويعطيها شكلاً واقعياً ، الا ان الذات التاريخية ليست ذاتاً فردية ؛ هي انثروبوفورمية لكنها لا تتمركز حول

الفرق بين
موضوعية
التاريخ
وموضوعية
العلم

٣١ - انظر ماكس بلانك : " وحدة العالم المادي " (ليزج ١٩٠٩) ومن اجل تفصيلات اخرى انظر كاسيرر " الجوهر والوظيفة " ترجمة سوابي (١٩٢٣) ص : ٣٠٦ وما بعدها .

«الأنا» ، واذا اخترنا تعبيراً فيه صورة التناقض قلنا ان التاريخ يجهد وراء «انثروبوفورمية موضوعية» . وحين يعرفنا التاريخ ان الوجود الانساني متعدد الاشكال < بوليفورمي > يحررنا من اهواء اللحظة المفردة الخاصة ونزواتها . فغاية المعرفة التاريخية اذن هي هذا الاثراء والتوسيع للذات ، للأنا العارفة المحسنة ، لا طمسها وازالتها .

وقد تطور هذا المثل الأعلى للصدق التاريخي ببطء شديد ، ولم يستطع العقل الاغريقي نفسه ، على غناه وعمقه ، ان يبلغ به دور النضج . ولكن في تقدم الوعي الحديث أصبح كشف هذه الفكرة وصوغها من أهم الواجبات . وكانت المعرفة التاريخية في القرن السابع عشر ما يزال يحجب وجهها مثال آخر من الصدق ؛ يومئذ لم يكن التاريخ قد عرف موضعه تحت الشمس ، وكانت الرياضيات والطبيعات الرياضية ما تزالان تغمران وجهه . ولكن عند بداية القرن الثامن عشر يحدث توجيه جديد في الفكر الحديث . وكثيراً ما اعتبر ذلك القرن عصراً معادياً للتاريخ ؛ الا ان هذه فكرة ضيقة خاطئة ، ذلك أن مفكري القرن الثامن عشر هم رواد الفكر التاريخي ، فقد وضعوا أسئلة جديدة واشتقوا مناهج جديدة في الاجابة على تلك الاسئلة . وكان البحث التاريخي من الوسائل الضرورية في المذهب التجريبي (Enlightenment) (٣٢) . ومع ذلك ظل التصور الذرائعي للتاريخ يسود القرن الثامن عشر ولم تظهر فكرة نقدية جديدة قبل بداية القرن التاسع عشر ، أي قبل مجيء نيبور . ورائكه . ومن يومئذ تأثلت الفكرة

٣٢ - من اجل تفصيلات اخرى انظر كاسير : «فلسفة المعرفة» (نوبتجن ١٩٣٢) الفصل : ٥
٢٦٣ - ٣١٢ .

• [نيبور مؤرخ فاضل بالحركة الرومنطيقية واستطاع ان يفصل بين الاسطورة والتاريخ ، كتب تاريخ روما وكان يعتقد ان ذلك التاريخ انما يمثل في النظم والساتير الرومانية او في ذلك الصراع الطويل بين النبلاء والعامه ، ووجه اهتمامه الى فهم المشكلات الاجتماعية والسياسية وبخاصة الى توزيع الملكية في المقارات والارضين ، ويعد نيبور استاذاً لرائكه .] (المترجم)

الحديثة عن التاريخ ورسخت ، وبسطت أثرها على كل ميادين المعرفة والحضارة الانسانية .

ولم يكن من السهل تعيين الطابع الخاص للصدق التاريخي والمنهج التاريخي . وكان كثير من الفلاسفة يميلون الى انكار هذا الطابع بدلاً من أن يفسروه . وقالوا : ما دام المؤرخ يحمل نظرات ذاتية خاصة ، ما دام يقدر أو يمدح ، يستحسن أو يستهجن ، فانه لن يحقق مهمته الصحيحة ، وانما يشوه الحقيقة الموضوعية عمداً او عفواً . على المؤرخ ان يحدد رغبته في الاشياء والأحداث ليراهما في شكلها الصحيح . وقد وجد هذا الفرض المنهجي أوضح تعبير وأبعده اثرأ في مؤلفات تين التاريخية . فلقد صرح تين ان على المؤرخ ان يعمل كما يعمل العالم الطبيعي ، أي عليه ان يحرر نفسه من جميع الميول الشخصية والمقاييس الاخلاقية فضلاً عن كل صنوف الأهواء التقليدية . وقال تين في مقدمة كتابه : « فلسفة الفن » :

« ان المنهج الحديث الذي أتبعه والذي أخذ يتغلغل في كل العلوم الاخلاقية يتضمن اعتبار الاعمال الانسانية ... حقائق وثمرات لا بد من ان تعرض خصائصها ولا بد من ان تستكشف عللها . واذا اعتبر العلم من هذا الوجه لم يكن من شأنه ان يسوغ أو يدين . وعلى العلوم الاخلاقية ان تذهب في نفس الطريق التي يذهب فيها علم النبات ، وهو العلم الذي يسوّي في الدراسة بين النظر الى شجرة البرتقال ونبته الغار وبين شجرة الصنوبر وشجرة الزان . فكل علم من العلوم الاخلاقية نوع من علم النبات التطبيقي الا انه لا يعالج النباتات وانما يعالج اعمال الناس . هذه هي الحركة العامة التي بها أخذت تقترب العلوم الاخلاقية من العلوم الطبيعية ، وبفضل هذه الحركة ستحرز العلوم الاخلاقية ما أحرزته

تين يربط بين
عمل المؤرخ
وعمل العالم

العلوم الطبيعية من توثيق وتقدم» (٣٣).

واذا قبلنا هذه النظرة بدا لنا ان مشكلة موضوعية التاريخ قد حلت على أبسط صورة . على المؤرخ ان يدرس علل الاشياء لا ان يحكم على قيمها ، شأنه في ذلك شأن عالم الطبيعة والكيمياء . يقول تين :

النون الملي
التاريخ
كما يراه تين

« لا فرق بين أن تكون الحقائق مادية أو اخلاقية فان لها جميعاً عللاً ؛ هناك علة للطموح وللشجاعة وللصدق مثلاً ان هناك علة للهضم وللحركة العضلية وللحرارة الحيوانية . كذلك الفضيلة والرذيلة معلولتان - نتاجان كالكبريات والسكر ، ولكل ظاهرة مركبة وصلات تصلها بظواهر اخرى أبسط منها وتعلقها بها . اذن فلنبحث عن الظواهر البسيطة في الخصائص الخلقية مثلاً نبحث عنها في الخصائص المادية » . وفي كلتا الحالين سنجد عللاً كلية ثابتة « شاهدة في كل لحظة وفي كل حالة ، تعمل دائماً وفي كل مكان ، لا يعترها خراب وتكون في النهاية سامية معصومة عن الخطأ ، لأن الحوادث التي تعترضها محدودة جزئية ؛ ولذلك تنتهي تلك الحوادث بالخضوع الى تكرار قوتها المستمر البليد ، حتى ان المبنى العام للاشياء والملامح العظمى للاحداث تكون من صنعها ، وتكون الاديان والفلسفات والشعر والصناعات وأجهزة المجتمع وانظمة الاسر أترأ من ميسمها » (٣٤) .

لا أود أن اناقش في هذا المقام هذا الاتجاه من الحتمية التاريخية او ان اتعرض

الملي
لحرية غير
مارضتين

٣٣ - تين : « فلسفة الفن » (الطبعة الخامسة عشرة ، باريس ، مكتبة مئشت ١٩١٧) القسم الاول ، الفصل الاول : ١٣

٣٤ - تين : « تاريخ الادب الانجليزي » ، المقدمة - الترجمة الانجليزية ٦ : ١ وما يليها .

له بالنقد (٣٥). غير ان إنكار العلية التاريخية هو الطريق الخطأ للرد على هذه الختمية ، لأن العلية مقولة عامة تنبسط على ميدان المعرفة الانسانية كله وليست مقصورة على منطقة خاصة ، ليست مقصورة على عالم الظواهر الطبيعية . ويجب ان لا نعتبر الحرية والعية قوتين متافيزيقيتين مختلفتين او متضادتين ، وانما هما محض طريقتين مختلفتين من طرق الحكم . حتى إن كانت اقوى نصير للحرية والمثالية الاخلاقية لم ينكر ابدأ ان كل معرفتنا التجريبية - معرفتنا بالناس وبالأشياء المادية - عليها ان تدرك مبدأ العلية . يقول كانت :

« قد نسلم بأنه لو امكننا أن يكون لنا بصر نافذ عميق في الطابع العقلي الانسان كما تدل عليه الاعمال الداخلية والخارجية ، أي بأن نعرف كل دوافعه ، حتى اصغر دافع فيها ، ونعرف كل الظروف الخارجية التي تستطيع ان تؤثر فيها ، - لو امكننا ذلك لاستطعنا ان نحسب سلوك الانسان في المستقبل بمثل اليقين الذي نحسب به خسوف القمر او كسوف الشمس . ومع ذلك كله سنظل نؤمن بأن الانسان حر » (٣٦) .

ولكن ليس يهمننا في هذا المقام ، هذا الجانب من المشكلة أعني الفكرة المتافيزيقية أو الاخلاقية في الحرية ، وإنما الذي يهمننا هو انعكاس هذه الفكرة على المنهج التاريخي . وحين ندرس أهم مؤلفات تين ندهش إذ نجد هذا الانعكاس طفيفاً - من الناحية العملية - . ما أبعد الفرق لدى

تباعد ما بين
تين ودلتي
في النظر
وتقاربها
في التطبيق

٣٥ - عاجلت هذه المسألة في بحث عنوانه : « المبادئ الطبيعية والانسانية في فلسفة الحضارة »
Goteborgs Kungl. Vetenskaps - och Vitterhets - Samhällets Hand-
lingar (Gothenburg , 1939) .

٣٦ - : كانت « بحث تحليلي في العقل العملي » ترجمة ت.ك. ابوت (الطبعة السادسة ١٩٢٧)

ص : ١٩٢

النظرة الأولى بين فكرة تين عن العالم التاريخي وفكرة دلتي عن هذا العالم نفسه . هذان مفكران ينظران الى المشكلة من زاويتين مختلفتين تماماً . فيؤكد دلتي الاستقلال الذاتي للتاريخ وانه غير قابل لأن يرد الى علم طبيعي وأن طابعه «روحي» Geisteswissenschaft . وينكر تين هذه النظرة بشدة ويرى أن التاريخ لن يصبح علماً ما دام يدعي انه يختار وجهته وطريقه . وليس للفكر العلمي إلا طريقة واحدة وسبيل واحد . ثم يصحح تين هذه النظرة توتاً حين يبدأ البحث عن الظواهر التاريخية ووصفها . ويتساءل :

رأي تين
فيه رد على
منهاجه
الطبيعي

« ما أول ملحوظة لك و انت تقلب أوراقاً كبيرة جافة صفراء من إحدى المخطوطات - قصيدة كانت أو مجموعة قوانين أو إقراراً بشهادة دينية ؟ ستقول : إن هذه لم تخلق وحدها ، إنها قالب كصدفة متحجرة ، إنها طابع كواحد من تلك الأشكال التي نقشها في الصخر حيوان عاش هنالك ومات . تحت الصدفة كان حيوان ، ووراء تلك الوثيقة كان انسان . لماذا تدرس الصدفة لولا انك تريد ان تمثل الحيوان لنفسك ؟ وهكذا تدرس الوثيقة لكي تعرف الانسان . والصدفة والحيوان حطام انعدمت فيه الحياة ، وقيمتها في أنهما دلالة على الوجود الحي الصحيح ، وعلينا ان نبليغ هذا الوجود وأن نحاول خلقه من جديد ، ومن الخطأ ان ندرس الوثيقة بمعزل عما سواها . فمثل هذا يفعله متحذلق مسكين في معالجته الأشياء ، مثل هذا يشبه الخطأ الذي يتردى فيه متهوس في شئون الكتب . ووراء هذا كله ليست لدينا أساطير أو لغات وإنما لدينا ناس رتبوا الكلمات والأخيلة ... لا وجود لشيء إلا بواسطة أحد الناس ، وإذن علينا أن نتعرف الى الفرد ، فاذا

عرفنا نسبة العقائد أو تصنيف القصائد أو تقديم الدساتير أو تخوير التعابير ، عندئذ نكون قد ازلنا الغبار فحسب ، أما التاريخ الحق فلا يتم وجوده الا حين يبدأ المؤرخ يكتشف - على مر الزمن - الانسان الحي ، دائماً متحمساً محصوراً في ربقة من عاداته ، بصوته وملاحمه وحركاته وملبسه - واضحة كاملة - كأنما هو شخص فارقناه في الشارع قبل قليل . لنحاول إذن أن نعدم - قدر الامكان - هذه الفترة الكبيرة من الزمن التي تمنعنا من رؤية الانسان بأعيننا - بالبصر نفسه ... أما اللغة والتشريع وأصول الدين فما هي إلا أمور مجردة ، والشئ الكامل هو الانسان الذي يعمل ، الانسان المتجسد المنظور الذي يأكل ويمشي ويقاتل ويشغل ... لنجعل الماضي حاضراً ، فلنحكم على شئ لا بد من أن يمثل امامنا . لا تجربة فيها يتعلق بالغائب . ولا ريب في أن هذا البناء المستعاد غير كامل دائماً ، ولا ينتج إلا أحكاماً ناقصة ، ولكن علينا أن نوطن أنفسنا على ذلك ؛ خير لنا ان نحصل على معرفة ناقصة من ان نحصل على معرفة تافهة أو كاذبة ، ولا وسيلة لدينا لتتعرف الى احداث الايام السالفة - على التقريب - الا بأن نرى ناس الايام السالفة - على التقريب » (٣٧) .

البون بين ما
يقوله تين
نظرياً وبين
مايطبقه عملياً

كل هذا الذي قاله تين متفق تمام الاتفاق مع النظرة الى التاريخ والمنهج التاريخي - النظرة التي حاولنا ان نوضحها وندافع عنها فيما تقدم . ولكن ان كانت هذه النظرة صحيحة فمن المستحيل ان « نرد » الفكر

التاريخي الى منهج الفكر العلمي . . ولو كان لنا ان نعرف قوانين الطبيعة جميعاً ، ولو كان لنا ان نطبق على الانسان كل قواعدنا الاحصائية والاقتصادية والاجتماعية ، لما أعاننا ذلك كله على ان « نرى » الانسان في هذا المظهر الخاص وفي صورته الفردية ، ذلك لأننا في هذا الموطن لا نتحرك في عالم مادي بل في عالم رمزي ؛ وعلينا ان أردنا فهم الرموز وتفسيرها ، ان نطور مناهج اخرى سوى مناهج البحث في العلل . ان مقولة المعنى يجب ان لا ترد الى مقولة الوجود^(٣٨) <الأيسية> ؛ واذا فتشنا عن عنوان عام ندرج تحته المعرفة التاريخية قلنا انها فرع من السانتيات لا من الفيزيا . ذلك ان المبادئ العامة للفكر التاريخي هي قواعد السانتيات لا قوانين الطبيعة ؛ والتاريخ مشمول في ميدان التفسيرات hermeneutics لا في ميسدان العلم الطبيعي . ذلك كله قد أقر به تين عملياً وانكره نظرياً ، ولا تعترف نظريته الا بمهتين للتؤرخ : ان يجمع « الحقائق » وان يبحث عن عللها . ولكن الذي يغفله تين إغفالاً تاماً هو ان تلك الحقائق لا تُعطى للتؤرخ على التو ، وليست مما تدركه الملاحظة كحقائق الطبيعة والكيمياء ، ولا بدله من ان يعيد ايجادها . وفي سبيل هذه الاعادة كان لزاماً على المؤرخ ان يحسن استعمال وسائل خاصة شديدة التعقيد ، عليه ان يقرأ واثاقه وان يفهم الآثار ليتوصل الى « حقيقة » بسيطة واحدة . وتفسير الرموز في التاريخ

• [ظهر الفرق بين نظريات تين ومعالجته التاريخية حين كتب كتابه « اصول فرنسا المعاصرة » وهو كتاب في التاريخ السياسي ، أبدى فيه تين اهتمامه الشديد بالاحداث والتعاطف معها حتى حاد احياناً عن الواقع . وأثار كتابه عاصفة في كل المعسكرات السياسية لدى ظهوره ، وانتقده المؤرخون بشدة لتصلبه السياسي . وفي هذا التطبيق تضاعف شأن العلل الكلية التي كان يحرص عليها في نظرياته] . (المترجم)

٣٨ - انظر ما تقدم في الكلام على معنى المعنى من فصل اللغة (الفصل الثامن) .

يسبق جمع الحقائق ، وبغير هذا التفسير لا يستطيع المؤرخ ان يقترب من الصدق التاريخي .

اي الحقائق
تستحق ان
تدخل نطاق
التاريخ ؟

وهذا يؤدي بنا الى مشكلة اخرى اثارت جدلاً كثيراً : من الواضح أن التاريخ لا يستطيع ان يصف كل حقائق الماضي وإنما يعالج الحقائق المذكورة ، اي الحقائق التي تستحق ان تُتَدَكَّر . ولكن أين يقع الفرق بين هذه الحقائق المذكورة والحقائق الاخرى التي طواها النسيان ؟ حاول ريكرت ان يثبت ان المؤرخ يلزمه لكي يفرق بين الحقائق التاريخية وغير التاريخية ، امتلاك جهاز ما من القيم الصورية ، وعليه ان يستعمل هذا الجهاز معياراً لانتقاء الحقائق . إلا ان هذه النظرية عرضة لاعتراضات خطيرة^(٣٩) . ويبدو انه من الطبيعي المستحسن ان نقول : ان المعيار الصحيح لا يوجد في قيم الحقائق بل في نتائجها العملية . وتصبح الحقيقة ملائمة تاريخياً اذا كانت حافلة بالنتائج ، وقد سند هذه النظرية كثير من مشهورى المؤرخين . يقول ادورد ماير :

« لو سألنا أنفسنا أي الاحداث التي نعرفها تاريخي ؟ لكان جوابنا : تاريخي هو كل ذي أثر أو ما صار ذا أثر . اما كل ذي أثر فانا نختبره اولاً في الحاضر الذي فيه نلاحظ الأثر تواتراً ؛ ولكننا نستطيع ان نمارسه أيضاً في الماضي ، ففي كلتا الحالتين يكون امام اعيننا كومة من حالات الوجود أي الآثار . والسؤال التاريخي هو : ما الذي انتج هذه الآثار ؟ عندئذ فان ما نعهده علة لذلك الأثر هو حادثة تاريخية »^(٤٠) .

٣٩ - انظر في نقد هذه النظرية ارنست ترويلتش : « النزعة التاريخية ومشكلاتها » نشر في Gesammelte Schriften المجلد ٣ ، وانظر كاسيرر في « منطق التاريخ الحضاري » (جوتنبرج ١٩٤٢) ص : ٤١ وما يليها .

٤٠ - ادورد ماير : « في نظرية التاريخ ومنهجه » (هاله ١٩٠٢) ص : ٣٦ والتي تليها .

ولكن هذه العلامة المميزة ليست كافية فنحن اذا درسنا مؤلفا تاريخيا، وبخاصة ما كان متصلاً بالسيرة، وجدنا في كل صفحة تقريباً ذكراً لاشياء وحوادث ضئيلة المعنى من الناحية النفعية. ان رسالة من جوته او ملحوظة القاها في احدى محادثاته لا تترك أثراً في تاريخ الادب، ومع ذلك فقد نعتبرها هامة تستحق التذكر، ودون ان نحسب للرسالة او الملحوظة أثراً عملياً نعدّ الواحدة منها في جملة الوثائق التي نحاول ان نبني منها صورة تاريخية لجوته. وكل هذا غير هام في نتائجه ولكنه قد يكون امراً متميزاً. كل الحقائق التاريخية متميزة لأننا في التاريخ - تاريخ الجماعات والافراد - لا ننظر الى الاعمال والمنجزات وحدها وإنما نرى فيها تعبيراً عن شخصية. ولسنا نستعمل في معرفتنا التاريخية - وهي معرفة سمانتية - نفس المقاييس التي نستخدمها في معرفتنا العملية او الطبيعية. فقد يكون الشيء لا قيمة له من ناحية مادية او عملية ثم يكون ذا معنى سماتي عظيم جداً. إن حرف «iota» الاغريقي لا يعني بالمعنى المادي شيئاً حيث يرد في احد هذين المصطلحين دون الآخر: «طبيعة واحد» homo-ousios أو «ذو طبيعة واحدة» homoi-ousios؛ ولكنه اعتبر رمزاً دينياً، تعبيراً عن عقيدة «الاقانيم الثلاثة» وتفسيراً لها، ومن ثم اصبح بداية مجادلات لا تنقطع - مجادلات أثارت أعنف العواطف وهزت قواعد الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية. وقد احب تين ان يؤسس اوصافه التاريخية على ما أسماه: «كل الحقائق الصغيرة ذات المغزى» ولكن هذه الحقائق لم تكن ذات مغزى بسبب نتائجها، وإنما كانت «معبّرة»، كانت رموزاً استطاع المؤرخ ان يقرأ بها وان يفسر شخصيات أفراد او شخصيات حقبة كاملة. ويحدثنا ماكولي انه حين كتب مؤلفه التاريخي الكبير، كوّن فكرته عن مزاج الفرق السياسية والدينية من آلاف من النبذ المنسية والمواظع والنقدات الهجائية، لا من

اي أثر بمفرده . ولم يكن لهذه الاشياء جميعاً وزن تاريخي ، وقد يكون تأثيرها على سياق الاحداث العام ضئيلاً ومع ذلك فانها قيمة بل لا غنى عنها للمؤرخ لأنها تسعفه في فهم الشخصيات والاحداث .

الاتجاه
الى المنهج
الاحصائي

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان كثير من المؤرخين يعلق آمالاً مسرفة على استخدام المناهج الاحصائية . وتنبأوا بأن اجادة استغلال ذلك السلاح الجديد القوي ستحقق ظهور عصر جديد من الفكر التاريخي . ولو كان من الممكن وصف الظواهر التاريخية من خلال الاحصائيات لكان لهذا في الحقيقة اثر ثوري في الفكر الانساني ، واذن لانتخدت كل معرفتنا للانسان - في هذه الحال - مظهراً جديداً - فجأة - ، واذن لحصلنا على موضوعية عظيمة وغدت لدينا رياضيات الطبيعة الانسانية . وكان المؤرخون الأول الذين وضحوا هذه النظرة مقتنعين ان دراسة الاخلاق والمدنية نفسها تعتمد الى حد كبير على المناهج الاحصائية ، لا فحسب دراسة الحركات الجماعية العظيمة ، لان هناك احصاءات اخلاقية مثلاً ان هناك احصاءات اجتماعية واقتصادية . وفي الحقيقة ليس في الحياة الانسانية قطاع خالٍ من قواعد عديدة ، فتلك القواعد تبسط ظلها على كل ميدان من ميادين العمل الانساني .

المؤرخ بكل
والإيمان
المطلق
بالاتجاه
الاحصائي

وقد دافع « بكل » عن هذه الفكرة بقوة في مقدمة عامة صدر بها كتابه « تاريخ المدينة بالانجليزية » (١٨٥٧) . فصرّح أن الاحصاء خير ردّ جامع ينقض ذلك الصم الذي يسمونه « الارادة الحرة » وأنه أصبحت لدينا أوسع معلومات احصائية لا عن رغبات الناس المادية فحسب بل عن انتحاءاتهم الأخلاقية . وقال : إننا نعرف نسبة الوفيات

« [يمثل بكل في الفكر التاريخي بالانجليزية ما يمثلته تين في فرنسا ، فكلاماً من أنصار الطبيعة والمذهب الوضعي ، وكلاماً يطبق منهج كومت الذي كان يرى ان « القوانين الطبيعية تعين تطور الجنس البشري مثلاً ان هناك قانوناً طبيعياً يمين سقوط الحجر »] . (المترجم)

والزواج ونسبة الجرائم أيضاً لدى أشد الشعوب تمدناً ، وقد جمعت هذه الحقائق وما أشبهها وصنفت وهي جاهزة للاستعمال . لقد تأخر خلق علم التاريخ ولم يستطع التاريخ أن يتنافس الفيزيا والكيمياء ، وما ذلك إلا لأن المناهج الاحصائية ظلت طوال العصور مغفلة مهملة . ولم نكن ندرك أن كل حادثة - في هذا المقام أيضاً - مرتبطة بحادثة سابقة ربطاً حتمياً لا ينقسم ، وكل حادثة سابقة مرتبطة بحقيقة أسبق ، وأن العالم كله - العالم الأخلاقي والمادي ، فهما في ذلك سريان - يشكل سلسلة ضرورية قد يلعب فيها كل إنسان دوره . ولكنه لا يستطيع أن يعين ماهية ذلك الدور بأي حال . « فإذا رفضنا إذن العقيدة المتأفيزيقية التي تؤمن بالارادة الحرة ... أدّى بنا ذلك إلى أن أعمال الناس ، ما دامت تختمها السوابق التي تقدمت وجودهم وحدها ، فلا بد وأن يكون لها طابع انسجام ، أعني أنها تحت ظروف واحدة - بالضبط - لا بد من أن تتمخض - بالضبط - دائماً عن نتائج واحدة » (٤١) .

مناقشة بكل

ولا نكران في أن الاحصاء في الحقيقة عون كبير هام في دراسة الظواهر الاجتماعية والاقتصادية . حتى في ميدان التاريخ علينا ان نسلّم بأن بعض الأعمال الانسانية ذات انسجام وانتظام . ولا ينكر التاريخ أن تلك الأعمال تنتج نتائج معينة دون نظر إلى مشيئة الافراد الذين يتألف منهم المجتمع ، لأن تلك الأعمال نتيجة علل كبيرة عامة تعمل في مجموع المجتمع . ولكننا حين نجيء إلى الوصف التاريخي لعمل فردي فان علينا أن نواجه مشكلة مختلفة تماماً . لأن المناهج الاحصائية تقصر نفسها بطبيعتها على الظواهر الجماعية ، وليست القواعد الاحصائية مهيأة لتعيين حالة مفردة ، وانما تعالج بعض الحالات « الجماعية » . أما بكل فانه

٤١ - بكل : « تاريخ المدنية بالانجليزية » (نيويورك ١٨٥٨) ص : ١٤ والتي تليها .

بعيد البعد كله عن البصر الناقد الجليّ في طبيعة المناهج الاحصائية ومغزاها . ولم تبرز تلك المناهج تحليلاً منطقياً ملائماً إلا في فترة متأخرة^(٤٢) .
 واحياناً يتحدث عن قوانين الاحصاء بطريقة غريبة شاذة ويبدو أنه لا يعتبرها قواعد تصف بعض الظواهر الطبيعية وإنما يعتبرها قوى تنتج تلك الظواهر . وهذا النحو من التفكير ميثولوجيا لا علم . وهو يرى أن القوانين الاحصائية « علل » تفرض علينا بعض الأعمال فرضاً ، أما الانتحار فانه يبدو عملاً مختاراً . ولكننا لو درسنا الاحصاءات الأخلاقية لخرجنا بحكم مغاير ، إذن لوجدنا :

« أن الانتحار نتيجة حالة عامة في المجتمع وأن الفرد المحرم لا يتأثر إلا بما هو نتيجة ضرورة لظروف سابقة . ففي حال ما من حالات المجتمع يجب أن يحاول عدد ما من الناس وضع حدّ لحيواتهم ... وقوة القانون الأكبر لا تقاوم ، فلا حب الحياة ولا الخوف من العالم الثاني يغنيان قتيلاً في كبح عمله^(٤٣) .

ولست بحاجة الى ان أقول ان « يجب » هذه تعني وكرراً تنجحرفيه مغالطات متافيزيقية عديدة . وعلى اية حال فان المؤرخ لا يعبر هذا الجانب من المشكلة اهتماماً ، فاذا تحدث عن قضية فردية - ولتكن انتحار كاتو مثلاً - فانه لا يطلب عوناً على تفسير تاريخي لهذه الحقيقة المفردة من المناهج الاحصائية . لأن غرضه الاول هو ان يكتشف « معنى » موت كاتو لا ان يضع هذه الحادثة في موضعها من زمان ومكان . وقد عبر الشاعر لوقان عن معنى موت كاتو بقوله : « ان القضية الغالبة كانت

٤٢ - إن شئت مراجعة بعض المؤلفات الحديثة في شئون الاحصاء فارجع إل كينس : « رسالة في الاحتمال » (لندون ١٩٢١) ، وانظر فون مايس : « الاحتمال والاحصائيات والحقيقة » (فينا ١٩٢٨) .

٤٣ - بكل ، المصدر نفسه : ٢٠ .

الاحصاء لا
يستعمل في
المشكلات
الفردية

ترضى الآلهة اما المغلوبة فكانت ترضى كاتو^(٤٤) . لم يكن انتحار كاتو عملاً مادياً فحسب بل كان عملاً رمزياً ايضاً ، كان تعبيراً عن شخصية عظيمة ، كان آخر احتجاج قدمه عقل جمهوري روماني ضد نظام من الامور جديد ، وكل هذا لا تفسره تلك « العلل الكبيرة العامة » التي قد نظنها مسئولة عن الاحداث الجماعية الكبرى في التاريخ . قد نحاول ان نرد الاعمال الانسانية الى قواعد احصائية ولكننا بهذه القواعد لن نبلغ الغاية التي اعترف بها المؤرخون ، حتى مؤرخو المدرسة الطبيعية انفسهم . لن نرى « ناس » الايام الخالية ولن يكون ما نراه في هذه الحال حياة واقعية . لن نرى دراما التاريخ وكل ما سننصره حركات قره جوزات في معرض قره جوزي ونرى الخيوط التي تتحرك بها تلك الشخوص .

الاتجاه
السيكولوجي
في التاريخ

ويصدق هذا الاعتراض نفسه على كل المحاولات التي ترمي لرد المعرفة التاريخية الى دراسة النماذج النفسية . وقد يبدو لدى النظرة الاولى اننا إن استطعنا ان نتحدث عن قوانين عامة في التاريخ فان تلك القوانين لن تكون قوانين طبيعية بل قوانين سيكولوجية ، وان الانسان الذي نبحث عنه في التاريخ وزيد ان نصفه لا ينتمي الى تجربتنا الخارجية بل الى تجربتنا الداخلية ، فهو اتساق في الاحوال النفسية ، في الافكار والمشاعر ؛ فاذا وفقنا الى ايجاد قانون عام لا ينقض يسيطر على هذه الافكار والمشاعر وحققنا لها نظاماً محدداً فقد نعتقد اننا وجدنا قسماً يهدي طريقنا الى العالم التاريخي .

كارل
لبرخت مثل
على هذا
الاتجاه

وكان كارل لبرخت بين المؤرخين المحدثين مقتنعاً بأنه استكشف مثل هذا القانون . فحاول أن يبرهن ، في كتابه « التاريخ الألماني » ذي الاثني عشر مجلداً على فكرته العامة بمثل محسوس . يرى لبرخت أن أحوال

« Victrix causa diis placuit sed victa Catoni » - ٤٤

العقل الانساني يتلو بعضها بعضاً في نظام لا يتغير وهذا النظام يعين
 - دفعة واحدة - نسق الحضارة الانسانية . ورفض لمبرخت قبول آراء
 المادية الاقتصادية ، وصرح أن كل فعل اقتصادي ككل فعل عقلي يعتمد
 على ظروف نفسية ، إلا أننا نحتاج سيكولوجيا اجتماعية لا سيكولوجيا فردية ،
 أي سيكولوجيا تفسر التغيرات في العقل الاجتماعي ؛ وهذه التغيرات مربوطة
 إلى خطة ثابتة صارمة . واذن فإن التاريخ يجب أن لا يكون دراسة أفراد
 ويجب ان يتحرر من كل لون من ألوان عبادة الأبطال . ومشكلته الرئيسية
 تتصل بالعوامل الاجتماعية النفسية لا بالعوامل الفردية النفسية . والفروق
 الفردية والقومية لا تستطيع ان تؤثر في الاتجاه المطرد لحياتنا الاجتماعية
 النفسية ولا تستطيع ان تغيره . ويرينا تاريخ المدنية ، دائماً وفي كل مكان ،
 نفس التوالي المطرد ، ونفس الايقاع المتحد . فمر اولاً بمرحلة اولى
 يسميها لمبرخت «الروحانية» animism > أي اعتقاد ان لكل شيء في
 الطبيعة روحاً < وننتقل منها إلى الرمزية فالانموزجية فالعرفية فالفردية فالذاتية
 - على التوالي - وهذه الخطة لا تتغير ولا يدركها وهن . واذا تقبلنا
 هذا المبدأ لم يعد التاريخ محض علم استقرائي ، بل أصبح في مقدورنا ان
 نكون مقررات استنتاجية عامة . وقد جرّد لمبرخت خطته هذه
 من حقائق التاريخ الالاماني ولكنه لم يقصرها على منطقة دون أخرى بل كان
 يعتقد ان خطته تنطبق انطباقاً عاماً ، وانها مبدأ سابق a priori للحياة التاريخية
 جميعاً . وكتب يقول : « من المادة كلها نحصل على انطباع سيكولوجي
 عام يصرح إطلاقاً بفكرة الوحدة ، تجريبية كانت او تاريخية ، ويتطلبها ، ولا
 نحصل فحسب على فكرة الوحدة نفسها . وكل الاحداث النفسية المشتركة في
 زمن ، ومنها النفسي الفردي ومنها النفسي الجماعي ، تتجه نحو تشابه مشترك » (٤٥) .

٤٥ - « ما التاريخ ؟ » ترجمة لـ . أ . اندروز (نيويورك ، مكيلان ١٩٠٥) ص : ١٦٣

لكل الفترات المتنوعة سياق ، ولكل سياق آلية نفسية كلية ، وتتردد هذه الآلية متكررة في كل مكان ، في روسيا الحديثة مثلما كانت في تاريخ اليونان وروما ، وفي آسيا مثلما هي في أوروبا . ولو دققنا النظر في آثار شمال أوروبا ووسطها وجنوبها وفي آثار المتوسط الشرقي وآسيا الصغرى لتبيننا أن كل تلك المدن سارت في خطوط متوازية « فإذا تم ذلك كله فقد نقدر أهمية كل مجتمع أو شعب في سياق تاريخ العالم ، وعندئذ يمكننا أن نكتب تاريخاً للعالم علباً » (٤٦) .

إن خطة لمبرخت العامة تفرق تماماً عن فكرة بكل في السياق التاريخي . ومع ذلك فإن بين النظريتين نقطة التقاء ؛ في كليهما نلتقي تلك الكلمة المقيمة « يجب » . بعد فترة من النمذجة والعرفية يجب أن نجيء فترة من الفردية والذاتية . ولا يستطيع عصر ما أو حضارة ما أن يتحاشيا هذا السياق العام للأشياء ، وهو فيما يبدو نوع من الحتمية التاريخية . ولو صحت هذه الفكرة لأصبحت دراما التاريخ العظيمة منظراً بليداً نفسه ، دفعة واحدة ، إلى أعمال مفردة لا يتغير تواليها . ولكن حقيقة التاريخ ليست هي انسجام التوالي في الأحداث بل هي حياة الإنسان الداخلية ، ويمكن أن توصف هذه الحياة وتفسر بعد أن عاشها أصحابها ، ولا يمكن استشرافها في معادلة عامة- مجردة ، ولا يمكن ردها إلى رواية صارمة ذات ثلاثة فصول أو خمسة . ولست أود هاهنا أن أناقش قرائن فكرة لمبرخت وكل ما أريده أن أثير سؤالاً صورياً منهجياً : كيف حصل لمبرخت على الشواهد التجريبية التي أقام عليها نظريته هذه ؟ كان عليه مثل غيره من المؤرخين السابقين أن يبدأ بدراسة الوثائق والآثار ، ولم يكن همه مقصوراً على الأحداث السياسية والنظم الاجتماعية والظواهر الاقتصادية ؛ كان يرغب

الحتمية داء
كل من
نظريتي
بكل
ولمبرخت

للرد على
لمبرخت
نساء: كيف
حصل على
شواهد ؟

في أن يعانق سياق الحياة الحضارية كله ، وكثير من مجادلاته الهامة مبنيّ على تحليل دقيق للحياة الدينية وللأعمال الموسيقية والأدب . وكان من أعظم متعه دراسة تاريخ الفنون الجميلة ، وإذا تحدث عن تاريخ ألمانيا لم يتحدث فحسب عن كانت وبيتهوفن ، بل تناول فيورباخ وكلنجر وبويكلن أيضاً . وقد كدّس في معهده التاريخي بليزج موادّ خصبة مذهشة تتصل بكلّ هذه المسائل . ولكن من الواضح أنه كان عليه أن يترجم تلك المواد الى لغة مختلفة كي يستطيع ان يفسرها . أي كان عليه - حسب قوله - ان يبحث وراء الصدفة عن الحيوان وأن يجد الانسان خلف كل وثيقة . وينسامل تين قائلاً :

« حين ترمق الانسان المرثي بعينيك فعن ماذا تفتش ؟ عن الانسان غير المرثي . وإنما الكلمات التي تقرر اذنك والایماءات وحركات الرأس والملابس التي يلبسها والاعمال المنظورة من كل نوع ، انما هذه جميعاً تعبيرات لا غير . ومن دونها ينبج شيء هو نفس ، - انسان داخلي قد تحفّى في إهاب انسان خارجي ، والثاني يكشف عن الاول . وكل تلك الامور الخارجية طرق تؤدي الى مركز ، تمشي فيها لكي تبلغ ذلك المركز لا لشيء آخر . وهذا المركز هو الانسان الحقيقي ... هذا العالم الداخلي مادة جديدة صالحة للتأريخ » (٤٧) .

من ثمّ نقول إن دراسة المؤرخين « الطبيعيين » أمثال تين ولبرخت هي التي تؤيد وجهة نظرنا ، هي التي تقنعنا بأن عالم التاريخ عالم رمزي لا ماديّ .

وبعد ان اصدر لبرخت الاجزاء الاولى من كتابه « التاريخ الالماني »

اتضح في الفكر التاريخي أكثر فأكثر ، وتزايد الاحساس بمحدتها ،
وثار جدل طويل محق حول طابع المنهج التاريخي ، فقد أعلن لمبرخت ان
النظريات التقليدية كلها قد بطلت واعتبر منهجه المنهج « العلمي » الوحيد
و« المُحدث » ، الوحيد^(٤٨) . واعتقد خصومه من الناحية الاخرى ان
ما قدمه كان مسخاً للفكر التاريخي^(٤٩) . وعبر كل فريق عن رأيه بلغة
البت الحاسم والتصلب العنيد . وبدا ان التقارب امر مستحيل وكثيراً ما
عَدَّتِ الاهواء الشخصية والسياسية على مضمون الجدل فشوته وحرفته ، ولكننا
لو قاربنا المشكلة بعقل منصف لا يعرف التحيز ومن زاوية منطقية خالصة
لوجدنا وحدة اساسية ما على الرغم من الخلافات في الرأي جميعاً . ولقد
قدمنا القول بان المؤرخين ، حتى الطبيعيين منهم ، لم ينكروا — او لنقل لم
يستطيعوا ان ينكروا — ان الحقائق التاريخية لا تنتمي الى النوع الذي تنتمي
له الحقائق العملية . وكانوا يدركون ان وثائقهم وآثارهم لم تكن محض
أمر مادية ، وانما يجب ان تعتبر رموزاً وتقرأ كذلك . ووضح من الناحية
الثانية ان كل واحد من الرموز — بناء كان أو عملاً فنياً أو شعيرة
دينية — ذو جانب مادي . فالعالم الانساني ليس كياناً منفصلاً أو حقيقة
قائمة بذاتها بل يعيش الانسان في بيئة مادية تؤثر فيه دائماً وتطبع صور
حياته جميعاً بطابعها . ومن أجل ان نفهم مخلوقاته — أي « عالمه الرمزي » —
يجب علينا دائماً ان نتذكر ذلك التأثير . حاول مونتسكيو في احدى روائعه
ان يصف « روح الشرائع » الا انه وجد أن تلك الروح مرتبطة من كل
ناحية بظروفها المادية ، فصرح ان التربة والمناخ والطوايع الانثروبولوجية

٤٨ — لمبرخت : « التزامات القديمة والحديثة في علم التاريخ » (١٨٩٦)

٤٩ — انظر تفصيلات اخرى في برنامج : « موجز في المنهج التاريخي » (الطبعة الخامسة ، ميرنخ ،

دنكر ١٩٠٨) ص : ٧١٠ وما بعدها .

في الشعوب المختلفة هي الظروف الاساسية التي نبتت فيها شرائعهم وأنظمتهم .
ومن الواضح أن هذه الظروف المادية لا بد من أن تدرس بمناهج مادية .
فالمسافة التاريخية والزمن التاريخي ينطويان في كل كبير واسع ، وما
الزمن التاريخي الا شذرة صغيرة في الزمن الكوني الكلي . فاذا شئنا ان
نقيس هذا الزمن ، أي اذا كنا نهم بتسلسل الأحداث ، فلا بد لنا
من أدوات مادية . ولا نجد في العمل المحسوس لدى المؤرخ تعارضاً بين
هاتين النظرتين ، بل هما مندمجتان معاً ولا ينفصلان الا اذا أجرينا لهما
تحليلاً منطقياً . ويستطيع المؤرخ ان يذهب في طريق أخرى إن كان
يبحث في مشكلة معقدة من الترتيب الزمني . يستطيع ان يستعمل معايير
مادية أو صورية ، يستطيع ان يجرب مناهج احصائية في التفسير أو
مناهج مثالية . ان ترتيب حواريات افلاطون زمنياً مسألة شديدة التعقيد،
ولكنها حلت - الى حد كبير - بملاحظ احصائية قيّدت عن اسلوب
افلاطون . وقد استطاع الباحثون ان يؤكدوا ، اعتماداً على معايير اسلوبية
مختلفة مستقلة ، ان مجموعة من الحواريات هي « السفسطائي » و « رجل
الدولة » و « فيلبس » و « طيماوس » تنتمي الى شيخوخة افلاطون^(٥٠) . ولما
أعد أديكس مخطوطات كانت للنشر لم يجد مقياساً يعين به ترتيبها الزمني
سوى تحليل كيميائي للحبر الذي قيدت فيه تلك الملاحظات المختلفة . ولو
أننا بدلاً من استعمال هذه المعايير المادية بدأنا بتحليل أفكار افلاطون
أو كانت وترابطها المنطقي لاحتجنا أفكاراً تنتمي الى دنيا أخرى غير
دنيا الامور المادية . مثلاً لو انني رأيت رسماً او حفراً على المعدن فقد
أعرف على التو انه من عمل رمبرانت وقد استطيع ان اعين الى
اي فترة من حياة رمبرانت ينتمي . وهذه المعايير الاسلوبية
.....
٥٠ - هنالك تفصيلات أخرى عند لوتلافكي في « أصل منطق افلاطون ونموه » ،
مع بحث في اسلوب افلاطون وترتيب كتاباته زمنياً « (لندن ونيويورك ١٩٠٧)

لا نكران
في استغلال
المناهج
المادية
لدراسة
الظروف
المادية

معايير غير
مادية قد
يستعملها
المؤرخ

التي أجزم بها في هذه المسألة تختلف في متنهاها عن المعايير المادية (٥١) ، وهذا الازدواج في المناهج لا يفسد عمل المؤرخ ولا يحطم وحدة الفكر التاريخي ، كلا المنهجين يتعاونان لبلوغ غاية مشتركة دون ان يعكرا أحدهما حال الآخر او يقف عثرة في سبيله .

أما لو سألنا اي المنهجين ذو أفضلية منطقية على الآخر وإيهما «العلمي» الحق لما استطعنا ان نقدم جواباً محدداً . فان قبلنا تعريف كانت باننا لا نستطيع ان نطلق مصطلح «علم» - بالمعنى الصحيح للكلمة - الا على مجموعة من المعرفة أصبحت درجة الصحة فيها يقينية (٥٢) - اذا قبلنا هذا التعريف لم نستطع ان نتحدث عن شيء اسمه «علم التاريخ» ، الا ان الاسم الذي نسمي به التاريخ لا يهم على شرط ان نظل نافذ البصر في طابعه العام . ودون ان يصبح التاريخ علماً تماماً سيظل يحتفظ بمكانه وطبيعته الملازمة ، في جهاز المعرفة الانسانية . ان ما نبحث عنه في التاريخ هو معرفة ذواتنا لا معرفة الاشياء الخارجية . ان مؤرخاً عظيماً مثل يعقوب بركهارت في مؤلفه عن قسطنطين الكبير او عن مدنية عصر النهضة لم يزعم انه قدم لنا وصفاً علمياً لتلك الحقب ولم يتردد في ان يذكر ذلك التناقض القاتل : ان التاريخ اشد العلوم لا علمية (٥٣) ، ولقد كتب بركهارت يقول في إحدى رسائله : « ان ما احاول ان أبنيه تاريخياً ليس نتيجة نقدٍ او تأمل ، بل نتيجة خيال يريد ان يملأ الفجوات في

اي المنهجين
افضل وايهما
هو العلمي ؟

انحياز
التاريخ الى
الجهة الفنية

٥١ - بحث الطابع المنطقي لهذه « المسائل الاسلوبية » في كتابي « في منطق تاريخ الحضارة » (جوتنبرج ١٩٤٢) ص : ٦٣ وما بعدها .

٥٢ - كانت : « المبادئ المتأليفية في العلم الطبيعي - المقدمة » - ضمن مؤلفاته الكاملة (نشرها كاسيرر) المجلد ٤ : ٣٧٠

٥٣ - يعقوب بركهارت : « الجبرية والحرية » ص : ١٦٧ (هذا هو عنوان الترجمة الانجليزية)

الملاحظات . ما يزال التاريخ في نظري شعراً الى حد بعيد ، فهو سلسلة من اجل المنظومات واروعها « (٥٤) . وكان مومسن يذهب الى هذا الرأي ايضاً ؛ ولم يكن مومسن عبقرية علمية فحسب بل كان في الوقت نفسه من اعظم منظمي العمل العلمي فهو الذي اوجد « مجموعة النقوش » Corpus Inscriptionum ونظم دراسة النميات ونشر « تاريخ العملة » .

مومسن العالم
يؤكد هذا
الميل

وليس هذا كله عمل فنان ، ومع ذلك فان مومسن حين نصب رئيساً لجامعة برلين والقي خطابه الافتتاحي عرف مثله الاعلى في المنهج التاريخي بقوله : ان المؤرخ ربما كان ينتمي الى صف الفنانين اكثر من انتمائه الى طبقة العلماء . ومع أنه كان من ابرز اساتذة التاريخ لم يتردد في ان يقرر ان التاريخ ليس شيئاً يمكن تحصيله بسرعة عن طريق التثقيف والتعليم : « ان الآلة التي تضبط الآف الخيوط فلا تتشابك ، والبصر الناقد

في فردية الناس والاقوام هبتان من هبات العبقرية لتحديدان كل تثقيف وتعليم ؛ واذا ظن استاذ التاريخ انه قادر على ان يعلم مؤرخين مثلاً 'يُعلم الرياضيون ودارسو اللغات القديمة - انه ان ظن ذلك كان تحت تأثير وهم خطر ضار . ان المؤرخ لا يُصنَّع ولا يُجعل ، ولكنه يولد كذلك . ولا يمكن صنعه بالتعليم وانما هو الذي يعلم نفسه » (٥٥) .

الفرق بين
التاريخ
والعمل الفني

ومع اننا لا نستطيع ان ننكر أن كل مؤلف تاريخي عظيم يحتوي ويشمل عنصراً فنياً ، فان ذلك العنصر لا يجعل منه عملاً قصصياً لأن المؤرخ في بحثه عن الصدق مرتبط بنفس القواعد الصارمة التي يرتبط بها العالم . عليه أن يفيد من كل مناهج

٥٤ - اقتبست من كارل بريل في كتابه « يعقوب بركهاردت فيلسوفاً في التاريخ » (بازل ١٩١٨) .

٥٥ - ث. مومسن : « خطاب افتتاحي » (١٨٧٤) في « مجلد يحوي خطباً ومقالات » (برلين ١٩١٢) .

المؤرخ يجمع
بين عمل
العالم وقوة
التخيل الفنية

البحث التجريبي ؛ عليه ان يجمع كل الشواهد المتيسرة ، وأن يقارن بين
مصادره جميعاً ويتقدها ، وليس له ان ينسى أو يهمل حقيقة هامة ؛ ومع
ذلك فان الخطوة الاخيرة الحاسمة تكون دائماً من عمل الخيال المنتج .
شكا جوته ذات يوم وهو يتحدث الى اكرمان من أن قلة من الناس هم
الذين لديهم « خيال > يتوجه < الى صدق الواقع » ، وقال : « أكثر الناس
يفضلون المواطن والحوادث الغريبة التي لا يعرفون عنها شيئاً وفيها يدربون
خيالهم ، يا للغرابة . وهناك آخرون يستمسكون بالواقع ، وبما انهم
يفتقرون تماماً الى الروح الشعرية فانهم يحجّرون واسماً لشدة تزمّتهم » (٥٦).
أما المؤرخون العظام فيتحاشون هذين الطرفين ، فهم تجريبيون ، يرقبون
ويبحثون بدقة عن الحقائق المعبنة ، وهم ايضاً لا يفتقرون الى « الروح
الشعرية » . ان التركيب التاريخي الصحيح او التركيز ليعتمد على
دعامتين : على حسن حاذق في الواقع التجريبي للاشياء وعلى هبة من
الخيال حرة طليقة .

ما النسبة بين
هذين
المنصرين لدى
المؤرخ

لا نستطيع ان نضع قاعدة أو معادلة نحدد بها مدى التوازن بين
هاتين القوتين المتعارضتين اذ يبدو أن النسبة بينهما تختلف بين عصر وعصر
وبين كاتب وكاتب . في التاريخ القديم كان تصوّر مهمة المؤرخ مختلفاً
عما هو في التاريخ الحديث . فمثلاً : الخطب التي ادرجها ثوقيديديس في مؤلفه
التاريخي ليس لها اساس تجريبي ، أعني انها لم تقل كما اوردها هذا المؤرخ ،
ولكنها ليست خيالاً خالصاً ولا زخرفاً بلاغياً وإنما هي تاريخ لا لأنها
تستعيد حوادث واقعية بل لأنها تؤدي في كتاب ثوقيديديس وظيفة تاريخية
هامة إذ تحتوي على تشخيص للناس والاحداث في شكل مركز مُشَبَّع .

٥٦ - رسالة من جوته الى اكرمان - ٢٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٢٥ في محادثات بين
جوته واكرمان وسورل ، ترجمة جون اوكسفورد (لندن ١٨٧٤) ص : ١٦٢ .

ولعل التأبين العظيم الذي القاه بركليس خير وصف مؤثر للحياة الأثينية والحضارة الاثينية في القرن الخامس . وعلى اسلوب هذا الخطب جميعاً طابع ثوقيديدس الذاتي الاصيل حتى قيل : « انها جميعاً ثوقيديدية الاسلوب - على نحو جلي - مثلاً ان جميع الشخصيات في رواية ليوريديس تستعمل اسلوباً ذا نسق واحد » (٥٧) . ومع ذلك فانها لا تنقل إلينا محض هوى شخصي وإنما تمثل العصر كله وبهذا المعنى تعتبر موضوعية لا ذاتية وفيها صدق مثالي ان لم يكن فيها صدق تجريبي . نعم اننا في العصور الحديثة قد أصبحنا أكثر اطمئناناً لمتطلبات الصدق التجريبي ولكننا ربما كنا في خطر من احتجاب الصدق المثالي عن انظارنا في الأشياء والشخصيات . ويعتمد التوازن الدقيق بين هاتين المحظتين على مرونة المؤرخ وهذا ما لا نستطيع ان نضع له قاعدة عامة . لقد تغيرت النسبة في الوعي التاريخي الحديث ولكن العناصر ظلت كما كانت من قبل ، أما فيما يتعلق بقوة هاتين القوتين وتوزيعهما فلكل مؤرخ معادلته الشخصية .

الفرق بين
مثالية
التاريخ
ومثالية الفن

وعلى ذلك كله فان مثالية التاريخ ليست صنواً لمثالية الفن . الفن يقدم لنا وصفاً مثالياً للحياة الانسانية بعملية كأنها احدى عمليات علم الصنعة ، اذ يحول حياتنا التجريبية الى دينامية الصور الخالصة (٥٨) . أما التاريخ فلا يأخذ في هذه الوجهة ، لا يتجاوز الواقع التجريبي للأشياء والاحداث ، وإنما يشكل هذا الواقع في شكل جديد حين يمنحه مثالية التذكر . وتبقى الحياة في ضوء التاريخ دراما واقعية عظيمة بكل ما فيها من ضروب التوتر والصراع والمجد والبؤس والآمال والاهوام ، ويعرضها للطاقات

٥٧ - انظر بيوري : « المؤرخون اليونان القدماء » محاضرات هارفارد (نيويورك مكجيلان ١٩٠٩) المحاضرة الرابعة .

٥٨ - انظر ما تقدم في هذا الكتاب حيث الكلام عن نظرية التطهير وما تلا ذلك .

والعواطف . وهذه الدراما لا "تحس" فحسب ولكنها تدرك بالحدس ، وإذا أبصرنا هذا المشهد في مرآة التاريخ ونحن ما نزال نعيش في عالمنا التجريبي ، عالم المشاعر والعواطف ، أصبحنا نعي معنى داخلها للوضوح والسكينة - أصبحنا نعي ألن التأمل الخالص وهدوءه . كتب يعقوب بركهارت في كتابه « افكار في تاريخ العالم » يقول « يجب على العقل ان يحاول ذكريات تنقله خلال عصور العالم الى شيء يملكه ، فما كان ذات يوم فرحاً وحزناً يجب أن يصبح اليوم معرفة ... إن دراستنا ليست فحسب حقاً وواجباً ، إنها حاجة قصوى ، إنها حريتنا بادراكنا العبودية العامة وتيار الضرورات» (٥٩) .

فاذا كتب التاريخ بطريقة صحيحة وقرئ كذلك رفعنا الى جو من الحرية وسط كل ضرورات حياتنا المادية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

لماذا اختار
المؤلف هذا
السياق في
هذا الفصل

لم يكن من خطتي في هذا الفصل ان أعالج مشكلات فلسفة التاريخ . ان فلسفة التاريخ بالمعنى التقليدي لهذا المصطلح نظرية تأملية بنائية للسياق التاريخي نفسه . وتحليل الحضارة الانسانية ليس بحاجة الى الدخول في هذه المسألة التأملية ، لأن ذلك التحليل يلتزم بمهمة أبسط وأشد تواضعاً ، فهو يحاول ان يعين مكان المعرفة التاريخية في جهاز المدنية الانسانية . ونحن لا نرتاب في انه لولا التاريخ لفقدنا حلقة هامة في تطور هذا الجهاز ، فالفن والتاريخ أقوى أداتين نعيان على البحث في الطبيعة الانسانية . ماذا كنا نعرف عن الانسان دون عون من هذين المصدرين للمعرفة ؟ اذن لكنا اعتمدنا على معلومات حياتنا الشخصية ، وهي لا تعطينا إلا نظرة ذاتية ، وهي في خير أحوالها قطع مبعثرة من مرآة الانسانية المحطمة . حقاً إننا ان شئنا ان نكمل الصورة التي توحى بها

٥٩ - بركهارت : المصدر نفسه : ٨ والتي يندها ، والترجمة الانجليزية ص : ٨٦ والتي تليها .

هذه المعلومات الاستبطانية فزعنا الى أساليب أشد موضوعية ، كأن نقوم باختبارات سيكولوجية او نجمع حقائق إحصائية ، ولكن على هذا كله تظل صورة الانسان جامدة لا لون لها . واذن لم نجد أمامنا إلا الانسان « الوسط » ابن حياتنا اليومية وصلاتنا الاجتماعية . اما في المؤلفات الفنية والتاريخية العظيمة فاننا نأخذ نرى - وراء قناع هذا الانسان التقليدي - نرى ملامح الانسان الفرد الواقعي . ولكي نجد هذا الانسان لا بد من ان نذهب الى المؤرخين الكبار والشعراء العظام ، الى الكتاب التراجيدين أمثال يوربيدس وشيكسبير والكوميديين أمثال ثرفانتس وموليير ولورنس ستيرن او الى القصاصين المحدثين أمثال ديكنز وثركري وبلزاك وفلوبير وجوجول ودستوفسكي . ليس الشعر محض محاكاة للطبيعة ولا التاريخ سرداً لأعمال وأحداث ميتة . الشعر والتاريخ كلاهما قانون معرفتنا الذاتية وأداة لا غنى عنها لبناء عالمنا الانساني .

العلم^(١)

المسلم ذروة
الفعاليات
الانسانية

العلم آخر خطوة في التطور العقلي لدى الانسان ، وقد يعد أعلى وأهم ما حصله الانسان في الحضارة الانسانية . فهو نتاج متأخر دقيق لا يمكن ان يتطور الا في ظروف خاصة . حتى ان فكرة العلم ، بمعناها المحدد ، لم تكن موجودة قبل عصر المفكرين اليونان - اي قبل الفيثاغوريين والديريتين وأفلاطون وأرسطوطاليس . ثم ان هذه الفكرة الاولى نسيت واحتجبت في تضاعيف القرون التالية ، على ما يبدو . وكان لا بد من كشفها ثانية وإعادة انشائها في عصر النهضة . وبعد هذا الكشف الثاني أصبح انتصار العلم - فيما يبدو - كاملاً ليس له منازع . وليست في عالمنا الحديث قوة أخرى يمكن ان تقارن بالفكر العلمي ، فهو يعتبر ذروة

١ - لست أزمع أني في هذا الفصل أقدم عرضاً موجزاً لفلسفة العلم أو لمل ظواهر المعرفة . أما المسألة الثانية فقد تحدثت عنها في الجزء الثالث من كتابي « فلسفة الاشكال الرمزية » (١٩٢٩) . وأما الاولى فقد بحثتها في « الجوهر والوظيفة » وفي « نظرية النسبية لآينشتين » (١٩١٠) ، والترجمة الانجليزية بقلم سواني ، تشيكاجو ولندن (١٩٢٣) ، وفي « الحتمية واللاحتمية في الطبيعيات الحديثة » (1 : 1936 Göteborgs Högskolas Arsskrift) . أما في هذا المقام فقد حاولت ان أبين - بإيجاز - الوظيفة العامة للعلم ، وأن أحدد مكانه في نظام الاشكال الرمزية .

الفعاليات الانسانية وحدها كلها جميعاً ، وهو آخر فصل في تاريخ
الانسانية وأهم موضوع في فلسفة الانسان .

لا تنازع في
وظيفة العلم

وقد ننازع في نتائج العلم أو في مبادئه الأولى ، أما وظيفته العامة
فانها يقينية فيما يبدو . العلم هو الذي يؤكد لنا عالماً ثابتاً ، وقد تنطبق
عليه قوله أرخيدس : « اعطني مكاناً أقف عليه وانا قين بتحريك العالم » .
فالفكر العلمي في العالم المتغير يعين نقطة الثبات او الاقطاب التي لا تتغير .
بل إن كلمة episteme < معرفة > في اللغة الاغريقية مشتقة من اصل
يعني الثبات والصمود . فالعملية العلمية تؤدي الى اتران ثابت ، الى تمكين
عالم المدركات الحسية والأفكار وتركيزه .

العلم لا يستقل
في تحقيق
التثبيت
والتركيز

غير ان العلم لا يؤدي هذه المهمة وحده . وكثيراً ما نلقى في علم
المعرفة الحديث ، وفي كلا المذهبين التجريبي والعقلاني ، فكرة نقول :
إن المعلومات المستمدة من التجربة الانسانية في حالة فوضوية تماماً . حتى
كانت يبدأ بهذا المفترض - فيما يبدو - في الفصول الاولى من كتابه
« بحث تحليلي في العقل الخالص » ، فيقول : « التجربة ، دون ريب ، أول
نتاج لفهمنا الا انها ليست حقيقة بسيطة وانما هي مركبة من عاملين
متضادين ، من المادة والصورة . اما العامل المادي فتقدمه لنا ادراكاتنا
الحسية ، واما العامل الصوري فتتمثله افكارنا العلمية ، وهذه الافكار
- وهي افكار فهم خالص - هي التي تمنح الظواهر الطبيعية وحدتها
التركيبية ، وان ما نسميه وحدة الشيء لا يكون الا وحدة صورية لوعينا
في تركيب الجوانب المتعددة من تصوراتنا Representations . عندئذ ، لا
غير ، نقول اننا نعرف الشيء اذا صنعنا وحدة تركيبية في الحلدس المتعدد
الجوانب » (٢) . اذن فان كانت يرى ان مسألة موضوعية المعرفة الانسانية

٢ - كانت : « بحث تحليلي في العقل الخالص » : ١٠٥ (الطبعة الالمانية الاولى)

مرتبطة ارتباطاً لا انفصام له بحقيقة العلم . ويتعلق علم الجمال الاستدلالي Transcendental لديه بمشكلة الرياضيات النظرية ، كما ان الفكر التحليلي الاستدلالي لديه يحاول ان يفسر حقيقة علم الطبيعة الرياضي .

حاجة الحضارة الى العلم وغيره

الا ان فلسفة الحضارة الانسانية يجب ان تتعمق المشكلة الى مصدرها البعيد ، فقد عاش الانسان في عالم مواد < موضوعات > فترة طويلة قبل ان يعيش في عالم علمي . ومن قبل ان يجد سبيله الى العلم لم تكن تجربته كتلة لا شكل لها من التعبيرات الحسية ، بل كانت تجربته منظمة بحسن الافصاح عنها ، وكان لها كيان محدد ، الا ان الافكار التي كانت تمنح هذا العالم وحدته التركيبية ليست من نوع الافكار العلمية ولا تقف معها على مستوى واحد ، وانما هي افكار اسطورية او لغوية ، واذا حللناها وجدنا انها ليست بسيطة او « بدائية » - باي حال - . ذلك لان التصنيفات الاولى للظواهر الطبيعية ، تلك التصنيفات التي نجدها في اللغة والاسطورة ، أعقد واكثر رقياً - في بعض الوجوه - من تصنيفاتنا العلمية ، لان العلم يبدأ بالبحث عن البساطة ، ومن حكمة الاساسية : « البساطة خاتمة الحقيقة » Simplex Sigillum Veri وهذه البساطة المنطقية نهاية terminus ad quem لا بداية terminus a quo . اذ الحضارة الانسانية تبدأ بحالة معقدة متشابكة من حالات العقل الانساني ، وتمر كل علومنا الطبيعية - على وجه التقريب - خلال مرحلة اسطورية . فعلم الصنعة في تاريخ الفكر العلمي يسبق الكيمياء ، والتنجم سابق للفلك . ويتقدم العلم وراء هذه الخطوات الاولى اذا هو استحدث مقياساً جديداً ، اي معياراً منطقياً للحقيقة مختلفاً . ولا يبلغ الانسان الحقيقة ما دام يحصر نفسه في دائرة ضيقة من تجربته القريبة المباشرة ، أي ما دام يعتمد على شئون المشاهدة . العلم يحاول ان يقدم لنا نظرة شاملة بدلاً من ان يصف

العلم تبسّطي والحضارة معقدة

المرحلة الاسطورية في العلم

حقائق متفرقة منعزلة ، ولكنه لا يبلغ هذه النظرة بمحض امتداد او اتساع
او اثر في تجربتنا العادية ، وانما يتطلب مبدءاً جديداً من نظام ، أي صورة
جديدة من تفسير فكري . واللغة اول محاولة قام بها الانسان ليفصح عن
عالم مدركاته الحسية ، فهذا الميل من أبرز ملامح الكلام الانساني . حتى لقد
ظن بعض علماء اللغسة انه من الضروري ان نفترض في الانسان غريزة
تصنيف خاصة لكي نعلل بها حقيقة الكلام الانساني ومبناه . يقول اوتو
يسبرسن :

« الانسان حيوان مصنف . فمن بعض الوجوه يمكن ان
يقال ان عملية الكلام كلها ليست الا توزيعاً للظواهر - وهي
مختلفة أشد اختلاف حتى لا يتأثر منها اثنتان - في فئات مختلفة
حسب صور التشابه والتناظر الملحوظة فيها . واما في عملية التسمية
فانا نشهد ميلاً مقيداً لا يمكن استنصاه ، لرؤية ضروب التشابه
وللتعبير عن التشابه في الظواهر بواسطة التشابه في الاسم » (٣) .

لكن الذي يبحث عنه العلم في الظواهر شيء أبعد من التشابه ، انه
النظام ، فاما التصنيفات الاولى التي نجدها في الكلام الانساني فليست لها
غاية نظرية . وتؤدي اسماء الاشياء مهمتها اذا هي مكنتنا من ان نوصل
أفكارنا ونربط بين فعالياتنا العملية ، فلها وظيفة غائية تتطور في بطن
الى وظيفة موضوعية او « تمثيلية » (٤) . كل تشابه ظاهري بين ظواهر
مختلفة حقيقة تكفي لاطلاق اسم مشترك عليها . ففي بعض اللغات تسمى
الفراشة طائراً ويوصف الحوت بأنه سمكة . ولما بدأ العلم تصنيفاته الاولى
كان عليه ان يصحح هذه المشابهات السطحية وان يتغلب عليها .

٣ - يسبرسن : « اللغة » : ٣٨٨ والتي تليها .

٤ - انظر في هذه المسألة كتابي « فلسفة الاشكال الرمزية » ١ : ٢٥٥ وما بعدها .

التصنيف
العلمي مقدر
غائي عامد
مصطنع

فالمصطلحات العلمية لا تصاغ عرضاً واتفاقاً وإنما تتبع مبدأ محدداً من التصنيف ، وخلق مصطلح منظم ملائم ليس مظهراً من التزين في العلم وإنما هو من العناصر الملازمة الضرورية . ولما أوجد لينايوس « الفلسفة النباتية » واجه اعتراض المعارضين بأن ما قدمه ثمة كان نظاماً مصطنعاً لا طبيعياً . إلا ان كل نظم التصنيف مصطنعة ، لأن الطبيعة – على حالها – لا تحوي إلا ظواهر مفردة متنوعة . فاذا جمعنا هذه الظواهر تحت أصناف وفئات وقوانين عامة ، فإننا حينئذ لا نصف حقيقة ما في الطبيعة . كل نظام عمل فني ، أعني انه نتيجة فعالية خلاقة واعية . حتى التصنيفات البيولوجية المتأخرة التي سميت « طبيعية » وأريد بها الرد على تصنيفات لينايوس ، استعملت عناصر فكرية جديدة ، فأسست على نظرية التطور العامة ؛ لكن التطور نفسه ليس حقيقة من حقائق التاريخ الطبيعي وإنما هو فرض علمي ، أي قاعدة منظمة نستغلها لتنظيم ملاحظتنا وتصنيف الظواهر الطبيعية . لقد فتحت نظرية داروين افقا جديداً واسعاً وقدمت استعراضاً لظواهر الحياة العضوية أكمل واكثر ملاءمة من ذي قبل ، ولكن هذا العمل لم يكن نقضاً لنظام لينايوس الذي كان منشئه يعترف دائماً بأنه خطوة اولى ، وكان على وعي تام بأنه خلق مصطلحات نباتية جديدة ، إلا انه كان مقتنعاً بأن لهذا المصطلح قيمتين : لفظية وواقعية . فهو يقول : « ان من لا يعرف الاسماء فان معرفته بالاشياء أيضاً تحطم » :
Nomina si nescis perit et cognitio rerum .

بهذا الاعتبار يبدو انه لا انقطاع في الاستمرار بين اللغة والعلم . فقد نعتبر الاسماء اللغوية والعلمية الاولى نتيجة ووليداً لغريزة تصنيفية واحدة ، لكن الذي يتم في اللغة لا شعوريا يجري في العملية العلمية عمداً وعلى منهج مرسوم . وكان على العلم في مراحلها الاولى ان يتقبل اسماء الاشياء بالمعنى

الذي استعملت فيه في الكلام العادي^٥ ، وكان يستطيع أن يستعملها في وصف العناصر الاصلية أو خصائص الاشياء ؛ ونجد ان هذه الاسماء العامة في النظم الاغريقية الاولى للفلسفة الطبيعية ، اي لدى ارسطوطاليس ، ذات اثر عظيم في الفكر العلمي^٥ . الا ان هذه القوة ليست هي الوحيدة وليست هي الغالبة في الفكر الاغريقي . وفي ايام فيثاغورس والفيثاغوريين الاول، استكشفت الفلسفة اليونانية لغة جديدة ، هي لغة الاعداد، وكان هذا الكشف ابداً بساعة ميلاد فكرتنا العلمية الحديثة .

ومن أول التجارب العظيمة لدى بني الانسان رؤيتهم في الأحداث الطبيعية انتظاماً ووحدة ما ، رؤيتهم ذلك في حركات الكواكب وطلوع الشمس والقمر وتحول الفصول ، وقد وجدت هذه التجربة اعترافاً كاملاً بها وتعبيراً فلذا عنها في الفكر الأسطوري نفسه ، ففي ذلك الفكر نلتقي أول معالم فكرة عن نظام عام للطبيعة^٦ . وقبل عهد فيثاغورس بزمان كان هذا النظام قد وصف لا بالمصطلح الأسطوري فحسب بل بالرموز الرياضية ايضاً ، فاللغة الاسطورية واللغة الرياضية تتداخلان - على نحو غريب - في النظم الأولى من التنجيم البابلي الذي قد تعود نشأته الى حوالي ٣٨٠٠ ق . م . وقد قام الفلكيون البابليون بالتمييز بين مجموعات النجوم وتقسيم البروج الى اثني عشر قسماً ، ولم يكن من الممكن بلوغ هذه النتائج دون اساس علمي جديد . ولكن "خلق" اول فلسفة للعدد كان في حاجة ماسة الى تعميم موشع بالجسارة والاقدام . فكان المفكرون

٥ - انظر كاسيرر : « تأثير اللغة في تطور الفكر العلمي » في مجلة الفلسفة ٣٩ / ١٢ : ٣٠٩ - ٣٢٧ (حزيران - يوفيه ، ١٩٤٢)

٦ - انظر « فلسفة الأشكال الرمزية » ٢ : ١٤١ وما بعدها [والترجمة الانجليزية ٢ : ١١٣ وما بعدها] .

الفيثاغوريون اول من رأى في العدد عنصراً شاملاً عاماً كلياً . ولم يعد استعماله مقصوراً على حدود ميدان خاص من البحث بل امتدّ وانبسط على كل منطقة الأيس < الوجود > ؛ ولما اهتدى فيثاغورس الى كشفه الأول العظيم ، عندما وجد ان درجة الصوت تعتمد على طول الأوتار المتذبذبة ، لم تكن هذه الحقيقة هي الحاسمة في توجيه مستقبل الفكر الفلسفي والرياضي وإنما تفسيرها هو الذي كان كذلك .

ولم يكن فيثاغورس ليعتقد أن هذا الكشف ظاهرة منعزلة بنفسها وإنما يبدو أن سرّاً عميقاً جداً هو سرّ الجلال قد انكشف ثمة . وكان للجلال لدى الفكر الاغريقي معنى موضوعي دائماً — الجلال هو الحقيقة ، هو الطابع الأساسي للواقع ؛ فاذا أمكن ردّ الجلال الذي نحسه في انسجام الاصوات الى نسبة عددية بسيطة ، اذن فالعدد هو الذي يكشف لنا المبنى الأساسي للنظام الكوني . وقد جاء في أحد النصوص الفيثاغورية : « العدد دليل الفكر الانساني وسيده . ولولا قوته لبقى كل شيء غامضاً مضطرباً » (٧) . لولاه لعشنا في عالم من الخداع والوهم لا في عالم من الحقيقة والصدق . وفي العدد — وحده دون غيره — نجد عالمًا قابلاً للفهم والادراك .

أما أن هذا العالم عالم جديد من الأفكار ، أما أن عالم العدد عالم رمزي فتلك فكرة كانت بنى تام عن عقول المفكرين الفيثاغوريين ؛ فيها هنا وفي كل الأحوال الأخرى لم يكن لديهم تمييز واضح بين الرمز والمرموز اليه . الرمز لا يفسر المرموز اليه فحسب وإنما يحل محله . ليست الأشياء متصلة بالعدد أو معبراً عنها به . الأشياء أعداد . لكننا

٧ — انظر فيلولاوس ، القطعة : ١١/٤ وفي ديلس : « قطع للفلاسفة الذين عاشوا قبل سقراط »

لم نعد نؤيد هذه الفكرة الفيثاغورية عن حقيقة العدد الجوهرية ، لم نعد نعتبر العدد لبّ الحقيقة الواقعة . بل نعرف بأن العدد وظيفة أساسية من وظائف المعرفة الانسانية ، خطوة ضرورية في سياق اخراج الامور الى حيز الموضوعية ؛ وهذا السياق يبدأ باللغة ثم ينتحل في العلم شكلاً جديداً كلّ الجدة . في اللغة نجد الجهود الأولى في التصنيف والتقسيم ولكنها جهود غير مترابطة ، ولا تستطيع أن تؤدي الى وضع تنظيمي فريقي تقسيمي صحيح ، لأن رموز اللغة ليس لها نظام تصنيفي محدد ، ولكل مصطلح لغوي بمفرده « منطقة معنى » خاصة . وهو كما يقول جاردنر : « خيط من شعاع بضئ أولاً هذا الجزء ثم ذاك الجزء من الميدان الذي يقع فيه الشيء أو تقع فيه عدة أشياء متسلسلة تسلسلاً معقداً في الجلة » (٨) . ولكن هذه الخيوط المختلفة من النور ليست ذات بؤرة واحدة ، وانما هي مبددة متباعدة . وتصنع كل كلمة جديدة بداية جديدة في « تركيب المتعدد » .

قيمة العدد

وتتغير هذه الحال تغيراً تاماً حالما تدخل منطقة العدد ؛ ثم لا نستطيع ان نتحدث عن أعداد مفردة او قائمة بمعزل عن سواها ، فإن جوهر العدد دائماً نسبي لا مطلق . فالعدد المفرد ليس إلا مكان مفرد في نظام تقسيمي عام وليس له كيان في ذاته ولا حقيقة قائمة بنفسها . وموقعه الذي يشغله في الجهاز العددي كانه هو الذي يحدد معناه . أما تسلسل الأعداد الطبيعية فانه تسلسل لانهائي ، إلا ان تلك اللانهاية لا تحدّد معرفتنا النظرية بحدود ؛ وهي لا تعني : « لا تعيينية » أو Apeiron — حسب تعبير افلاطون — وإنما تدل على عكس ذلك تماماً . وفي سياق

الاعداد لا نجد حداً خارجياً او « كلمة أخيرة » وانما الذي نجده تحديدٌ يتحقق بسبب مبدأ منطقي ذاتي داخلي . فكل المصطلحات مرتبطة معاً برابطة مشتركة ، وهي تستمد أصولها من علاقة مولدة هي العلاقة التي تصل بين العدد « ن » وما يتلوه مباشرة : (ن + ١) ومن هذه العلاقة البسيطة نستطيع ان نستمد كل خصائص الاعداد الصحيحة . وهذه العلامة المميزة لهذا النظام ، بل اعظم ميزة منطقية فيه ، هي وضوحه الناصع الكامل . وفي نظرياتنا الحديثة ، نظريات فريجه ورسل وبينو ودكند ، فقد العدد كل أسرار الخصائص المتصلة بكيونته . واصبحنا نرى فيه رمزية جديدة قوية تفوق رمزية الكلام تفوقاً لا يحد ، من أجل ما تحققه من أغراض علمية ، لأن الذي نجده في هذه الرمزية ليس كلمات بل مصطلحات تجري على خطة واحدة أساسية ، ومن ثم تدلنا على قانون بنائي واضح محدد . ومع ذلك فان الكشف الفيثاغوري كان يعني خطوة اولى في تطور العلم الطبيعي . لأن حقيقة جديدة وضعت فجأة كل النظرية الفيثاغورية عن العدد امام علامة استفهام ، ذلك ان الفيثاغوريين وجدوا ان الخط المقابل للزاوية القائمة في مثل قائم الزاوية ليس له مقياس مشترك مع الضلعين الآخرين ، عندئذ كان عليهم ان يواجهوا مشكلة جديدة كل الجدة . ولما لنجد هذه الورطة المنطقية تتردد تردداً عميقاً في تاريخ الفكر اليوناني كله وبخاصة في محاورات أفلاطون ، وهي تمثل ازمة اصيلة في الرياضيات اليونانية . ولم يستطع اي مفكر قديم ان يحل هذه المشكلة بطريقتنا الحديثة أي بايجاد ما سمي « الاعداد الصماء » > اللاعقلية < لان المنطق الاغريقي والرياضيات

ورقة حائرة
ازاء العدد
في الفكر
القديم

• [عندما نفرض ان احد الضلعين : ٣ والثاني : ٤ والوتر : ٥ تكون هذه العلاقة واضحة لان مجموع مربعي الضلعين ٣٥ وهو مساو لمربع الوتر ، فاذا غيرت هذه النسبة لم تكن الاعداد الصحيحة صالحة للتعبير عن هذه النسبة ، وهذه هي المشكلة التي حيرت الفيثاغوريين ولا تحلها إلا الاعداد الصماء] . (المترجم)

الاغريقية كانا يريان في مثل هذا المصطلح تناقضاً ، فمثل هذه الاعداد شيء لا يُفَكَّرُ فيه ولا يتحدث عنه ،^(٩) arrhéton . وما دام العدد قد عرف بأنه صحيح او تناسب بين صحيحين فكل طول غير منتسب هو طول لا يقبل اي تعبير عددي ، اي يتحدث القوى المنطقية في العدد ويلغيها . اما ما بحث عنه الفيثاغوريون في العدد وما وجدوه فيه فهو الانسجام التام بين كل صنوف الموجودات وكل صور المعرفة من ادراك حسي وحس وتفكير ، ومن عهدئذ اصبحت الحساب والهندسة والفيزيا والموسيقى والفلك كلا متلائماً متفرداً . واصبحت كل الأشياء في السماء والارض : « انسجاماً وعدداً »^(١٠) . فلما اكتشفت الاطوال غير المنتسبة كان اكتشافها محطاً لتلك الفكرة ، فلم يعد بين الحساب والهندسة انسجام واقعي ، أي لم يعد ثمة انسجام بين منطقة الاعداد القائمة بنفسها ومنطقة المقادير المستمرة . واحتاجت اعادة الانسجام الى جهود بذلت طوال عدة قرون من التفكير الحسابي والفلسفي . ومن آخر ما حققه الفكر الرياضي نظرية منطقية للاستمرار الرياضي^(١١) ، Mathematical continuum . وبدون هذه النظرية كان كل^١ خلق الأعداد الجديدة — الكسور والأعداد الصماء وما أشبه — يبدو دائماً امرأ مخفوقاً بالخطر مستدعياً للتشكك . لو ان العقل الانساني خلق بقوته — متحكماً — مجالاً من الأشياء جديداً لكان علينا ان نغير كل افكارنا عن الحقيقة الموضوعية ، ولكن الورطة المنطقية تفقد قوتها هنا إذا اعتبرنا الطابع الرمزي للعدد ؛ إذ يتضح في هذه الحال أننا

نظرية
الاستمرار
الرياضي

٩ — انظر هينريش شولتز و هـ . هاس « الأزمة في مبادئ اسس الرياضيات اليونانية » (شارلوتبرج ١٩٢٨) .

١٠ — انظر ارسطوطاليس : « ما وراء الطبيعة » ١/٥ : ٩٨٥ ب

١١ — انظر هرمان فيل : « الاستمرار » ، ملاحظات نقدية في أسس التحليل « (ليجز ١٩١٨) .

بإيجاد فئات جديدة من الأعداد لا نخلق موضوعات < مواد > جديدة وإنما نخلق رموزاً جديدة ، فالأعداد الطبيعية بهذا الاعتبار على مستوى واحد هي والاعداد الصماء او الكسرية ، فهي أيضا ليست أوصافا او صوراً لأشياء محسوسة ، أي لمواد مادية ، وإنما تعبر عن علاقات بسيطة جداً ، فاذا توسعت المنطقة الطبيعية للأعداد فان انبساطها على ميدان واسع يعني فحسب الاتيان برموز جديدة تستطيع ان تصف علاقات نظام أعلى ، وتكون الأعداد الجديدة حينئذ رموزاً لا لعلاقات بسيطة ولكن « لعلاقات العلاقات » و « لعلاقات علاقات العلاقات » وهكذا . ولا يتعارض هذا كله مع طبيعة الاعداد الصحيحة وإنما يوضح طبيعتها ويؤكد لها . وقد كان على الفكر الرياضي من أجل ان يَمْلَأَ الفجوة بين الأعداد الصحيحة — وهي كميات قائمة بذاتها — وبين عالم الأحداث المادية المشمول في استمرار المسافة والزمن — كان على الفكر الرياضي أن يجد أداة جديدة . ولو كان العدد « شيئا » أي : « مادة في ذاتها ولا تدرك إلا من خلال ذاتها » Substantia quae in se est et per se concipitur لكانت المشكلة غير قابلة للحل ، ولكن بما انه لغة رمزية كان الشيء الضروري الوحيد هو تطوير الكلمات ، او المورفولوجيا أو تركيب هذه اللغة الرمزية على نحو مناسب . ولم يكن المطلوب هاهنا تغييراً في طبيعة العدد وجوهره وإنما تغيير في معناه . وكان على الفلسفة الرياضية ان تثبت أن مثل هذا التغيير لا يؤدي الى غموض او تناقض — أي ان المقادير التي لا يمكن التعبير عنها بالاعداد الصحيحة أو بالنسب بين الأعداد الصحيحة قد أصبح فهمها والتعبير عنها ممكنين بإيجاد تلك الرموز الجديدة .

ظهور هندسة
ديكارت
التحليلية

وكان من المكتشفات الأولى العظيمة التي حققتها الفلسفة الحديثة أن كل المسائل الهندسية تقبل مثل هذا التحول . وقد قدمت هندسة ديكارت

التحليلية أول برهان مقنع عن هذه العلاقة بين العدد وقدرته على الانبساط الى مبادي واسعة . ومن عهدئذ بطلت أن تكون لغة الفلسفة مصطلحاً خاصاً بل أصبحت جزءاً من لغة أكثر شمولاً أي لغة «رياضيات كلية» . غير أن ديكارت لم يكن يستطيع ، بعد ، أن يسيطر على العالم المادي ، عالم المادة والحركة ، بنفس الطريقة التي أحكم فيها السيطرة على العالم الرياضي . فاختفى في محاولته لايجاد طبيعيات رياضية . ان مادة عالمنا المادي مؤلفة من معلومات حسية وقد كانت الحقائق العنيدة الجامحة التي تمثلها معلومات الحس تتأبى على ما يحاوله فكر ديكارت المنطقي العقلاني ، فبقيت الطبيعيات التي أوجدها شبكة من القروض التعسفية . ولكن ان كان ديكارت في ميدان الفيزيا قد أخطأ في الوسائل فانه لم يخطئ في الهدف الفلسفي الأساسي . ومن يومئذ فهم ذلك الهدف بوضوح ورسخت أصوله ، فلقد زعت الطبيعيات في كل فروعها الفردية الى نقطة واحدة لا تتعدها ، اذ حاولت أن تضع كل عالم الظواهر الطبيعية تحت سيطرة الرياضيات .

اختفاق
ديكارت في
خلق
طبيعيات
رياضية

لا نجد في هذا المثل الأعلى العام المنهجي عداء بين الطبيعيات القديمة والحديثة ، فان ميكانيكا الكم هي في بعض معانيها بعث صحيح ، أي تجديد وتأكيد ، للمثل الأعلى الفيثاغوري ، الا أن الضرورة في هذه الحال كانت تستدعي ايجاد لغة رمزية أشد تجريداً . ولما وصف ذيموقريطس تركيب الذرات استعان بمقاييس مستمدة من عالم مجربتنا الحسية ، فقدم صورة للذرة تشبه المواد العامة في كوننا المنظور ، وقال ان الذرات تمايز فيما بينها بالشكل والحجم وترتيب اجزائها ، وفسر ترابطها بصلات مبادية ، فكل ذرة مزودة بـ «كُنبشات» وكرات وتجاويف تمكن الذرات من ان يعلق بعضها ببعض . غير ان هذا الخيال ، هذا التصوير

لغة العلم في
القديم مجازية

المجازي ، قد اختفى من نظرياتنا الحديثة عن الذرة ، وفي النموذج الذي تمثله بور للذرة لا نجد مثل هذه اللغة الخلابة . . لم يعد العلم يتحدث بلغة التجربة الحسية العامة - أصبح يتكلم بلغة الفيزيائيين . لقد جاءت رمزية العدد الخالصة وخلفت رمزية الكلام العادي وطستها فاصبح من الممكن ان يوصف الكون الاصغر - عالم الظواهر الذرية المتداخلة - لاعالمنا المنظور فحسب - بهذه اللغة الرمزية ، وقد اثبت هذا انه فائحة تفسير تنظيمي تقسيمي جديد كل الجدة . كتب آرنولد سومرفيلد في مقدمة كتابه «المبنى الذري» وخيوط الطيف الشمسي » يقول :

رمزية العدد
لغة مجردة

التحليل
الطيفي لا بد
ان يؤدي الى
حل مشكلة
الذرة

« بعد اكتشاف التحليل الطيفي لم يعد أحد 'مدرّب' في الفيزياء يشك في أن مشكلة الذرة ستحل عندما نعلم الفيزيائيون لغة الطيف الشمسي . وفي خلال ستين عاماً من البحث المطيافي جمعت كمية كبيرة من المادة كانت متعددة الجوانب حتى خيل للباحثين أنها تعيا على الحل " ... أما اليوم فان ما نسمعه من لغة الطيف هو « موسيقى الافلاك » الحقّة داخل الذرة ، نسمع اوتاراً من العلاقات الصحيحة ، نظاماً وانسجماً يصيحان أشد كمالاً على الرغم من التنوع ذي الجوانب المتعددة ... كل القوانين الصحيحة لخطوط الطيف وللنظرية الذرية تنبع أصلاً من نظرية الكم - Quantum theory - فهي « القانون » العجيب الذي

• [كان النموذج الذي تمثله بور للذرة حتى سنة ١٩٢٤ هو ان تركيبها يشبه النظام الشمسي اي ان لها نواة تدور حولها الالكترونات . وقد صحت هذه الفكرة في حال الايدروجين ولم تصح في المواد الاخرى . وفي سنة ١٩٢٥ كتب بور مقالا بعنوان « النظرية الذرية والميكانيكا » قال فيه انه من الخطأ تمثيل النظرية الذرية بقياسها على النظريات الميكانيكية والديناميكية الكهربائية واصناف انه لا بد من ان نرفض فكرة الزمن والفراغ المسائي التي حاول العلماء ان يفهموا بها الظواهر الطبيعية] . (المترجم)

تعزف عليه الطبيعة موسيقى الطيف ، وحسب إيقاعه تنظم مبنى
الذرة والنويات ، (١٢) .

الكيمياء مثل
على التطور
في اللغة العلمية

وتاريخ الكيمياء من خير الامثلة وأبرزها على هذا التحول البطيء في
اللغة العلمية ، فقد تأخرت الكيمياء كثيراً عن الطبيعة في سيرها وعلى طريق
العلم اللاحب . ولم يكن الذي عوّق تقدم الفكر الكيميائي وخلق
الكيمياء في نطاق الافكار السابقة لنهضة العلم هو الافتقار الى شواهد
تجريبية جديدة . ولو درسنا تاريخ علم الصنعة لوجدنا لدى علماء الصنعة
موهبة فذة في الملاحظة ، فقد جمعوا كمية كبيرة من الحقائق القيمة ، مادة
خامة لم تكن الكيمياء دونها لتتقدم وتتطور (١٣) . غير أن الصورة التي
قدّمت فيها تلك المادة لم تكن ملائمة ، وعندما بدأ عالم الصنعة يصف
ملاحظاته لم يكن لديه من أداة يستغلها إلا لغة نصف أسطورية مليئة
بالاصطلاحات الغامضة السيئة التحديد . فكان يتكلم بالهجازات والتشبيهات
التمثيلية لا بالافكار العلمية ، وتركت تلك اللغة الغامضة طابعها على كل
فكرته عن الطبيعة ، فأصبحت الطبيعة لديه منطقة خصائص غامضة لا
يفهمها إلا الراسخون ، الا الافذاذ اللوذعيون .

وبدأ اتجاه جديد من الفكر الكيميائي في فترة عصر النهضة ومار
الفكر البيولوجي والطبي في مذاهب « الكيمياء الطبية » ، ولكن التمرس
العلمي الصحيح بمشكلات الكيمياء لم يتم حتى حلّ القرن السابع عشر .
وكان كتاب « الكيميائي المتشكك » Chymista Scepticus (١٦٧٧)

١٢ - (الطبعة الالمانية ١٩١٩) والترجمة الانجليزية بقلم هنري ل . بروز (نيويورك ،
دوتون ١٩٢٣)

١٣ - انظر في تاريخ علم الصنعة . ل . أ . فون لپان : « أصل علم الصنعة وانتشاره » (برلين
شبرنجر ، ١٩١٩) ولين ثورندايك : « تاريخ السحر والعلوم التجريبية » ، (نيويورك ١٩٢٣ -
١٩٤١) ست مجلدات .

لروبرت بويل أول مثل عظيم للمثل الأعلى الحديث في الكيمياء ، مؤسس على فكرة جديدة عامة في الطبيعة والقوانين الطبيعية . ولكن حتى في هذا الوطن وفي التطور التالي لنظرية الفلوجستون phlogiston • لا نجد إلا وصفاً نوعياً للعمليات الكيماوية ؛ ولم تتعلم الكيمياء ان تتحدث بلغة الكم قبل نهاية القرن الثامن عشر ، أي عصر لافوازييه . ومن ثم أخذ التقدم يتم بسرعة . ولما اكتشف دالتون قانون النسب المتكافئة والنسب المتضاعفة انفتح أمام الكيمياء طريق جديدة . فقد تأثلت قوة الرياضيات ورسخت ، ومع ذلك بقيت ميادين واسعة من التجربة الكيمائية لا تخضع لقواعد الرياضيات ، وكانت قائمة العناصر الكيمائية قائمة تجريبية فحسب ، ولم تكن تعتمد على مبدأ ثابت او تدل على نظام تقسيمي محدد . ولكن هذه العقبة الأخيرة نفسها أزيلت باستكشاف نظام دوري للعناصر . فوجد كل عنصر مكانه في نظام مناسب ، ويميز هذا المكان بعدده الذري . والعدد الذري الصحيح ليس إلا العدد الذي يعطي مكان العنصر في النظام الطبيعي حين تعتبر العلاقات الكيمائية في الحكم على ترتيب كل عنصر ، وبالأعتماد على أساس من النظام الدوري أمكن للباحثين ان يتكهنوا بعناصر مجهولة وان يستكشفوها من بعد . وهكذا حصلت الكيمياء على مبنى رياضي واستنتاجي جديد (١٤) .

ونستطيع ان نتتبع هذا الاتجاه العام نفسه من الفكر في تاريخ البيولوجيا : بدأت البيولوجيا كفرها من العلوم الطبيعية الأخرى بتصنيف

لسياق نفسه
البيولوجيا

• [هي نظرية العالمين الالمانيين بيخر وشتال في الاحتراق ، ومجملها ان كل المواد القابلة للاحتراق تحتوي مادة نارية تسمى فلوجستون وتقلدها حين تحترق . فالمعادن القابلة للاحتراق مثلاً مركبة من شئين : الفلوجستون والأكسيد ، فاذا احترقت ذهب الفلوجستون وبقي الأكسيد ، وقد تلاشت هذه النظرية عند اكتشاف الاوكسجين] . (المترجم)

١٤ - من شاء تفصيلاً فليراجع مثلاً كتاب سومرفيلد الذي تقدم ذكره ، الفصل الثاني .

الحقائق ، تهديها في ذلك دلالات الفئات والأصناف الموجودة في لغتنا العادية ، وأعطت البيولوجيا العلمية لتلك الدلالات معنى أكثر تحديداً . فنجد في علم الحيوان لدى أرسطوطاليس وعلم النبات لدى ثيوفراستس درجة عالية من التناسب والنظام المنهجي . ولكن هذه الصور القديمة من التصنيف قد أفلت شمسها في البيولوجيا الحديثة بظهور مثل أعلى جديد . وتتم البيولوجيا ببطء في مرحلة جديدة من « نظرية تصاع استنتاجاً » . ويقول الاستاذ نورثروب : « كل علم في تطوره الطبيعي يمر في مرحلتين : المرحلة الاولى التي نسميها مرحلة التاريخ الطبيعي ؛ والثانية مرحلة النظرية المقررة افتراضاً . والى كل مرحلة من هاتين ينتمي نمط محدد من الفكرة العلمية . اما نمط الفكرة العلمية في مرحلة التاريخ الطبيعي فانا نسميه « فكرة بالمعينة » . وأما نمط الفكرة في المرحلة المقررة افتراضاً فانا نسميه « فكرة بالافتراض » . والفكرة بالمعينة هي التي يعطي معناها الكامل شيء أدرك تواتراً . والفكرة بالافتراض هي التي يقرر معناها لها فروض من النظرية الاستنتاجية التي نجنيء فيها تلك الفكرة » (١٥) .

ونحتاج دائماً في هذه الخطوة الحاسمة التي تؤدي من المدرك الى المفهوم ، الى أداة من الفكر جديدة ، علينا ان نرجع ملاحظتنا الى نظام من الرموز حسن الترتيب لكي نجعلها مناسبة يمكن تفسيرها بمصطلحات الافكار العلمية .

الرياضيات لغة رمزية عامة — أي هي لا تتعلق بوصف الأشياء وإنما تهتم بالتعبيرات العامة عن العلاقات ، هذه فكرة تأخر ظهورها في تاريخ الفلسفة . ولم تظهر نظرية في الرياضيات مؤسسة على هذا الافتراض قبل

١٥ - ف . س . ك . نورثروب « منهج العلم الطبيعي ونظرياته وأثر ذلك كله في التنظيم البيولوجي » (Growth Supplement 1940) ص : ١٢٧ - ١٥٤

القرن السابع عشر ، وكان لينتز أول مفكر حديث عظيم ، ذي بصر نافذ بالطابع الصحيح للرمزية الرياضية ، فاستخلص منها نتائج مثمرة شاملة . ومن هذه الناحية لا يختلف تاريخ الرياضيات عن تاريخ كل الأشكال الرمزية الاخرى ؛ وقد ثبت أنه من الصعب حتى على الرياضيات نفسها أن تستكشف « بعداً » جديداً من الفكر الرمزي ، ومثل هذا الفكر قد استعمله الرياضيون مدة طويلة قبل أن يستطيعوا تحليل طابعه المنطقي الخاص . ورموز الرياضيات ، كرموز اللغة والفن ، محاطة منذ البداية بجو سحري . فهي تلاحظ برهبة واحترام ديني ، ثم تطور هذا الايمان الديني الصوفي ببطء من بعد فأصبح نوعاً من الايمان المتأفريقي . وفي فلسفة افلاطون لم يعد العدد مغلفاً بالغيبية بل اعتبر ، على العكس ، مركز العالم الفكري — أي أصبح قبس الهدى الى كل صدق ووضوح . ولما قدّم افلاطون في شيخوخته نظريته في العالم المثالي حاول ان يصفها عن طريق العدد البحت ، فعده الرياضيات منطقة وسطاً بين عالم الحس وعالم ما فوق الحس ؛ لقد كان هو ايضاً فيثاغورياً مخلصاً — وبما انه كان كذلك اقتنع أن قوة العدد تنبسط على العالم المنظور كله . إلا أن الجوهر المتأفريقي للعدد ليس مما تكشف عنه ظاهرة منظورة ، إذ الظواهر تشترك في ذلك الجوهر ولكنها لا تستطيع أن تعبر عنه تعبيراً كافياً — وإنما تقع دونه . ومن الخطأ أن نعد تلك الأعداد المنظورة التي نجدها في الظواهر الطبيعية ، أي في حركات الأجرام السماوية ، أعداداً رياضية حقّة . وإن ما زناه ثمة ليس إلا « دلالات Paradeigmata » على الأعداد المثالية البحتة ، وعلى الفكر والذكاء أن يدركا هذه الأعداد وليس ذلك من مهمة البصر . يقول افلاطون :

افلاطون
فيثاغوري
في تقديره
للرياضيات

« يجب أن نتخذ السماوات المرصعة أنموذجاً لنوضح به تلك

المعرفة < الفلكية > العليا . إن جمال السماوات كجمال الأشكال أو الصور التي أجادت صنعها يد ديدالوس أو فنان آخر عظيم ، مما قد يتاح لنا ان نراه . وأي مهندس رآها اعجبته روعة صنعها ولكنه لن ينظر له أن يظن انه واجدٌ فيها نسبة المساوي الصحيح أو الضعف الصحيح أو حقيقة أي نسبة أخرى ... أليس لدى الفلكي الأصل نفس الشعور عندما ينظر الى حركات النجوم ؟ أليس يظن ان السماوات وما في السموات قد صنعها خالقها على أكل وجه ؟ ولكنه لن يتخيل ان نسبة الليل الى النهار ونسبة هذين الى الشهر ونسبة الشهر الى السنة ونسبة النجوم الى هذه جميعاً أو الى بعضها البعض ، أو أي شيء آخر مادي منظور - لن يتخيل انها خالدة وأنها ليست عرضة للخروج عن أفلاكها - ذاك يكون سخفاً ، ويساويه سخفاً أن يجهد نفسه في البحث عن حقائقها المضبوطة (١٦) .

الرياضيات
قدوس
العلاقات
وأنماطها

إن علم المعرفة الحديث لم يعد يعتقد نظرية افلاطون في العدد ، إذ لا يعتبر الرياضيات دراسة للأشياء - منظورة كانت أو غير منظورة - وإنما هي دراسة للعلاقات وأنماط العلاقات . فاذا تحدثنا عن موضوعية العدد لم نعتبره كياناً متافيزيقياً أو فيزيقياً منفصلاً ، وإنما الذي نريد أن نعبر عنه هو أن العدد أداة لكشف الطبيعة والواقع ؛ ويقدم لنا تاريخ العلم أمثلة نموذجية من هذه العملية الفكرية المستمرة . وكثيراً ما يبدو أن الفكر الرياضي يتقدم البحث الطبيعي . فأهم النظريات الرياضية لدينا لم تنبع من حاجات عملية أو صناعية . وإنما هي تتصور بحسبانها خططاً عامة من

الفكر
الرياضي
لا يتولد من
حاجات
عملية

١٦ - افلاطون : الجمهورية : ٥٢٩ ، ٥٣٠ (ترجمة جويت) [و ترجمة كورنفورد ص :

الفكر سابقة لأي تطبيق عملي . ولما أن طورَ اينشتين نظريته في النسبية عاد إلى هندسة ريمان التي كوَّنت منذ عهد بعيد والتي كان ريمان نفسه يعدّها محض إمكان منطقي ، إلا أنه كان مؤمناً بأننا في حاجة لمثل تلك الامكانيات لكي نكون مستعدين لوصف الحقائق الواقعية . وما نحتاجه هو حرية كاملة في بناء الصور المتعددة من رمزينّا الرياضية لكي نزود الفكر الطبيعي بجميع أدواته التفكيرية . إن الطبيعة معين لا ينضب — لأنها ستظل دائماً تضع لنا مشكلات جديدة لم تكن نتوقعها . ولا نستطيع أن ننّبأ بالحقائق ولكننا نستطيع أن نُعدّ العدة لتفسير عقلي للحقائق من خلال قوة الفكر الرمزي .

وإذا قبلنا هذه النظرة استطعنا ان نجد الجواب على مشكلة في العلم الطبيعي الحديث من أصعب المشكلات وأكثرها إثارة للجدل — أعني مشكلة الحتمية . ان ما يحتاجه العلم ليس حتمية متافيزيقية بل حتمية منهجية . وقد ننكر الحتمية الآلية التي وجدت تعبيراً عنها في القاعدة التي وضعها لابلاس (١٧) ، إلا أننا لا نستطيع ان نعترض على الحتمية العلمية ، حتمية العدد ، إذ لم نعد نعتبر العدد قوة غيبية أو جوهرأ متافيزيقياً للأشياء ، وإنما نعتبره أداة معينة من أدوات المعرفة . ومن الواضح ان هذه الفكرة ما تزال سليمة ولم تُثرْ حَوْلها الشكّ أي نتيجة في الفيزيا الحديثة . وقد دلنا تقدم ميكانيكا الكم على ان لغتنا الرياضية أغنى وأكثر مرونة وانطباقاً بأكثر مما كانت عليه الحال في نظم الفيزيا القديمة لأنها تقبل التكيف فتناسب

الرأى في
الحتمية
العدد

١٧ - انظر في هذه المشكلة كاسيرر : « الحتمية واللاحتمية في الطبيعيات الحديثة » .

مشكلات جديدة ومتطلبات جديدة . ولما تقدم هايسنبرج بنظرته • استعمل شكلاً جديداً من الرمزية الجبرية ، وهي رمزية لم تعد تناسبها بعض القواعد الجبرية العادية لدينا ، ولكن كل نهج جديد يظل يحتفظ للعدد بصورته العامة . وقد قال جاوس ان الرياضيات ملكة العلم وان الحساب ملك الرياضيات . وصرح فيلكس كلاين في عرض تاريخي لتطور الفكر الرياضي خلال القرن التاسع عشر - صرح ان أحد المظاهر المميزة لذلك التطور هو التقدم في صبغ الرياضيات جميعاً بصبغة حسابية ^(١٨) . وكذلك نستطيع ان نتبع عملية تعميم الصبغة الحسابية Arithmetization في تاريخ الفيزياء الحديثة . وبين أربعينيات هملتون حتى النظم المختلفة من ميكانيكا الكم نجد نظم الرمزية الجبرية المعقدة تتزايد . ويعمل العالم على أساس انه سينجح في النهاية في ايجاد رمزية ملائمة تمكنه من ان يصف ملاحظاته بلغة عامة مفهومة لدى العموم ، حتى في أشد الاحوال تعقيداً .

حقاً إن العالم لا يقدم لنا برهاناً منطقياً او تجريبياً على هذا الفرض الاساسي ، إنما البرهان الوحيد الذي يقدمه هو عمله . فهو يقبل مبدأ الحتمية العددية ويجعلها قاعدة تهديه ، يجعلها فكرة منظمة تمنح عمله انسجامه المنطقي ووحدته التنظيمية .

« [اعتمد هايسنبرج على نوع جديد من الجبر اصبح فيه قانون حد التبادل الرياضي Commutative Law في الضرب غير صحيح . أي ان $a \times b$ حسب هذا الجبر الجديد لم تعد تساوي $b \times a$ وفي هذا النوع من الجبر يبدو المظهر الرمزي واضحاً كل الوضوح في ظهور الكليات التخيلية في قانون حد التبادل المذكور . وهذا احتفظت نظرية الكم بطريقة رياضية لا يمكن تفسيرها بالعلاقات البسيطة بين الاشياء في الفراغ المساني والزمن . وقد أيد هايسنبرج ايضاً فكرة بور فأكد ان الذرة في الفيزياء الحديثة لا تمثل الا بمعادلة تفاضلية جزئية في فراغ غير محسوس كثير الأبعاد ، وان كل خصائصها تستخرج استنتاجاً ولا يمكن ان ننسب اليها خصائص مادية . وأي صورة يكونها خيالنا للذرة تعدصورة ناقصة] . (المترجم) .

١٨ - فيلكس كلاين : « محاضرات في تطوّر الرياضيات في القرن التاسع عشر » (برلين ١٩٢٦ - ١٩٢٧) .

ومن خير الاقوال التي تتحدث عن الطابع العام لهذه العملية العلمية
قولة أجدها في رسالة هلهولتز عنوانها : « مقال في البصريات الفيزيولوجية » .
يقول هلهولتز : إذا لم تكن مبادئ معرفتنا العلمية - كقانون العلية مثلاً -
الا قواعد تجريبية فإن برهانها الاستقرائي قد يكون في حال سيئة
جداً . وخير ما نقوله إن هذه المبادئ ليست أصحّ واثبت بكثير من
قواعد علم الأنواء ، كقانون دورة الرياح ... الخ . ولكن هذه المبادئ
تحمل على وجهها طابع القوانين المنطقية الخالصة لأن النتائج المستمدة منها
لا تتعلق بتجربتنا الواقعية وبحقائق الطبيعة وإنما تتصل بتفسيرنا للطبيعة .
« إن عملية فهمنا فيما يتصل بالظواهر الطبيعية هي اننا نحاول ان نجد
« افكاراً عامة » و « قوانين طبيعة » . أما قوانين الطبيعة فليست الا مفهومات
كلية $\langle \text{generic} \rangle$ من اجل التغيرات في الطبيعة ... من ثم اذا لم نستطع
ان نرد الظواهر الطبيعية الى قانون . . يبطل إمكان فهمنا لتلك الظواهر .
« على أية حال يجب أن نحاول فهمها ، إذ ليس هناك منهج آخر
لوضعها تحت سيطرة الفكر . ويبحثنا هذا لما يجب أن نمضي قدماً
مفترضين انها قابلة للفهم والادراك . وعلى حسب ذلك فان قانون العقل
الكافي ليس في الحقيقة إلا « حناً » لفكرنا لكي يضع كل مدركاتنا
الحسية تحت سيطرته وليس هو قانون طبيعة . فكرنا هو القوة التي تكون
الافكار العامة ولا علاقة له بمدركاتنا الحسية وتجاربنا الا ان استطاع ان
يكون افكاراً وقوانين عامة ... وإلى جانب فكرنا لا توجد قوة اخرى
منظمة ... لفهم العالم الخارجي . فاذا كنا لا نستطيع ان نتصور شيئاً لم
نستطع ان نتصوره موجوداً » ١٩ .

١٩ - هلهولتز : « مقال في البصريات الفيزيولوجية » ترجمة جيمس ب . شول (الجمعية
البصرية بأمريكا - شركة جورج بنتا للنشر ١٩٢٥ ، حقوق الطبع لدى ج . ا . سشرت) : ٣٥٥ - ٣٣٣ .

تصف هذه الكلمات بطريقة واضحة جداً الموقف العام للعقل العلمي .
ان العالم ليعرف أن هناك ميادين واسعة جداً من الظواهر التي لم يكن
في المستطاع ردّها الى قوانين صارمة والى قواعد حسابية مضبوطة ،
ومع ذلك يظل مخلصاً لعقيدته الفيثاغورية العامة : انه يعتقد أن الطبيعة
حين تؤخذ كلاً وفي كل ميادينها الخاصة فانها « عدد وانسجام » . وربما
أحس كثير من العلماء العظام امام عظمة الطبيعة واتساعها ذلك الاحساس
الخاص الذي عبر عنه نيوتن في قوله مشهورة . ربما ظنوا انهم كانوا في
عملهم كالطفل الذي يمشي على شاطئ محيط عظيم ويسلي نفسه بين الحين
والحين بالتقاط حصاة ، جذب نظره اليها شكلها أو لونها . ان هذا الشعور
المتواضع مفهوم ولكنه لا يعطي وصفاً صحيحاً كاملاً لعمل العالم . فالعالم
لا يبلغ غايته دول انصياح تام لحقائق الطبيعة ، ولكن هذا الانصياح ليس
خضوعاً سالباً . ولم يكن عمل كل العلماء الطبيعيين الكبار ، مثل جاليليو
ونيوتن وماكسويل وهلمهولتز وبلانك واينشتين ، محض جمع للحقائق ،
ولنما كان عملاً نظرياً — اي عملاً بنائياً — . هذه التلقائية ، اي هذا الخصب
المنتج ، هو مركز الفعاليات الانسانية ، تلك هي قوة الانسان العليا وهي
تعين في نفس الوقت الحد الطبيعي لعالمنا الانساني . ولا يستطيع الانسان
شيئاً في اللغة والدين والفن والعلم سوى ان يبنى عالمه — العالم الرمزي الذي
يمكنه من ان يفهم التجربة الانسانية ويفسرّها ، وان يفصح عنها وينظمها ،
وان يردّها وينحها صبغة كلية .

تواضع العالم
امام الطبيعة
لا يفسر
حقيقة عمله

خلاصة وخاتمة

لو التفتنا في نهاية هذه الطريق الطويلة الى نقطة انطلاقنا فقد يدركنا الشك في اننا بلغنا غايتنا . تبدأ فلسفة الحضارة بافتراض ان عالم الحضارة الانسانية ليس مجموعة من الحقائق المسيّبة المتباعدة . وتسعى لفهم هذه الحقائق وتنصورها نظاماً او كلاً عضوياً ، وربما بدا للنظرة التجريبية أو التاريخية ان جمع المعلومات عن الحضارة الانسانية أمر كافٍ ، اذ اننا في الاتجاه التجريبي والتاريخي نهتم باتساع الحياة الانسانية ونهتم في دراسة الظواهر المعينة من حيث غناها وتنوعها ، ونستمتع بالألوان المتعددة والنفحات المتعددة في الطبيعة الانسانية . إلا ان التحليل الفلسفي يضع لنفسه مهمة مختلفة عن هذا . فنقطة بدايته ومفترضه متجسدان في اعتقاده ان خيوط الأشعة المتنوعة المتفرقة - ظاهرياً - قد تجمع معاً وتعمل في بؤرة واحدة . ثم تترد الحقائق الى صور ، ولهذه الصور - افتراضاً - وحدة داخلية . ترى هل استطعنا ان نثبت هذه النقطة الرئيسية ؟ ألم تدلنا تحليلاتنا كل بمفرده على نقيض ذلك ؟ ذلك اننا كنا طوال هذا البحث نؤكد الطابع الخاص والمبنى الخاص لكل شكل من الاشكال الرمزية للأسطورة واللغة

والفن والدين والتاريخ والعلم . فاذا تذكرنا هذا المظهر من بحثنا فقد نحس أننا نؤثر الفكرة المضادة ، أي فكرة عدم الاستمرار والتكاثر الجذري في الحضارة الانسانية .

وقد يكون من العسير ان ننقض هذه الفكرة من الزاوية الانتولوجية او المتافيزيقية . اما لدى الفلاسفة الناقدة فان المشكلة تنتحل وجها آخر . ثمة لا نكون مضطرين لإثبات الوحدة الجوهرية في الانسان لأننا لا نود نعتبر الانسان جوهرأ بسيطاً قائماً بذاته ويعترف ذاته . وانما نتصور ان وحدته وحدة وظيفية ، ومثل هذه الوحدة لا تفترض ، ابتداء ، تكاثراً في مختلف العناصر التي منها تتألف . وهي لا تسمح فحسب لأجزائها المكونة لها بالتكثر والتعدد وانما تتطلب منها ذلك ، لأن هذه الوحدة دبالكتية ، أي هي تعايش بين الاضداد .

يقول هرقليطس : « لا يفهم الناس كيف ان ما تبدد في عدة وجهات قد يعود فيلثم - يعود الى انسجام رغم التضاد والتباين كما هي الحال في القوس والقيثارة »^(١) . ومن أجل أن نوضح هذا الانسجام لا نحتاج أن نثبت تطابق القوى المختلفة التي انتجتها ، او تماثلها . ذلك ان الصور المختلفة من الحضارة الانسانية غير مرتبطة فيما بينها برابطة وحدة في طبيعتها ، وانما هي مرتبطة باتحاد في مهمتها الاساسية . واذا كان ثمة توازن في الحضارة الانسانية فهو لا يكون إلا توازنا دينامياً لا استاتيكيأ < ثابتاً > . ان ذلك التوازن نتيجة صراع بين قوى متضادة ، غير ان ذلك الصراع لا يطرد « الانسجام الداخلي » الذي يعده هرقليطس : « خيراً

١ - هرقليطس ، القطعة ٥١ في ديلز : « قطع للفلاسفة قبل سقراط » (الطبعة الخامسة) والترجمة الانجليزية بقلم تشارلس م . بيكريل « مصدر في الفلسفة القديمة » (نيويورك ، ابناء تشارلس سكرينر ١٩٠٧) ص : ٣١ .

من الانسجام الخارجى » (٢) .

لقد حددَ ارسطوطاليس الانسان بأنه « حيوان اجتماعى » لكن هذا حدٌ غير جامع اذ يقدم لنا فكرة « جنس » ولا يقدم فرقاً « نوعياً » . لأن التجمع على هذا النحو ليس نزعة مقصورة على الانسان ولا هو امتياز للانسان وحده . وإنما لنجد ، فيما يسمى الاحوال الحيوانية ، بين النحل والنمل توزيعاً واضحاً في العمل ونظاماً اجتماعياً معقداً ، على نحو مدهش . الا إننا في حال الانسان لا نجد فحسب ما لدى الحيوان من مجتمع عمل بل نجد ايضاً مجتمع تفكير وشعور . وتمثل اللغة والاسطورة والفن والدين والعلم العناصر والاحوال التي يتكون منها ذلك الشكل العالمى من المجتمع ، فهي الوسائل التي بها تتطور اشكال الحياة الاجتماعية الموجودة في الطبيعة العضوية - تتطور الى حال جديدة هي حال الوعي الاجتماعى . ويعتمد وعي الانسان الاجتماعى على عمل مزدوج ، على ادراك التوافق وادراك التمايز . ولا يستطيع الانسان أن يجد نفسه ، لا يستطيع أن يعي فرديته إلا بواسطة الحياة الاجتماعية ؛ إلا أن هذه الوساطة أكثر من قوة خارجية موجهة . فيخضع الانسان - كما تخضع الحيوانات - لقواعد المجتمع إلا انه يزيد عنها بأن له نصيباً فعالاً في إنجاز أشكال الحياة الاجتماعية ، وبأن له قوة فعالة على تغيير تلك الاشكال . وتكاد هذه الفعالية تكون غير ملحوظة في المراحل الفطرية من المجتمع الانسانى إذ تكون في أدنى حالاتها ، وكلما مضينا قدماً أخذ هذا المظهر يغدو واضحاً متميزاً ، ومن الممكن أن نتبع هذا التطور البطيء في جل اشكال الحضارة الانسانية . .

ومن المعروف أن كثيراً من الأعمال التي تنجزها الحيوانات تتفوق من بعض الوجوه على أعمال الانسان ، ولا تقف عند حد مساواتها فحسب .

وكثيراً ما أشار المشيرون الى أن التحل في بناء خلاياها تتصرف تصرف المهندس اللبى محقةً أرفع صور الدقة والضبط ، ومثل هذه الفعالية يتطلب نظاماً شديد التعقيد من التنسيق والمشاركة . إلا أننا لا نجد في كل هذه الاعمال الحيوانية تمايزاً فردياً فكلها تتج على نسق واحد ، وتسير على قواعد لا تتغير . ولا يبقى ثمة مجال للاختيار الفردي والقدرة الفردية . ولا نلقى أول آثار من هذا التفرد الا حين نبلغ المراحل العليا من الحياة الحيوانية . وقد يبدو ان ملاحظ فلفجانج كويلر عن القروود الشبيهة بالانسان تثبت ان هناك فروقاً عدة بين ذكاء تلك الحيوانات ومهارتها ، فقد يحل أحدها مسألة لا يحلها آخر ، حتى لنستطيع بصدها أن نتحدث عن « ابتكارات » فردية . الا ان هذا كله لا دخل له في المبنى العام لحياة الحيوان . فالقانون البيولوجي العام هو الذي يحدد ذلك المبنى ، وهذا القانون يقول : ان الخصائص المكتسبة لا تقبل الانتقال بالوراثة ، فكل اكتساب مكمل حصل عليه الكيان العضوي في سياق حياته الفردية مقصور على وجوده ولا يؤثر في حياة النوع . حتى الانسان نفسه غير مستثنى من هذه القاعدة البيولوجية العامة ، الا أن الانسان استكشف طريقة جديدة ليوطد أعماله وينمّيها . فهو لا يستطيع أن يحيا حياته دون أن يعبر عنها ، وتكونُ الطرق المختلفة من هذا التعبير دائرة جديدة ، لها حياتها الخاصة بها ، لها نوع من الخلود يحفظها بعد زوال الوجود الفردي الفاني . ولذلك نجد في كل الفعاليات الانسانية استقطاباً أساسياً يمكن وصفه في عدة طرق . فقد نتحدث عن التوتر بين الثبات والتطور ، بين الميل الى أشكال ثابتة راسخة من أشكال الحياة وميل الى تحطيم هذا الوضع الجامد؛ ويقع الانسان نهياً متاهباً بين هاتين النزعتين ، واحدهما تريد أن تحفظ الأشكال القديمة والأخرى تسعى لتوجد أشكالاً جديدة . وهذا صراع

دائم بين المحافظة والابتداع ، بين القوى الحاكية والقوى الخالقة . وتوجد هذه الثنائية في كل مجالات الحياة الحضارية ، اما الذي يختلف فيها فهو النسبة بين العوامل المتضادة . فأحياناً يرجح هذا العامل وأحياناً ذاك ، وهذا الرجحان هو الذي يعين طابع كل شكل - الى حد بعيد - ويمنح كل شكل سباه الخاصة .

اما الأسطورة والدين البدائي فالنزعة فيهما الى الثبوت والتجميد قوية جداً حتى انها ترجح تمام الرجحان بالقطب المضاد . ويبدو ان هاتين الظاهرتين الحضاريتين أشد القوى محافظةً في الحياة الانسانية . فالفكر الاسطوري من حيث أصله ومبدؤه فكر تقليدي ، إذ ليس لدى الاسطورة من وسيلة لفهم الشكل الحاضر من الحياة الانسانية ولتوضيحه وتفسيره سوى رده الى الماضي البعيد ؛ فما كان ذا جذور في الماضي الاسطوري ، ما كان هنالك منذ بدء البدء ، ما وجد منذ أزمنة موعلة في القدم ، فهو ثابتٌ متأصل لا تحوم حوله ريبة . وإثارة الشك من حوله انتهاك للحرمة لأن العقل البدائي لا يرى شيئاً أقدس من قداسة العمر ، فالعمر هو الذي يمنح الاشياء جميعاً - مادية كانت أو نظاماً إنسانياً - قيمتها ورفعتها واستحقاقها الديني والاخلاقي . ومن اجل ان تظل هذه الرفعة سليمة أصبح لزاماً ان يظل النظام الانساني في شكل واحد لا يتغير ولا يتبدل . فإذا أصيب الاستمرار في ناحية فقد يحطم ذلك جوهر الفكر الاسطوري والحياة الدينية . وأي تغيير طفيف قد يصيب نظام الاشياء المقرر يعدّ كارثة من زاوية الفكر البدائي . فكلمات المنطوقة السحرية أو التعويذة أو الرقية ، وكل جزء من عمل ديني ، صلاة كان أو قرباناً - كل هذه جميعاً يجب ان تعاد على ترتيب واحد لا يتغير . وكل تغيير فيها قد يعدم قوة الكلمة السحرية أو الشعيرة الدينية ويقضي على سلطانها . وإذن فليس

في الفكر الديني مجال لحرية الفكر الفردي ، فهو يفرض قواعده الثابتة الصارمة التي لا تتبدل لكل شعور انساني فضلاً عن انه يفرضها لكل عمل انساني . وتكون الحياة الانسانية تحت ضغط مستمر ، وتكون محصورة في دائرة ضيقة من متطلبات الامر والنهي ، من المندوبات والممنوعات ، من المحلات والمحرمات . ومع ذلك فان تاريخ الدين يبين لنا ان هذه الصورة الاولى من الفكر الديني لا تعبر بأية حال عن معناه الحقيقي وغايته . ففي هذا الموطن نجد تقدماً مستمراً في اتجاه مضاد ، وتخف وطأة « الحرمان » التي وضع فيها الفكر الديني والاسطوري البدائي الحياة الانسانية تدريجاً ، وفي النهاية تفقد ثقلها كله فيما يبدو ، ويظهر شكل دينامي جديد من الدين يفتح للحياة الدينية والاخلاقية مراًداً واسماً جديداً . وفي مثل هذا الدين الدينامي ترجح القوى الفردية بقوى اللزوم والجمود ، وثمة تبلغ الحياة الدينية دور نضجها وحررتها ، فقد أزال سحر التزعة التقليدية المحافظة (٣) .

واذا انتقلنا من ميدان الفكر الاسطوري والديني الى اللغة وجدنا هنا هذا السياق نفسه في شكل آخر . فاللغة نفسها قوة من أشد القوى المحافظة الثابتة في الحضارة الانسانية . ولولا تلك المحافظة لما استطاعت أن تحقق غايتها الاولى ، أعني التوصل ، والتوصل يتطلب قواعد صارمة ، واذن فلا بد من أن تكون الرموز والاشكال اللغوية ذات ثبات واستمرار لكي تقاوم عدوان الزمن الذي يصدعها ويخربها . ومع ذلك فان التغير الصوتي والتغير السمائي ليسا مظهرين عارضين في تطور اللغة وإنما هما حالتان من حالات التطور ملازمتان ضرورتان . ومن الاسباب الرئيسية لهذا التغير أن اللغة يجب ان تنتقل من جيل الى جيل ، وهذا النقل غير ممكن بنسخ

٣ - انظر تفصيل ذلك في الفصل السابع من هذا الكتاب .

الاشكال الثابتة القائمة على حالها ، فان عملية الحصول على اللغة نشتمل دائماً على ميل حيوي منتج . حتى أخطاء الطفل متميزة في هذا المجال فانها خير برهان على تلقائية وفعالية لدى الطفل ، وليست عجزاً ناشئاً عن نقص في قوة الذاكرة او الاستعادة . ويبدو الطفل في مرحلة مبكرة نسبياً من مراحل تطوره وقد اكتسب شعوراً بالمبنى العام للغة الأم دون أن يكون، طبعاً ، ذا وعي مجرد بالقواعد اللغوية ، فهو يستعمل كلمات وجملاً لم يكن قد سمعها أبداً وتكون كسراً للقواعد المورفولوجية والنحوية . ولكن في هذه المحاولات نفسها يظهر حسن الطفل المرهف للمقاييسات ، وفيها يثبت قدرته على إحكام شكل اللغة بدلاً من ان يعيد مادتها تقليداً . فانتقال اللغة من جيل الى جيل لا يقارن بنقل ملكية عقار لا يتغير فيه إلا المالك نفسه ولا يلحق طبيعته نفسها أي تغيير . وقد اكد هذه النقطة هرمان بول في كتابه « مبادئ تاريخ اللغة » فدّل بالأمثلة المحسوسة على أن التطور التاريخي للغة يعتمد الى درجة كبيرة على تلك التغيرات البطيئة المستمرة التي تحدث اثناء نقل الكلمات من الآباء الى الابناء . ويرى هرمان بول أن هذه العملية يجب أن تعتبر أحد الاسباب الرئيسية في ظواهر الانتقال الصوتي والتغير السمائي^(١) . وفي هذا كله نحس في وضوح شديد بحضور نزعتين مختلفتين - الاولى تؤدي الى حفظ اللغة والثانية تؤدي الى تجديدها وبعثها ، وليس بين هاتين النزعتين من تضاد بل بينهما توازن كامل ، فهما عنصران وشرطان لازمان في حياة اللغة .

وللمشكلة نفسها وجه جديد يتبدى في تطور الفن . وفي الفن يتغلب العامل الثاني - عامل الأصالة والتفرد والخلق - على العامل الاول . لا نرضى في الفن بتكرير الأشكال التقليدية أو حكايتها وإنما نستشعر

٤ - هرمان بول : « مبادئ تاريخ اللغة » (الطبعة الرابعة ١٩٠٩) ص : ٦٢

واجباً جديداً ونستحضر . قمايس نقدية جديدة . لقد قال هوراس في فن الشعر : « التوسط في الشعر أمر لا ترضاه الآلهة أو الناس أو العمد التي تقوم عليها دور الكتب » :

« Mediocribus esse poetis non di, non homines, non concessere columnae » .

ومن المؤكد أن النزعة التقليدية نفسها في هذا الميدان تلعب دوراً هاماً . فالأشكال تنتقل ، كما هي الحال في اللغة ، من جيل الى آخر ، وتردد نفس الدوافع في الفن مرة إثر مرة . ومع ذلك فإن كل فنان عظيم ، بمعنى ما ، يكون عصره جديداً ، ونحن نعي هذه الحقيقة حين نقارن صور الكلام العادية بلغة شعرية . ما من شاعر يستطيع أن يخلق لغة جديدة كل الجدة بل عليه ان يختار الكلمات وعليه أن يحترم القواعد الأساسية في لغته . ولكن الشاعر يمنح هذا كله حياة جديدة فضلاً عن انتحاء جديد . والكلمات في الشعر ليست فحسب هامة بطريقة مجردة ؛ انها ليست دلائل تشير بها الى بعض الموضوعات التجريبية وإنما تلقى هنا نوعاً من الاستحالة قد أصاب الفاعل المألوفة . كل بيت من شيكسبير وكل قطعة من دانتي أو اوريوستو وكل قصيدة غنائية لجوته ذات صوت خاص . لقد قال وبنج : من المستحيل ان تسرق بيتاً من شيكسبير مثلما يستحيل أن تسرق عصا هرقليس . وما هو أكثر إثارة للعجب أن الشاعر العظيم لا يعبد نفسه ابداً ، فقد تكلم شيكسبير لغة لم تسمع أبداً قبله - وكل شخصية شيكسبيرية تتكلم لغتها التي لا تقارن بغيرها ولا تخطئها الأذن لدى سماعها . وإنا لنسمع من لير ومكبث ومن بروتس وهملت ومن روزاليند وبياتريس اللغة الشخصية التي هي مرآة نفس متفردة . وبهذه الطريقة وحدها يستطيع الشعر أن يعبر عن كل الظلال العديدة من المشاعر الرقيقة المختلفة ، وهي

التي يكون التعبير عنها بطرق أخرى محالاً . وإذا كانت اللغة في تطورها بحاجة الى تجديد مستمر ، فخير مصدر وأعمق لذلك هو الشعر . الشعر العظيم دائماً يصنع أحياناً حاداً في تاريخ اللغة أو قل : كسراً محدداً فيه ، وعندما مات دانتى ، وشيكسبير وجوته لم تكن لغاتهم - الإيطالية والإنجليزية والألمانية - مثل ما كانت يوم ولدوا .

وكان الفرق بين القوى المحافظة والمجددة التي يعتمد عليها العمل الفني ملوساً دائماً يجد التعبير عنه في نظرياتنا الجمالية . وفي كل العصور وجد تصارع وتوتر بين نظريات المحاكاة والالهام ، أما المحاكاة فتصرح بأن الحكم على العمل الفني يتم حسب قواعد ثابتة دائمة أو حسب نماذج كلاسيكية ، وأما الالهام فيرفض كل مقاييس الجمال وقوانينه ، فالجمال فذ لا قرين له وهو من صنع العبقرى ، وهذه الفكرة هي التي أصبحت سائدة - بعد صراع طويل بينها وبين النظريات الكلاسيكية قديمها ومحدثها - في القرن الثامن عشر ومهدت الطريق لعلم الجمال الحديث . يقول كانت في كتابه « بحث تحليلي في الحكم » : « العبقرية نزعة عقلية فطرية (ingenium) تعطي الطبيعة بواسطتها القاعدة للفن » . وهي « موهبة لانتاج ما لا يمكن وضع قاعدة له ، وليست هي محض قابلية لما يمكن تعلمه عن طريق قاعدة ما » . ومن ثم لا يد أن تكون الاصاله اولى خصائصها . وهذا الشكل من الاصاله هو امتياز الفن وميزه ، ولا يمكن بسطه على ميادين اخرى من الفعالية الانسانية . « ان الطبيعة بواسطة العبقرية لا تصنع قواعد للعلم بل تصنعها للفن ولا تصنعها للفن إلا بمقدار ما هو فن جميل » . قد نقول ان نيوتن عالم عبقرى ولكننا في هذه الحال نتحدث مجازياً . « لأننا نستطيع ان نتعلم كل ما قدمه نيوتن في كتابه في مبادئ الفلسفة الطبيعية ، مهما يكن كبر الدماغ

الذي استطاع ان يستكشف تلك المبادئ ، ولكننا لا نستطيع ان نتعلم ان نكتب شعراً هامياً مهما تكن مبادئ الفن صريحة واضحة ومهما تكن نماذجها رائعة ممتازة^(٥) .

اما العلاقة بين الذاتية والموضوعية ، بين الفردية والعمومية ، فليست في العمل الفني مثلاً هي في عمل العالم . صحيح ان كشوفاً علمية عظيمة تحمل طابع عقل الفرد الذي أوجدها ، فلا نجد فيها فحسب مظهراً موضوعياً جديداً ، وانما نجد ايضاً نزعاً عقل فردية ، واحياناً أسلوباً شخصياً ؛ ولكن لهذا كله نسبة سيكولوجية لا تصنيفية . فحين نهتم بالمحتوى الموضوعي للعلم ننسى تلك الملامح الفردية ونطويها ، لأن من الاهداف الرئيسية للفكر العلمي استئصال كل العناصر الشخصية والانثروبومورفية . فالعلم يسعى لكي يتصور العالم — كما يقول بيكون : « من قياس كلي عام » *ex analogia universi* ، لا « من قياس انساني »^(٦) *ex analogia hominis* .

وقد توصف الحضارة الانسانية من حيث هي كل بأنها عملية تحرر ذاتي متدرج لدى الانسان ، وتمثل اللغة والفن والدين والعلم أوجهاً متنوعة في هذه العملية . ففيها جميعاً يستكشف الانسان قوة جديدة ويثبتها — قوة يبني بها عالمه — وهو عالم « مثالي » .

ولا تكف الفلسفة عن السعي لايجاد وحدة أساسية لهذا العالم المثالي ولكنها لا تخلط هذه الوحدة بالبساطة ؛ لأنها لا تغفل ضروب التوتر والاحتكاك والمفارقات وأنواع الصراع العميق بين قوى الانسان المختلفة .

٥ — كانت : « بحث تحليلي في الحكم » ، الفقرة ٤٦ ، ٤٧ والترجمة الانجليزية بقلم ج. ٨٠. برنارد

(لندن ، مكيلان ١٨٩٢) ص : ١٨٨ — ١٩٠ .

٦ — انظر بيكون : « القانون الجديد » ، الكتاب الأول ، الحكمة : ٤١

وهذه كلها لا تزد الى مقام مشترك . لأنها تذهب في اتجاهات مختلفة ونخضع لمبادئ مختلفة كذلك إلا أن هذا التكرار والتباعد لا يدلان على انشقاق وانعدام انسجام ، فكل هذه الوظائف بكل احدها الآخر ويتممه ، وكل واحد يفتح أفقاً جديداً ويرينا مظهراً جديداً من مظاهر الانسانية . فيكون المتنافر منسجماً مع نفسه وتتبادل الأضداد اعتمادها بعضها على بعض ولا تتبادل مناهضة احدها الآخر ، ويكون الأمر كما قال هرقليطس « انسجام في تضاد كحال القوس والقيثارة » .

فهرس تفصيلي للمحتويات

٧	المسهمون في هذا الكتاب
٩	مقدمة المترجم
	فكرة هذا الكتاب ٩ - حدود هذا الاتجاه الفلسفي ومصادره ١٥ -
٢٢	تصدير للمؤلف
٢٧	القسم الأول : ماهية الانسان
٢٩	(١) الازمة في معرفة الانسان نفسه
	مبدأ « اعرف نفسك » ٢٩ - طريقة الاستبطان
	قيمتها وقصورها ٣٠ - ارسطوطاليس والمعرفة عن طريق
	الحواس ٣١ - « اعرف نفسك » في الفلسفة ٣٣ -
	ما قبل سقراط ٣٣ - سقراط ٣٤ - الجواب
	السقراطي عن ماهية الانسان ٣٦ - معرفة النفس في تأملات
	مارقس اوريليوس ٣٨ - الصراع بين الرواقية والمسيحية حول
	هذه المشكلة ٤١ - المشكلة في اعترافات اوغسطين ٤٢ -
	بسكال ٤٤ - مفهوم جديد لمعرفة الذات ٤٦ -
	الروح العلية واثرها في ايجاد نظرية للانسان ٤٨ -
	كوبرنيكس ٤٩ - مونتيني والثورة على الانسان ٥٠ -
	عودة الى الايمان بالانسان ٥١ - جوردانو برونو
	٥٢ - جاليليو والرياضيات لحل مشكلة الانسان ٥٣ - ديكارث

٥٣ - لينتز ٥٣ - سينوزا ٥٤ - ديدرو
وتناقض الايمان بالرياضيات ٥٤ - الداروينية والانتقاء البيولوجي
حل مشكلة الانسان ٥٦ - قدم نظرية التطور ٥٧ - افول
شمس العلل الارسطوطاليسية وقيمة المصادفة ٥٨ - هل
العالم الحضاري كالعالم العضوي ٥٩ - تين يرى ذلك ٦٠ -
المذاهب الفردية لحل المشكلة ٦١ - القوضى في نظرية الانسان
الحديثة ٦٢ - خطر الصراع بين الاراء المختلفة ٦٢ -
غنى في طرق المعرفة وفقر في المنهج الموحد ٦٣ -

(٢) الرمز - سبيل التعرف الى طبيعة الانسان ٦٤

يوكسكل وآراؤه البيولوجية ٦٤ - علم التشريح المقارن
الدليل الوحيد الى الحياة الحيوانية ٦٥ - تطبيق فكرة يوكسكل
على العالم الانساني ٦٦ - الجهاز الرمزي فرق ما بين الانسان
والحيوان ٦٦ - الفرق بين الرجوع ورد الفعل ٦٧ - حاجة
الانسان الى الرمز ٦٧ - حد جديد للانسان ٦٨ -

(٣) من رد الفعل لدى الحيوان الى الارجاع الانسانية ٧٠

اسهاب في شرح الحد الجديد ٧٠ - السلوك الرمزي لدى
الحيوان ٧١ - حد الكلام ٧٣ - طبقات الكلام «لغة العواطف»
٧٣ - اللغة الموضوعية ٧٤ - الفرق بين الاشارات
والرموز ٧٦ - ذكاء الحيوان ٧٨ - الانتقال من رمز
الى رمز ٨٠ - حال هيلين كالر ٨٠ - حال لورا
بردجمان ٨٢ - قيمة الرمز للانسان ٨٣ - الانطباق
العام في الرموز الانسانية ٨٤ - الرمز في الفكر الاسطوري ٨٥ -
الرمز عند الطفل ٨٥ - مثل من لورا بردجمان ٨٦ - اعتماد
الفكر العلائقي على الفكر الرمزي ٨٧ - الهندسة نقطة تحول في
الرمز ٨٨ - الفصل بين الدلالات الحسية لدى الحيوان ٨٨ -

هيردر وأصل اللغة ٨٩ - تأييد الباثولوجيا السيكلوجية لرأي
هيردر ٩١ -

(٤) العالم الانساني - عالم المسافة والزمن ٩٣

المسافة والزمن العضويان ٩٤ - قوة المسافة العضوية لدى الحيوان
٩٤ - المسافة الحسية ٩٥ - المسافة الرمزية او المجردة ٩٥ -
اكتشاف اليونان للمسافة المجردة ٩٦ - نيوتن والمسافة المجردة
٩٦ - بيركلي يهاجم رأي نيوتن ٩٧ - المسافة عند البدائي ٩٧ -
صعوبة الانتقال من المسافة العملية الى المسافة الهندسية ٩٨ -
زيادة ايضاح في الفرق بين المسافة العملية والمسافة المجردة لدى
البدائيين ٩٩ - الفلك البابلي والمسافة الهندسية ١٠٠ - رأي نيو
جياور في الرياضيات البابلية ١٠١ - التباس الفلك بالتنجيم واثرو
ذلك ١٠٢ - المسافة في الفلك القديم ليست هندسية خالصة ١٠٣ -
ديكارت والهندسة التحليلية ١٠٤ - الزمن ١٠٤ - معنى الازمنة
الثلاثة ١٠٥ - الذاكرة والماضي ١٠٥ - التذكر عند الحيوانات
١٠٧ - التذكر الانساني ولادة ١٠٧ - انواع انسانية من التذكر
لدى الحيوان ١٠٨ - رأي برجسون في الذاكرة ١٠٨ - التذكر
الرمزي، مثل من حياة جوته ١٠٨ - التذكر الرمزي في اعترافات
اوغسطين ١٠٩ - المستقبل ١١٠ - دعوة لاغفال المستقبل ١١٠ -
الحيوان والمستقبل ١١١ - معنى استنظار الانسان للمستقبل
والفرق بينه وبين الحيوان ١١٢ - المستقبل الرمزي ١١٣ -

(٥) حقائق ومثل ١١٤

الامكان يميز العقل الانساني ١١٤ - معرفة الانسان رمزية ١١٥ -
اثبات الفرق بين الواقع والامكان ١١٦ - الافازيا دليل على
ذلك ١١٦ - الحقائق تتضمن عنصراً رمزياً ١١٨ - اثبات ان
الحقائق تتضمن رموزاً من تاريخ الرياضيات ١١٩ - وظيفة الرمز

تتضح ايضاً في الاخلاق ١٢٠ - اقتراضات افلاطون ١٢١ -
اقتراضات الاخلاقيين الاخرين ١٢٢ - اقتراضات روسو ١٢٢ -

القسم الثاني : الانسان والحضارة ١٢٥

(٦) تعريف الانسان بوساطة مصطلحات الحضارة الانسانية . ١٢٧

افلاطون يفسر « اعرف نفسك » بفهم الدولة ١٢٧ - النقص في
فكرة افلاطون ١٢٨ - كومت والاتجاه الوضعي في معرفة
الذات ١٢٨ - كومت يفصل بين الفيزيولوجيا وعلم الاجتماع
١٣٠ - تلامذة كومت ينكرون هذا الفصل ١٣٠ - هل من فرق
بين التركيب التشريحي الانساني والحيواني ١٣١ - نظرة الطبيعيين
الى الذكاء الانساني ١٣١ - عيوب النظريات الطبيعية في الذكاء
١٣٢ - الغريزة والذكاء ١٣٢ - نقد ديوي لتحديد الغرائز ١٣٣ -
قصور الحدود السابقة في ماهية الانسان ١٣٤ - طريق الاشكال
الرمزية ١٣٤ - حد الانسان يجب ان يدور حول وظيفته ١٣٤ -
الاستعانة بالمصطلح النفسي ١٣٥ - الكشف عن اصول المبنى
الواحد من الاشكال الرمزية ١٣٦ - اهمية التحليل الوصفي
لدراسة الحضارة ١٣٦ - انموذج من دراسة فلفلن لتاريخ الفن
١٣٧ - ضرورة المقولات الاساسية ١٣٧ - الوحدة في العمل
الذي تحققه الفعاليات ١٣٨ - مهمة الفلسفة في هذا المقام ١٣٩ -

(٧) الاسطورة والدين ١٤٠

الفرق الظاهر بين الاسطورة والدين ١٤٠ - التوفيق بين الدين
والفلسفة ١٤٠ - الثورة على التوفيق بين الدين والفلسفة ١٤١ -
كبر كجورد والتناقض الديني ١٤١ - النظر في الموضوع من زاوية
فلسفة الحضارة ١٤١ - هل من وحدة في الاساطير ١٤٢ -
الوحدة الحقيقية في الاديان ١٤٢ - محاولة الكشف عن معنى
الاسطورة ١٤٣ - التفسير التمثيلي للاساطير ١٤٣ - مناهجنا

الحديثة في تفسير الاسطورة ١٤٣ - طريقة تحليل الاساطير
 ١٤٤ - اختلاف المذاهب في تفسير الاسطورة ١٤٤ -
 غاية المذاهب المختلفة في تفسير الاسطورة ١٤٥ -
 الصلة بين الاسطورة والشعر ١٤٥ - الفرق بين الاسطورة والنفس
 ١٤٥ - مقارنة بين الفكر الاسطوري والعلمي ١٤٦ - نظرية
 فريزر في السحر ١٤٦ - تفسير جديد للاسطورة يرد على نظريات
 فريزر ١٤٧ - الفرق بين مدركات الفكر التجريبي ومدركات
 الاسطورة ١٤٧ - الخصائص العاطفية في الادراك الاسطوري
 ١٤٨ - العلم في هذه الناحية ثورة على الاسطورة ١٤٨ - قيمة
 المعلومات التي جاءت عن طريق الاسطورة وطابعها العاطفي
 ١٤٨ - رأي ديوي في الخصائص الشعورية ١٥٠ - مدلول
 الخصائص مقياس لقيمة الاسطورة وما فيها من عواطف ١٥١ -
 مدرسة علم الاجتماع الفرنسية وتعليل الاسطورة ١٥٢ - دوركهايم
 ١٥٢ - برول ١٥٢ - ما لم تحله آراء المدرسة الفرنسية ١٥٣ -
 منطق الاسطورة وعصرها العقلي ١٥٤ - الحياة في الفكر البدائي
 كل مستمر ١٥٥ - ادراك الانسان البدائي للفروق التجريبية
 ١٥٦ - نظرة البدائي الى الطبيعة (عاطفية) ١٥٦ - وحدة
 الحياة لدى البدائي ١٥٧ - شاهد من الطوطمية على ذلك ١٥٧ -
 زيادة بيان في وحدة الطبيعة عند البدائي ١٥٨ - الوحدة الزمنية
 تتحقق بالتجسد ١٥٨ - الوحدة الزمنية والموت في فكر البدائي
 ١٥٨ - الموت يحتاج برهاناً لا انخلود ١٥٩ - عبادة السلف
 وتحدي الموت ١٦٠ - عبادة السلف عند الصينيين ١٦٠ -
 عبادة السلف عند الرومان ١٦١ - تحليل صلة الخوف بنشأة
 العبادة ١٦٢ - وحدة الحياة لمقاومة الخوف من الموت ١٦٢ -
 عنصر آخر عدا الخوف اساسي في روح التدين ١٦٣ -
 روبرتسون - سمث وتوضيح هذه النقطة ١٦٣ - شعائر الدفن

ودلالاتها ١٦٤ - متى تنتهي الاسطورة ويبدأ الدين ١٦٥ -
 رأي برجسون في الدين ١٦٥ - تطور آراء برجسون ١٦٦ -
 الدافع الحيوي والآلية المادية ١٦٧ - مناقشة رأي برجسون
 ١٦٨ - خطأ الانثروبولوجيين في تصور البدائي ١٦٨ - رأي
 مالبينوسكي ١٦٨ - انحدار شأن الآلهة في تاريخ يونان ١٦٩ -
 تطور الدين اليوناني ١٦٩ - تضعيف الشعور بوحدة الحياة ١٧٠ - هل
 شعور الانسان بالاتكال هو سبب هذا التطور في الدين ١٧٠ -
 رأي شلايرماخر ١٧١ - رأي فريزر ١٧١ - مناقشة هذا
 الرأي ١٧١ - مفهوم السحر من حيث الوظيفة ١٧١ - مدى
 العلاقة بين السحر والدين ١٧٢ - علاقة ما بين السحر والدين في
 رأي فريزر ١٧٣ - الرد على رأي فريزر ١٧٤ - السحر كله
 تعاطفي ١٧٥ - الرواقيون وفكرة «تعاطف الكل» ١٧٥ -
 قرابة الفكرة الرواقية من صور بدائية ١٧٦ - المشاركة
 والشعائر السحرية ١٧٦ - تعاطف الكل اساس في الدين ١٧٧
 - كيف تتفق الفردية مع المشاركة المتعاطفة ١٧٧ - شاهد من
 فكرة «المانا» ١٧٨ - قسمة العمل نقلت الدين الى طور جديد
 ١٧٩ - ايجاد آلهة وظيفية ١٧٩ - امثلة من الدين الروماني ١٧٩
 - آلهة الموقد عند الرومان ١٨٠ - الدين الاغريقي ١٨١ - آلهة
 عهد هوميروس ١٨١ - تشخيص الآلهة ١٨١ - صورة من
 الالباذة ١٨٢ - الخير والشر واهميتهما في اديان التوحيد ١٨٣ -
 الدين الزرادشتي ١٨٣ - انهزام الموقف الحيادي في دين
 زرادشت ١٨٤ - الاديان الاخلاقية والطبيعة ١٨٤ - الطبيعة في
 الدين البدائي وفي دين زرادشت ١٨٥ - مبدأ الاستقامة في الدين
 الاخلاقي ١٨٥ - قيمة العمل في الدين الاخلاقي ١٨٥ -
 الانسان حر مختار في دين زرادشت ١٨٦ - التعاطف المشترك

في الفلسفة الاغريقية ١٨٦ - اين هي طفرة برجسون ١٨٧ - مناقشة رأي برجسون ١٨٨ - ونظرية فريزر ١٨٩ - موقف متديني عصر النهضة من السحر ١٨٩ - معنى التطور الديني ١٨٩ - فكرة الحرام ودلائلها على التطور في الدين ١٩٠ - بلوغ فكرة الواجب الاجتماعي ، كيف ؟ ١٩١ - اتساع مدلول الحرام ١٩١ - كيف تتغلب الاديان الراقية على هذا النظام ١٩٢ - المحرمات في الاديان السامية ١٩٢ - الطهارة وضدها في دين زرادشت ١٩٢ - تغيير الدافع وراء الحرام ١٩٣ - الدين لا يرفض الحرام نفسه ١٩٣ - التمييز بين نوعين من انتهاك حرمة الدين ١٩٤ - تغير معنى الحرام في الدين ١٩٥ - الحرام يحمي حال الانسان بين أمر ونهي ١٩٥ - تحويل الطاعة السالبة الى شعور ديني يخفف من وطأة الحرام ١٩٦ -

(٨) اللغة ١٩٨

الصلة بين اللغة والاسطورة ١٩٨ - رأي ماكس ملر في هذه الصلة ١٩٩ - مناقشة رأي ملر ١٩٩ - الطبيعة والمجتمع لدى البدائي سيان ٢٠٠ - اللغة السحرية واثرها في الطبيعة ٢٠٠ - اكتشاف عجز اللغة السحرية ٢٠٠ - الكلمة اصبحت ذات وظيفة سمائية لا سحرية ٢٠١ - الاهتمام الى قيمة واللوجوس ٢٠١ - اللوجوس في فلسفة هرقليطس ٢٠١ - الرأي المتأخري في اللغة ٢٠٢ - تبشير الرأي الصوتي في اصل اللغة ٢٠٣ - السوفسطائيون واللغة ٢٠٤ - اللغة عند السوفسطائيين غائية نفعية ٢٠٥ - عجز النظريات الثلاث في اللغة وسببه ٢٠٦ - ظهور نظرية ترى ان اصل اللغة نداءات وصيحات ٢٠٦ - قيمة هذه النظرية في الربط بين الانسان والحيوان ٢٠٦ - نقص النظريات البيولوجية عامة ٢٠٨ - مثل من اوتو يسبرسن ٢٠٩ - مثل من جريس دي

لاجونا ٢١٠ - استمرار البحث في اصل اللغة ٢١٢ - الفوضى
 في معالجة المشكلات اللغوية ٢١٢ - اتخاذ التاريخ طريقاً لدرس
 الكلام ٢١٣ - هرمان بول والتاريخ اللغوي ٢١٣ - الاعتماد على
 السيكلوجيا الى جانب التاريخ ٢١٤ - هببوت واثره في تطوير
 الدراسات اللغوية ٢١٥ - تطور علم اللغة مشبه لتطور سائر
 العلوم ٢١٧ - زيادة التركيز على المشكلات البنائية ٢١٨ - دي
 سوسير وقسمته اللغة في قسمين ٢١٨ - المشكلات البنائية في
 الفونولوجيا ٢١٩ - ظهور التفسير المادي على يد النحويين الجدد
 ٢٢٠ - مرحلة اخرى من التطور في الاتجاه البنائي
 ٢٢١ - اثر الفونيمات في استقلال اللغة ٢٢٣ -
 هل لكل لغة صورة فردية مستقلة ؟ ٢٢٤ - رأي مل في العلاقة
 بين المنطق والنحو ٢٢٥ - ظواهر الفردية في المفردات من لغة
 واحدة ٢٢٥ - هل يمكن وضع نحو عام ٢٢٦ - هل هناك
 مقولات كلية تنطبق على جميع اللغات ٢٢٦ - درس الكلام
 الانساني ممكن من وجهين ٢٢٧ - اللغة تطورت من جذور ذات
 مقطع واحد ٢٢٨ - ضعف النظرية الرومنطيقية ٢٢٨ - رأي
 ميه في اللغة البدائية يرد على فكرة التطور من جذر احادي ٢٢٨ -
 التنوع في اللغة يبهج العالم اللغوي ٢٢٩ - التنوع يتطلب من
 الفيلسوف ايجاد خصائص عامة ٢٢٩ - تناقض عمل اللغة مع
 غايتها الفلسفية ٢٢٩ - اللغة في هذا التناقض كالدين ٢٣٠ -
 حين الانسان الى لغة موحدة ٢٣٠ - وحدة اللغة الحققة وظيفية
 ٢٣٠ - هل تتفاوت اللغات في تحقيق هذه الغاية ٢٣١ -
 سيكلوجية الكلام ٢٣٢ - الامثلة الشاذة لاثبات الموقف
 السيكلوجي ٢٣٢ - حال الطفل ودلالته السيكلوجية ٢٣٣ -
 نجربتنا حين نتعلم لغة اجنبية ٢٣٤ - مقارنة بين الطفل والراشد

في اتقان اللغة ٢٣٤ - محاولة لتعليل تفوق الطفل ٢٣٥ - مناهج التصنيف في اللغات المختلفة ودلالاتها على استقلال كل لفظ بدلالته ٢٣٦ - لفظة قر في الاغريقية واللاتينية ٢٣٦ - وظيفة الاسم ٢٣٧ - الكلمات معالم في الطريق الى الافكار العلمية ٢٣٧ - تطور الكلام من مرحلة حسية الى تجريدية ٢٣٧ - اسماء الجمل في العربية ٢٣٨ - الجزئيات لها مسميات محددة في اللغات البدائية ٢٣٨ - الاهتمام بالكليات او الجزئيات تابع للحاجات الحضارية ٢٣٩ - دراسة الانتقال من المحسوسات الى المجردات ٢٣٩ -

(٩) الفن ٢٤١

رد الفن الى المعرفة النظرية او الاخلاق ٢٤١ - بوجارتن يضع منطقاً للخيال ٢٤٢ - الصراع في الفن بين الموضوعية والذاتية ٢٤٢ - المحاكاة تمثل القطب الموضوعي ٢٤٣ - رأي ارسطو طاليس في المحاكاة ٢٤٣ - كيف نوفق بين المحاكاة - سقراطية الخلق الفني ٢٤٤ - الى اي مدى يمكن الابتعاد عن الطبيعة ٢٤٥ - موقف الكلاسيكيين المحدثين من المحاكاة ٢٤٥ - العقبة الكبرى في طريق المحاكاة ٢٤٥ - روسو ثورة على المحاكاة ٢٤٦ - الفن المشخص او التعبيري ٢٤٦ - رأي جوته ٢٤٦ - ما الفن المشخص ؟ ٢٤٧ - تعريف وردزورث ٢٤٧ - لابد من ان يكون الفن تشكيمياً ٢٤٨ - حدود العاطفة في الفن ٢٤٩ - رأي كولنجوود بفعل المبنى البنائي ٢٤٩ - الغائية اساس في التعبير ٢٤٩ - العاطفة وحدها ستمتالية لا فن ٢٥٠ - معنى الموضوعية في الفن ٢٥٠ - الفن تكثيف وتجسيد ٢٥١ - الرؤية في الفن حدس وكشف ٢٥١ - العلم وتجريد والفن تكثير ٢٥٢ - تكثير الفن باختلاف الرؤية لدى كل فرد فنان ٢٥٢ - مثل ذكره رختر ٢٥٣ - توضيح الصلة

بين الذاتية والموضوعية في الفن ٢٥٤ - علاقة الفن بالطبيعة في رأي جونته ٢٥٥ - الفن حدس يفسر الواقع بالصور ٢٥٥ - لا اخلاقية الفن عند افلاطون وتولستوي ٢٥٥ - مناقشة هذا الرأي ٢٥٦ - رأي شيكسبير في وظيفة الفن المسرحي ٢٥٦ - تفسيرنا الحديث لنظرية التطهير الارسطوطاليسية ٢٥٧ - هل هذا ينطبق على الفنان دون المشاهد ٢٥٩ - التراجيديا والكوميديا سيان في الجوهر ٢٥٩ - من الخطأ ادراج الفن تحت وصف نفسي ٢٦٠ - الكوميديا وطريقتها في التطهير ٢٦٠ - تفسير معنى الاحساس بالجمال ٢٦١ - رأي بان الفنان يستخلص الجمال من الطبيعة ٢٦٢ - كروتشه ينكر جمال الطبيعة ٢٦٢ - التمييز بين جمال عفوي وجمال جمالي ٢٦٣ - الفن عالم مستقل ٢٦٣ - الكلاسيكيون والخيال ٢٦٣ - الرومنطيقية والخيال ٢٦٤ - تصوير ادورد يونج للنظرية الرومنطيقية ٢٦٤ - المحال الوحيد للفن هو العجيب والمعجز ٢٦٤ - عودة الخيال الشعري الى الاسطورة ٢٦٥ - الاسطورة لاتموت وهي نبع للخيال لا ينضب ٢٦٦ - التجسيد هو الامر الاول لا بعث الحياة في الموجودات ٢٦٧ - استقلال التجسيد في كل فرع من فروع الفن ٢٦٧ - ابتكار العقدة في المأساة اهم مظاهرها عند ارسطو ٢٦٨ - وصل الشعر بالفلسفة لدى الرومنطقيين ٢٦٩ - اختيار الالمحدود موضوعاً للفن ٢٧٠ - نشوء الثنائية في النظرية الرومنطيقية (المحدود والالمحدود) ٢٧٠ - صلة الطبيعيين بالخيال ٢٧١ - النظريات السيكلوجية في الفن ٢٧٣ - نظرية اللذة ٢٧٣ - سانتيانا ونظرية اللذة ٢٧٤ - نظريات اخرى ترد على نظرية اللذة ٢٧٦ - اخضاع الفن للنطق ٢٧٦ - رد الرومنطقيين ٢٧٦ - رأي برجسون ٢٧٧ -

الخدس البرجسوني قوة سالبة ٢٧٨ — رد على رأي برجسون
 ٢٧٨ — رأي شافنسبري ٢٧٩ — نظرية نيتشه ٢٨٠ — النظريات
 التي ترى الفن نوعاً من اللهو ٢٨١ — ثلاث قوى من الخيال اثنتان
 منها تظهران في اللعب ٢٨٢ — الغاية من الفن مختلفة عن الغاية
 في اللعب ٢٨٣ — تطوير النظرية المتصلة باللعب ٢٨٤ — رأي
 شيللر ٢٨٤ — لماذا اختار شيللر هذا الاتجاه ٢٨٥ — اختلاف
 الدارسين في صلة الفن بالتجربة الواقعية ٢٨٥ — مقايضة الفن
 كسالتنويم والحلم والنشوة باطلة ٢٨٧ — الفرق بين العلم والاخلاق
 والفن ٢٨٨ كالفن واللغة في نظر كروتشه ٢٨٨ — الفرق بين عمل
 الفنان وعمل العالم ٢٨٨ — زيادة بيان في الفرق بين الفن والعلم ٢٩٠.

(١٠) التاريخ ٢٩٢

انهيار النظرية الكلاسيكية في الانسان ٢٩٢ — اورتيجياي
 جاسيه يوضح هذا الرأي ٢٩٢ — الوعي التاريخي ٢٩٥ —
 الاصل الاسطوري لا التاريخي ٢٩٥ — بين هيرودوت
 وثوقيديدس ٢٩٥ — رانكه والوعي التاريخي ٢٩٦ — ما الحقيقة
 التاريخية ؟ ٢٩٦ — الفرق بين الحقيقة المادية والتاريخية ٢٩٧ —
 مثل محسوس لتوضيح معنى الحقيقة التاريخية ٢٩٨ — خطأ المنهج
 في البحث عن الفرق بين التاريخ والعلم ٢٩٩ — التمايز بين التاريخ
 والعلم قائم في المادة ٣٠٠ — قيمة هيردر في تطور الفكرة التاريخية
 ٣٠٢ — كروتشه والترعة التاريخية المتطرفة ٣٠٤ — موقف نيتشه
 ٣٠٤ — رد على رأي نيتشه ٣٠٥ — اعادة النظر امر واجب
 لاستمرار التاريخ والحضارة ٣٠٥ — التاريخ السياسي يحتاج
 اعادة النظر كغيره من انواع التاريخ ٣٠٧ — اختلاف النظر
 باختلاف المجالات المدركة ٣٠٨ — مثل على اعادة التفسير مقتبس
 من فريرو ٣٠٩ — التاريخ اعادة عكسية للواقع ٣١٢ — الرغبة

في الخلود اساس التاريخ والحضارة ٣١٢ - الثورة على الموت
 ٣١٣ - طلب الخلود في مختلف الانماط الحضارية ٣١٣ - قوة
 التذكر التاريخي هامة في التخليد ٣١٤ - اتجاه مومسن في فهم
 وظيفة التاريخ ٣١٥ - هل يقوم منطق التاريخ على الجزئيات
 ٣١٦ - خطر الفصل بين الكلي والجزئي ٣١٦ - ورطة التاريخ:
 كيف تنفذ من الذاتية الى وضع موضوعي ٣١٧ - مؤلفات رانكه
 مثل على الموضوعية ٣١٨ - هجمات عنيفة على طريقة رانكه
 ٣١٨ - عمق الطابع الذاتي في مؤلفات رانكه ٣١٩ -
 تعاطف رانكه هو تعاطف المسرحي مع شخصياته المختلفة
 ٣١٩ - تاريخ العالم حكم على العالم ، حكمة يصدقها هيجل
 ورانكه ٣٢٠ - اخلال خصوم رانكه بواجب المؤرخ ٣٢١ -
 بركهات يعبر عن هذا الواجب ٣٢٢ - صلة التاريخ بالعواطف
 ٣٢٢ - الفرق بين موضوعية التاريخ وموضوعية العلم ٣٢٣ -
 درجات التطور في مدلول الصديق التاريخي ٣٢٤ - تين يربط بين
 عمل المؤرخ وعمل العالم ٣٢٥ - قانون العلية في التاريخ كما يراه
 تين ٣٢٦ - العلية والحرية غير متعارضتين ٣٢٦ - تباعد ما بين
 تين ودلتي في النظر وتقاربهما في التطبيق ٣٢٧ - رأي تين فيه
 رد على منهجه الطبيعي ٣٢٨ - البون بين ما يقوله تين نظرياً
 وبين ما يطبقه عملياً ٣٢٩ - اي الحقائق تستحق ان تدخل نطاق
 التاريخ ٣٣١ - الاتجاه الى المنهج الاحصائي ٣٣٣ - المؤرخ
 بكل والايمان المطلق بالاتجاه الاحصائي ٣٣٣ - مناقشة بكل
 ٣٣٤ - الاحصاء لا يستعمل في المشكلات الفردية ٣٣٥ - الاتجاه
 السيكلولوجي في التاريخ ٣٣٦ - كارل لمبرخت مثل على هذا
 الاتجاه ٣٣٦ - الحتمية داء كل مسن نظريتي بكل ولمبرخت
 ٣٣٨ - للرد على لمبرخت نسأل : كيف حصل على شواهد
 ٣٣٨ - ازمة في الفكر التاريخي اثارها لمبرخت ٣٣٩ - لا نكران

في استغلال المناهج المادية لدراسة الظروف المادية ٣٤١ - معايير
غير مادية قد يستعملها المؤرخ ٣٤١ - اي المنهجين افضل وايهما
هو العلمي ٣٤٢ - انحياز التاريخ الى الجهة الفنية ٣٤٢ - مؤمن العالم
يؤكد هذا الميل ٣٤٣ - الفرق بين التاريخ والعمل الفني ٣٤٣ -
المؤرخ يجمع بين عمل العالم وقوة التخيل الفنية ٣٤٤ - ما النسبة
بين هذين العنصرين لدى المؤرخ ٣٤٤ - الفرق بين مثالية التاريخ
ومثالية الفن ٣٤٥ - لماذا اختار المؤلف هذا السياق في هذا
الفصل ٣٤٦ -

٣٤٨

(١١) العلم

العلم ذروة الفعاليات الانسانية ٣٤٨ - لا تنازع في
وظيفة العلم ٣٤٩ - العلم لا يستقل في تحقيق التثبيت والترسيخ
٣٤٩ - حاجة الحضارة الى العلم وغيره ٣٥٠ - العلم تبسيطي
والحضارة معقدة ٣٥٠ - المرحلة الاسطورية في العلم ٣٥٠ -
اللغة اساس في التصنيف ٣٥١ - التصنيف اللغوي ربما لم يكن
علمياً ٣٥١ - التصنيف العلمي مقدر غائي عامد مصطنع ٣٥٢ -
الرموز الرياضية في وصف التجارب الكونية : الفلك البابلي
٣٥٣ - الفيثاغوريون والعدد ٣٥٤ - قصور الفكر الفيثاغوري
٣٥٤ - قيمة العدد ٣٥٥ - وقفة حائرة ازاء العدد في الفكر
القديم ٣٥٦ - نظرية الاستمرار الرياضي ٣٥٧ - ظهور هندسة
ديكارت التحليلية ٣٥٨ - اخفاق ديكارت في خلق طبيعيات
رياضية ٣٥٩ - لغة العلم في القديم مجازية ٣٥٩ - رمزية العدد
لغة مجردة ٣٦٠ - التحليل الطيفي لا بد ان يؤدي الى حل مشكلة
الذرة ٣٦٠ - الكيمياء مثل على التطور في اللغة العلمية ٣٦١ -
السياق نفسه في البيولوجيا ٣٦٢ - لينتز والرمزية الرياضية ٣٦٣ -
افلاطون فيثاغوري في تقديره للرياضيات ٣٦٤ - الرياضيات

تدرس العلاقات وأنماطها ٣٦٥ - الفكر الرياضي لا يتولد
 من حاجات عملية ٣٦٥ - الرأي في الحتمية العددية ٣٦٦ - موقف
 العقل العلمي بوضحه هلهولتز ٣٦٨ - نواضع العالم امام
 الطبيعة لا يفسر حقيقة عمله ٣٦٩ -

(١٢) خلاصة وخاتمة ٣٧٠

فهرس الاعلام

٣٤٨ ، ٣٤١ ، ٣١٣ ، ٣٠٦		
٣٦٥ ، ٣٦٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥		
٣٤٤	١٠٩	لبسن ، هنريك
٣٠٦ ، ١٦٩	٢٠٦	أبيقور
١٨١	٢٥٩	أجاثون
٢٠٣	١٨١	اجامنون
١٦٩	٣٤١	أديكس
٢٧٥ ، ٢٥٥	٣٤٩	أرخيدس
٣١١-٣٠٩	٣٢ ، ٣١ ، ٣٢	ارسطوطاليس ١١
١٨٢	٤٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٢٠١	
٤٠ - ٣٨	٢٥٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٣ ، ٢٢٥	
١٨٧ ، ٤٩ ، ٤٦	٢٦٨ ، ٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥١	
٣٧٧	٣٥٧ ، ٣٥٣ ، ٣٤٨ ، ٢٧٥	
١١٠ ، ١٠٩ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٩	٣٧٢ ، ٣٦٣	
٣٠٦	٢٦١ ، ٢٥٩	أرسطوفان
٣١١	٢٨٠ ، ١٧١ ، ١٦٩	أسخيلوس
٣٦٩ ، ٣٦٦	٦٨ ، ٤٦	أفتينس
	٣٦ ، ٣٥ ، ٣١ ، ١٤ ، ١١	أفلاطون ١١
	٩٦ ، ٩٢ ، ٨٨ ، ٥٢	
٢٧٧	١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٢ ، ١٢١	
٢٤٥	٢٥٥ ، ٢١٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣	
٢٥٤	٢٩٣ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٦	

ب

۲۶۳	بو الو	بارمیندیس ۳۳ ، ۲۰۲
۵۶	بو انکاریه	باقلوف ۷۱
۲۶۴	بودمر	بانینی ۲۲۰
۳۶۰	بور	بتجروف ، جیمس ۲۳
۲۸۳	بوزانکیه ، برنارد	برا کلسس ۱۸۹
۳۷۶ ، ۲۱۴ ، ۲۱۳	بول ، هرمان	براینجر ۲۶۴
۱۲۰	بولیسی	برجسون ، هنری ۱۰۸ ، ۱۶۵ - ۱۶۸ ،
۱۸۹	بومبونازی	۱۸۷ ، ۱۸۸ ، ۲۷۷ ، ۲۷۸ ،
۳۰۹	بومی	۲۸۰
۲۴۲	بومجارتن ، الکسندر	بردجان ، لورا ۸۰ ، ۸۲ ، ۸۳ ،
۳۳۹	بویکلن	۸۵ ، ۸۶ ، ۱۱۷ ، ۲۳۲ ،
۳۶۲	بویل ، روبرت	۲۳۳
۲۳۰	بویه ، یعقوب	برسند ۱۵۹ ، ۱۶۰
۳۳۹ ، ۲۶۰ ، ۲۵۵	بیتهوفن	برکلیس ۳۴۵
۹۷ ، ۹۶	بیرکلی	برکهارت ، یعقوب ۱۹ ، ۲۹۴ ،
۱۸۹	بیکو ، جیوفانی	۳۲۲ ، ۳۴۲ ، ۳۴۶
۳۷۹ ، ۲۷۲ ، ۱۴۳	بیکون	بروتاجوراس ۲۰۵
۳۵۶	بینو	بروجمان ، کارل ۲۱۳
ت		برومفیلد ۲۲۴ ، ۲۲۶
		بروندل ، ف . ۲۲۲ ، ۲۲۷
		برونو ، جوردانو ۵۲ ، ۵۳ ، ۱۸۹
		بسکال ۹ ، ۴۴ - ۴۶ ، ۴۸ ، ۴۹ ،
۱۶۴	تایلور	۱۴۱ ، ۳۰۹
۳۲۱	ترایتشکه ، هنریش فون ۳۱۸ ، ۳۲۱	بطر ، صمویل ۱۲۳
۱۴۱	ترتلیان	بکل ۳۳۳ ، ۳۳۴ ، ۳۳۸
۲۲۱	تروبنزکوی	بلانک ، ماکس ۳۲۳ ، ۳۶۹
۳۳۱	ترویلنش ، ارنست	بلزاک ۲۷۱ ، ۳۴۷
۳۰۹	تللیا (ابنة شیشرون)	توما الاکوبینی ۲۱۴ ، ۲۱۵
۲۵۶	تولستوی	
۱۴۰ ، ۴۳	توما الاکوبینی	

۳۷۸ ، ۳۷۷ ، ۳۴۴ ، ۳۳۲
 ۳۴۷ جوجول
 ۱۱۸ ، ۱۱۷ جولدشتين، كرت
 ۳۰۷ جوندولف ، فردريك
 ۱۹۵ ، ۱۹۱ ، ۱۹۰ جيفوتز
 ۱۳۳ جيمس ، وليم

د

داروين ۱۰ ، ۵۶ - ۵۹ ، ۱۳۱ ،
 ۳۵۲ ، ۲۸۴ ، ۲۱۸ ، ۲۰۷
 ۲۵۷ ، ۲۵۱ دانفشي ، ليوناردو
 ۳۶۲ دالتون
 ۳۷۷ ، ۲۷۵ ، ۲۶۸ ، ۲۴۴ داتي
 ۳۷۸

۳۵۶ ددكند
 ۳۴۷ ، ۲۵۵ دستويفسكي
 ۲۱۳ دلبرك ، ب .
 ۳۷ دلني ، وليم
 ۲۳۸ ، ۱۵۷ دن شتاين ، كارل فون
 ۲۳۹

۱۵۲ دوركهام
 ۱۶۱ ، ۱۶۰ دي جروت
 ۵۶ - ۵۴ ديلرو
 ۲۶۲ ديرر ، البرخت
 ۳۰ ، ۱۶ ، ۱۰ ديكرارت
 ۵۳ ، ۴۸ ، ۴۴ ، ۴۱
 ۳۵۸ ، ۳۰۰ ، ۱۰۴ ، ۷۸
 ۳۵۹

۱۳۷ نيتيان
 ۲۴۵ ، ۱۳۱ ، ۶۰ نين ، هيوليت
 ۳۳۰ - ۳۲۸ ، ۳۲۶ ، ۳۲۵
 ۳۳۹

ث

۳۴۷ ، ۲۶۱ ثرفانتس
 ۳۴۷ ثكري
 ۷۸ ثورندايك ، ل.ل.
 ۳۴۴ ، ۲۹۶ ، ۲۹۵ ثوقيدبس
 ۳۴۵
 ۳۶۳ ثيوفراسطس

ج

۳۵۵ ، ۲۱۱ جاردنز
 ۲۹۲ - ۲۸۶ ، ۲۸۶ جاسيه ، اورتيجاني
 ۲۹۴
 ۳۲۲ ، ۱۱۹ ، ۵۳ ، ۱۰ جاليليو
 ۳۶۹
 ۳۶۷ ، ۱۲۰ ، ۵۶ جاوس
 ۵۵ جيون
 ۳۱۷ جريجوروفوس
 ۲۲۰ ، ۲۱۳ جريم ، يعقوب
 ۱۵۹ ، ۱۵۷ جلن
 ۱۸۹ جياتستا البورتاوي
 ۲۴۶ ، ۲۳۵ ، ۱۲۲ ، ۱۰۹ ، ۱۹ جوتنه
 ۲۷۰ ، ۲۵۵ ، ۲۴۸ - ۲۴۶
 ۳۰۳ ، ۲۹۷ ، ۲۸۷ ، ۲۷۲

س

سايير ۲۲۴ ، ۲۲۶ ، ۲۲۷ ، ۲۳۱

سانتيانا ۲۷۴
سبنسر ، هربرت ۱۵۷ ، ۱۵۹ ، ۲۸۴ ، ۱۶۰

سبينوزا ۵۴ ، ۵۳ ، ۱۰
ستايفل ، مايكل ۱۲۰
ستيرن ، لورنس ۳۴۷
ستيرن ، ولیم ۲۶۱ ، ۱۱۰

سقراط ۳۴ - ۳۶ ، ۳۸ ، ۳۹ ، ۴۶ ، ۱۲۷ ، ۲۰۳ ، ۲۵۹ ، ۳۰۶

سکوت ، ولتر ۲۹۶
سمث ، و. روبرتسون ۱۶۳ ، ۱۹۲ ، ۱۹۳

سمون ، ر ۱۰۵ ، ۱۰۶
سنکا ۱۸۷

سومير ، فرديناند دي ۲۱۸ ، ۲۱۹
سومرفيلد ، آرنولد ۳۶۰ ، ۳۶۲
سويفت ۵۵ ، ۱۲۳
سيمونيدس ۲۴۴

ش

شافسبري ۲۷۹ ، ۲۸۰
شتراس ، فاير ۵۶
شلایر ماخر ۱۷۱

ديکنز ۲۶۱ ، ۳۴۷
ديوي ، جون ۱۳۳ ، ۱۳۴ ، ۱۵۰

ذ

ذيموقريطس ۹۶ ، ۲۰۶ ، ۳۵۹

ر

راسک ، ر.ک. ۲۲۰
رانکه ۱۹ ، ۲۹۶ ، ۳۰۲ ، ۳۱۸ - ۳۲۴ ، ۳۲۱

رتشاردس ، ا.ا. ۲۸۶
رخت ، لودفيج ۲۵۳

رسل ۳۵۶
رمبراندت ۱۰۹ ، ۱۳۷ ، ۳۴۱
روسو ۶۷ ، ۱۲۲ ، ۱۲۳ ، ۲۰۶ ، ۲۴۶ ، ۲۴۷ ، ۲۸۵

روفائيل ۱۳۷
ريفيز ، جورج ۷۲ ، ۷۳ ، ۷۵ ، ۲۰۸

ريکرت ۳۱۶ ، ۳۳۱
ريمان ۵۶ ، ۱۲۰ ، ۳۶۶

ز

زرادشت ۱۸۳ ، ۱۸۴
زولا ، اميل ۲۵۳ ، ۲۷۱
زينون ۳۳
زيوکسيس ۲۴۵

۳۱۲ - ۳۰۸	فریرو	۲۶۹ ، ۲۵۵ ، ۲۱۶	شلنج
، ۱۵۸ ، ۱۵۷ ، ۱۴۶	فریزر	۲۷۲	
، ۱۸۸ ، ۱۷۶ - ۱۷۳ ، ۱۷۱		، ۲۲۸ ، ۲۲۰	شلیجل ، ا. ف .
۱۹۱ ، ۱۸۹		، ۳۰۳ ، ۲۷۷ ، ۲۷۰ ، ۲۶۹	
۱۳۷	فلاسکیز	۳۰۶	
۲۵۳ ، ۱۳۷	فلفلان ، هینریش	۲۱۳ ، ۲۰۷	شلیخر ، اوجست
۳۴۷	فلویر	۳۰۵ ، ۳۰۴	شوبنهور
۳۱۶	فندلباند	۳۰۹ ، ۳۰۸	شیشرون
۱۰۰	فنکله ، هوجو	، ۲۵۹ ، ۲۵۷ ، ۲۵۶	شیکسیر
۱۲۳ ، ۵۵	فولتیر	، ۲۶۸ ، ۲۶۵ ، ۲۶۴ ، ۲۶۰	
۳۵۴ ، ۳۵۳	فیثاغورس	۳۷۸ ، ۳۷۷ ، ۳۴۷ ، ۳۱۹	
۲۹۵ ، ۲۶۵ ، ۲۰۶	فیکو	، ۶۳ ، ۶۲ ، ۱۸	شیلر ، ماکس
۳۰۶	فیکینو ، مارسیلیو	، ۲۸۶ - ۲۸۴ ، ۲۶۶ ، ۲۶۰	
۳۳۹	فیورباخ	۳۲۲ ، ۳۲۰	

ق

۳۰۹ ، ۳۰۷ قیصر

ک

۳۳۶ ، ۳۳۵	کاتو
۲۲۷	کارناب
، ۲۱ - ۱۸ ، ۱۶ ، ۱۵	کاسیر
، ۷۵ ، ۶۸ ، ۵۲ ، ۴۱ ، ۳۷	
، ۲۳۴ ، ۱۴۹ ، ۱۱۹ ، ۸۵	
۳۵۳ ، ۳۲۴ ، ۲۹۳ ، ۲۸۰	
، ۶۸ ، ۲۰ ، ۱۹ ، ۱۲	کانت
، ۱۴۵ ، ۱۲۱ ، ۱۱۵ ، ۱۱۴	
، ۲۵۴ ، ۲۵۲ ، ۲۴۱ ، ۱۴۷	
، ۳۲۷ ، ۳۰۷ ، ۳۰۰ ، ۲۷۴	

ص

۲۸۰ ، ۲۵۹ ، ۱۸۱ صوفو کلیس

ط

۳۳ طالیس

ف

۱۱۱	فابر ، جول
۲۶۹	فخته
۵۶	فختر ، ج . ث .
۲۱۷	فردی
۹۸ ، ۹۷	فرز ، هایتر
۱۷۵ ، ۱۴۵ ، ۶۱	فروید
۳۵۶	فریجه

۳۶۲	لافوازيه	۳۳۹ ، ۳۴۲ ، ۳۴۹ ، ۳۷۸ ،
۳۱۱	لييدس	۳۷۹
۲۱۷	لجرائج	۱۰۴
۲۳ ، ۲۲	لسنج	۱۸۹
۱۵۳ ، ۱۵۲ ، ۱۲۹	لفي - برول	۲۸۸ ، ۲۶۲ ، ۲۴۸
۳۴۰ - ۳۳۶	لمبرخت ، کارل	۳۰۴
۱۲۰	لوياتشفسکي	۳۶۷
۳۳۵	لوقان	۸۰ - ۸۴ ، ۲۳۲ ،
۲۰۶	لوقريطس	۲۳۳
۱ ، ۵۳ ، ۱۰۵ ،	ليينتز	۳۳۹
۳۶۴ ، ۳۰۵ ، ۲۳۰		۳۱۱ - ۳۰۹
۳۵۲	ليناوس	۱۸۹
۳۱۸	ليو ، هينريش فون	۱۰ ، ۴۹ ، ۵۲ ،
۲۵۵	ليوباردي	۵۳

م

۶۱	مارکس	۱۸۳ ، ۱۷۸ ، ۱۷۶
۳۶۹ ، ۲۱۷	ماکسويل	۲۶۸
۳۳۲	ماکولي	۱۴۹
۲۵۰	مالارميه	کولانج ، فستل دي ۱۶۱ ، ۱۶۲
۱۵۴ ، ۱۴۵ ، ۱۴۴	مالينووسکي	۲۴۹
۱۶۸ ، ۱۶۹ ، ۱۷۲ ، ۱۷۶ ،		کولنجوود ، ر.ج. ۰
۱۷۷		کومت ۱۲ ، ۱۲۸ - ۱۳۰ ، ۳۳۳
۳۳۱	ماير ، ادورد	کومين ، فيليب دي ۲۹۶
۱۷۰ ، ۱۶۹	مري ، جلبرت	کويلر ، فلفجانج ۷۴ ، ۷۵ ،
۲۹۴	مکيافلي	۷۹ ، ۸۷ ، ۸۸ ، ۱۱۱ ،
۲۲۵	مل ، جون ستيوارت	۳۷۳ ، ۲۰۸ ، ۱۱۲
۲۷۵ ، ۲۶۴ ، ۱۴۲	ملتون	کيرکجر ۲۳۰

ل

لاجونا ، جريس دي ۲۱۰ ، ۲۱۱

٥٦	هربارت
١٥	هرتز ، هيريش
١٦٩ ، ١٠٥ ، ٣٤ ، ٣٣	هرقليطس
٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥	
٢٥٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٥ ، ٣٧١	
٣٧٧ ، ٣٨٠	
١٠٦ ، ١٠٥	هرنج ، ايفالد
١٨١ ، ١٦٩	هسيود
٢٦٧	هلدبراند ، ادولف
٢٥٥	هلدرلن
٩٥ ، ٣٦٨	هلهولتز ، هرمان فون
٣٦٩	
٢١٥	هيبولت ، الكسندر فون
٢١٦ ، ٢١٥ ، ١٩	هيبولت ، فلهم فون
٢٣٦ ، ٢٣١	
٣٦٧	هملتون
٢٤ ، ٢٥	هندل ، تشارلس
١٠٥	هوايتهد
١١٠ ، ٢٤٣ ، ٣٧٧	هوراس
١٦٩ ، ١٧٩	هوميرس
٢١ ، ٤٢ ، ٢١٦ ، ٢٧٢	هيجل
٣٠٢ ، ٣٢٠	
١٩ ، ٨٩ — ٩٢ ، ٢٤٦	هيردر
٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣	
١٨١ ، ٢٩٥	هيرودوت
٢٢٧	هيلستف
٥٥ ، ٨٩ ، ٢٦١	هيوم

١٩٩ ، ١٩٨	مللر ، ف . ماكس
٣٠٦	مندلزون ، موسى
٢٦٠	موتسارت
١٢٢	مور ، توماس
٣٠٨	موريسون ، س . ا .
٢٦١ ، ٣٤٧	مولير
٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٤٣	مومسن
١٢٣ ، ٣٤٠ ، ٥٥	موتسكيو
٢٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٣٠٦	مونتين
٢٣٣	ميچورد . ر .
٢٩٩	ميناندر
٢٢٨	ميه ، ا .

ن

٣٦٣	نورثروب
٢٦٩ ، ٢٧٠	نوفالس
٣٢٤	نيبور
٦١ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣٠٤	نيشه
٣٠٥	
٩٦ ، ٩٧ ، ٢٥٢ ، ٣٠٠	نيوتن
٣٦٩ ، ٣٧٨	
١٠٠ — ١٠٢	نيوجياور ، اوتو

هـ

١٦٩	هاريسون ، جين آلن
٥٠	هازلت ، ولیم
٢٣٨	هامر — برجشتال
٣٦٧	هايسبرج

يسبرسن، اوتو ۲۰۹، ۲۱۰، ۲۱۷،

۲۲۶، ۲۴۰، ۳۵۱

يوربيدس ۱۶۹، ۲۸۰، ۳۱۹،

۳۴۵، ۳۴۷

يوكسكل، يوهان فون ۱۸، ۱۹،

۶۴-۶۶

يونج، ادورد ۲۶۴

و

ورخزورث ۲۴۷، ۲۵۵، ۲۵۶، ۲۶۶

ولف ۷۱، ۷۲، ۱۱۱

ي

يركس، روبرت م. ۷۲، ۷۵، ۷۶،

۸۹، ۹۱، ۱۰۷، ۱۳۲

المصادر والمراجع

Alexander, S.,

Beauty and other Forms of Value الجمال وأشكال أخرى من القيم

Aristotle: Metaphysics ما وراء الطبيعة

— Nicomachean Ethics الاخلاق الى نيقوماخس

— Poetics كتاب الشعر

Aurelius, Marcus: Ad Se Ipsum الى نفسه

Babbitt, Irving: The New Laokoon اللاوكون الجديد

Bacon: Novum Organum القانون الجديد

Bally, Charles: Le Langage et la Vie اللغة والحياة

Bergson: Essai sur les données مقال في الخواطر الآتية عن الضمير
immédiates de la conscience

— Les deux Sources de la morale et de مصدرا الاخلاق والدين
la religion

Bernheim: Lehrbuch der historischen موجز في المنهج التاريخي
Methode

Bernays, Jakob: Zewi Ab- بحثان في النظرية الارسطوطاليسية في الدراما
handlungen über die Aristotelische Theorie des Dramas

Bloomfield: Language اللغة

Bosanquet, Bernard: Three Lectures on علم الجمال
Aesthetics

Bowman, Archibald Allan: Studies in the دراسة في فلسفة الدين
Philosophy of Religion

Breasted, James Henry: Develop- تطور الدين والمكر في مصر القديمة
ment of Religion and Thought in Ancient Egypt

Breitinger & Bodmer: Diskurse der Maler حديث الرسامين

Brugmann, K. and Osthoff, H.: Morphologische ابحاث مورفولوجية
Unter Suchungen

Brunot, F.: La pensée et la langue الفكر واللغة

Bukle: History of Civilization in England تاريخ المدنية بالانجليزية

Burckhardt, Jakob: Weltgeschichtliche Betra- افكار في تاريخ العالم
chtungen

Burnet, John: Early Greek Philosophy الفلسفة الاغريقية القديمة

Bury, J. R.: The Ancient Greek Historians المؤرخون اليونان القدماء

Bywater, Ingram: Aristotle on the Art ارسطوطاليس في فن الشعر
of Poetry

Cassirer, E.: Descartes ديكارت

— Die Begriffsform im mythis- صورة الخاطر في الفكر الاسطوري
chen Denken

— Die Philosophie der Aufklärung فلسفة المعرفة

— Die Platonische Re- اليقظة الافلاطونية في انجلترا ومدرسة كيمبردج
naissance in England und die Schule von Cambridge

— Einstein's Theory of Relativity نظرية النسبية لاينشتين

— Individuum und Kosmos der الفرد والكون في فلسفة عصر النهضة
Philosophie der Renaissance

- Philosophie der Symbolischen Formen فلسفة الاشكال الرمزية
- Sprache und Mythos اللغة والاسطورة
- Substanzbegriff und Funktionsbegriff المادة والوظيفة
- Zur Logik der Kulturwissenschaften منطق التاريخ الحضاري
- Cassirer, H. W.: A Com- تعليق على كتاب بحث تحليلي في الحكم لكانت
mentary on Kant's « Critique of Judgment »
- Characters شخصيات التاريخ الروماني وأحداثه من قيصر الى نيرون
and Events of Roman History, from Caesar to Nero
- Codrington, R. H.: The Melanesians الميلانيزيون
- Collingwood, R. G.: The Principles of Art مبادئ الفن
- Comte: Cours de philosophie positive اتجاه الفلسفة الوضعية
- Lettres à Valat رسائل الى فالات
- Conway, William M.: Literary بقايا ادبية من كتابات البرخت ديرر
Remains of Albrecht Dürer
- de Coulanges, Fustel: La Cité antique الدولة القديمة
- Dante: Paradiso الفردوس
- Darwin: The Variation of Ani- تغير الحيوانات والنباتات لدى تألفها
mals and Plants under Domestication
- Descartes, Regulæ ad directionem ingenii قواعد لتوجيه العقبرية
- Dewey, J.: Experience & Nature التجربة والطبيعة
- Human Nature & Conduct الطبيعة الانسانية والسلوك الانساني
- Dhalla, M. N.: History of Zoroastrianism تاريخ الزرادشتية
- Diderot: Pensées sur L'interprétation de خواطر في تفسير الطبيعة
la nature

Diels: Die Fragmente der Voro- قطع للفلاسفة الذين كانوا قبل سقراط
sokratiker

Dove: Ausgewählte Schriftchen مقالات مختارات

Durkheim: Les formes élémentaires de الاشكال الاولى للحياة الدينية
la vie religieuse

Ferrero: Grandezza e decadenza di Roma عظمة روما وانحطاطها

Frazer: The Golden Bough الغصن الذهبي

— Lectures on the Early History محاضرات في التاريخ المبكر للملكية
of Kingship

Freud: Totem and Tabu الطوطم والمحرم

Fueter, ed.: Geschichte der Neueren His- تاريخ علم التاريخ الحديث
toriographie

Galileo: Dialogo dei due massimi حوار في النظامين العظيمين في الكون
sistemi del mondo

Gardiner, Alan H.: The Theory of Speech and نظرية الكلام واللغة
Language

Gasset, Ortega y: La dezhumanizacion سلب العنصر الانساني من الفن
del' arte

Gilbert, Katherine: Studies in Recent دراسات في علم الجمال الحديث
Aesthetic

Gillen, القبائل الاصلية في اواسط استراليا والقبائل الشمالية في اواسط استراليا
F. J. and Spencer, Sir Baldwin: The Native Tribes of
Central Australia, The Northern Tribes of Central
Australia

Goethe: Sprüche in Prosa اقوال مثورة

— Von deutscher Baukunst في فن العمارة الالماني

- Goldstein, Kurt: Human الطبيعة الانسانية في ضوء علم الامراض النفسية
Nature in the Light of Psychopathology
- Gooch, G. P.: History and التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر
Historians in the Nineteenth Century
- de Groot, J. J. M.: The Religion of the Chinese دين الصينيين
— The Religious System of China النظام الديني في الصين
- Gundolf, Friedrich: Caesar, Geschichte Seines قيصر ، تاريخ شهرته
Ruhm
- Haldane, J. B. S.: The Causes of Evolution اسباب التطور
- Hall, F. H. & Howe, Maud: Laura Bridgman لورا بردجمان
- Harrison, Jane Ellen: Prolegomena to مقدمة لدراسة الدين الاغريقي
the Study of Greek Religion
- Hasse, H. & Scholz, Heinrich,: الازمة في مبادئ أسس الرياضيات اليونانية
Die Grundlagen Krise der griechischen Mathematik
- Hegel: Rechtsphilosophie فلسفة القانون
- Helmholtz: Treatise on Physiological مقال في البصريات الفيزيولوجية
Optics
- Herder: Über den Ursprung der Sprache في اصل اللغة
- Hering, Ewald: Über وظيفة عامة للمادة العضوية
das Gedächtnis als eine allgemeine Funktion der organischen Materie
- Hildebrand, Adolf: Das Problem مشكلات الصورة في الرسم والنحت
der Form in der bildenden Kunst
- Hjelmstev: Principes de grammaire قواعد النحو العام
- Homer: The Odyssey الاوديسة
- Humboldt: Humboldt's Gesammelte Schriften مجموعة مؤلفات همبولت

- Hume: Treatise on Human Nature مقال عن الطبيعة الانسانية
- Jerusalem, Wilhelm: Laura في تعليم الصم والبكم والعميان
Bridgman - Erziehung einer Taubstumm - Blinden
- Jespersen: Language, Its Nature, Development and Origin اللغة : طبيعتها وتطورها وأصلها
- , The Philosophy of Grammar فلسفة النحو
- , Progress in Language التقدم في اللغة
- Jevons, F. B.: An Introduction to the History of Religion مقدمة لتاريخ الدين
- Joël, Karl: Jakob Burckhardt als Geschichtsphilosoph يعقوب بركهارت في التاريخ
- Kant: Critique of Judgment بحث تحليلي في الحكم
- , » » Practical Reason بحث تحليلي في العقل العملي
- , » » Pure » » » الفكر الخالص
- , Metaphysische Anfangsgründe der Naturwissenschaft, Vorrede المبادئ المتافيزيقية في العلم الطبيعي — المقدمة
- , Prolegomena to Every Future Metaphysics مقدمة لكل انجاء متافيزيقي يحد
- Koehler, Wolfgang: Optische Untersuchungen am Schimpansen und am Haushuhn بحث بصري عن الشمبانزي والفرأخ البيتية
- , Zur Psychologie des Schimpansen سيكولوجية الشمبانزي
- Keller, Helen: The Story of my Life قصة حياتي
- Keynes: A Treatise on Probability رسالة في الاحتمال
- Klein, Felix: Vorlesungen über die Entwicklung der Mathematik محاضرات في تطور الرياضيات في القرن التاسع عشر

الكلام ، وظيفته وتطوره
de Laguna, Grace: Speech, Its Function
& Development

التزعزعات القديمة والحديثة في علم التاريخ
Lamprecht: Alte und neue Rich-
tungen in der Geschichtswissenschaft

ما التاريخ
— , What is History

حياة لورا ديوي برديمان وتعليمها
Lamson, Mary Swift: Life and
Education of Laura Dewey Bridgman

جوهر الفن
Lange, Konrad: Das Wesen der Kunst

الميثولوجيا العقلية
Langer, F.: Intellectual Mythologie

قطع من مخطوطة ميناندر كشفت ونشرت
Lefebvre, Gustave: Fragments
d'un manuscrit de Ménandre, découverts et publiés

مقالات جديدة في الانتباه الانساني
Leibniz: Nouveaux essais sur l'en-
tendement humain

الوظائف العقلية في المجتمعات البدائية
Lévy-Bruhl: Les fonctions men-
tales dans les sociétés inférieures

العقلية البدائية
— , La mentalité primitive

فلسفة اوغست كومت
— , La philosophie d'Auguste Comte

اصل علم الصنعة وانتشاره
Lippmann, E. O. von: Entstehung und
Ausbreitung der Alchimie

اصل منطق افلاطون ونموه، مع بحث في اسلوب افلاطون وترتيب كتاباته زمنياً

Lutoslawski, W.: The Origin and Growth of Plato's Logic,
with an Account of Plato's Style and of the Chronology
of His Writings

الخطوات الاولى في النمو العقلي
Major, David R.: First Steps in Men-
tal Growth

الجريمة والعادة في المجتمع المتوحش
Malinowski: Crime and Custom in
Savage Society

- , The Foundations of Faith & Morals اسس الايمان والاخلاق
- , Myth in Primitive Psychology الاسطورة في سيكولوجيا البدائيين
- Marett, R. R.: Faith, Hope والايان والرجاء والاحسان في الدين البدائي
& Charity in Primitive Religion
- , The Threshold of Religion عتبة الدين
- Meinhof, C.: Grundzüge einer مخطط عام من النحر المقارن للغات البانتو
vergleichenden Grammatik der Bantu - Sprachen
- Meyer, Eduard: Zur Theorie und Metho- في نظرية التاريخ ومنهجه
dik der Geschichte
- Minor, J. (ed.) : Prosaische Jugendsch- التاج الثري في عهد الشباب
riften
- Mises, von: Wahrscheinlichkeit, Sta- الاحتمال والاحصائيات والحقيقة
tistik und Wahrheit
- Montaigne: Essais مقالات مونتين
- Morison, S. E.: The Oxford History تاريخ اكسفورد للولايات المتحدة
of the United States
- Müller, F. Max: Contributions to the اسهامات في علم الميثولوجيا
Science of Mythology
- , Lectures on the Science of Religion محاضرات في علم الدين
- Murray, Gilbert: Five Stages of Greek خمس مراحل من الدين الاغريقي
Religion
- Nietzsche: Unzeit gemasse Betrachtungen افكار في غير اوانها
- , The Will to Power ارادة القوة
- Neugebauer, Otto: Vorgriechische الرياضيات قبل عهد الاغريق
Mathematik
- Newton: Principia مبادئ نيوتن

- Otto, Rudolf: Das Heilige المقدس
- Parker, De Witt H.: The Principles of Aesthetics مبادئ علم الجمال
- Pascales: Pensées افكار
- Paul, H.: Prinzipien der Sprachgeschichte مبادئ تاريخ اللغة
- Philosophy and History, مقالات قدمت لارنست كاسيرر،
Essays Presented to Ernest Cassirer الفلسفة والتاريخ
- Planck, Max: Die Einheit des physikalischen Weltbildes وحدة العالم المادي
- Plato: Apology الدفاع
- , Phaedrus القيدروس
- , Philebus فيلبس
- , Republic الجمهورية
- , Symposium المأدبة
- Pott, A. F.: Etymologische Forschungen aus dem Gebiete der indogermanischen Sprachen دراسات ايتمولوجية في اللغات الهندية الجرمانية
- Prescott, F. C.: Poetry and Myth الشعر والاسطورة
- Reden und Aufsätze مجلد يحوي خطباً ومقالات
- Révész, G.: Die mens- صور التفاهم الانساني وما يسمى لغة الحيوانات
chlichen Kommunikationsformen und die sogenannte
Tiersprache
- Richards, I. A. and Ogden, C. K.: The Meaning of Meaning معنى المعنى
- Richards, I. A.: Principles of Literary Criticism مبادئ النقد الادبي
- Richert: Die Grenzen der natur- عملية تكوين الافكار العلمية وحدودها
wissenschaftlichen Begriffsbildung

- Robertson - Smith, W.: Lectures on the محاضرات في دين الساميين
Religion of the Semites
- Rohde, Erwin: Psyche. مذهب الارواح والاعتقاد بالخلود لدى الاغريق
The Cult of Souls and Belief in Immortality among
the Greeks
- Santayana: The Sence of Beauty الاحساس بالجمال
- Sapir, Edward: Language اللغة
- de Saussure, Ferdinand: Cours de linguistique انجاء علم اللغة العام
générale
- Scheler, Max: Die Stellung des Menschen مواقف الانسان في الكون
im Kosmos
- Schiller: Briefe über die ästhe- رسائل في التثقيف الجمالي لبني الانسان
tische Erziehung des Menschen
- Schlegel, Friedrich: Über die Sprache und في لغة الهند وحكمتها
Weisheit der Inder
- Schleicher, August: Die Darwinische Theorie نظرية داروين وعلم اللغة
und die Sprachwissenschaft
- Semon: Die mnemischen Empfindungen الخواطر عن طريق الذاكرة
— , Mneme الذاكرة
- Seneca: Ad Marciam de consolatione الى مرقيون في السلوان
- Shaftesbury: Characteristics مميزات
- , The Moralists الاخلاقيون
- Shakespeare: Midsummer Night's Dream حلم منتصف ليلة صيف
- Sommerfeld, Arnold: Atomic المبنى الذري وخيوط الطيف الشمسي
Structure and Spectral Lines
- den Steinen, Karl von: Unter den بين البدائيين في البرازيل الوسطى
Naturvölkern Zentral - Brasiliens

Stern, William: Psychology of Early Childhood سيكولوجية الطفولة الاولى

Sterrett, J. Macbride: The Ethics of Hegel, Translated Selections from his Rechtsphilosophie علم الاخلاق عند هيجل — مختارات مترجمة من كتاب فلسفة القانون

Taine: De l'Intelligence في الذكاء

— , Histoire de la Litterature Anglaise تاريخ الادب الانجليزي

— , Philosophie de l'Art فلسفة الفن

Thorndike, Edward L.: Animal Intelligence ذكاء الحيوان

Thorndike, Lynn: A History of Magic and Experimental Science تاريخ السحر والعلوم التجريبية

Tylor, Edward Burnett: Primitive Culture الحضارة البدائية

Uexküll, Johannes von: Theoretische Biologie نظريات بيولوجية

— , Umwelt und Innenwelt der Tiere في الحيوانات وفيما حولها

Urban, W. M.: Language & Reality اللغة والحقيقة

Vendryés: Le langage اللغة

Walzel, O.: German Romanticism الرومنطيقية الالمانية

Wemer, Heinz: Comparative Psychology of Mental Development السيكولوجيا المقارنة للتطور العقلي

Weyl, Hermann: Das Kontinuum. Kritische Untersuchungen über die Grundlagen der Analysis الاستمرار ، ملاحظات نقدية في اساس التحليل

Winckler, Hugo: Die babylonische Geisteskultur in ihren Beziehungen zur Kulturentwicklung der Menschheit المدنية البابلية وصلتها بتطور الحضارة الانسانية

صورة السماء والكون لدى قدماء البابليين باعتبارها اساساً للفكر والميثولوجيا

Winckler: Himmelsbild und Weltenbild der **لدى كل الشعوب**

Babylonier als Grundlage der Weltanschauung und Mythologie aller Volker

Wolfe, J. B.: Effectiveness of **اثر المكافآت الرمزية على الشمبازي**
Token - rewards for Chimpanzees

Wölfflin, Heinrich: Kunstgeschichtliche Grund- **مبادئ تاريخ الفن**
begriffe

Yerkes, Robert M.: Chimpanzees **الشمبازي**

Yerkes, A. W. and R. M.: The Great Apes **القرود العليا**

ف. ب. (٥٧)

هذا الكتاب ..

الاسطورة والدين واللغة والفن والتاريخ والعلم - هذه جميعاً تمثل في رأي كاسيرر « اشكالاً - او صوراً - رمزية » للحضارة الانسانية . وهي على تكثرها وتضارب مظاهرها ذات « وحدة » ، ولا بد لفلسفة المعرفة من ان تدرسها لكي توجد هذه الوحدة الوظيفية التي تربطها فيما بينها ، ولكي تبين الوضع الموضوعي لكل شكل منها .

وقد اصبحت الحاجة ملحة الى ايجاد هذه الوحدة بعد ان كثرت ضروب المعرفة الانسانية وذهب كل مفكر يحاول ان يحل « مشكلة الانسان » عن طريق علم واحد فحسب : فعالم النفس يرى في علمه المفتاح الوحيد لذلك ، والانثربولوجي يؤمن بأن ميدانه هو الميدان الوحيد الذي يهيم له الوصول الى معرفة الانسان ، وهكذا .

وتتجلى هذه المحاولة في هذا الكتاب الموجز الذي يعتبر « مدخلاً » لفلسفة الحضارة الانسانية ، ولكنه على ايجازه غني بالعمق وسعة الاطلاع حافل بالفوائد في شتى تلك الميادين وقد شاء المؤلف ان يضع افكاره على نحو مبسط رغبة منه في أن لا يقصر كتابه على دارسي الفلسفة وحدهم ، ليعم به النفع الفائدة . فهو حقيق بالقراءة المتأنية الدقيقة .

كتاب جدير بالقراءة

الشمس :

Bibliotheca Alexandrina



0461731